

كلام الناس ذكریات ومقالات

الغلاف من تصميم فاطمة فواز الصراف ويمثل
لوحة من مقتنياتها الخاصة وهي من أعمال
الفنان العراقي العالمي طائب علي

للتواصل مع الكاتب



habib.enta1@gmail.com

كلام الناس ذكريات ومقالات

أحمد المصراف



أحمد الصراف

كلام الناس ذكريات ومقالات.

الكويت: ذات السلاسل، 2017

462 ص ؛ 23.5 سم.

الردمك: 8-61-80-99966-978

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠١٧ م

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي ذات السلاسل للطباعة للنشر والتوزيع



E-mail: ths@thatalsalasil.com.kw
Web site: www.thatalsalasil.com.kw

الناشر: ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع

@THATALSALASIL

الكويت - ص.ب: 12041 الشامية 71651

@THATALSALASIL

تلفون: 22466266/55 (+965)

f thatalsalasilbookstore

فاكس: 22438304 (+965)

إهداء وشكر

إلى عائلتي الصغيرة والجميلة، التي كثيرا ما حرمتني الكتابة من أن أكون معها .

وإلى كل شركائي الذين تحملوا خسائر أعمالنا التجارية، نتيجة كتاباتي ومواقفي .

والشكر للقبس التي تحملت الكثير نتيجة ما كتبت، وتكلفت بالدفاع عني في أروقة المحاكم .

وأخيرا أتقدم بالشكر للصديق العتيق «عبدالمحسن مظفر»

لتجشمه عناء مراجعة نص الكتاب، وقراءة كل كلمة فيه، ولما اضافه من لمسات جميلة، ولما قدمه من نصائح قيمة .



الفهرس

15.....	مقدمة:
22.....	نقطة فاصلة
24.....	اخرجوا أيها المسيحيون من أوطاننا
26.....	في رثاء الجهرأوي عبد الله العجمي
28.....	تجربتي مع الرشوة
30.....	دموع في متجر فويلز للكتب
33.....	التصرف اللائق والسلوك الحسن
35.....	فضيلة الاختلاف
37.....	المحظوظ والمنحوس
40.....	بتسخير أو بغير ذلك
42.....	سنوات السعادة
44.....	مذكرة داخلية
46.....	عدد أقل وفهم أكثر
48.....	النواب والشجاعة
49.....	حكايتي مع فيروز!
51.....	الوفاء الذي افتقدناه
53.....	يوم أكل الثور الأبيض
55.....	الوقيان وتاريخ الكويت
57.....	شريعة أوكاكو
59.....	اليانور روزفلت، وحقوق الانسان
63.....	فوائد اللحية ونصفها
65.....	قصة أمجد الدهان
67.....	الدهان والأسد
69.....	الحرير والتكيف
70.....	المداخلة التي كشفت الخواء القومي
74.....	كيف ندخل التاريخ؟
76.....	شجون اللغة العربية

83	الطقوس وأزمة السلوك
85	الدكتورة ابتسام
87	مقال «العودة»
89	كلية السعادة
91	البغدادي الكبير
92	ثقافة «عبدالله عزام»
94	وجهة نظر
96	صعوبة ان نكون إنسانيين
98	التخلي عن الدشداشة
100	طابور «أوما سليما»!
101	أما ديوس والموسيقى
103	القروود والدولة الدينية
105	دعوات دعوات
107	لماذا لدينا انتحاريون؟
109	غيمة التخلف السوداء
111	الخليج، فارسي أم عربي؟
114	مؤتمر الإعجاز العلمي
116	نحن وسنغافورة
117	من الذي بدأ الملامة؟
119	نحن والأورثوذكسية
121	العورة والصفعة
123	وما أدراك ما العمر
124	سؤال وجواب
126	نسبية الأمانة
128	الحرية مع التقدم في العمر
130	ألاسكالاً بعد بافاروتي
132	المواطن المجرم
134	عبدالمحسن وإمامة الصلاة
136	قالب تلج الشام

138.....	زواج المتعة
140.....	غرائب الطباع
142.....	هؤلاء هم سفهاؤنا
144.....	ليلى وفتاة القطيف
146.....	أغرب عملية تهريب في التاريخ
148.....	قضايا للنقاش
150.....	التواضع وشلل الأطفال
152.....	إسلاميات
154.....	من وحي هامبورغ
156.....	الصادق العظم والنشمي
159.....	الجعفرية والفتنة
160.....	اللقيط في الفقه الشيعي
162.....	اعترافات الإخوان ومؤتمرات السلف
163.....	شجرة الوبيد
165.....	زقزقة العصافير والهيافة
167.....	بين هايف 1920 وهايف 2008
169.....	قذارة الأوروبي ونجاسته وبخله
171.....	يا حيفاه
172.....	حرمة الموسيقى
174.....	لحية السيخي أناند
176.....	نظام الخمس
178.....	الهدف هو المال!
180.....	حوار الأديان.. حوار الطرشان
183.....	الوفاء.. الوفاء يا ناس
186.....	الزرزور وعازف الفيولين
188.....	الآخر في التصور الإسلامي
190.....	مايكل هارت وبل غيت
193.....	بقالة إنكليزية وحذاء كويتي
195.....	مشكلة الوجود المسيحي

- 198..... معجزة الجوائز والتفاح
- 200..... دعوة إلى قتل 330 ألف أميركي
- 202..... الشيخ «عبدالله» وعصا موسى
- 205..... إكرام لحى الهيئات الشرعية
- 207..... الطائفية ومجبوس اللحم
- 208..... فيل ملك سيام الأبيض
- 209..... حلم ليلة صيف
- 211..... مسلمو القرن 21
- 213..... كذبة الاقتصاد الإسلامي
- 214..... ابن الأصل وابن المدينة
- 216..... يوم سقطت الحضارات
- 218..... قصة صابونتين
- 220..... عندما أكون مسقوطاً من الحساب
- 221..... عدم الكمال الذي خلق الكمال
- 223..... الانسحاب من صخب الحياة
- 225..... وباء النقاب.. والملك عبدالله !
- 227..... إسلام جدي وهطول المطر
- 229..... سلوكي وسلوك سليمان المطوع
- 231..... أنا أحبك، أنا جاسوس
- 233..... جرائم القرف.. لا الشرف
- 236..... متى سينتهي بلاء كربلاء؟
- 237..... الشيعة.. والنوايا الحسنة
- 239..... يوم في حياتي
- 241..... أنا واليهود.. والتشريح!
- 242..... الأصيل والبيسري
- 244..... الليبرالية والذكاء البشري
- 246..... ناس تخاف، ما تختشيش
- 248..... ظاهرة الاقتراب من الموت
- 250..... ما لله لله وما لقيصر لقيصر

- 252..... القس دانيال وشعب البيراها
- 254..... صديقي محمود «جست»!
- 256..... نجاج وأسود
- 257..... أن تنجح في الحياة
- 259..... مجرد سؤال
- 261..... الهند وباكستان.. مثال صارخ
- 263..... إيران وتركيا.. مثال صارخ آخر!
- 265..... بنك «اج اش بي سي»، البريطاني
- 267..... جلد الزانية ورجمها
- 268..... Eود لموضوع HSBC
- 270..... اليوم الذي قد لا يأتي أبداً
- 272..... مايكل وماج فلادارس
- 274..... حلول الإخوان لمشاكل العصر
- 276..... العلاقة بين الفقر والتدين
- 278..... العلمانية والعقل والحل
- 280..... الانتحار الجماعي
- 282..... وجهة نظر غربية
- 284..... أصحاب الرسالة الخالدة
- 286..... الإنكليزي البغيض!
- 288..... الإباحية المقدسة
- 290..... كتاب يوم الحشر والصحة المدرسية
- 291..... محامي الشيطان
- 293..... جريمتي، مذهبي
- 295..... شكرا لك، سيدتي
- 296..... شعب يستحق الحياة
- 298..... عندما سقط قناع الإخوان
- 299..... داروين الإنسان والرق
- 301..... لحظات السعادة النادرة
- 302..... لثتي وحسن البناء

- 303.....الريحاني، أمينا
- 304.....من حطم مختاره ماي؟
- 305.....أهواء ملالي وشيوخ القرون الوسطى
- 306.....ماذا قالت وفاء؟
- 309.....الوهم المفيد والحقيقة الضارة
- 310.....الشيشكلي والعرب
- 312.....هل هناك حضارة إسلامية؟
- 314.....الجائزة
- 317.....برونو والوهم الأكبر
- 318.....عندما يمتلئ الفم بالماء
- 320.....طفولتنا وطفولتهم
- 321.....ثلاثية لبنان
- 323.....امتياز لعمل الكاز
- 324.....مردوخ.. المجني عليه!
- 325.....ميكو الفلسطيني
- 327.....من سرق ربيع الكويت؟
- 328.....لبنان الكويتي
- 330.....مهيار في مدرسة الصديق
- 332.....«حطة» الشيخ
- 333.....نصف قرن من العلمانية
- 334.....النقاب الذي غير مجرى حياته
- 335.....الفكرة والفكر والكفر
- 337.....أنيس
- 338.....ماذا تعلمت من طارق؟
- 340.....دموع فياضة
- 342.....تعليق مميز على مقال
- 343.....نحن والفرد نوبل
- 344.....الكوكاكولا
- 345.....التجمل بالحضارة

- 347.....الراقي والإنسانية
- 349.....كيف يعيش فقراؤنا؟
- 351.....آلام خالد
- 353.....المتاجرة بالتأثر
- 355.....تغير الأفكار والمعتقد
- 357.....أحلام أبرار
- 359.....أين تكمن المشكلة؟
- 361.....أسرار اللغة
- 363.....في المزارات والنظافة
- 366.....توقع غير المتوقع
- 368.....المؤامرات المخجلة
- 370.....قصتي مع السيجار الكويتي
- 372.....ماذا قالت موري؟
- 374.....تجربتي مع المفتش
- 376.....الطائي اليوناني
- 378.....شانتال الشوفال
- 379.....قصة مدام دكاش
- 381.....أشكناني رافي شنكر
- 382.....الحق في الشك
- 384.....كويتي.. وأفتخر، على ماذا؟
- 386.....النزهة
- 387.....ابن الحسب وبنات النسب
- 389.....الصحراء والتدوين
- 391.....المسلم المظلوم
- 393.....هل تعبت أم يئست؟
- 395.....أعود لأسباب ثلاثة
- 397.....وهم الفضيلة في مجتمعاتنا
- 400.....إليكم جميعاً مع محبتي
- 402.....كلمات عابرة للقارات

- 411.....قصتي مع سليمان المطوع
- 413.....الإخوان والكوكلوكس كلان
- 415.....قصتي مع السفير الهندي
- 417.....عتق رقبة
- 418.....نبوءة الأستاذ جاد والمتنبى
- 420.....لا تكن خاضعاً
- 422.....السيدة هيل والاجتهاد
- 424.....جرائم الكهنة والخمس
- 425.....كرتون خوخ.. مع «مشمش»
- 427.....الاحتفاظ بالكيكة وتناولها
- 429.....«مولر» ودارون، والإنسان القرد
- 431.....خليفة القنوع
- 433.....رجل الألفية
- 435.....النفير الأول
- 436.....المؤامرة على النرويج
- 438.....خطيئة محمد إقبال!
- 440.....اليوم اليوم.. وليس غداً
- 442.....لا تبكي يا أمي
- 444.....أنا كيرلس
- 446.....أيامي في المطارات
- 449.....قطار الحياة
- 450.....مؤسسة الزواج
- 451.....ما هو الصحيح في الصحيح؟
- 452.....رويترو والكويت
- 454.....بحث العاجز عن دليل
- 455.....لقد طال سباتنا
- 457.....مسلسل خيانة الإخوان
- 459.....مصطفى في الكنيسة
- 461.....أبولوجايز

مقدمة:

هذه ليست سيرة ذاتية، ولا قص ولزق لمقالات نشرت، أو لم تتشر، لسبب أو لآخر. ولا هو سرد لذكريات، بل هي خليط من كل ذلك. فغالبية ما تضمنه هذا الكتاب من مقالات كانت موضوعاتها إنعكاس وصدى لما كان يدور في عقلي وقلبي يوميا، ولسنوات، من آراء ومواقف عن أحداث سبق وأن مررت بها، أو لا أزال أعيشها، والتي أحببت أن أشارك الآخرين بها، فقد كانت تجربة حياتي ثرية، وكثيرة الألوان، ولأبنائي واصحابي الحق في الاطلاع عليها، والاستفادة من كم الهفوات والأخطاء التي ارتكبتها في حياتي الشخصية والعملية.

بالرغم من أن غالبية محتويات هذا الكتاب مقالات نشرت في صحيفة «القبس»، الكويتية، في الفترة ما بين يناير 1990 وديسمبر 2014، إلا أن الدافع لكتابتها لم يكن المال ولا الشهرة، بل لرغبتني في مشاركة غيري بتجاربي في الحياة ورؤاي وامنيات وأحلامي وآلامي ومعاناتي وإشراقاتي، أو ظلمات حياتي، وبكل ما كان فيها من لحظات جميلة سعيدة ورائعة، وأخرى مؤلمة ومبكية.

تعرضت، طوال ثلاثين عاما تقريبا، من الكتابة اليومية، للكثير من المضايقات والتهديد بالقتل والسباب العلني. كما رفعت علي قضايا في المحاكم زادت عن 20 قضية، خسرت واحدة فقط، بسبب عدم كفاءة المحامي، وحكم ببرائتي في البقية. كما تكلفت الكثير، من مالي الخاص، رسوم محاماة، في الوقت الذي لم اكن أقبل فيه أن تدفع لي الجريدة أي مبلغ مقابل ما أكتب. كما تعرضت لخسائر كبيرة في أعمالتي التجارية، نتيجة كتاباتي، سواء بوقف من أضرتهم مقالاتي أو ما كتب عن التعامل مع شركاتي، فور العلم بملكيّتي وإدارتي لها، وخاصة من أولئك المعادين لخطي أو اتجاهاتي السياسية أو العقائدية، أو من أولئك الذين أغضبهم مقال، فحاولوا معاقبتي بالتوقف عن التعامل معي، ومنها حالة واحدة فقدت فيها إحدى مصالحي التجارية مبيعات بلغت المليون دينار في عام واحد، وكل ذلك لأنني انتقدت بقسوة أداء وزير التجارة، في حينه، والذي كان قريبا لصاحب الشركة الكبيرة!

كما تسبب مقال كتبه وتضمن هجوما على «الخميني»، قائد الثورة الإيرانية، في قيام وزارة الخارجية الإيرانية، عن طريق سفارتها في الكويت، برفع قضية «أمن دولة» علينا. وكان الأمر في منتهى الجدية، وكان من الممكن أن أسجن، إن تم الحكم علي، بالسجن ثلاث سنوات، ولكن، لحسن الحظ، وتدخل صديق عزيز مع السفارة الإيرانية، صدر الحكم ببرائتي، وتنازلت السفارة عن حقها في الاستئناف،

كما لم تمارس النيابة العامة الكويتية حقها في الاستئناف كذلك، فحفظت القضية. من جانب آخر لقي مقال بعنوان «أخرجوا أيها المسيحيون من ديارنا»، لقي رواجاً لم أتوقعه ابداً. وورد في أحد المصادر أن المقال اطلع عليه عشرات الملايين، وبعده لغات، بعد أن ترجم لها. ووردتني عليه تعليقات من رؤساء كنائس مسيحية في أمريكا، ومن بطاركة في لبنان وسوريا، ومن كرادلة وقسس وابوات في لبنان ومصر وغيرها الكثير.

لم يكن سهلاً، وأنا أراجع آلاف المقالات، الاختيار بين ما يستحق النشر وما لا يستحق، فكل ما كتبت كان له نفس الأهمية لدي تقريباً، فلا فرق بين مقال وآخر في قلبي، وسبب ذلك لا يعود طبعاً لجمال أو موضوعية ما كتبت، ولا لما أحدثته من تأثير، عند نشرها، بل لما عانيت في كتابتها، فلم أكن يوماً كاتباً محترفاً، وبالتالي كان كل مقال يأخذ الكثير من الجهد في كتابته، ولكن مع كل هذا كان لا بد من حذف غالبية ما كتبت لجعل حجم هذا الكتاب، في نهاية الأمر، مقبولا.

لم تكن مواضيع مقالاتي معارك مع الآخر، بقدر ما كانت محاولات لطرح آراء محددة، وجدها البعض متطرفة ووجدها غيرهم عقلانية، ووجدها فريق ثالث مخالفة لطبيعة المجتمع وأعرافه وتقاليده. ويمكن القول، من واقع ردود الأفعال التي كانت كثيراً ما تردني، وبشكل يومي، أن غالبيتها كانت تعني شيئاً ما للقارئ، سلباً أو إيجاباً.

ويمكنني القول، بشكل عام، إن ما كتبته كان غالباً صدى لحياتي. فقد كانت حياتي مختلفة إلى حد ما عن أقراني، أو من عرفت عن كُتب، وهكذا ربما كانت مقالاتي. ولا يعني الاختلاف هنا أنني كنت أفضل من غيري، أو أقل شأناً أو قدراً منهم، بل فقط مختلفاً، إن في تفكيري أو معيشتي أو ملبسي، وغالباً عن السائد في محيطي. وأعتقد أنني اكتسبت ذلك الاختلاف من محيطي العائلي، وتربيتي، ومن بيئة العمل غير التقليدية التي وجدت نفسها فيها قبل أن أنهى سني مراهقتي، وهي البيئة التي كان لها تالياً أعمق الأثر على مواقفي من الآخرين، وعلى معتقداتي وآرائي في الحياة، ولا يعني ذلك أنني كنت خامّة، وتأثرت سريعاً بمحيط المصرف الذي عملت به، بكل ما مثله ذلك من غنى وتنوع ثقافي ولغوي وبشري، بل كنت مختلفاً عن محيطي حتى وأنا صغير، مقارنة بأقراني. فقد كنت مغرماً بالاستماع لفيروز، عندما كان كل من حولي مغرماً بغيرها من مطربي مصر مثلاً. وكنت لا أرتاد المساجد، ولا الحسينيات طبعاً، عكس ما كان يفعله الجميع تقريباً. كما كنت مغرماً بالقراءة، ولدى مجموعة كبيرة من الكتب، وأنا لم أتجاوز العاشرة بكثير، وهذا أمر لم يكن سائداً قبل 50 أو 60 عاماً، على الأقل في محيطي. إما لهامش

الحرية الذي كنت أتمتع به في البيت، خاصة فيما يتعلق بالتسامح في أداء الفروض الدينية، أو لطبيعتي المتمردة التي كانت ترفض التسليم بالمسلم به دون نقاش. كما كنت مختلفا في هيتي. حيث كنت أميل لارتداد الملابس الغربية، وارتاح ربطة العنق، وحلاقة الذقن والشارب، يوميا.

ولسبب لا أعرفه، كنت مولعا بالاستماع للموسيقى الغربية، وللأوبرا بالذات. وكانت عيناى تترقرقان بالدموع عند سماع «ماريا كالاس»، ويحدث ذلك حتى اليوم، ولا أعرف سبب هذا الولع الغريب، فأنا لست إلا ابن بيئة كويتية خشنة متواضعة المعرفة، ولم يسبق حينها أن درست في مدارس أجنبية أو اختلطت بأسر أوروبية أو تأثرت بأحد من عاشقي الاستماع للأوبرا، ولولا عدم إيماني بنظرية تناسخ الأرواح، وانتقالها، لاعتقدت أن السبب يعود إلا أنني عشت في السابق حياة أخرى في مدينة ألمانية أو نمساوية، في الحي الذي كان يسكن فيه صديقي أو قريبى، «أماديوس موزارت»!

لا أستطيع الجزم بتحديد السنة التي بدأت فيها مواقفي، المختلفة عن محيطي، بالتبلور فيما يتعلق بأفكارى وآرائى في العقائد الدينية والعادات الاجتماعية، ولكن ربما كان سنى لا يتجاوز حينها الخامسة عشرة بكثير. وفي تلك السن تقريبا بدأ أيضا ولعى بالاستمتاع بالموسيقى الكلاسيكية، الغربية والهندية.

كانت حياتى، ولا تزال، بعد أكثر من سبعين عاما، ثرية بكل ألوان الطيف. فقد كانت مليئة بالأفراح، كما كان فيها الكثير من الدموع وقصص الحب والهجر واللوعة والفراق، والوصال، قبل أن يأتي الزواج والابناء، ومعه الاستقرار النفسى وليس الجغرافى!

كانت أولى محاولاتي وأسرتي الصغيره للعيش والعمل في الخارج، وتوفير البيئة التعليمية المناسبة لابننا طارق، الذي كان يشكو من «بطء في التعلم»، في بداية ثمانينات القرن الماضى، عندما قررنا الهجرة، ولو المؤقتة، لأمريكا، التي كانت ولا تزال بها أفضل المدارس الخاصة لتعليم بطيئى التعلم.

إقامتنا كانت في المدينة الخطأ وفي الوقت الخطأ. وبالتالي اضطررنا للعودة للوطن بعد بضعة اشهر. أما المحاولة الثانية فقد مهدنا واستعدنا لها بطريقة افضل، حيث قمت بالسفر إلى لبنان، والانتهاى من شراء البيت المناسب وتسجيل الأطفال في مدارس قريبة من البيت، وفتح مكتب، بعد تأسيس شركة تجارية عقارية مع مجموعة من الأصدقاء. اقمتم في بريطانيا لسنوات، لم أحاول خلالها، بصورة جدية، الحصول على الإقامة الدائمة، أو جنسية الدولة، بل بقيت غير مستقر نفسيا. وبعد ست سنوات جميلة، قررنا العودة، بصورة نهائية، للوطن، وما

هي إلا بضعة أسابيع حتى، فاجأنا الغزو العراقي والاحتلال الحقيق الذي قام به الدكتاتور «صدام حسين» لوطننا العزيز.

في اليوم الذي وقع فيه الغزو لم أكن املك في جيبى نقدا غير ما يعادل الفي دولار، وشعرت بخطورة الوضع مع إعلان صدام شطب اسم الكويت من خريطة العالم، وإلغائها من الوجود، وجعلها المحافظة العراقية التاسعة عشر، بعد أن احتلت قواته كامل أراضي الدولة.

بالرغم من الضالة النسبية للمبلغ الذي كان بحوزتي، إلا أنه كان يمثل كل ملكيتي في الدنيا حينها، بعد أن توقفت الشركات عن العمل، وأصبح الدينار العراقي هو العملة المتداولة، وبقيت ابواب البنوك مغلقة، وتوقف المستأجرون عن دفع الإيجارات، والمدينون عن سداد ديونهم، إلا أنني قررت البقاء في الكويت. كما وجدت الرغبة نفسها لدى جاري، وصديق العمر، «نجيب الحميضي». ولكن بعد مرور عشرة أيام على الاحتلال البغيض اكتشفنا أن الأدوية التي يحتاج لها ابننا «طارق» قد قام «اشاوس» الجيش العراقي بمصادرتها من جميع الصيدليات، الخاصة والحكومية، وبالتالي تطلب الأمر التفكير جديا في الخروج أو الأحرى الهروب من الكويت، بأسرع وقت، قبل ان ينتهي مخزون الدواء الذي بحوزتنا.

وهكذا قمت في 12 من أغسطس 1990 بالاستعداد لمغادرة الكويت، مع عائلتي ووالدي وإحدى أخواتي، وزوجها، وانتهى الحال بنا في اليوم نفسه في الرياض، بعد أن مررنا بتجربة «فرار» مؤلمة وعجيبة، كنا في غنى عن المرور بها، لولا «سوء حظ هذه الأمة التعيسة».

وفي الرياض، شاءت الظروف أن أتولى، وآخرين، عملية الاهتمام باحتياجات الإعاشة لأكثر من مائة ألف «لاجئ كويتي»، انقطعت بهم السبل في العاصمة السعودية والمدن والقرى المحيطة بها. وكانت تجربة مؤلمة وحزينة، بقدر ما كانت مثمرة ومفيدة، بينت الجانب الإنساني الطيب في جزء من الشعب الكويتي، والجانب البشع وغير الحضاري في جزئه الآخر، ولا يلام هؤلاء وحدهم على تصرفاتهم غير الإنسانية، وما أقدم عليه الآلاف منهم من تزوير المستندات بغرض الحصول على الإعاشة والمساعدات النقدية، التي ليست من حقهم، فهي بحكم سرقة أموال الدولة العامة، وهي ترزح تحت احتلال شرس، ويعاني من بقي من شعبها من ويلات الاحتلال الصدامي الحقيق.

إن اللوم على تصرف هؤلاء غير الحضاري وغير الإنساني لا يقع عليهم فقط، بل يقع اللوم أيضا، وبدرجة أكبر على السلطة، التي فشلت، من خلال مناهجها وسياساتها، على مدى نصف قرن، في خلق مواطنين صالحين من هؤلاء، فبقيت

لديهم فكرة «الدولة الزائلة»، وخذ ما اتخذ!

لم ترعيني أو تشغلني يوما فكرة الموت، فما تعلمته من الحياة، مبكرا، عنه وعن حتميته، جعلني أكثر انسجاما وتقبلا لهذا الأمر المحتوم الوقوع، وبالتالي لم أضيع وقتي أو أجهد فكري، في الحديث عن الموت كثيرا أو البحث فيه، أو الخوف منه، فليس لأية كمية خوف تأجيل الموت، أو التخفيف من آثاره، ولكني أؤمن أن الطب، أو طريقة الحياة التي نعيشها وما نشره أو نتناوله هو الذي يقرر في نهاية الأمر أطوال أعمارنا، وكيف ومتى ستنتهي حياتنا في نهاية الأمر. ولكن مع كل هذا فإن ما يزعجني التفكير به أحيانا هو أن أصاب، في أرذل العمر، بمرض النسيان، أو الخرف، أو أصاب بحادث يقعدني ويمنعني من العيش بكرامة وعزة نفس ولا يكون بإمكانني، منفردا، إنهاء حياتي بالطريقة التي أريدها. أقول ذلك وأنا على ثقة بأنني نهلت من الحياة الكثير واستمتعت بكل لحظة فيها، وعندما يحين وقت رحيلي سأكون، كما الآن، مشبعا، حتى الثمالة، بروائح الدنيا وطيب روائح الكون، وكامل ملذات الحياة، الحسية والفكرية والنفسية، وليس لدي لا اليوم، ولا ربما غدا، وقت لأندم على أمر مر بحياتي.

قد لا يصدق البعض ما أدعيه، ولكنه حقيقة وليس بادعاء، فقد عشت طفولة سعيدة، ولم أشعر يوما بالحرمان المادي أو العاطفي. فأسرتي كانت ميسورة الحال، وكبيرة العدد نسبيا، ومعيشتي كانت في بيئة متحررة نوعا ما، مقارنة ببيوت من كنت أعرف. وكنا دائما ننقل من بيت كبير لما هو أكبر منه، مع زيادة إمكانيات الأسرة المادية، وزيادة عدد أفرادها.

كانت أشد قصص حرمانني، التي أتذكرها الآن، تكمن في رغبتني في تناول أكبر كمية من فاكهة المانجو، التي كانت نادرة في طفولتي. كما كان هناك محل يبيع مختلف أنواع الأقمشة الرجالية، وكان يضع في شباك العرض قطعة قماش صوف ذات لون اخضر غامق بخطوط سوداء. كانت تبدو قطعة القماش تلك جميلة في عيني، وكثيرا ما كنت أقف أمام المحل وأتخيل نفسي، وأنا أرى انعكاس صورتني على زجاج فترينه، مرتديا بدلة جميلة من ذلك القماش. كان المحل يعود لأحد أبناء الكاظمي، في السوق الداخلي، ويقع على بعد خطوات من مكتبة الرويح، التي كنت أزورها يوميا تقريبا، والتي لم تبعد كثيرا عن محل صرافة جدي ووالدي في سوق الصرافين.

طلبت من والدي يوما أن يشتري لي قطعة القماش تلك، فضحك من سخافة الفكرة، فقد كنا نمر وقتها بأكثر شهور السنة حرارة، ولم يتخيل قيامه بشراء قطعة صوف في صيف لاهب!

كنت أحب الأرانب في طفولتي، وأحلم بالحصول على عدد منها. حققت أمنيته عندما سافرت الأسرة برمتها في الصيف، وتركتني وحيدا في ذلك البيت الكبير الذي كانت تزيد مساحته عن 2000 متر مربع، في منطقة المقوق الشرقي. كان من جيرانا حينها عبداللطيف النصف، وعبدالله المضف، الذي كان أول من صرفت له الجنسية الكويتية، وعزت جعفر، ومحمد الصباح ومنصور الصراف ومحمد علي الكوت وغيرهم. كانت تتوسط البيت حديقة كبيرة مليئة بأشجار مثمرة وبغيرها، شارك أهل جميعا تقريبا في زرعها وريها والعناية بها، وأنفقت الأسرة الكثير من الجهد والمال في جعلها جميلة وشبه غناء، بالمقاييس الكويتية. ما قمت به بعد سفر أهل وحصولي على مبلغ جيد من المال، الخرجية، هو شراء عشرين أرنباً وإطلاق سراحها من أقفاصها الضيقة لتتطلق في رحاب البيت الشاسعة دون قيود. إنشغالي عن توفير الغذاء والمسكن المناسب للأرانب دفعها لحفر عشرات الأغوار، جمع غار، داخل أرض الحديقة، هربا من حرارة الصيف والجفاف، وبحثا عن الرطوبة. وهناك وجدت في جذور أشجار الحديقة ملاذاها الغذائي فالتهمت، وهي التي سرعت في جفاف تلك الأشجار، قبل أن تترن وتبدأ بالسقوط بعد أسبوع من «تشريف» الأرانب للبيت! وكانت مفاجأة غير سارة أبدا لوالدتي بالذات، عندما عادت من السفر ووجدت ما حل بنباتاتها وأشجار حديقته، التي كانت يوما شبه غناء، من دمار شامل!

كما كنت أحب القطط، التي كان جدي يكرها، وكان يعتمد قتلها ببندقية كانت لديه. وفي أحد الأيام، وربما كان ذلك في منتصف الخمسينات، أثناء حرب 1956 بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، بعد تأميم عبدالناصر لقناة السويس، وشح المواد الغذائية، قام والدي، وكنا نسكن في بيت كبير مع جدي وعمي الوحيد، محمد، قام من باب الاحتياط، بجلب كمية كبيرة من المواد الغذائية، وتخزينها في البيت، ومنها أكياس من السكر تم تفريغها في براميل معدنية لحفظها. وكانت لدي قطعة كبيرة أقوم بالعناية بها وإطعامها. وعندما قام جدي بإسقاط قطعة برصاص بندقيته وهي تسير على سور البيت، وخوفا على قطتي من أن تلقى المصير نفسه، قمت بوضعها في برميل السكر وأغلقت الغطاء عليها. نسيته، ربما ليوم أو يومين، وعندما ذهبت والدتي أو جدتي، لا أتذكر، لجلب بعض السكر من البرميل، اكتشفت وجود القطعة داخله، والغريب أنها لم تحاول الفرار، فور رفع الغطاء عنها، السبب أنها ولدت في البرميل عددا من القطط الصغيرة!

لم يكن بالإمكان التخلص من السكر كله، بسبب تلوثه، بل قامت والدتي وجدتي بإزالة الجزء العلوي منه، ولم تخبرا أحدا بما فعلتا، أما هن فقد اكتفين، بسبب

ما اصابهن من «لوعة جبد»، بالتوقف، لبضعة اشهر، عن تناول أية اطعمة او مشروبات، داخل البيت، تحتوي على أية كمية من السكر!

كما أتذكر أنني قمت بتدخين اول سيجار من صنع يدي، ولم اكن قد تجاوزت الثانية او الثالثة عشرة من العمر. حيث كنا نقوم بجمع مئات من بقايا السجائر من الشوارع، ونفرغ ما تبقى من محتوياتها على ورق من فضلات أكياس الإسمنت، ثم نرش بعض الماء عليها ونلصقها ونحتفظ بها لتدخينها مساء عندما نذهب لسطح مبنى سينما الحمراء، الذي كان قيد الإنشاء، للتفرج مجانا على ما كان يعرض من افلام على شاشة سينما الفردوس المجاورة، والتي كانت بلا سقف حينها. كانت متعة المشاهدة غريبة حيث كنا نجلس وندخن السيجار، الكوبي الكويتي، ونخمن أحداث الفيلم، لأنه لم يكن بإمكاننا سماع شئ من تلك المسافة.

أترككم مع ذكرياتي وآمالي وأحلامي وقصصي السعيدة والحزينة، وكل ذلك الارث الذي تجمع وسكن خلايا مخي ولا يزال بإمكانني تذكرها، وكتابتها بأكثر قدر من الدقة، والأمانة، ولكنني أشعر ان هناك الكثير الذي أود الكتابة عنه، والذي تزدحم به ذاكرتي، وهناك ما هو أكثر من ذلك، فلا أزال أشعر أنني في مقتبل العمر، وأمامي الكثير الذي يجب المرور به، وتجربته، قبل أن ينتهي وجودي مع خفوت انفاسي وتلاشي حواسي وهمود جسدي، ووقتها سأكون على استعداد للموت بكل هدوء، وبكرامتي.

ملاحظة:

قبل المباشرة بقراءة المقالات، أود التأكيد على بضعة أمور أجد من المهم التطرق لها. أولا، تطلب الأمر قراءة أو مراجعة آلاف المقالات، التي كتبت على مدى أكثر من 15 عاما، قبل الوصول لقائمة قصيرة، ومراجعتها ثانية وثالثة لجعل العدد مقبولا للنشر في كتاب مقبول الحجم والمادة. وبالتالي حرصت، قدر الامكان، تجنب نشر المقالات التي تطرقت فيها لمواضيع محلية، أو لأحداث تخص السياسة المحلية، إلا في أضيق الحدود. ومع كل ما بذلته من حرص إلا أنني وجدت صعوبة في مغالبة الشعور بأنني كررت موضوع بعض المقالات لأكثر من مرة، وهذا يعود غالبا للإرهاق، وبالتالي أستطيع القارئ عذرا، إن ازعجته بتكرار مقال أو بسوء اختيار.

وأخيرا، لم أتبع أي ترتيب زمني في نشر المقالات. كما لم اضع مع المقال تاريخ نشره، إلا في حالات نادرة، فقط عندما تطلب الأمر ذلك.

نقطة فاصلة

ابريل 2012

أجرى برنامج «نقطة تحول» من قناة «إم بي سي»، اللبنانية، لقاء معي تعلق بمجرى حياتي. وردا على سؤال من مقدم البرنامج الشهير عن أهم نقطة تحول في حياتي ذكرت بأنها ربما كانت التحاقى بالعمل في «بنك الخليج» في منتصف ستينات القرن الماضي. فقد كان جو العمل في البنك يمثل ليس فقط نقطة تحول بل قفزة لعالم جديد علي تماما، ومختلفا عن اي عمل التحق به أي من اقراني، وهي الوظيفة التي قبلت به منذ اليوم الأول بالرغم من ضآلة الراتب الذي لم يزد عن 70 دينار، شهريا، اي أكثر بقليل من دينارين في اليوم، مقارنة بأربعة اضعاف الراتب الذي عرضه علي والذي مقابل العمل معه، وتواضع الوظيفة التي لم تكن افضل إلا من وظيفة فراش البنك او حارس البنك. ولكن سرعان ما اثبت مقدرتي، ونلت ما استحق من تقدير.

واليوم وبعد مرور تلك الفترة، الطويلة نسبيا، على بث ذلك البرنامج، الذي اختزلت ساعات تصويره الطويلة الى دقائق بث لم تزد عن 45 دقيقة، ربما بسبب حساسية الأمور التي تطرقت لها، والتي لم تتوقع القناة تطرقي لها، وعندما أفكر بـ«نقطة التحول» تلك أجدها الآن غير ذلك. فعملي في البنك كان هو الأول في حياتي، بعد أن قررت ترك الدراسة في المدرسة التجارية، لعدم اقتناعي بما كان يدرس فيها من مواد ساذجة، وفي غياب كامل لمنهج مكتوب، أو كتب متخصصة في التجارة، هذا غير عدم كفاءة هيئة التدريس، وبالتالي تركت الدراسة غير آسف إلا على ضياع سنوات ثلاث غالية من حياتي دون فائدة علمية تذكر.

ذكرت في البرنامج أن العمل المصرفي استهواني منذ اليوم الأول، ليس فقط بسبب طبيعته الجديدة علي كليا، والمختلفت عن اي عمل حكومي تقليدي، بل بسبب نوعية الزملاء والرؤساء الذين أصبحت أعمل معهم. كان اختياري ذلك نقطة مفصلية، وليس فقط نقطة تحول غيرت حياتي إلى الأبد، وربما جعلتني ما أنا عليه اليوم! فعندما أنظر الآن لوضعي، وبعد قرابة نصف قرن، وأفكر أو اكتب مقالا أو التقي بصديق أو زميل من تلك الأيام اكتشف كم كانت ثرية تلك التجربة وكم جعلني قرار عادي وعفوي بترك الدراسة ناجحا، وسعيدا بما حققت. فالسنوات الـ 16 التي قضيتها في البنك لم تكن جميلة فقط بل وثرية في إنسانيتها ومعارفها وصادقاتها، من الجنسين، علما بأنني حصلت خلال تلك الفترة على شهاداتي

الدراسية، الثانوية والعليا، ووضعت اللبنة الأولى لأعمالي التجارية، والأهم من ذلك التقيت خلالها بشريكة حياتي، وأنجبتا جونا ومحمد وطارق، وفوق كل ذلك جمعت ثروة من الصداقات الجميلة التي ستبقى ذكراها معي ما حييت، وإن أنسى لا أنسى عبدالمحسن بوقريص، الذي كان له الأثر الجميل في حياتي، ولن أنسى أفضال حسين الأمير البيضاء، ولا كرم رجب بولند، ومحببة الشاب خالد العمر الدرياس، ولا عبداللطيف عبدالرزاق، واللواء محمد الحمد، الذين غادروا هذه الدنيا، ومن الأحياء لن أنسى أفضال صديق العمر يعقوب الجوعان، ومحببة يعقوب مال الله، ووفاء غسان حداد، ومعزة الأصدقاء صقر الغانم، وهشام السلطان، ويوسف العوضي، هذا بخلاف عدد كبير من عملاء البنك الذين أصبحوا في فترة لاحقة من افضل واجمل الأصدقاء، كمحمد عبدالعزيز العلي ومحمد عبداللطيف المطوع وإسماعيل دشتي، وسمير رحال، والعشرات غيرهم الذين لا يتسع المجال لذكرهم، ولا يقلل ذلك من أهميتهم أو معزتهم لدي.

سنوات جميلة مضت، وأملنا في سنوات أكثر جمالا، فما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

اخرجوا أيها المسيحيون من أوطاننا (*)

يوليو 2014

اخرجوا يا مسيحيي دمشق وبيروت ومعلولا من أوطاننا، واخرجوا يا مسيحيي الموصل ونيوى وبغداد من بلداننا، واخرجوا يا مسيحيي لبنان من جبالنا وودياننا، واخرجوا يا مسيحيي فلسطين والجزيرة من شواطئنا وترابنا، اخرجوا جميعا من تحت جلودنا، اخرجوا جميعا فنحن نبغضكم، ولا نريدكم بيننا، اخرجوا فقد سئمنا التقدم والحضارة والانفتاح والتسامح والمحبة والإخاء والتعايش والعفو! اخرجوا لتتفرغ لقتل بعضنا بعضا، اخرجوا فأنتم لستم منا ولا نحن منكم، اخرجوا فقد سئمنا كونكم الأصل في مصر والعراق وسوريا وفلسطين، اخرجوا لكي لا نستحي منكم عندما تتلاقى أعيننا بأعينكم المتسائلة عما جرى؟ اخرجوا واتركونا مع مصائبنا، فلکم من يرحب بكم، وسنبقى هنا، بعيدين عنكم وعن ادعاءاتكم ومواهبكم وكفاءاتكم وعلمكم وخبراتكم، اخرجوا واتركونا مع التعصب والبغضاء والكرهية، اخرجوا فقد فاض بنا تحمل ما ادعيتموه من حضارة، فبخروجكم سنتفرغ لإنهائهما، ومسح آثارها، وتكسير ما تركه أجدادكم من أوثان ومسح وآثار من حجر وشعر ونثر وأدب، اخرجوا فلا العراق ولا مصر ولا سوريا ولا الكويت ولا فلسطين ولا الأردن ولا الشمال الأفريقي العطر النظر بحاجة لكم ولا لمن سكن بيننا قبلکم من غجر ويهود وحجر، اذهبوا واخرجوا وخذوا معكم الرحمة، فنحن بعد النصر وداعش والقاعدة وبقية عصابات الإخوان وآخر منتجاتهم لسنا بحاجة للرحمة ولا للتعاطف، فالدم سيسيل والعنف سينتشر والقلوب ستتقطع والأكباد ستؤكل، والألسنة ستخلع والرقاب ستفك والركب ستنهار، وسنعود للطب القديم والمعالجة بالأعشاب وقراءة القديم من الكتب والضرب في الرمل على الشاطئ بحثا عن الحظ.

ارحلوا يا مسيحيينا وخذوا معكم كل آثار وجثامين جبران جبران وسركون بولص وبدوي الجبل وأنستاس الكرملی ويوسف الصائغ وسعدي المالح وابناء تقلا واليازجي والبستاني والأخطل الصغير. كما خذوا معكم جامعاتكم ومستشفياتكم واغلقوا إرسالياتكم، وحتى ميخائيل نعيمة لسنا بحاجة له ولا تنسوا مي زيادة وابناء معلوف وصروف وابناء غالي وزيدان والخازن وبسترس وثابت والسكاكيني، فهؤلاء جميعا ليسوا منا ولسنا منهم.

نعم ارتحلوا عنا فإننا نريد العودة إلى صحارينا، فقد اشتقنا إلى سيوفنا واتربتنا

ودوابنا، ولسنا بحاجة لكم ولا لحضارتكم ولا لمساهماتكم اللغوية والشعرية، فلدينا ما يغنينا عنكم من جماعات وقتلة وسفاكي دماء.
اغربوا ايها المسيحيون عنا بثقافتكم، فقد استبدلنا بها ثقافة حفر القبور!

(*) لأسباب يطول شرحها، اعتبر الكثير من النقاد والصحفيين، هذا المقال الأكثر قراءة في تاريخ الصحافة العربية.

في رثاء الجهراوي عبدالله العجمي (*)

سأرثيك يا عبدالله كما لم ارث احدا من قبلك ولن ارثي احدا مثلك، من بعدك. سأرثيك لأنك تركت وراءك اما ثكلى واما مفجوعا، وارملة باكية ورضيعة يتيمة! وسأرثي فيك من مات من رفاقك قبلك ومعك ومن بعدك، سأرثيك بالرغم من انني لم التق بك ولا اعرف من تكون، سأرثيك لأنك قتلت وغادرت هذه الدنيا دون ان تعرف حقيقة الذين زينوا لك تفجير نفسك، لقد ارسلوك للموصل ليذهبوا هم الى الانتخابات وليتصدروا المجالس.

قتلت يا عبدالله غيرك وقتلت، وكان من الممكن ان تكون انسانا آخر، محبا للحياة كمواطنك الجهراوي الاخر وابن قبيلتك الذي اختار ان يكون طيبا بدلا من ان يكون ارهابيا، ان يكون واهبا للحياة بدلا من ان يكون سالبا لها. اني ارثيك يا عبدالله لانني اود ان ارثي قلة الحيلة والعقل بيننا، فقد مت لان احدهم اراد لك ذلك، فالقرار لم يكن قرارك، وبالتالي لا ألومك على ما فعلت بالرغم من شر افعالك التي تسببت في فواجع وآلام لا تنسى لاهلك وبيتك ووطنك، واهل ووطن من قتلت.. انني لا ألومك، بل الوم من يلومك، فما انت الا ضحية مجتمع أهلك لهذا الهدف ودفع بك الى طريق الارهاب من خلال كل تلك الجمعيات التخريبية ومدارس التحفيظ التي انتشرت كالفطر البري في بيئتكم، بعد ان غيبوا مدارس الفهم ومعاهد الفكر من حولك.

نعم ان مجتمعك هو المجرم الحقيقي، وهو الذي شيد بيني وبينك، انا الشرقاوي وانت الجهراوي، ذلك الجدار العازل لكي لا نلتقي، وانا الذي حذرك رجال الدين من شرور أفكارك، وحذرنى منك ومن تخلف مواقفك وسوء افعالك، نعم اني ادين هذا المجتمع الذي ملأ مدينتك بالحفر، وتناساك لعقود طويلة وتركك فريسة سهلة للخطير من الآراء والقاتل من الافكار والبائس من المواقف، فاصبحت طوع بنان مدعي التدين والصلاح والاصلاح والسلف والتراث، وبالتالي أنسوك مستقبلك ووطنك وتقدمك وتطورك، فتركت كل ذلك من اجل اوهام لو كانت حقيقية لسبقوك للفوز بها.

نعم ادين هذا المجتمع، وحكوماته المتعاقبة، عدم اهتمامهم بك وبصحتك وتعليمك وسلامة عقلك، بحيث اقنعتك اقوالهم ان بإمكان جسدك الضئيل محاربة «اعداء الله» والفوز بالحدود العينية من خلال التصدي لاعتى ترسانات اسلحة العالم في افغانستان والشيشان، وانت الذي ربما لم تسمع بأفغانستان من قبل، ولم تعرف

يوما اين تقع الشيشان.

ارثيك يا عبدالله لأنهم اختاروا ان يصوروا عودتك من سجنك البغيض كعودة الابطال من معركة عظيمة، ارثيك يا عبدالله لانهم اعادوك لوطن انسوك حقه عليك ووفروا لك طائرة خاصة لكي يبقوا على «ايمانك» بأن ما قمت به كان صوابا وحقا وشرفا لا يضاهاى!

نعم اعادوا تشكيلك بطلا منافحا عن قيمهم وافكارهم ومعتقداتهم، التي تتفق تماما مع مصالحهم المادية والدنيوية، ولو كانوا يؤمنون حقا بأن الآخرة خير وابقى لما وجدتهم من حولك، وهم الذين بلغوا ارذل العمر! نعم ارثيك يا عبدالله، لان الوطن فقد فيك وفي زملائك، مواطنين كانوا من الممكن ان يكونوا اصدقاء لي ومحبين لابنائى وقريبيين من اهلي، كما هي حال الكثير من اهل منطقتك وقبيلتك.

لقد فقدت فيك جارا محتملا وشريكا في مصلحة وقارئاً لزاوية لولا غلبة آراء ذلك المتشع بعباءة الدين، ذلك المتخلف الحقود، الذي زين لك كرهى ورفضى وحتى طلب فنائى، ودفعك لأن تموت رخيصة من اجل هدف لا يعرف احد اوله ولا آخره.

نعم ارثيك يا عبدالله كما لم ارث احدا قبلك، ولن ارثي احدا بعدك، لكونك ضحية قبل ان تكون مجرما، ومواطننا قبل ان تكون ارهايبا وزوجا صالحا قبل ان تكون قاتلا وابا حنونا قبل ان تكون سفاحا.

انني ارثيك لأن موتك بيّن مدى ضحالة فكرنا، وهوان حالنا وقلة حيلتنا عندما نقف عاجزين عن تطويع نصوصنا واقوال حكمائنا لأن تكون في خدمتنا كبشر عاديين، بدلا من تسخيرها لكي تكون سببا في شقائنا وشقاء الآخرين.

إنني ارثيكم جميعا لأن لا احد تعلم او يود ان يتعلم من درس موتكم شيئا، فقد متم ومات قبلكم الكثيرون وسيموت من بعدكم الاكثر، وسيستمر المصنع الذي شكل فكركم في الانتاج ما بقي التخلف بيننا، فمتى يتوقف كل هذا الضلال في الموقف والقول؟ ومتى يضمحل الكره ويختفي الحقد من حياتنا، لست ادري؟

(*) عبدالله العجمي شاب كويتي من مدينة الجهراء ترك اسرته ووالديه وذهب للعراق يفجر نفسه، في عملية إنتحارية، في عدد من الشيعة، بناء على أوامر من تنظيم «القاعدة»!

تجربتي مع الرشوة

لم أعرف الرشوة في حياتي، لا دافعا، ولا قابضا. ولكن قبل انتهاء عملي في البنك، الذي كنت المسئول الأول فيه عن منح القروض والتسهيلات المصرفية، قررت الدخول في تجربة الرشوة، ومعرفة طعمها، ومن أجل ذلك قمت بالاتصال بواحد من أكبر عملاء البنك، وكان في عمر والدي وبمكانته في قلبي، وطلبت منه زيارتي في البنك. وعندما حضر قلت له بأن طلب التسهيلات الكبيرة التي سبق وأن طلبها، قد تمت الموافقة عليها، إضافة إلى قرض تمويل مناقسته الحكومية الكبيرة، التي فاز بها مؤخرا. وأن لدي خبرا سارا له، وآخر عكس ذلك! فقال هات الخبر السار. فقلت له بأنني قررت، وبموجب صلاحياتي كمدير، منحه خصومات على عمولات البنك وأخرى على إصدار الكفالات، وخصما ثالثا على سعر فائدة القرض، ورابعا على فائدة التسهيلات، وسعر بيع عملة أفضل لتحويل مبلغ 5 مليون دولار لحسابه في لندن، وإن مجموع كل ذلك سيكون بحدود 80 ألف دينار تقريبا! فشكرني باقتضاب وقال، وما هو الخبر السيئ؟ فقلت له بأن عليه دفع نصفها لي نقدا! فقال، دون تردد، بأن باستطاعتي اخذ المبلغ بكامله، فجميع مصاريف البنك تم احتسابها مسبقا ضمن مصاريف المناقصة. فقلت له، وأنا ابتسم، إنني امزح معه، ولست جادا فيما طلبت، وإنني أحببت فقط أن أدخل في تجربة طلب رشوة، ومدى صعوبة ذلك، وهنا أحمر وجهه خجلا، وندمت من فوري للموقف المحرج الذي وضعته فيه، فأعذرت له بصدق، وشرحت له مقصدي، وكيف انني لم أجد غيره أمامي، خاصة بعد أن أصبح ما تبقى لي من وقت في البنك لا يتجاوز الشهرين. نظر لي بامتنان، وبشئ من العتاب، لوضعي إياه في صورة الراشي، دون قصد، ولكنه تفهم وجهة نظري.

بعدها بأكثر من عقد من الزمن، قمت بزيارته، وطلبت منه وقوفه معي في سعبي للترشح لعضوية مجلس إدارة نفس البنك، الذي عملت به موظفا صغيرا، في منتصف الستينات، وذلك من خلال كمية الأسهم الكبيرة التي كان يمتلكها في البنك، فقال بانه سيفعل ذلك، بالرغم من أن قراره سيغضب كثيرا صديق عمره الذي إعتاد، لسنوات طوال، على الحصول على ذلك الحق منه، ولكنه من جهة أخرى سوف لن يجد من هو أفضل مني للمحافظة على استثماراته الكبيرة في أسهم البنك. كما أن في مساعدتي في الوصول لمجلس إدارة البنك، سيكون قد رد لي سابق موقفني معه!

وهكذا دخلت عضوا في مجلس إدارة البنك، والذي استقلت منه قبل انتهاء عضويتي بفترة طويلة، ولكن ليس قبل تحقيق أمنية طالما راودتني، وكان ثمن تحقيق تلك الأمنية، المعنوي، يزيد بكثير ثمن تلك الرشوة التي طلبتها، ولم آخذها، والتي رسخت قناعاتي أكثر بأن مضار الرشوة أكبر بكثير من فوائدها.

دموع في متجر فويلز للكتب

قال «يورغ» بورجس، القاص الأرجنتيني البارز، 1899-1986: «لطالما تخيلت الجنة مكتبة كبيرة!»

نشرت صحيفة البوست الأميركية في 22 يناير مقالاً بقلم «ليو ببيوتا»، بعنوان «كيف نزرع حب القراءة في أطفالنا، أو في أنفسنا؟»، وعندما قرأت المقال، الطويل نسبياً، تذكرت الحادثة الرائعة والأليمة، في الوقت نفسه، التي وقعت لي قبل أربعين عاماً في مخزن فويل للكتب، الأكبر والأشهر في لندن، وربما في أوروبا كلها. فور وصولي الى لندن لأول مرة شتاء 1968 سألت المشرف على برنامج تدريبي في بنك باركليز عن أقرب مكتبة، دلني على واحدة تقع في شارع ليس بالبعيد عن مكاتبنا، وعندما ذهبت إليها بعد نهاية الدوام اكتشفت أنها مكتبة عامة. ويومها تعلمت أن هناك فرقاً بين مكتبة Library، وهو المكان الذي يوفر الكتب مجاناً للقراءة والاستعارة، وبين Bookstore أي «مخزن كتب»، ولكننا في العربية نستخدم كلمة واحدة للمعنيين أو المكانين، ثم نصر على الادعاء بشراء لغتنا لمجرد أن لدينا مائة اسم للأسد وما يماثل ذلك للسيف، ونصف ذلك للبعير، وثلاث ذلك للبعرة والخنزير!

المهم ذهبت بعدها بأيام إلى مخزن «فويل» لبيع الكتب وكانت مفاجأة مؤلمة بانتظاري بعد أن وقع نظري على صف من الكتب التي كانت عناوينها مألوفاً لدي مثل «الحرب والسلام»، وأنا كارنينا، للكاتب الروسي «ليو تولستوي»، «البؤساء» لفكتور هيغو، وغيرها العشرات من أفضل قصص الأدب العالمي! منظرها على ذلك الرف أصابني بالدهشة المصحوبة بالألم للخديعة التي تعرضت لها، وما كنت أعتقد طوال سنوات عدة، بأنني اطلعت على عيون الأدب العالمي، وتبين لي أننا اطلعت فقط على قشور ذلك الأدب، ولم استطع مغالبة دموعي وأنا أبهلق بتلك الكتب وأمرر أصابعي على مجلداتها الضخمة، فبالرغم من أن ترجماتها جميعاً كانت موجودة لدي في الكويت، والتي طالما تباهيت بها وبقراءتها أمام أقراني، غير أنني الآن فقط أواجه الحقيقة المرة، فحجم أي رواية من تلك الروايات كان يعادل عشرة أو عشرين ضعف حجم ما سبق وأن قرأته من ترجماتها، وهذا جعلني أشعر بالحزن على جهلي وعلى ما أضعته من جهد ووقت ومال في شراء وقراءة أعمال مشوهة غير ذات معنى، هذا إضافة إلى فراغ كل ادعاءاتي بالمعرفة والاطلاع! ولكن سرعان ما ارتاحت نفسي عندما تبين لي أنني كنت محظوظاً

بذلك الاكتشاف المبكر نسبيا، فمن دونه كان سيستمر نزيف المال والوقت لفترة أطول.

عندما عدت إلى الكويت بعدها ببضعة أشهر، حملت جميع تلك الكتب، وكانت بالمئات، والتي حمل غالبيتها على أغلفتها أنها مترجمة من قبل «نخبة من الجامعيين». المهم أنني حملتها في علب كرتون كبيرة، وذهبت بها إلى مخزن كتب كان يملكه المرحوم «باقر خريبط» يقع بين سينما الحمراء والفردوس، وعرضتها للبيع بمائة فلس للكتاب!

والآن عندما أنظر إلى تجربتي المشوهة والبائسة تلك مع «عيون الأدب العالمي» أجد أنني لم أكن سيئ الحظ الى تلك الدرجة، وان وقتي لم يهدر فيما لا طائل من ورائه، فلولا قصر تلك القصص وجمال حيكته الروائية المستمدة من الأصل، لما تعلقت بقراءة أي منها بكل تلك المتعة والشغف، ولم تكن متعة القراءة قد تأصلت في نفسي بذلك العمق، وهذا يقودنا لما بدأنا به كلامنا من موضوع مقال الكاتب «ليو بابيوتا» في «البوست» عن كيفية زرع حب القراءة في نفوسنا ونفوس أطفالنا، حيث يقول أنه سئل مرة عن الكيفية التي يمكن بها جعل القراءة عادة محببة للكبار والصغار، لأن الكثير من الوقت يضيع من دون فائدة. وقال إن جوابه كان قصيرا وسهلا: ابدأ بقراءة الممتع والقصير والمثير والسهل اللغة من الروايات وأدب الرحلات والمغامرات، ولن تتخلى عن الكتاب بسهولة، ومع الوقت يصبح الأمر عادة يومية وجزءا من روتين الحياة. ويقول بابيوتا إنه تعود على القراءة منذ الصغر، وأنه عادة ما يغرم بنسيان نفسه، وهو يقرأ ليصبح رفيق شخصيات الرواية التي يقرأها، يحب هذا ويكره ذاك، وينفعل مع الثالث، ويشارك الرابع أحزانه. ويقول أنه يعتقد أن غالبية الناس تتعامل مع القراءة بطريقة خاطئة من خلال إجبار نفسها على حبها، وهذا ما يجعلها في نهاية اليوم مكروهة. ويقول إنه يجب تغيير هذه النظرة واعتبار القراءة متعة قبل أن تكون أي شيء آخر، كما أنها أمر عظيم الأهمية ونافعة صحيا ومفيدة أكثر من آلاف الأنشطة الأخرى. ولكن هل القراءة أحسن من اللعب خارج البيت، أم أفضل من محادثة جيدة، أو من ممارسة رياضة ما، أو الرسم، أو تصفح الإنترنت، أو التمتع بالطبيعة أو الاستماع للموسيقى، أو ممارسة الرقص؟ لا يعتقد بابيوتا بصحة ذلك، فلكل نشاط فائدته ومتعته، إن كانت المتعة هي الهدف. ولكن القراءة قد تكون أكثر منفعة إن كانت بهدف تثقيف النفس وزيادة فرص النجاح في الحياة، وعلى أي حال القراءة ليست وسيلة لبلوغ هدف بل هي غاية في حد ذاتها كونها متعة قصوى، وهكذا يجب أن ينظر إليها، فإن استفاد القارئ منها بشكل غير مباشر في المدرسة أو العمل أو الحياة ف «زيادة الخير خيرين».

أما بالنسبة إلى تعويد الأطفال على القراءة، وما يشكله عزوفهم عنها من قلق لأسرهم، فيجب ألا يكون هذا مدعاة للقلق، فما هو مهم هو أن نكون قدوة لهم في القراءة أمامهم ولهم، حتى وهم رضع، وربما قبل ذلك، وأن نجعل الأمر روتيناً في وقت ومكان محددين، وأن نذهب مع أطفالنا إلى المكتبة بين الحين والآخر، ونقرأ أمامهم ونجعلهم يشاركوننا في اختيار ما يناسبهم من الكتب. انتهى كلام بيتوتا.

المهم في رأيي الشخصي أن الوسيلة الوحيدة للتعلم بصورة جيدة هي القراءة المستمرة، فلا المدرسة ولا الجامعة ولا المسرح ولا السينما ولا التلفزيون مجتمعة يمكن أن تعطينا المعنى الحقيقي للمعرفة وللحياة، فلا يزال الكتاب، سواء التقليدي الذي يمسك باليد ويمكن تصفحه، أو ذلك المدون على الإنترنت، هو المصدر الأكبر للمعرفة، هكذا كان لآلاف السنين، وهكذا سيبقى لبعض الوقت. كما أن استمتاعنا أو شغفنا بأي رياضة أو هواية أو حضور مسرحية أو سماع مقطوعة عادة ما يكون أكثر إمتاعاً متى كانت ثقافتنا، من القراءة، أكثر اتساعاً

التصرف اللائق والسلوك الحسن

في صباح يوم قارس البرودة كنت أقف على رصيف محطة قطارات تحت الأرض في لندن، وكان ذلك قبل نصف قرن تقريبا، وكان على الرصيف ذاته رجلان عرفت من حديثهما أنهما كويتيان، أحدهما يتلقى العلاج في لندن والآخر مرافق له. وصل القطار بعد عشر دقائق طويلة وفتحت الأبواب بصورة أوتوماتيكية فقفزت للداخل فورا، وهنا قام أصغر الرجلين سنا بالطلب من الآخر ركوب القطار قبله، ولكن هذا وضع يده خلف ظهر صاحبه، وقال له تفضل، «تيا من»، أي تقدم، فأنت على اليمين، ولكن الأصغر أصر هو الآخر، والثاني أصر أيضا، وهنا أغلقت الأبواب وتحرك القطار، تاركا الرجلين مشدوهين على الرصيف!

هناك فرق بين الكياسة أو السلوك الحسن والمبالغة في اللطف، وأحيانا الإصرار عليه بشكل مزعج يفتقر إلى الكياسة أصلا، ويكون له أحيانا أثر عكسي، ولا يسري الأمر ذاته على كل تصرف. ففي مجتمعاتنا، بشكل عام، نفتقر إلى الكياسة والسلوك الحسن مع الآخرين، وكثيرا ما تتسبب تصرفاتنا الخالية من الذوق في جرح مشاعر الآخرين، أو تصدمهم، خاصة إن كانوا من القادمين من مناطق أكثر لطفا وحباً لمساعدة الغير أو تقديرنا ظروفهم. وقد يعود سبب افتقارنا للسلوك اللائق إلى خشونة البيئة وقسوة الحياة بشكل عام من جهة، ومن جهة أخرى إلى افتقار المناهج الدراسية، والحكومية بالذات، لمثل هذه المواد بشكل كاف، ونجد بالتالي أن التحدث بصوت عال، خاصة على الهاتف النقال، أمر عادي لدى الكثيرين، وبالذات في المكان والزمان الخطأ، كقاعة الاجتماعات والمستشفيات وفي الديوانيات، وحتى في دور العبادة. كما نجد بين طابور منتظري أي مصعد مزدحم من هو على استعداد للتصادم مع الخارجين منه وعدم انتظار خلو المصعد تماما من ركابهن قبل محاولة دخوله. كما لا يتردد الكثيرون من التدخين في الأماكن التي يمنع فيها التدخين. كما أننا نفتقر لعادة إمساك الباب بعد فتحه، لمن هو خلفنا، أو شكر من مسك الباب لنا للمرور. ونتردد، أو ننسى كثيرا، تقديم الشكر لمن قدم لنا خدمة، ولو بسيطة، أو الاعتذار، إن صدر منا فعل أو تصرف غير حميد.

ومن التصرفات الشديدة السوء عادة إيقاف المركبة خلف مركبات الآخرين وتعطيل أعمالهم بحجة عدم وجود مكان آخر لإيقاف السيارة. أو تجاوز الآخرين في الطرق السريعة باستخدام كتف الطريق، والتسبب في إتلاف مركبات الآخرين بالحصى.

إن السلوك الحسن اللائق لا يكتسب بصورة تلقائية، بل يتعلمه الطفل من والديه أولاً ومن المدرسة تالياً. وبسبب أهمية مثل هذه الأمور في حياة الإنسان فإن بعض الدول المتقدمة تخصص بضعة أيام في السنة لتعليم الأطفال السلوك الحسن. ونحن لا نطمع في تخصيص مثل هذا اليوم، فلدينا ما يكفي من الأعياد والمناسبات السياسية والاجتماعية والدينية، كل عام، والتي لا تعني الكثير للغالبية منا، ولكن نتمنى أن يتم تضمين مادة السلوك، وربما آداب التصرف والجلوس إلى المائدة، وغيرها من التصرفات اللائقة، أي الإتيكيت، لطلبة المراحل المبكرة لبنني جيلاً يعرف كيف يتصرف بلياقة واحترام، ويحترم الآخر.

فضيلة الاختلاف

لا أعتبر نفسي إنساناً مميزاً بدرجة كبيرة، ولكنني على ثقة بأنني اختلف عن الكثيرين في عدة أمور حيوية. فاعتقاداتي الإنسانية والدينية والاجتماعية تختلف عن تلك التي يسير عليها البعض، وهذا جعلني في تآلف تام مع الكثيرين وفي صراع دائم مع الأكثر.

لم تأت هذه الأفكار أو المعتقدات أو المواقف، التي ليست بالضرورة صحيحة، كمحصلة لما تعلمته في المدرسة أو الجامعة، لسنوات طويلة، أو نتيجة مشاهدة التلفزيون لساعات أطول، كما لم يكن سبب ذلك يعود لشغفي بمشاهدة المسرحيات والافلام السينمائية، أو نتيجة للاحتكاك المستمر مع الآخرين والتحدث معهم والاستماع لوجهات نظرهم والمشاركة كمستمع أو محاضر للندوات، على الرغم من أنها جميعاً أمور مفيدة وفي غاية الأهمية لاكتساب المعارف، ولكن يمكنني القول إن غالبية ما تعلمته، وجعلني الإنسان الذي أنا عليه الآن، يعود إلى عادة القراءة المكثفة والمستمرة والمتنوعة التي صاحبته منذ سنوات عمري المبكرة. فالقراءة المتقطعة وغير الجادة، التي تقتصر على موضوع محدد ولفترة قصيرة، لا يمكن أن تؤدي إلى الكثير، فليس هناك، حتى الآن، طريقة أجدي وأكثر فاعلية لخلق إنسان مميز، أو مختلف بصورة أصح، أكثر فاعلية من القراءة ثم القراءة ثم القراءة، وهذا ما يقوم به قارئ هذا المقال.

وعليه يمكن أن نعزو سبب جميع عللنا الاجتماعية وتخلفنا الصناعي وتأخرنا الزراعي، إضافة إلى كل حالات التخلف الأخرى، وفي أي مجال يمكن تخيله، إلى عدم حبنا أو ولعنا أو ميلنا أو رغبتنا في القراءة. فما يكتب وما ينشر وما يؤلف في منطقتنا العربية هو الأقل مقارنة بأي مجموعة أخرى في أي منطقة من العالم، علماً بأن القراءة بحد ذاتها، كما سبق أن ذكرنا، لا تعني الكثير، إن لم يصاحبها فهم، والفهم لا يكفي إن نسينا في اليوم التالي ما سبق أن فهمناه، كما أن الفهم والتذكر لا يجديان إن لم يصاحبهما تطبيق واضح لما تعلمناه!

فكيف يمكن أن نتعلم أن من الخطورة قيادة السيارة دون حزام أمان؟ فما بالك بمن يصر على ترك طفله الصغير واقفاً على الكرسي الأمامي! وكيف يمكن أن يتعلم الإنسان عشرات القواعد الصحية المتعلقة باستعمال المناشف في النوادي الصحية والحمامات العامة، وفهم طرق استعمال المعدات والآلات وكيفية تناول الأدوية، وخطورة المخدرات وأمراض الإدمان الأخرى؟ وكيف يمكن أن نتعلم كيفية

التعامل، بإنسانية واحترام، مع مرؤوسينا، ومع من يعملون معنا من خدم المنازل ومن في حكمهم، وأن نحترم معتقدات الغير الدينية ونتعايش مع الآخر، ونحترم الغريب أو المعاق، ونساعد كل محتاج ونأخذ بيده، ونقدس حرية الرأي، مهما كانت درجة الاختلاف، ونتعلم فن الحوار من غير تشنج أو إطلاق رصاص، ونكتسب مختلف فضائل التسامح والامانة والصدق واحترام المواعيد وغير ذلك من العادات والمفاهيم الراقية دون قراءة يومية جادة؟ لست أدري!

المحظوظ والمنحوس

لماذا يوجد هناك من يدعي بأنه شخص محظوظ، أو نعتقد أنهم كذلك وغيرهم يعتقدون العكس؟ وهل هناك شيء يسمى حظاً؟ وهل حقاً أن المحظوظ غير مجبر على بذل جهد كبير لكي ينجح في الحياة؟

قام العالم النفسي البريطاني «رثشارد وايزمن»، من جامعة «هاتفوردشاير»، قبل سنوات بمحاولة الاجابة عن الاسئلة الازلية المتعلقة بوجود او عدم وجود شيء يسمى بالحظ، ولماذا هناك اشخاص يوجدون في الاماكن المناسبة في الوقت المناسب، وآخرون يواجهون، وبصفة مستمرة، مختلف أنواع المصاعب والتعقيدات في حياتهم وكأن الفرصة المناسبة سوف لن تأتي مطلقاً، وقام «وايزمن» بنشر اعلان في صحيفة محلية طلب فيه من كل أولئك الذين يعتقدون بأنهم محظوظون وأولئك الذين يعتقدون عكس ذلك الاتصال به.

استجاب المئات من الاشخاص المميزين للإعلان وقاموا بالاتصال به للتطوع في موضوع دراسته وقام، على مدى سنوات، بمقابلتهم ومراقبة حياتهم والطلب منهم المشاركة في مختلف التجارب، والتي بينت له في النهاية أن أولئك الذين يعتقدون أنهم محظوظون، أو عكس ذلك، على غير علم بالأسباب التي تجعلهم أصحاب حظ أو غير محظوظين، إلا أن لتصرفاتهم وطريقة تفكيرهم الدور الأكبر في هذا الأمر الحيوي. فلو أخذنا موضوع فرص الحظ القليلة في الحياة لوجدنا أنها متاحة بشكل مستمر لفئة من البشر نطلق عليهم المحظوظين، وعكس ذلك على غيرهم.

ولمعرفة عما اذا كان الامر يتعلق بالقدرات الشخصية لهؤلاء او ان هناك شيئاً ما يسمى بـ«الحظ»، قام «وايزمن» بتجربة بسيطة أعطى خلالها لمجموعة من المشاركين صحيفة وطلب منهم عد الصور الموجودة فيها وكان قد قام قبلها بوضع إعلان خاص في صفحة داخلية ذكر فيه التالي: قم بإعلام المشرف على التجربة بأنك رأيت هذا الإعلان وستحصل على مبلغ 250 جنيهاً!

على الرغم من أن ذلك الإعلان غطى نصف صفحة وكتب بحروف بارزة لا يمكن للعين أن تخطئها، إلا أن أياً من أولئك الذين يصفون انفسهم بغير المحظوظين لم يتمكن من ملاحظة الفقرة او قراءة الإعلان، وحدث العكس تماماً مع الذين يعتقدون أنهم محظوظون!

وهكذا تبين للعالم وايزمن ان الاشخاص الذين يعتقدون أنهم «غير محظوظين»

هم عادة من الذين يشعرون بتوتر في حياتهم بدرجة اكبر من المحظوظين وهذا القلق او التلهف يؤثر على قدراتهم في ملاحظة الكثير من الأمور غير المتوقعة، وكنتيجة لذلك يقومون بالتركيز الشديد على أمر ما، مما يفقدهم القدرة على ملاحظة أي شيء آخر حيث نجد ان هؤلاء مثلا يذهبون الى الحفلات لمقابلة شخصية معينة بارزة، وفي خضم ذلك، ينسون، او يخسرون، ملاحظة أشياء كثيرة أو تكوين صداقات جيدة مع آخرين ربما تكون علاقته بهم أكثر فائدة له من العلاقة مع تلك الشخصية البارزة. كما نجد أنه عندما يقوم هؤلاء بمطالعة الصحف بحثا عن إعلان لوظيفة محاسب مثلا، فإنهم يفقدون، في خضم تركيزهم الشديد على إعلانات طلب محاسبين، فرصة الاطلاع على الوظائف الاخرى المطلوبة التي قد تكون مناسبة لهم أكثر، وهذا يعني أن الأشخاص المحظوظين أكثر استرخاء وانفتاحا، وهذا يجعلهم يرون الامور في اطار اوسع واكثر رحابة.

كما توصل العالم «وايزمن» إلى أن الناس المحظوظين يكونون ثرواتهم من خلال 4 مبادئ: المهارة في اقتناص الفرص الجيدة. اتخاذ القرارات في ضوء ما يشعرون به من حدس داخلي. القدرة على التنبؤ في ضوء توقعات متفائلة تبني مواقف مرنة يمكن عن طريقها عكس المواقف السيئة.

بعد انتهاء العالم وايزمن من الوصول الى هذه النتيجة اخذ يتساءل عما اذا كانت هذه المبادئ تؤدي حقا إلى ان يكون الانسان محظوظا؟ بسبب شكه في الامر طلب من مجموعة من المتطوعين الخضوع لتمارين مصممة لكي تساعدكم على التفكير والتصرف كالمحظوظين، وذلك بالتركيز على ملاحظة، او البحث عن الفرص الجيدة في الحياة، والانصات للحدس الداخلي، وتوقع الحظ في كل فعل او تصرف، وان يكونوا أكثر مرونة وقابلية للتكيف مع الحظوظ السيئة. بعد ان عاد المتطوعون من تلك التجربة لشرح ما حدث لهم كانت النتائج دراماتيكية، حيث تبين ان 80% من الذين شاركوا في تلك التمارين اصبحوا يشعرون بسعادة أكبر، وانهم اصبحوا اكثر رضى عن حياتهم وانفسهم، والاهم من ذلك أنهم اصبحوا يشعرون بأنهم أكثر حظا مما كانوا عليه، كما اصبح المحظوظون منهم يشعرون بأنهم أصبحوا أكثر حظا وهنا اكتشف وايزمن لغز الحظ المحير وقام بتلخيصه في النصائح الاربعة التالية:

أولا: أنصت لغرائذك الشجاعة، فهي عادة ما تكون صحيحة.

ثانيا: كن منفتحا وعلى استعداد لتقبل التجارب الجديدة وكسر روتين الحياة.

ثالثا: خصص بعض الوقت كل يوم لتذكر الامور الجيدة التي حدثت لك والتفكير

فيها.

رابعاً: تخيل نفسك شخصا محظوظا قبل أي اجتماع مهم او قبل الرد على
مكالمة هاتفية.
ان الحظ، في احوال كثيرة، لا يعدو ان يكون توقعا لما يرضي الذات.
حظا سعيدا

بتسخير أو بغير ذلك

أشادت الادارة الأميركية، على أعلى مستوياتها، بمواقف الكويت المشرفة تجاه الحرب على الارهاب، كحليف استراتيجي يعتمد عليه من خارج حلف شمال الاطلسي «الناتو». وجاءت تلك الاشادة في الحفل الفخم الذي أقيم في وزارة الدفاع بحضور ركنين أساسيين من أركان الحكم في الكويت، وهما وزير الخارجية والدفاع. وذكر نائب وزير الدفاع الاميركي إن منح الكويت صفة الحليف يعكس احترام الولايات المتحدة الاميركية العميق لدولة الكويت الصديقة ويزيد من أعباء المسؤوليات المشتركة بين الدولتين الصديقتين.

إن الدور العظيم الذي لعبته الولايات المتحدة في حياة الكويت، وطننا وشعبنا، وبالذات في الفترة الواقعة بين فبراير 1991، يوم تحرير الكويت، وإلى ابريل 2004 يوم سقوط صدام في بغداد، دور لا يمكن نسيانه حتى من أكثر الناس جحودا ونكرانا للجميل. وطالما بقينا، وربما سنبقى كذلك لفترة طويلة قادمة، شعبا قليل العدد ووطننا صغير المساحة في محيط من دول أكثر سكانا وأكبر حجما واقل استقرارا، وبالتالي فإن حاجتنا الى من يقوم بمهمة الدفاع عن كينونتنا سوف تبقى وهذا يعني أن كل من يحاول التقليل من أهمية هذا التحالف الذي يرتبط بوجود الكويت ككل، يعرض أمنها ورفاهية شعبها واستقرارها للخطر، وهي أمور يجب عدم التهاون معها بأي شكل من الأشكال، مهما تغيرت أو تنوعت سياسات حكومة الولايات المتحدة تجاه مختلف القضايا العربية الأخرى التي اعتدنا تسميتها بالمصيرية. فعندما يتعلق الأمر بوجود الكويت، فإن الامور المصيرية الأخرى تصبح غير ذات أهمية، وقد رأينا حقيقة ذلك صباح يوم الثاني من أغسطس 1990 يوم كادت الكويت ان تصبح بندا آخر من بنود «القضايا المصيرية» التي تعرض على اجتماعات الجامعة العربية في اجتماعاتها السنوية.

الشاهد ان الدور التاريخي للولايات المتحدة في تحرير الكويت، ودورها الحالي والمستقبلي في ضمان استقلالها وبقائها حرة، دور يجب ألا ينسى. وقد شبه أحد الزملاء الدور العظيم للولايات المتحدة في تحرير الكويت بطريقة تدعو الى الغرابة حقا، حيث ذكر أن موقف الامتتان الذي نشعر به تجاه اميركا يشبه «تماما» موقف ذلك الناخب الذي قام نائب منطقتة بتوظيف ابنه بالواسطة فقام الناخب برد الجميل له بأن اصبح من مؤيديه! ولكن النائب تغير وكثرت الملاحظات على تصرفاته وفي الانتخابات التالية طالبوا الناخب بالامتناع عن التصويت لذلك

النائب «الفاسد، والمتهم بالكثير، ولكنه اصر على موقفه قائلاً انه مدين له لأنه قام يوماً بتوظيف ابنه!

ووصف الزميل المدافعين عن دور اميركا، والمصريين على الامتحان لها لدورها في صيانة أمننا والدفاع عن وجودنا بأنهم، كذلك الأب، مشلولو التفكير انانيو النزعة ونظرتهم لا تتجاوز «أرنبات» أنوفهم!

41

مؤلم حقاً أن لا يستطيع البعض من ناكري الجميل، والذين لا يعرفون وضع الكويت الأمني الهش، إدراك مدى أهمية دور الولايات المتحدة في حفظ امننا، وكأننا بحاجة الى غزو آخر، فقط لكي يتذكر هؤلاء الهوان والذل اللذين عشناهما لفترة سبعة أشهر طوال دون سند من أحد غير الولايات المتحدة وبريطانيا، بتسخير من قوى مخفية، أو بغير ذلك.

سنوات السعادة

بلغت الستين قبل أيام، وتحديدًا بتاريخ 2005/9/7! وليس هناك ما يثبت ذلك غير تاريخ ميلادي بالسنة الهجرية الذي دونه جدي على الغلاف الداخلي لمصحف كان لدينا، وهو التاريخ الذي قمت بعدها بسنوات بتحويله الى ما يعادله ميلاديا، من واقع جداول «صالح العجيرى»، الفلكية. وبالتالي فإنني اتففس في هذه الدنيا منذ 21900 يوما او 525600 ساعة وهذه تعادل 31536000 دقيقة!

ويمكنني الادعاء من واقع خبرتي وما تسعفني به ذاكرتي بأنها كانت في مجملها سنوات سعيدة وساعات هنيئة ودقائق أكثر من رائعة، وكل هذه التجارب، بحلوها ومرها، وما اقل الاخيرة منها، ستكون في القادم من السنوات المصدر الذي سأقوم باللجوء له لاستعادة، او لاجترار الذكريات منه، لتكون موضوعا لمقال او لحديث مع حبيب او قريب او صديق، او، وهذا هو الاله، للشعور منفردا بلحظة حزن او فرح لتذكر انسان او مكان او حادثة ما. كما يمكنني القول، وبتجرد تام وبشكل عام، إنه ليس من السهل على الفرد العيش في مجتمع لا ينتمي، عرقيا ومذهبيا على الاقل، لأغلبيته الطاغية ويصبح بالتالي من الصعب على المنتمين لأقليات عرقية او دينية او خلاف ذلك الخروج من مرحلة اليقاعة والصبا دون خدوش وندوب نفسية تبقي اثرها في الخاطر، لما تبقى من العمر! ولكن بإمكانني الإدعاء بأنني، ولأسباب سيرد ذكرها لاحقا، لم اشعر قط بأنني غير مقبول اجتماعيا ضمن فئة ما او غير مرغوب في وجودي ضمن مجتمع معين. كما لم اشعر قط، طوال سنوات عملي التي زادت على الاربعين، كموظف وكرجل اعمال اعيش حياة اجتماعية ثرية، بأنني اعامل بطريقة ادنى من الآخرين او ان حقوقي المدنية منتقصة او مهضومة. كما اعلم جيدا بأن الكثيرين، وخاصة من المنتمين العرقية والمذهبية، ربما سيشعرون بالمبالغة عند قراءة ما اقول، بسبب اختلاف تجاربهم مع تجربتي، بعد أن لحق بالكثيرين منهم رفض وضيم وهضم حقوق، ولكنني صادق فيما اقول ولا حاجة لي بعد هذه السن وما اصبته من ثراء فكري ومادي لأن اجامل احدا، ايا كان! وقد يعتقد البعض أن السبب وراء عدم شعوري بعامل التفرقة ربما يعود لوجود خلل في تفكيرى او بسبب عدم قدرتي على ملاحظة او قراءة اشارات النبذ والرفض الاجتماعي بطريقة سليمة، وهذا حقهم، ولن اجادلهم فيه!

وعليه يمكنني القول ان عاملين مهمين لعبا دورا حيويا في تجنيبي الشعور بالتفرقة، او بتعال الآخرين علي، وهي المشاعر التي ربما انتابت الكثيرين من

اقراني، والذين لم ينفكوا يوما عن التحدث عنها وعن تجاربهم الغريبة والمرة، وسرد تفاصيلها في كل مجلس ومقام.

العامل الاول يكمن في ليبراليتي الدينية المبكرة التي بدأت معي وانا تلميذ في مدرسة الصديق، ولم اكن وقتها قد تجاوزت الخامسة عشرة بكثير!

فهذه الليبرالية هي التي ساهمت، باعتقادي، في تقبل الطرف الآخر لي وعدم شعوره بأي مشاعر فوقية او دونية تجاهي، فعادة ما يؤدي اختلاف مشارب البعض واختلاف مذاهبهم ودياناتهم الى خلق مثل هذه المشاعر بينهم، فكل طرف يعتقد أن الطرف الآخر يشعر بأنه احسن او ادنى منه، وهكذا.

كما يمكنني القول ان العامل الآخر الذي جنبني خطر الشعور بالدونية، وما ينتج عن هذا الشعور من عقد نقص خطيرة تؤثر على تصرف الفرد، او خطر الشعور بالتعالي تجاه الآخرين والاحساس بالافضلية على الغير من اصحاب المذاهب او الطوائف الدينية الاخرى، يكمن في القراءة ثم القراءة ثم القراءة.

فقد كانت القراءة المنفتحة والمتنوعة، وليس قراءات الكتب الصفراء، ومنشورات السلف والإخوان، هي التي انارت لي الطريق والذي به اهتديت، دون ان اقصد او ادري وقتها، وكانت بالتالي السبب في جعلي اكثر تسامحا مع الآخرين واكثر قبولا للغريب. فالقراءة بينت لي كم هي ثرية ثقافات الشعوب الاخرى، وكم لدى الآخر من عطاء يمكن ان يغني حياتي و«يجمل» فكري! وهذا بالذات ما جعل الآخر المحلي، والخارجي، اقل رفضا لي في البداية، ثم اكثر قبولا وترحيبا بي بعدها، وخاصة بعد معرفتهم بحقيقة نفسياتي التي «تمرنت» من خلال القراءة والممارسة على عدم النظر الى الآخر بتعال يتعلق بالخلفية العرقية او المذهبية، مع عدم الشعور في الوقت نفسه بدونية غير مبررة تجاه الآخر لأي سبب كان.

مذكرة داخلية

قام صاحب شركة اميركية بارسال المذكرة التالية الى مديرها العام: ستحدث اليوم، وفي الساعة الحادية عشرة تماما ظاهرة خسوف كلي للشمس، حيث ستختفي وراء القمر لفترة دقيقتين وبما ان هذه ظاهرة لا تحدث الا نادرا، فسيسمح لموظفي الشركة التجمع قبل الساعة الحادية عشرة بعشر دقائق في مواقف السيارات لمشاهدة الظاهرة، وسأقوم بإلقاء كلمة قصيرة تحتوي على بعض المعلومات، وسنقوم بتوفير نظارات خاصة بأسعار مخفضة لاستعمالها للنظر الى الشمس.

* * *

وهنا قام المدير العام بدوره بارسال المذكرة التالية لرئيس القسم: على كافة موظفي الشركة التواجد اليوم في الحادية عشرة الا عشر دقائق في مواقف سيارات الشركة، حيث سيتبع ذلك اختفاء كلي للشمس، وهذا سيستمر لمدة دقيقتين. ومقابل تكلفة بسيطة، يمكن للموظفين الحصول على نظارات واقية. كما سيقوم رئيس الشركة بإلقاء كلمة قصيرة بالمناسبة، ويعطينا بعض المعلومات، وهذه ليست من الأمور التي يمكن رؤيتها كل يوم.

* * *

وقام رئيس القسم بارسال المذكرة التالية لمسؤول الورش: سيقوم الرئيس بإلقاء خطبة قصيرة تختفي فيها الشمس لفترة دقيقتين على شكل خسوف كلي. وحيث ان هذا امر لا يمكن مشاهدته كل يوم، فان على موظفي الشركة وعمالها التجمع في موقف السيارات قبل الحادية عشرة بقليل وسيكون ذلك امرا آمنا، اذا قمتم بدفع مبلغ رمزي مقابل ذلك.

* * *

وقام مسؤول الورش بارسال المذكرة التالية للمشرف على العمال: في العاشرة وخمسين دقيقة على جميع العمال التجمع في ساحة وقوف السيارات، حيث سيقوم الرئيس بخسوف الشمس لفترة دقيقتين! وبما ان هذا امر لا يحدث كل يوم، الا انه امر لا يشكل خطرا علينا، كما انه سيكلفكم ماديا بعض الشيء.

وتبعاً لذلك قام المشرف باعلام العمال بالتالي: سيذهب البعض منا الى مواقف السيارات اليوم لمشاهدة اختفاء الرئيس، ومن المؤسف ان هذا امر لا يحدث بصورة يومية.

* * *

حدث وتحدث مثل هذه الامور بشكل مستمر عند انتقال المعلومة او القصة، مكتوبة او مشافهة، من شخص او مستوى الى آخر، وحتى في المجتمعات الأكثر تقدما وتحكما وامتلاكا لوسائل وطرق الاتصال والتخاطب والتدقيق والتوثيق والحفظ وتبويب المعلومات، والامثلة على ذلك أكثر من ان تحصى. فاذا كان هذا حال المجتمعات النامية، في عصر المعلومات والتقدم التقني والمواصلات، فكيف كان الحال عليه قبل ألف عام وأكثر؟ وكيف يمكن ان نسلم، من دون نقاش، بدقة ما نقل لنا عن السلف، مع كل ما تضمنته تلك القصص أو الأوامر أو النواهي من غرائب وعجائب الأمور، وما أحدثته من تأثير هائل على حياتنا، وحياة كل الأجيال التي سبقتنا، بحيث أصبحت تلك الأمور، مع الوقت، من المسلمات، وجزء لا يتجزأ من روتيننا اليومي، والتي لا يحق لأحد مجرد التفكير أو التشكيك فيها ومناقشتها؟

عدد أقل وفهم أكثر

تتكرر منذ سنوات، إن لم يكن منذ قرون، مقولة «الإسلام دين الفطرة»، أي دين التلقائية والتصرف الطبيعي غير المصطنع. وقد ورد في سورة «الروم»: «فطرة الله التي فطر الناس عليها». فتلقائية الرضيع تخلق معه وتدفعه لامتصاص الحليب من ثدي أمه، كما أن ردة فعله التلقائية والسريعة عند ملامسة جسده لجسم حاد، تكون عادة سريعة، وكل هذا نوع من الفطرة. كما أن قيام الطفل الصغير برفع يده محملة بالطعام باتجاه فمه هو نوع من الفطرة، وهكذا. وحيث أن الطفل بفطرته ليس بحاجة لمن يعلمه الطريق إلى فمه، فمن باب أولى ألا يحتاج الإنسان المتعلم والمدرّك والبالغ لمن يعلمه كيفية ممارسة شعائر دينه، تماشياً مع مقولة أن الدين دين فطرة! ولكن على افتراض أن هناك دائماً من يحتاج إلى من يبين له دينه ويوضح له الفرق بين الحلال والحرام، فإن هذه الحاجة وقتية وستقل مع زيادة نسبة المتعلمين بين أي شعب. كما أن حاجتنا، أو حاجة البعض منا، لوجود «شخصيات» دينية، لا تبرر بأي حال من الأحوال، وجود كل هذه الهياكل الدينية البيروقراطية التي نبتت من حولنا، وحولهم. أو التي أحطنا أنفسنا بها وكأن الحياة لا يمكن أن تسير من غير هؤلاء وهياكلهم المتمثلة بمختلف «الحوزات» والجامعات الدينية ودور ومراكز الافتاء المتعددة و«المدارس الفقهية» في مختلف الحواضر العربية والاسلامية، ومعاهد وكليات الشريعة، والعديد من اللجان والهيئات المتخصصة في الافتاء والتشريع الديني والدنيوي.

والملفت للنظر أن المسلمين عاشوا طوال تاريخهم الممتد على مدى أربعة عشر قرناً تقريباً بدون وجود فعلي لتلك الهياكل، ولا ذلك الجيش الجرار من رجال الدين، وعلى الرغم من ذلك لم تتأثر معتقداتهم الدينية ولم تتغير مفاهيمهم الانسانية ولم يتزعزع إيمانهم كما حصل في السنوات الثلاثين الماضية، رغم تعدد وتباين المدارس ومصادر «المعرفة والعلم الديني الصحيح».

ومن الغريب أن كل تلك الهياكل والمؤسسات الدينية لم تتردد يوماً في محاربة كل تطور وتقدم وفكر جديد، ثم ركوب موجة موجة الأفكار الجديدة بعد ذلك، وتسخيرها لتحقيق مآربهم السياسية. فقد حاربت هذه الهياكل والمؤسسات المطابع ثم استعملتها خير استعمال للدعاية لأفكارها. وحاربت البنوك بحجة أنها ربوية، ثم لوت أعناق التشريعات المالية وابتدعت مصارفها الخاصة «وكوشت» على المليارات. وعارضت جميع أنواع التأمين، وخاصة على الحياة، ثم انضمت إلى

الركب، مسامرة في البداية وقيادة في النهاية. كما سبق وأن حرمت هذه المؤسسات الدينية الكثير من وسائل الاعلام وعادت وطوعتها لخدمتها في نهاية الأمر بعد أن امتلكت الكثير منها، الخ.

نسوق هذه المقدمة المطولة، نوعاً ما، كمدخل لمناقشة موضوع دور رجل الدين في المجتمعات الاسلامية، فمن الواضح جداً ان نسبة العاملين او المنشغلين بالأمر الديني، في أية دولة اسلامية، وإلى أي مذهب او طائفة انتموا، تتجاوز بكثير حاجتها الى تسيير أمورها الدينية. وبسبب هذه الكثرة غير العادية فان من الطبيعي ان ينشأ التنافس بينها، سواء فيما يتعلق بالمتطرف من الآراء والمواقف، او في غير ذلك. كما ان نسبة كبيرة منها تصر على ان تبين سعة علمها وطول باعها ورسوخ قدمها وقوة ظهرها في كل أمر، سواء كان موضوعاً يتعلق بالإرث أو الدوائر الانتخابية!

إننا بحاجة حقاً الى رجال دين اقل، وقراء أكثر!

النواب والشجاعة

نشرت «القبس» تحقيقاً صحفياً جريئاً، وحزيناً، يتعلق بالمشاكل الانسانية والاجتماعية التي تواجه مجهولي الوالدين، أو اللقطاء. وبالرغم من الحساسية المفرطة التي تتسم بها هذه القضية بسبب جوانبها النفسية والأمنية، وقبل كل ذلك الانسانية، فإن كافة الدول الاسلامية اختارت التستر عليها وتجنب الحديث عنها، وكأنها وباء، وبالتالي فشلنا جميعاً في وضع ضوابط واضحة تحكم حياة هؤلاء وتنظم معيشتهم ليكونوا أفراداً أسوياء في المجتمع.

يبلغ عدد نزلاء دور الحضانة العائلية، أو مأوى اللقطاء، عشرات الآلاف، حسب نسبة السكان. وغالبية النزلاء من الفتيات، وليس في ذلك مصادفة، بل للأمر علاقة بالمووروث الاجتماعي الذي يعتبر الأنثى عبئاً، ولا يريد أحد تولي تربية العبء، وبالتالي يميلوا لمساعدة الذكر، بالرغم من أنه اقدر من الأنثى على تدبير أموره، وخاصة في المجتمعات المتخلفة التي ترتفع فيها نسب الأمية.

إن الفكر الديني التقليدي الذي تمارس مجتمعاتنا عقائدها على أساسه لم يقيم بوضع ضوابط متكاملة وواضحة لمشكلة مجهولي الأبوين، وتركت بالتالي مسألة التعامل معهم لإنسانية، أو لعدم إنسانية، كل مجتمع! ولهذا نرى أن التعامل مع هذه الفئة يكاد يكون مثالياً في المجتمعات الأكثر تحضراً وإنسانية، والتي تمكن فيها عدد من مجهولي الأب أو الأب والأم، من الوصول لأرفع المناصب وأكثرها خطورة، ومنهم على سبيل المثال المستشار الألماني الراحل «فيلي برانت»، وعشرات غيره. كما نرى عكس ذلك في المجتمعات الأخرى، والإسلامية بالذات، والتي يصل الحال في بعضها الى درجة العبودية ولولا ما تتمتع به الكويت من أجواء حرية نسبية مدعومة بوفرة مالية، لما اهتم أحد بمصير أفراد هذه الفئة من قريب أو بعيد، وتاريخ الكويت غير البعيد خير شاهد على الطريقة غير الإنسانية التي كان يتم التعامل بها مع سيئي الحظ هؤلاء.

إن المطلوب قيام عدد من النواب بتقديم مشروع قانون يمكن عن طريقه تنظيم حياة هذه الفئة من البشر الذين وجدوا أنفسهم في وضع إنساني بالغ الحساسية دون أن يكون لهم ذنب أو دور فيه، بحيث يتم من خلاله التغلب على كافة المعوقات التي تعرقل اندماجهم في المجتمع عن طريق السماح بالتبني مع منحهم، بصورة قانونية، كافة حقوق الاءاء الآخرين في كل ما يتعلق بالميراث والاسم والهوية!

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل لدينا خمسة نواب شجعان على استعداد لتقديم مشروع قانون مثل هذا؟

حكايتي مع فيروز!

49

كانت المطربة السيدة فيروز سببا في اصابتي بأول ضربة قاضية في حياتي كصبي شقي.

كنت الولد الوحيد في الحي الذي يجاهر بحبه لصوت فيروز وكان ذلك يعود بالدرجة الاولى لكوني الوحيد الذي كان يعرف شيئا عن لبنان، بعد ان سافرت له مع والدي لأول مرة عام 1956، ثم بعدها لمرات عدة مع بقية افراد أسرتي. حدثت العلاقة عندما كنت في سن المراهقة، كان لكل واحد في الحي مطربه المفضل، وكان النقاش يحتدم دائما على من هو الافضل، خصوصا بعد او اثناء مشاهدة فيلم سينمائي غنائي لهذا المطرب او لتلك المغنية، وكان لفريد الاطرش ومحمد عبدالوهاب النصيب الاكبر من المحبين والمشجعين ولكن عندما جاهرت يوما بحقيقة رأيي في فنهما وصوتيهما، وبتفضيلي لصوت المطربة اللبنانية فيروز عليهما تعرضت لسخرية الجميع، فغالبيتهم، ان لم يكن كلهم، لم يسمعوها باسم فيروز من قبل، دع عنك معرفة اي من اغانيها، لم يقف الامر بأحدهم عند حد الاستخفاف برأيي وذوقي «المائع»، بل تطور الأمر إلى عدااء مستحكم بيني وبينه وتسبب اصراري في يوم من الأيام على رأيي في التورط في نقاش حاد معه، وكان يكبرني سنا وقوة وحجما، ولم يكد ذلك النقاش ينتهي حتى وجدت نفسي ملقى على الارض والدماء تنزف من انفي بسبب لكمة اصابت وجهي، لكن دون ان تتجح في كسره، أو تغيير رأيي في جمال صوت فيروز وعذوبته المتناهية!

ولا أزال حتى اليوم، وربما الى الابد، من المولعين بصوت من شددت: «نحننا والقمر جيران، سنرجع يوما الى حينا، عا هدير البوسطة، انا عندي حنين، حبيبتك تانسيت النوم، يا حنيينة، عم بتضوي الشمس، مشوار، وقعدت الحلوة، اهاوك بلا سبب»، وبكره بيحي نيسان، وغيرها المئات من اعذب الاغاني واجمل المسرحيات والديكبات الراقصة.

تميزت فيروز ليس فقط بصوتها وادائها، بل ايضا بحرصها على سمعتها وبعدها عن الابتدال، سواء ما تعلق منه بفنها او بحياتها الشخصية.

لا ادري ما العمر الحقيقي للسيدة فيروز، ولكن هذا ليس بالمهم بقدر اهمية ما أعطته لوطنها من سمعة طيبة وما منحته شعبه ومحبيه من متعة متناهية، فالعمر لا يقدر دائما بعدد السنوات، بل بما تم تحقيقه من انجاز وابداع وانتاج خلاله. ويكفي فيروز فخرا انها، ولا شيء غيرها، الرمز الوحيد الذي اجمع اللبنانيون كافة،

في الداخل والخارج، ومن المهجرين، القصير القريب، والطويل البعيد، على محبته
من دون غرض أو هدف، بعد أن اختلفوا حتى على نوعية الهواء الذي يجب على
الطرف الآخر استنشاقه

الوفاء الذي افتقدناه

ورد في كتاب «من هنا بدأت الكويت» لعبدالله الحاتم، أن القس صموئيل زويمر والقس فريد بارني، وهما من رواد الارسالية الاميركية في الخليج، كانا من اوائل المسيحيين الغربيين الذين زاروا الكويت، في الفترة من 1900 الى 1903، اي قبل اكثر من مائة عام. كما قدم طبيبان أمريكيان للعمل في الكويت خلال تلك الفترة، بدعوة من الشيخ مبارك الصباح، واقاما في ديوانية «بودي»، وكانا اول طبيبين مؤهلين يعملان في الكويت، وارسلا من قبل الارسالية الاميركية. بعد فترة من الشك في اهداف أطباء الإرسالية الأمريكية وطرق العلاج «الغريبة» التي كانوا يتبعوها، تبدد خوف الناس منهما تدريجيا بعد نجاح د. «بنت» في علاج حصان الشيخ مبارك الذي كان مصابا بدمل كبير، ونجاحه أيضا في معالجة خادم الشيخ.

وفي عام 1911 وقع اختيار الارسالية على تل صغير يقع على الساحل، في الطرف الغربي من العاصمة لإقامة مبنى مستشفى جديد عليه، وكان الشيخ مبارك يمتلك الارض وباعها لهم مقابل مبلغ زهيد، واعطاهم صك ملكية بها. انتهى العمل في بناء مبنى المستشفى عام 1911، وكان اول مبنى يشاد من الخرسانة المسلحة في تاريخ الكويت، وتكلف بناؤه في حينه 6000 دولار وخلال عشر سنوات تقريبا بينت سجلات المستشفى ان أطبائها قدموا العلاج لأكثر من خمسة آلاف مريض.

كان د. «ستانلي ميلري» أول طبيب يعمل في المبنى الجديد، واستمر في عمله 28 عاما الى ان تقاعد عام 1941. وعندما توفي، بعد مرض لم يمهله كثيرا، دفن في المقبرة المسيحية بالكويت.

وفي عام 1954 تقرر هدم مبنى المستشفى القديم وإنشاء مبنى جديد، وهو المبنى الجميل الحالي، وفي المكان نفسه. ولأسباب غير معروفة، اختلفت القيادة السياسية بعد فترة قصيرة من العمل في المبنى الجديد، مع الإدارة الأمريكية، وقامت هذه بإنهاء وجودها، بعد اكثر من نصف قرن من العمل المتفاني والإخلاص، واغلق المستشفى أبوابه، بعد أن أصبح للكويت مستشفياتها الكبيرة، الحكومية والخاصة.

بقي المبنى فارغا، ولا أدري كيف عادت ملكيته للدولة، وتسلمت إدارته وزارة الصحة، فأساءت استخدامه، ثم أهمل لفترة طويلة أخرى، الى ان قرر المجلس

الوطني للثقافة والفنون والآداب اخيرا اعادة تأهيل المبنى وترميمه بصورة حضارية مع الاصرار على الاحتفاظ باسمه الذي عرف به لأكثر من مائة عام وهو «المستشفى الامريكي»، ومن المقرر ان يتم تحويله لمتحف.

نشكر كل من شارك في بث الروح في ذلك المبنى التاريخي، واعادة الوجه الحضاري للكويت الذي اختطفته قوى التخلف.

ومن المؤسف أن نلاحظ أن ايا من الأطباء الذين شاركوا في علاج آلاف الكويتيين، داخل غرف وأروقة ذلك المستشفى، وبالذات الأطباء «ميلري» و«سكدر»، او اليانور كافرلي، وغيرهم ممن عملوا في تقديم العلاج لعشرات الآلاف الكويتيين، رجال ونساء، على مدى نصف قرن تقريبا وأنقذوا ارواح الكثيرين، خاصة بعد إنتهاء معركة الجهراء، أن نرى أن لا أحد يهتم بالفعل بإطلاق أسماء أي منهم على اي شارع او مبنى او حتى جناح في مستشفى، في الوقت الذي اطلقت فيه بلدية الكويت اسماء عدد من غلاة المتشددين والمتخلفين، وعدد هائل آخر من النكرات على اهم واكبر شوارع الكويت، والامثلة على ذلك اكثر من ان تحصى.

لا ننكر هنا الهدف «الديني» لمجيء الارسالية الى هذه المنطقة، ولكن الطابع الانساني لعملها كان هو الغالب بشكل واضح، خاصة بعد ان تخلت تماما عن فكرة التبشير التي قدمت اصلا من اجلها. وعش رجبا تر من عدم الوفاء عجا.

يوم أكل الثور الأبيض

قام مجلس الامة الكويتي قبل سنوات، بإصدار قانون، عنصري وغير انساني، منع بموجبه الحكومة من منح الجنسية الكويتية لغير المسلمين! ولو علمنا أن مسألة حصول غير الكويتي، بصرف النظر عن ديانتة، على الجنسية الكويتية يتطلب السير في اجراءات طويلة يتخللها اخذ ورد لسنوات وسنوات ومقابلات وتقارير ولجان حكومية وموافقات من مختلف المستويات الامنية والادارية وصولا الى اعلاها. ولو علمنا أن اي قرار من هذا النوع كان يمكن وضعه موضع التطبيق من دون ضجة اعلامية، مع عدم اتفاقنا التام مع مضمونه، وإن الأمر لم يكن يتطلب مطلقا كل هذه الضجة، واصدار تشريع من مجلس «الامة» نصر فيه، بقانون، على تخلفنا وعنصريتنا وكراهيتنا للآخر واننا بهذا التصرف لم نكن اقل تخلفا وعنصرية من اعدائنا.

نقول ذلك بمناسبة المؤتمر الصحفي الذي عقدته أخيرا الهيئة الاستشارية الشرعية لإحدى المؤسسات المصرفية، التي تحول كيائها القانوني من ربوي الى «اسلامي»، وورد فيه أن البنك سوف يتشدد مع موظفاته فيما يتعلق بموضوع الحجاب والحشمة.

من المقلق والمؤسف حقا ان تقطع ارزاق الناس، سواء من خلال التضييق الوظيفي عليهم بضرورة اتباع تعليمات متشددة وغير مقبولة انسانيا او منطقيا، من خلال فرض الحجاب مثلا على غير المسلمات، او مطالبة الموظفين بالاستقالة، لا لخطأ ارتكبه او ذنب جنوه، بل لمجرد اختلاف ديانتهم، اناثا وذكورا، عن ديانة إدارة البنك. ومن المخجل ان يحدث ذلك في مؤسسات دولة عاد للتو رئيس جهازها التنفيذي من جولة شملت عدة دول، صرح، وشدد، في كل ركن وزاوية منها، على انفتاح الكويت وترحيبها بالاستثمارات الاجنبية.

فكيف يمكن ان يقبلنا الآخر ونقبل به مع وجود عقليات لدينا تعتقد أن من حقها انهاء عمل الموظف او الموظفة لمجرد اختلاف دينه او مذهبه.

نقول ذلك ونحن على علم بأن هذا التمييز العنصري والديني لم يكن ليجد ارضا صالحة وأذانا صاغية لو لم يكن هناك في الجهاز الحكومي من يعمل به ويغذيه ويطبقه.

والغريب ان يقف البعض من مجلس ادارة البنك وكبار ملاكه، موقف المؤيد لهذا التصرف العنصري البغيض، وهم اعلم من غيرهم بأنهم بعملهم هذا يؤيدون

ما قامت، ولا تزال تقوم به، مختلف أجهزة الدولة، من تفرقة تتمثل في منع أتباع مذاهب محددة من العمل في هذه الوزارات أو الأجهزة الحكومية! والامثلة أكثر من أن تذكر.

اننا لا نحارب قرار البنك المتعسف بقدر محاربتنا لكل أشكال التمييز في المعاملة بين البشر على أساس ديني أو عرقي أو غير ذلك من الفروق البشرية نقول ذلك ونحن على علم بأننا سنؤكل، إن سكتنا على أكل الثور الأبيض

الوقيان وتاريخ الكويت

اهداني الشاعر والباحث، خليفة الوقيان، نسخة من مؤلفه القيم الاخير، «الثقافة في الكويت، بواكير واتجاهات»، وقد قضيت وقتا ممتعا، على مدى ثلاثة ايام، في قراءة موضوع كنت دائما اود معرفة الكثير عنه.

الكتاب وثيقة تاريخية مهمة تغطي الجانب الثقافي من مرحلة تأسيس الدولة وما بعدها، وحتى وقت قريب، وهي الفترة التي لم يسبق ان نالت كفايتها من البحث المتسع والدقيق.

بينت الدراسة، المرة تلو الاخرى، كم كانت قوى التخلف شرسة في معارضتها لأي نتاج ثقافي، سواء أكان شعرا، مسرحا، رسما او نحتا، او حتى مطبوعة. وما نراه الآن من غلو وشراسة في محاربة كل أنشطة الثقافة، ما هو الا اثر من آثار تلك المرحلة، التي هدأت الأمور بعدها، لتعود لسابق تشددتها.

ولي هنا بعض الملاحظات على ما ورد في الكتاب/ الوثيقة، تتعلق الأولى بخطأ مطبعي ورد في الصفحة 140 عن تاريخ الغزوات الوهابية للكويت، ومحاولة اخضاعها للحكم السعودي، حيث ذكر ان الغزوة الثالثة كانت في الفترة بين 1793 و1799 والصحيح هو، 1797 وهذا يمكن تلافيه في الطبعات القادمة.

الملاحظة الثانية، تعلق بالفصل المخصص لذكر المطبوعات الصحفية التي صدرت في الكويت، صفحة 65 وما بعدها، للفترة من 1928 وحتى، 1961 حيث لم يرد ذكر صحيفة «صوت الخليج» التي كان يصدرها المرحوم باقر خريبط، وهذا ايضا يمكن تلافيه في الطبعات القادمة.

اما الملاحظة الثالثة، وهي الاخطر والاهم التي اتمنى حقا تلافيها في الطبعات القادمة، فإنها تتعلق بإصرار المؤلف الفاضل على استعمال تسمية «الخليج العربي» في كتابه بدلا من تسمية «الخليج الفارسي»، وهي التسمية الاصح، والاكثر دقة لكتاب توثيقي جاد.

وهنا أتمنى أن نخرج انفسنا من دائرتي العنصرية البغيضة والشعوبية، ونحن خارجهما بالطبع، ونسأل انفسنا، ومن واقع سابق مراسلاتنا وسجلاتنا ومكاتباتنا ووثائقنا الرسمية، وحتى وقت قريب، هذا غير الكتب التاريخية والخرائط والمستندات والمخطوطات بأنواعها المتوفرة في مكتبات الكثيرين منا، وهي التسمية الوحيدة التي كنا نعرفها ونستعملها، والتي استعملها الرئيس جمال عبدالناصر في خطبه، قبل خلافه مع شاه إيران، والتي عرفها آباؤنا واجدادنا

والعالم لعقود طويلة، ألم تكن، وفي كافة الاحوال، تسمية «الخليج الفارسي»؟
وعليه لم كل هذه الحساسية من تسمية تاريخية لا يمكن ان يغير بقاؤها كما
هي الكثير فينا؟ ولماذا نترك لعواطفنا العنان لتتحكم فينا؟ هل لأننا نكره الفرس
الآن او نعاديهم لسبب هنا وحجة هناك، وبالتالي من الافضل تغيير التسمية نكاية
بهم؟ ماذا لو تغيرت العلاقات السياسية بيننا وبين ايران، وهل سنعود الى استعمال
التسمية التاريخية القديمة عندما تتغير أو تتحسن العلاقات مثلاً؟

كان من الممكن تجاهل التعليق على الخطأ في التسمية، والتي تمثل تغييرا
يقارب التشويه التاريخي، ونحن لا نعتقد ان هذا ما قصده المؤلف الفاضل، لو
لم يكن الكتاب بكل تلك الجدية والرصانة التاريخية والتوثيقية المهمة، مما يجعله
صالحا لأن يقرر اكاديميا على اكثر من كلية جامعية، ولهذا كانت هذه الملاحظة.
لا نريد هنا ان ندخل في جدل تاريخي، او حتى سياسي، فيما يتعلق بالتسمية
الاكثر دقة وصحة، وما يهمنا هنا هو ما لهذا التعمد في التغيير واستسهاله من
تأثير سلبي على نظرتنا لبقية الاحداث والوقائع التاريخية المهمة الاخرى، والتي
قد تشجعنا مستقبلا لتغيير أي معلم او تسمية بمجرد وقوع خصام سياسي بيننا.
وأذكر جيدا ان الكثيرين طالبوا، بعد التحرير، بتغيير تسمية شارع بغداد الى اسم
أقل حساسية، ولكني كنت من المعارضين لذلك، فالتسمية هي لعاصمة دولة عربية
شقيقة، ومن السخف ترك العنان لعواطفنا بحيث تطفئ رداة فعلنا الآنية على
قراراتنا المصيرية والمؤثرة على احداث ومواقع وتسميات تاريخية.

شريعة أوكاكو

57

ذكر الكاتب الياباني ميتو اوكاكو في كتابه VISION الحقيقة العلمية التالية:

«يستطيع العقل البشري التفكير او لديه القدرة على تجميع وتقييم واجراء مائة ترليون عملية في الثانية فما يجعلنا نشاهد شاشة التلفزيون او اي شكل آخر لا يعود الى شكل ولون ذلك الجسم بل بما ينعكس عليه ومنه من ملايين الاشعة الضوئية والتي يقوم العقل بترجمتها بسرعة خيالية وينطبق الشيء نفسه على اليد التي تقوم بلمس مواد صلبة دون ان تراها العين حيث تقوم الاحاسيس الكامنة في الجلد بترجمة عملية اللمس بملايين الاشارات المرسله للعقل والذي يقوم بتفسيرها او ترجمتها الى ماهية ذلك الجسم الصلب، فكلما زدنا من درجة الضوء واتساع فتحة العين السليمة تمكنا من الرؤية بوضوح اكثر، وهكذا!

تعتبر قوة العقل البشري السليم اقوى بأكثر من 25 ضعفا عن قدرة اقوى كمبيوتر في العالم، والذي قامت شركة «آي بي ام» الاميركية بانتاجه مؤخرا، والذي بإمكانه القيام بأكثر من 3.9 ترليون عملية في الثانية!

ويقول «اوكاكو» أن شركات انتاج الكمبيوتر العالمية ستمكن العام 2020 من انتاج كمبيوتر يوازي العقل البشري قوة وقدرة، وعندها ستكون لتلك الاجهزة المقدرة على «محاكاة» طريقة تفكير عقل الانسان من حيث القدرة على التفريق بين الاشخاص وتمييز اصواتهم والتفكير بشكل متناسق حيث ان اجهزة الكمبيوتر الحالية تستطيع القيام بكافة الامور المتعلقة بتمييز الاشخاص ورؤية الاجسام واللمس والشم ومعرفة الاصوات ولكنها عاجزة عن العمل بشكل متناسق يحاكي الطريقة التي يعمل بها عقل الانسان العادي، وهذا ما سيتم التغلب عليه في كمبيوترات المستقبل!

الخطورة، او الخبر، ليس هنا فهذا معروف للعلماء، ولا يشكل قلقا لنا او خطورة على وضعنا بفضل دعائنا «بان لا يغير علينا» حيث لايزال بإمكاننا الامتناع عن شراء مثل هذه الاجهزة وبهذا نأمن شرها وشر من انتجها ولكن من المتوقع ان تتجاوز قدرة اجهزة الكمبيوتر التي سيتم انتاجها بعد العام 2020 قدرة العقل البشري! وهنا المصيبة والطامة الكبرى، فسنة 2020 ليست ببعيدة عنا كثيرا، وسيرى «هلالها» الكثيرون منا ان طال بنا وبهم العمر! فإذا كان هذا حالنا وما نحن فيه من بؤس وشقاء وتخلف وتأخر علمي وحضاري وانساني وجغرافي وتاريخي وبيئي وصناعي بما نمثله من بليون من البشر مقابل 600 مليون من الاميركيين

والاوروبيين فماذا سيكون عليه حالنا بعد ذلك؟
سؤال نوجهه «لزهرة» شباب كلية الشريعة بجامعة الكويت الذين ارجعوا سبب
تخلفنا وعدم نزول المطر علينا بما اعتقدوا به من امور خالفنا بها الشرع!
ولا تزال مطالبة المرحوم «أحمد البغدادي» بإلغاء كلية الشريعة، صالحة، إلى
أن تغلق الكلية ابوابها الى الأبد، فقد ثبت دورها في تخريب عقول الكثير من
الدارسين فيها.

اليانور روزفلت، وحقوق الانسان

من المعروف ان الاعلان العالمي لحقوق الانسان لم يكن اصلا موجها للدول المتخلفة من نوعية دولنا العربية والاسلامية، وهدفه لم يكن يوما لإجبارنا على التخلي عن خصوصيتنا وترك ديننا، بل كان الإعلان موجها عند اقراره للدول الغربية والاوروبية، وكرد فعل طبيعي لما حدث من انتهاك صارخ وبشع لحقوق مئات الملايين من البشر، من قبل العديد من الدول التي شاركت في الحربين العالميتين، كألمانيا واليابان مثلاً.

كما كان لما اقترفته دول الاستعمار الغربي من انتهاكات لحقوق الانسان في مستعمراتها، الدور الكبير في ولادة ذلك الإعلان الهام وبهذا يبدو واضحاً ان ما يعتقده البعض بوجود مؤامرة «دولية» للقضاء على ايمان مسلمي الكويت من سلف واخوان ما هو الالفو، ولم يخطر للحظة على بال السيدة اليانور روزفلت، التي كان لها دور كبير في صدور ذلك الإعلان العظيم، وعلى الرغم من ذلك نسيناها، وأطلقنا في الوقت نفسه اسماء بعض من اكثر الحكام والدعاة دكتاتورية وعداوة لحقوق الانسان وتلاعبا بمصيره، على شوارعنا وطرقنا الواسعة والكبيرة، فمنتهك حقوق الانسان من أهلنا خير من حافظ حقوق الانسان المنتمي لغيرنا!!

وعليه يمكن القول بكل ثقة ان ذلك الإعلان كان موجها لسياسي وقادة الفكر والرأي في تلك الدول، التي خرجت منتصرة بعد الحرب العالمية الثانية، ولرؤساء وشعوب تلك الدول التي خرجت خاسرة من تلك الحرب الضروس، ولم تكن حتما موجهة لحفنة من الشعوب المتخلفة.

وعلى الرغم من كل ما يتمتع به الانسان من حرية وكرامة في العديد من دول العالم، إلا ان هذا لم يمنع مواطني تلك الدول من تأسيس منظمات متخصصة للدفاع عن حقوق الانسان فيها، حيث ان ما هو موجود في الدساتير من مواد، وما هو موجود في الدولة من قوانين تتعلق بكفالة حقوق الانسان، لا تكفي لضمان عدم انتهاك حقوق الاقليات في اكثر الدول ديموقراطية وتسامحا، فالامر يتطلب، وفي كافة الاحوال، وجود منظمات محلية ودولية «غير حكومية» تعمل في مجال حقوق الانسان وتدافع عنه، فاذا كان هذا الامر مطلوباً وصحيحاً في الدول المتقدمة فما هو الحال عندنا اذا؟

ان الادعاء بان لدينا، وضمن تقاليدنا وتراثنا، العلاج الكامل لكافة ما يتعلق بحقوق الانسان هو ادعاء لا يستند الى اي دليل، ان لم يكن العكس هو الصحيح،

وتاريخنا العربي والاسلامي الواسع والعريض، قديمه وحديثه، شاهد على ما تم اقتراحه من آثام وجرائم ونهب وبطش وخراب وقتل وتشريد باياد داخلية، ودوافع محلية وأطماع قبلية وصغائر طائفية ويكفي ان يكون العراق وهو من الدول ذات الباع الطويل اسلاميا، وعربيا في كل انواع الانتهاكات لحقوق الانسان على مدى التاريخ الحديث، الدولة الوحيدة في تاريخ البشرية التي قام حكامها بقتل مجموعة من مواطنيها من النساء والاطفال والرجال المدنيين العزل بالغازات السامة، من دون اي سبب عسكري أو مدني، وهذا فعل غير مسبوق ويستحيل حتى «تخيل» حدوثه في اية دولة شبه متحضرة في العالم!.

اننا لا نطالب هنا بتطبيق بنود إعلان حقوق الانسان بحذافيرها، فهذا حلم بعيد التطبيق تحت الظروف التي نعيش فيها، بعد ان سيطرت قوى الظلام والتخلف على الكثير من مقاليد الامور، ولكن ما نطالب به هو تفعيل وتطبيق بنود الدستور الكويتي بصورة سليمة وفعالة.

وإستطرذا لموضوع حقوق الإنسان، قمنا بكتابة النص التالي:
من السهل والمقبول اطلاق صفة «عالم» على شخص لم يتجاوز العشرين من العمر في عصر المعلومات والكمبيوتر الذي نعيش فيه، حيث ان من الممكن وجود فرد ملم إماما تاما بموضوع محدد بشكل يجعله مرجعا فيه، وهذا يقتصر على العلوم الحديثة بالطبع ولكن من جانب آخر، من الصعب ان نطلق لقب «حكيم» على شخص في مقتبل العمر، حيث ان اكتساب الحكمة مسألة أكثر تعقيدا وتتطلب الكثير من الحنكة ومعرفة أمور الحياة، وهذه أمور غالبا ما تأتي بعد معاناة وتجارب وقراءات متعددة متنوعة، وفي شتى المعارف، وعن مختلف التجارب، ودائما بعد عمر طويل.

وفي مقابلة للدكتور يعقوب حياتي في مجلة «الحدث» أعجبتني اجابته على سؤال يتعلق بتعريف المثقف حيث قال بالحرف: «إنه ذلك الانسان الذي يتمتع بأكبر قدر من الاحساس بقضايا حقوق الانسان، وعندما نجد ان هناك شخصا لديه قدر كبير من المعلومات والثقافات ولكنه يتجرد من الحس الانساني، فهذا شخص لا يعتبر مثقفا».

وهذا باعتقادي هو أجمل تعريف قرأته حتى الآن في تحديد من هو «المثقف»، حيث ان بلوغ مرتبة معرفة حقوق الانسان والايمان بهذا الامر والعمل بموجبه لا يتأتى هكذا، وبطريقة جزافية او بالصدفة، بل يسبق هذا الايمان قراءات ومطالعات شتى، وفي مختلف العلوم الانسانية، وغالبا بأكثر من لغة، ومن أكثر من مصدر ولأكثر

من حضارة. كما يتطلب أمر الايمان بحقوق الانسان الاستعداد النفسي والفكري التام للانفتاح على ثقافات الشعوب الاخرى، وتقبلها كحقيقة واقعة والتفاعل معها بطريقة ايجابية، وعدم تسطيح طريقة تفكير الآخرين لمجرد الاختلاف معهم في الرأي او في الطريقة التي يقومون فيها بتفسير مختلف أمور الحياة. كما يتطلب الأمر أيضا البعد عن تكفير الآخرين او اخراجهم من الملة والحجر عليهم وفرض الضرائب الغريبة عليهم لمجرد أن تفسيرنا للنصوص الخاصة بنا تبيح لنا ذلك!!.

تعتبر مسألة الايمان التام والعميق بحقوق الانسان، ومعاملة الآخرين كبشر ذوي كرامة واحساس، بصرف النظر عن جنس أو لون أو عرق أو دين الطرف الآخر، مسألة بالغة التعقيد وصعبة التحقيق فغالبية الناس تود أن يعاملها الآخرون بطريقة انسانية ولكنها ليست على استعداد لأن تعامل الآخرين بالمثل. كما ان نسبة كبيرة تتذرع بعدم تطبيق ما اتفقت عليه دول العالم، فيما يختص بحقوق الانسان لاعتقادها بمخالفة ذلك لقناعاتها الدينية او تقاليدها المحلية.

كما تكرر من المعارضين للإعلان العالمي لحقوق الانسان القول بأن ليس للناس كرامة في دول الغرب حيث يتم عرض النساء في الفترينات ويتم استغلالهن في الدعايات التجارية الرخيصة، في الوقت الذي صانت معتقاداتنا الدينية المرأة في دولنا من مثل هذه التصرفات الرخيصة!

ويحار المرء حقيقة في معرفة طريقة تفكير هؤلاء، وهل يتكلمون عن قناعة تامة أم أن الأمر ليس إلا ترديد ما تعودنا على تكراره من قول ولقرون عديدة من دون ان نفقه ما تجره هذه الأمور علينا من مصائب وويلات.

من المعروف لكل ذي فهم واطلاع، ولو قليل، ان ما يتمتع به الفرد الغربي من حرية في التفكير والاعتقاد والاحساس التام بأنه يمتلك، والى درجة كبيرة، حرية التصرف والحركة، والأهم من كل ذلك يمتلك الاحساس الطاعى بالكرامة الانسانية بدرجة تفوق بأضعاف ما تشعر به بقية شعوب دول العالم وهذا الأمر ينطبق على الذكور كما ينطبق وبالمقدار نفسه على الاناث وعليه من سخف القول بأن كرامة المرأة الغربية مهانة، مقارنة مثلاً بكرامة المرأة العربية والمسلمة عموماً فهذه التعبيرات تكاد ان تضحل من قاموس العديد من الدول العربية والاسلامية، بالذات بعد ان توقف استعمالها تماماً في القرون العشرة الماضية على الاقل!!.

اما ما ندعيه بأن الحرية «لدينا» تجوع ولا تأكل بثديها هو كلام يحمل من السخف بقدر ما يحمل من تناقض، فما يتسرب من احصائيات وأرقام عن حالات الفساد الاخلاقي الموجودة في مجتمعاتنا والتي نحاول ان ننستر عليها «بنواجذنا»، أمر لا يمكن تصديقه. ويبلغ بنا الهوس بمسألة الستر الى درجة طلبه من الحضور

حتى عندما نكثر من الضحك أمامهم!

ومن المفارقات الأخرى ما تعود الكثيرون منا على ترداده بأن ما تطالب به المنظمات العالمية لحقوق الإنسان من ضرورة تطبيق بنود الإعلان العالمي هو تدخل سافر في أمورنا الداخلية، فانه لا يعدو ان يكون نوعا من التناقض الواضح في التصرف. فعندما كنا تحت الاحتلال وكانت أعراضنا تنتهك وكرامتنا تهان وأرواح أهلنا تزهق كنا نستصرخ دول العالم ونطالب منظمات حقوق الإنسان بالتدخل والوقوف إلى جانبنا وحفظ حقوقنا كبشر نستحق الحياة وما ان عادت بلادنا لنا وأصبحنا نقف على أرض صلبة رفعنا صوتنا رافضين تصرفات تلك المنظمات منددين بتدخلها في خصوصياتنا رافضين السماح لها بالعمل من أراضينا.

أما القول بأن علينا الأخذ من ذلك الإعلان ما يتفق و«خصوصيتنا العربية والاسلامية»، فهو قول يحتمل أكثر من تفسير وي طرح أكثر من سؤال فمن الذي له الحق في ان يقرر ما المقصود ب«خصوصيتنا»؟ وما هي حدود تلك الخصوصية؟ وهل هناك اتفاق تام وبات بين الجميع بأن الدين، أي دين كان، يعارض حقوق الانسان، وحقه في ان يعيش بحرية وكرامة؟ ويصبح الأمر مضحكا، وربما مبكيا، لو قامت كل دولة باختيار ما تحب وتشتهي من بنود الإعلان العالمي لحقوق الانسان والتي تتلاءم وخصوصيتها، عندها ستكون الدول الصغيرة والتي تعيش في مناطق الخطر، الأكثر تضررا من مثل هذا الأمر، وتصبح بنود الإعلان لا تساوي ثمن الحبر الذي كتب به.

فوائد اللحية ونصفها

ربما بسبب الكسل، أو رغبة في تغيير بعض من ملامح الوجه بعد نصف قرن تقريبا، أو ربما في حركة احتجاج أو تبرم لا ارادية لما نسمع ونقرأ من سخف القول وما نشاهد من قلة الفهم في التصرف ممن نصبوا أنفسهم أولياء على أخلاقياتنا وتصرفاتنا، فقد تركت شعر ذقتي لينمو خلال فترة عطلة العيد، وبقيت هكذا حتى تاريخ كتابة هذا المقال، ولكن يبدو ان ايام بقائها «متريعة» على وجهنا قد اصبحت معدودة بالرغم من ثراء وغرابة التجربة التي مررت بها.

فقد لاحظت أن إيماءاتي الجسدية، اصبحت أقل وأكثر بطئا، واصبحت اتحرك بتثاقل واضح. كما زادت نسبة من اصبحوا ينادونني بلقب «حجي» أو عمي الحاج!! كما اصبحت اللحظات الاولى التي تتبع قيامي من النوم اكثر سعادة فور تذكري بأنني غير مجبر على القيام بعملية الحلاقة اليومية المعتادة التي تشمل الشارب واللحية وغير ذلك من رتوش ونتوش ونتف وحف!

كما لاحظت اختلافا واضحا في طريقة معاملة موظفي الحكومة، وخاصة الملتحين منهم، مع مراجع ملتح مثلهم، فقد بادرنى احدهم قبل ايام بالقول اثناء دخولي عليه بخصوص اعتراض الوزارة المعنية على مخالفة غير مقصودة تضمنها اعلان تجاري قمت بنشره قبل مدة، حيث قال انه يعتذر عن طلب حضوري شخصيا لتوقيع التعهد، وان من الواضح أنني شخص مختلف! وان العقوبة قد وضعت اصلا لفئة لا ينتمي هو، أو أنا، او من هم على شاكلتنا لها. وانه كان بإمكانني الاكتفاء بإرسال من يمثلني لكي تنتهي معاملتي، او مخالفتي بدون حضوري شخصيا.

وقد ابتسمت في داخلي، وقلت في نفسي، آه، لو يعلم الحقيقة لما تردد في شق ملابسه الداخلية قبل الخارجية، وجعلتني ملاحظته القيمة والمفيدة» لأن أفكر في العشرات، بل الآلاف، من الملتحين الذين التقي بهم كل يوم وفي كل مكان، وهل هم حقا من الطيبين الطاهرين الخالين من الاغراض والنوايا والوصولية؟ وكم منهم مر بمثل ما مررت به من تجربة وترك لحيته، بطريق الصدفة، لكي تنمو واكتشف فائدتها فتركها على سجيته بعد ان «توكل» وقرر ان يستثمرها في تحقيق مآربه والوصول عن طريقها لأعلى المناصب وهو ابعد ما يكون عن التقوى والتدين الصحيح؟ وكشوف اسماء مساجين الكويت من «المشاهير» السابقين خير دليل على ما نقول!!

من التعليقات الطريفة والمفيدة التي سمعتها عن «لحيتي» أنها قد زادتني

وقارا بعد ان اصبحت أبدو اكبر من عمري الحقيقي بعشر سنوات على الاقل، ولم يعجب هذا القول السيدة حرمننا بالطبع، فقد اضيفت الزيادة نفسها لعمرها بصورة تلقائية كما «اكتشفت» من صديق عزيز ان من فوائد تربية اللحية ما يتم وفرة من مبالغ لشراء شفرات حلاقة ورغوة الصابون وكريمات ما بعد الحلاقة إضافة إلى الكولونيا، إضافة إلى وفر آلاف لترات الماء شهريا. كما ان تربية سكسوكة صغيرة او نصف لحية يمكن ان توفر على صاحبها نصف التكاليف اعلاه على الاقل إضافة الى الفوائد «الاستراتيجية» التي سبق وان ذكرناها والمتعلقة بالترقية وسرعة إنجاز المعاملات.

قصة أمجد الدهان

يعيش المواطن الكندي، صديقنا أمجد الدهان، في الكويت منذ أكثر من ربع قرن، كان خلالها مثال المقيم الصالح والمستقيم.

استجاب أمجد قبل ايام لطرقات على باب سكنه الواقع في منطقة السرة، وعندما فتح الباب وجد نفسه أمام ثلاثة مواطنين من أصحاب اللحى الكثة يلقون عليه السلام ويطلبون منه، دون معرفة مسبقة بشخصه وانتمائه، مرافقتهم الى مسجد المنطقة لسماع دروس في الدين الإسلامي! اعتذر أمجد لهم بلباقة، وتعلل بانشغاله في ذلك اليوم فسألوه عن ابنائه الذكور، وعما اذا كان يرغب في ارسالهم الى المسجد لسماع دروس دينية تتفهمهم، فاخبرهم أمجد بأنهم موجودون خارج البلاد للدراسة!

أعتقد ان من الصعب إثبات ان الاحزاب الدينية المسييسة في الكويت مرتبطة بشكل مباشر بالتنظيمات الارهابية الدولية او انها لها علاقة مباشرة بالعمليات الارهابية التي وقعت اخيرا في السعودية والدار البيضاء ولكن ما يوجد بينهما من خيط رفيع وقديم، قدم العمليات الارهابية نفسها، يشبه العلاقة بين الجهة التي تقوم بصنع قطع غيار المعدات والآلات وبين من يقوم بشراء تلك القطع وإضافتها الى آلة ما لتقوم بعمل محدد. فمصنع قطع الغيار يقوم بكافة الأعمال الأساسية من شراء المواد الخام واجراء مختلف العمليات المختبرية عليها طبقا لرسوم هندسية محددة ويقوم بعدها بخلط المواد وتجهيز القطع للصنع واجراء الاضافات اللازمة عليها ومن ثم تعليبها وشحنها الى الدول أو الجهات التي ترغب في استعمالها، وتنتهي بذلك مهمة المصنع الحيوية والاساسية وهذا يشبه، الى حد كبير، ما تقوم به الجمعيات الواقعة تحت مظلة الأحزاب الدينية، سواء في الكويت او في غيرها من الدول الاسلامية فهي لا تقوم بتجنيد عناصر الخلايا الارهابية بصورة مباشرة، ولكنها لم تتوقف يوما عن صنع قطع الغيار وجعلها في متناول أي طرف يرغب في استعمالها، او استغلالها في الهدف الذي يلائم مصالحه.

وعليه، يمكن القول انه لولا الوظيفة المهمة والخطيرة التي يقوم بها المصنع لما توفرت للمستهلكين، او المستعملين النهائيين، القطع نمطية التصنيع، او الكوادر المتشابهة والكافية. فصنع قطعة غيار واحدة في ورشة بدائية، او اقناع شخص ما بلف نفسه بعشرات العبوات الناسفة وتفجيرها في مكان عام بهدف ايقاع اكبر عدد من الضحايا والتسبب في تقطيع جسده الى مئات القطع في سبيل هدف سياسي

لا يعرف عنه الكثير، أمر ليس بالمتعذر ولكن صنع قطع نمطية متشابهة 100 % في ورشة بدائية، أو تجنيد العشرات من الشباب واقناعهم بالقيام بمجموعة من العمليات الانتحارية في وقت متزامن دون أن يصيب أحدهم الخوف فيتراجع أو يشي برفاقه، فانه امر صعب جدا ويحتاج الى مصنع! وهذا بالضبط ما تقوم به بعض الجمعيات واللجان في مختلف الدول الاسلامية، والعربية بالذات وهنا مكنم الخطر من هذه الجمعيات التي لم نتوقف يوما عن التحذير من خطورة وجودها بأكملها!

فهل نتعلم ونتعلم من أخطائنا وأخطاء غيرنا؟
ملاحظة: «أوجد الدهان» لبناني و«روم أرثوذكس»! وتاريخ المقال يوليو 2003

الدهان والأسد

ذكر الكاتب اللندني «خالد القشطيني» في كتابه «السخرية السياسية العربية»، الذي كتب اصلاً باللغة الانكليزية، ان العرب القدماء كرهوا الصناعات والعمالين فيها واحتقروا اربابها فالسيد العربي النبيل في اعتبارهم، لا يجمع امواله من العمل اليدوي، بل من الغزو، أو التجارة مثلاً. ولهذا نجد ان العرب، الذين يعتقدون انهم اصلاء، تكثر بينهم اسماء مثل: صخر وسيف واسد وليس بينهم من سمي بخياط وحداد ونجار، وهي التي عادة ما تطلق على ابناء المدن. وعلى ذلك فإن أداء أي من هذه الصناعات كان يجلب عادة السخرية، أو المهانة، لممارسيها، ولهذا سميت الوظيفة بالمهنة. وقد تحمل عبدالرحمن البزاز، رئيس الوزراء العراقي الاسبق، الكثير من التهكم في حملته الانتخابية بسبب اسمه الذي يعني بائع الاقمشة. وقد اخطأ الكاتب القشطيني القول عندما قصر امر كراهية الاعمال اليدوية على العرب القدماء، فالظاهرة لاتزال مستفحلة وتتخر في العقل العربي بشدة، وليس ادل على ذلك مما ذكره عن البزاز، وهي شخصية معاصرة وليست من العرب القدماء. وأذكر شخصياً ذلك الانتقاد الشديد الذي وجه إلى الحكومة، قبل الغزو بفترة، لتعيينها عسكرياً مرموقاً في منصب رفيع، بالرغم من إنتماءه لعائلة «صناعية».

ومن المآسي التي عاشها، ولايزال يعيشها قطاع كبير من الشعب العربي في الجزيرة العربية والعراق كراهية الذكور لفكرة العمل اليدوي ويبدو الامر اكثر مأساوية في العراق، حيث تضطر المرأة في مناطق كثيرة منه للقيام بكل الاعمال، داخل المنزل وخارجه، لأن الرجل يرفض العمل، ويفضل الجلوس في المقهى. وربما نعتبر الشعب الوحيد في العالم الذي لم يقم حتى الان، وعلى الرغم من كل ما ندعيه من انتماء للحضارات بالاستفادة حتى من اكثر الظواهر الطبيعية بساطة وكرماً في العالم. ففي أعالي منطقة الخليج، وبين خلجان وأهوار العراق، تقوم الطبيعة في اليوم الواحد بعملتي ري طبيعيتين. وبالتالي لا يتطلب الأمر من اهالي تلك المنطقة غير وضع البذور في الأرض لتقوم الطبيعة بالباقي، وليحصل بعدها على إنتاج زراعي وفير، وبأقل جهد بشري، ولكن نجد بدلاً من ذلك ان قلة على استعداد للقيام بهذا الجهد البدني البسيط، ليس كسلاً فقط، بل باعتباره عملاً يدوياً «دونياً» لا يجدر بالرجال القيام به، فدورهم في الحياة ينحصر في ارتداء افخر الثياب واثقلها والجلوس في المقاهي واحساء عشرات فناجين الشاي في

اليوم الواحد، ولسبعين سنة كاملة، على حساب المرأة.
ان التصدي لهذه الامراض الاجتماعية وكشفها، سواء بالحديث او الكتابة عنها،
ومحاربتها من خلال وسائل الاعلام والمناهج الدراسية هي التي يجب ان تشغل
«مفكرينا» و«رجال الدين» عندنا بدلا من التفرغ للتنظير السطحي وتكفير القريب
وتأثيم البعيد، ولكننا أمة كتب عليها الشقاء، ليس لسوء حظها، بل لجهلها.

الحرير والتكيف

نقوم مرات بالتعليق او الاشارة لرسائل القراء التي تردنا، خاصة تلك التي لا نرد عليها مباشرة، الا ان رسالة القارئ خالد البحر، التي وردتنا عن طريق الإيميل، تعليقاً على قصة تأسيس جامعة «ستانفورد»، التي تطرقنا إليها في مقال سابق، وما ذكره من اسباب تتعلق بتخلفنا، التي ارجعها إلى حياة التناقض وال«هيبوكريسي» التي نعيشها جميعاً، لفتت انتباهنا إلى أمر غاية في الطرافة والخطورة في الوقت نفسه.

فالكثيرون منا، والرجال بالذات، يستكبرون على انفسهم والآخريين ارتداء الفاخر والرفيق من الثياب، كالحرير مثلاً، كما يطالبون الآخرين كذلك بالتخشن في حياتهم وتجنب لبس الذهب او التجميل به. وكثيراً ما لفت زبائن المحل، الذي يعمل به احد ابنائى، نظره الى سلسلة الذهب التي يعلقها في عنقه، طالبين منه التخلص منها، غير عارفين السبب الحقيقي الذي يجعله يصر على لبسها الى هنا والامر قد يبدو معقولاً للبعض، كما كان الامر معنا، الى ان قرأنا رسالة القارئ البحر، التي جعلتنا نتساءل عن مدى منطقية هذه المطالبات، واكتشفنا بعد تفكير قصير ان هذا الامر يمثل في الحقيقة حياة التناقض التي تعيشها غالبيتنا.

فالرجال يحرمون على أنفسهم لبس الحرير ويقولون انه خلق للنساء، وان عليهم ان «يخشوشنوا، لان النعم زائلة»، وهذا معقول ومقبول في الكثير من الظروف ولكننا نقوم في الوقت نفسه باستعمال الهواتف النقالة لا يصلح رسائلنا بدلاً من الذهاب راجلين لتسليمها. كما اننا توقفنا منذ عقود عن ركوب الخشن من الدواب، واستعضنا عنها بالسيارات الفارهة ذات المقاعد المريحة والمكيفة لقضاء حوائجنا. كما اصبحنا جميعاً نميل إلى استعمال المصاعد الكهربائية للصعود إلى الطوابق العليا والنزول منها بدلاً من استعمال الادراج الخرسانية او الحديدية، وننفق جميعاً مئات آلاف الدنانير لشراء المريح والواسع من البيوت، ونختار احسن واغلى الاحذية المصنوعة من جلود تزيد اثمانها على الحرير بعشرات المرات.

اننا لا نشجع بطبيعة الحال لبس الحرير والذهب، ولكن هل نحن على استعداد لتطبيق المبدأ على انفسنا بشكل عام؟ ان التحريم، إن كان هؤلاء ما يؤيده، ربما كان يعود لعهود كان فيها لبس الحرير يمثل قمة الترف والتباهي، ولكن الطريقة التي تعيشها غالبيتنا الآن، ومنهم المعترضون على لبس الحرير والذهب بالذات، الغارقون في آلاف ادوات ووسائل الراحة والترف، كفضيلة بجعل الكلام عن هذا الموضوع مسألة مضحكة، فهناك اقمشة تبلغ اثمان المتر منها اضعاف ثمن الحرير، ولكنهم يا أبتى لا يفقهون.

المدخلة التي كشفت الخواء القومي

توجد في مياه بحر الكويت سمكة تسمى «العومة»، لا يود احد الاعتراف بأنه يستسيغ طعمها، ولكن البعض يتناولها بكل سرور، فهي بالتالي «مأكولة مذمومة». وعلاقتنا، ككويتيين، مع قناة الجزيرة تشبه علاقتنا مع العومة، حيث نقوم جميعا بمهاجمة القناة ونخون خطها وندين مقدمي برامجها، ولكن ما ان يشتد النقاش حولها حتى نكتشف فجأة ان نسبة عالية منا، تقوم بمشاهدة برامجها، خصوصا «الاتجاه المعاكس» و«الرأي الآخر».

واعتقد، مخلصا، ان من عدم الادراك دفن الرؤوس في الرمال ومحاولة تجاهل وجود هذه القناة المثيرة للجدل، سواء في خطها او في نوعية برامجها، فهي قناة تشد الملايين لمشاهدتها، ومن الافضل بالتالي استغلالها والاستفادة من قوتها وانتشارها للدفاع عن قضايانا ومواقفنا ووجهات نظرنا، بدلا من تجاهلها، خصوصا ان الساحة اصبحت الان اكثر من ممهدة امامنا، بعد زوال قوى الدفع الصدامية وان لم نربح من تواجدنا فيها فلن نخسر اكثر مما خسرنا حتى الان في معركتنا الاعلامية ضد التخلف والجهل العربيين!

* * *

يتساءل الكثيرون عن الاسباب الكامنة وراء ذلك الحب المفقود او الهجوم المستمر الذي تشنه قناة الجزيرة، والى حد ما قناتا «العربية» و«ابوظبي»، على مواقف الحكومة الكويتية وعلى تصرفات الكويتيين بشكل عام؟ وتفسير ذلك، من وجهة نظرنا، بسيط ومعقد في الوقت نفسه. فهذه القنوات انشئت لكي تبقى وتنجح، سياسيا واعلاميا وعليها، لكي تبلغ هذا الهدف، اختيار المواضيع التي من الممكن ان تشد المشاهد، وتخلق في الوقت نفسه اكبر درجة من الجدل والنقاش حول برامجها ولهذا لم تهتم هذه القنوات يوما بالحرب الاهلية في السودان بين المسلمين والمسيحيين والوثنيين ولم تعط قضية كالرق في موريتانيا او مشاكل جزر القمر، أو صراع المهرة والحضارمة ضد قبائل الشمال في اليمن اي اهمية. كما لا تعتقد هذه القنوات ان مشاكل البوليساريو مع الحكومة المغربية وصراع الاخيرة مع الجزائر واستعمار اسبانيا لمدن وجزر مغربية، يمكن ان تكون قضايا تشد المشاهد العربي، والمشرقي بالذات، وتشير غيرته وحميته ليقوم بالاتصال والمشاركة في النقاش وفي الاستفتاءات الغبية، وبالتالي تصبح قضية العلاقة العراقية - الكويتية، التي بدأت بغزو العراق، ذي الموارد والامكانات الهائلة، والذي يفتك الفقر والمرض

والجهل بنسبة كبيرة من شعبه بسبب الحكم الدكتاتوري، الذي نكب به العراق على مدى أكثر من نصف قرن، واستماتته في التحكم بالكويت الصغيرة والغنية والمميزة ثقافيا وسياسيا والمبدعة فنيا والمستقرة امنيا. وبالتالي تصبح العلاقة بين الدولتين الجارتين موضوعا يجذب حتما المشاهد العربي، ويثير اهتمامه وحميته «القومية»، وهو الاهتمام الذي بدأ مع بدء «الحالة» الكويتية - العراقية، التي استمرت مع استمرار تعنت العراق ورفضه القرارات الدولية المتعلقة بالرقابة على اسلحة الدمار الشامل لديه، الامر الذي ادى إلى استمرار الحصار عليه والى قيام حرب الخليج الثالثة التي ادت الى تحرير العراق من حكم صدام ووقوعه تحت احتلال دول التحالف بقيادة اميركا.

خلاصة القول، إن موضوع الكويت مثير للجدل. فشعبها المرفه محسود، واستقراره مثير للغيرة، وما قام به من دور كبير في عملية التخلص من صدام، وازالة الكابوس المخيف الذي جثم على صدر اهلها وكان مصدر تهديد دائم لوجودها، لا يمكن تفهمه من قبل بقية الدول الاخرى خارج اطار تأمر دولة عربية مع قوى اجنبية على احتلال ارض عربية اخرى، وهذا هو المثير، وهو الذي يمكن استغلاله للنش عن الدفين من الغرائز في النفس العربية المعذبة، وتسخيره اعلاميا لخدمة اغراض معينة!.

شاركت قبل اسبوعين تقريبا «سبتمبر 2003» في برنامج «الاتجاه المعاكس» الذي تبثه قناة الجزيرة. وعلى الرغم من كل الملابس التي أحاطت بموضوع الحلقة وبشخصية الطرف الآخر المشارك فيها، وهي الملابس التي منعتني بالتالي من التحضير المسبق للحلقة، حتى بكلمة واحدة، إلا أنني اعتقد، ومن خلال مختلف ردود الفعل التي وردتني، ان أدائي لم يكن سيئا، مع الأخذ بالاعتبار ان الكثيرين ربما فضلوا عدم مشاركتي بحقيقة آرائهم في البرنامج، ولكن هذا ليس موضوع مقال اليوم.

طرح مقدم البرنامج سؤالا في صورة استفتاء على المشاهدين وطلب منهم المشاركة في الاجابة عنه بنعم أو لا، وكان السؤال: هل كان تحرير الكويت عام 1991 على ايدي القوات الاميركية، مجرد مقدمة لاحتلال العراق عام 2003؟ كانت الاجابات في النصف الاول من البرنامج 82% نعم و18% لا ثم تعدلت النتيجة قليلا مع نهاية البرنامج لتصبح 72% نعم و28% لا. وبترتيب مسبق، شارك «خير الدين حسيب»، رئيس مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، في مداخلة تتعلق بموضوع الاستفتاء، ليقول ان غزو العراق عام 2003 كان يرتب له منذ عام 1988 عندما زار الجنرال شوارتزكوف المنطقة وكلف مرة اخرى بزيارتها

عام 1989 لتحديد الأخطار التي تواجه أميركا، ورفع تقريراً قال فيه ان العراق يمثل الخطر الأساسي على مصالح أميركا وهكذا بدأت الحملة على العراق منذ بداية عام 1990، سواء بالتضييق عليه او باجراء المناورات العسكرية المختلفة في المنطقة! وقال ان الكويت قامت بزيادة انتاجها من النفط وهكذا انخفضت الاسعار في العالم، ولكن الكويت لم تتأثر، فقد خسرت في جانب وربحت في جانب آخر، أما العراق فقد تأثر اقتصاديا من انخفاض اسعار النفط، وكان رد فعل صدام غزو الكويت!

وختم رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية مداخلته بالقول إن الغزو كان من الممكن ان يعالج ضمن حل عربي، لولا اصرار أميركا على محاربة العراق، وذلك عندما قام الجنرال شوارتزكوف في 8/4 بزيارة الى السعودية حيث أعطي الضوء الاخضر، وقام بأخرى إلى مصر يوم 8/5 التي وعدت بالمشاركة بقواتها، وعقد مجلس الجامعة اجتماعا في 8/10 للتغطية على الموضوع والتمهيد لخراج القوات العراقية من الكويت عن طريق أميركا، على الرغم من وجود اتفاقية عربية تتعلق بالدفاع المشترك!

وأصر حسيب مرة أخرى على أن تحرير الكويت عام 1991 كان مقدمة لغزو العراق عام 2003.

أولا: كان السيد حسيب يصف نفسه دائما بالمعارض لنظام الحكم السابق في العراق ولكن ما ان تبين أن النظام في خطر حتى ظهر المدافعون عنه، وبدأوا بالكشف عن حقيقتهم، ومنهم هذا الشخص، الذي ظهر في قناة العربية، في الايام الاخيرة لانهايار نظام صدام ليبشر «المعجبين» به في العالم العربي، وما أكثرهم، بأن صدام حي ولا يزال يدافع عن العراق!

ثانيا: من السذاجة القول إن تحرير الكويت كان مقدمة لغزو العراق فقد كان بإمكان أميركا بعد انتهائها من تحرير الكويت عام 1991 اجتياح العراق برمته دون أدنى مقاومة بعد ان انهار جيش العراق و«شرد» حرسه الجمهوري الأشوس في البراري، خاصة ان قواتهم وعتادهم وأسلحتهم كانت في المنطقة وبالتالي لم يكن هناك سبب يدعو أميركا للانتظار 13 عاما، ومن ثم التحضير لغزو العراق بتكاليف فاقت في مراحلها الأولى الخمسين مليار دولار لجلب الجنود والعتاد والاسلحة إلى منطقة سبق أن كانوا فيها قبل 13 عاما!

ثالثا: اذا كان السيد حسيب، بجهاز مركز دراساته المتخلف، يعلم بنوايا أميركا العدوانية ويحذر منها، فلا بد ان سيده، الفطحل الآخر، بكل أجهزة التجسس والتنصت وقرون الاستشعار التي كانت لديه، على علم افضل بخطط أميركا

ونواياها فلماذا لم يحتط للأمر، سواء بالرضوخ للمطالب الدولية وقبول التفتيش، أو بإطلاق قذيفة واحدة فقط تصيب هدفها .

رابعا: لماذا لم أقل كل ذلك في البرنامج ردا على تلك المداخلة البائسة؟
الجواب: لأنني لم أكن اعرف حقيقة الرجل من جهة، كما لم أكن أعرف ان محور البرنامج سيكون ذلك الاستفتاء المضحك!
ولكن، وعلى الرغم من كل ذلك، مازلت اعتقد ان من واجبنا المشاركة في برامج قناة الجزيرة، واستغلالها للدفاع عن قضايانا .

كيف ندخل التاريخ؟

لماذا يتجه كل هذا العدد الهائل من الطلبة، من الجنسين، بمحض ارادتهم، من خريجي المدارس المتوسطة او الثانوية في جميع الدول الاسلامية الى الدراسة في المعاهد الدينية وكليات الشريعة والحوزات الدينية؟.

ولماذا ترسل نسبة كبيرة من الاسر ابناءها للدراسة الدينية وهم صغار، دون ان تنتظر لتعرف حقيقة ميولهم الدراسية وقدراتهم العقلية؟.

ولماذا لا تزال حكومتنا تصر، ليس فقط على استمرار صب المئات من خريجي كلية الشريعة في سوق العمل، مع انعدام الحاجة لتخصصهم، بل وعلى زيادة المشكلة بايفاد المئات من خريجي الثانوية العامة سنويا لدراسة الشريعة على حسابها في الاردن والامارات ومصر وغيرها؟.

هل نحتاج حقا الى كل هذا العدد الهائل والمخيف من خريجي المعاهد والكليات الدينية في مجتمع مدني، يفترض ان يكون متحضرا وتحكمه مجموعة متقدمة من القوانين والشرائع العصرية، وبوجود سلطة تشريعية واضحة المهام والمعالم؟!. ما الذي يجعل، او يشجع، هؤلاء على نبذ الدراسات العلمية، والاتجاه إلى الدراسات النظرية؟.

لماذا لا نجد لدينا من يهتم بالأعمال التي يصاحبها التعرق واتساخ الملابس واليدين؟

هل يعود ذلك إلى ما تكنه مجتمعاتنا من احتقار بالغ لكل صاحب حرفة؟ ام بسبب ما تشكله مهنة رجل الدين من جاذبية ووقار للبعض، وما يتمتع به مزاولها من وضع اجتماعي مقبول؟

ام ان مهنة رجل الدين جاذبة بسبب سهولة اكتساب معارفها ودخلها المضمون وما يصاحب مزاولتها من راحة لا تتطلب غير الكلام وقول ما يود الآخرون سماعه؟ اسئلة عديدة ليس من السهل الاجابة عنها، ولا تكمن الصعوبة بالطبع في الجواب، بقدر تعلقها بالمناخ المتزمت الذي نعيش فيه وبعصبية التخلف المورثة التي تتحكم في الكثير من افعالنا، والتي تمنعنا عادة من قول ما نريد بالطريقة التي نريد، دون ان نتعرض للاذى المادي او المعنوي او كليهما!!

لكن لا يعني هذا ترك هذه القضايا دون التصدي لها بطريقة او بأخرى، وهذا ما نقوم به ونقوم به مجموعة قليلة من الزملاء الكتاب الذين انحصرت فيهم عملية القيام بإيصال هذه الرسالة الاجتماعية المهمة، من خلال زواياهم الصحفية

المتواضعة، مقارنة بما في يد الحكومة. وقوى التخلف، من وسائل اعلام واسعة الانتشار. وبالتالي من المهم التركيز على دور وزارة التربية ومناهجها الدراسية، التي يمكن عن طريقها فقط تغيير طريقة التفكير عند الفرد وهو صغير. انها مهمة ليست بالهينة، ولكنها ليست بالمستحيلة في الوقت نفسه، فقد سبق ان طبقت في عشرات الدول الاخرى وثبت نجاحها، ولكن هل هناك من هو على استعداد لان يأخذ زمام المبادرة ويخلد اسمه في التاريخ؟ اشك في ذلك!

شجون اللغة العربية

تتعرض اللغة الحية، كما يتعرض الانسان، وبشكل متزايد، الى مختلف الامراض التي تتطلب عمليات نقل دم لها من لغات أخرى. وعندما تقفل الابواب امام تدفق الكلمات الجديدة تموت اللغة. وهذا القول ينطبق على اللغات كافة، والعربية ليست استثناء، وهي لولا القرآن، لكانت مكانتها ووضعها، من ناحية الانتشار والتنوع والغنى مختلفا جدا.

توجد في العالم اكثر من 2700 لغة معروفة ومدونة وتعتبر الانكليزية اكثرها غنى بمفرداتها، فقاموس «اكسفورد» مثلا، كان يحتوي عام 1985 على 500 ألف كلمة ولك ان تتصور عدد الكلمات الجديدة التي ادخلت على هذه اللغة منذ ذلك التاريخ، وكان آخر تلك المحاولات قبل ايام عندما ادخلت ثلاثة آلاف كلمة جديدة عليه من اللغة الانكليزية الدارجة، والتي أخذت من واقع الحياة، مثل وباء «سارس» ومن اعمال ادبية وتلفزيونية شهيرة، ومن عالم الموسيقى الشعبية ومن الانترنت والفضاء والطب والكمبيوتر، وهي المجالات التي شملتها تطورات هائلة خلقت عشرات آلاف الكلمات والتعبيرات الجديدة. ويضاف الى هذه الثروة من الكلمات الانكليزية الاميركية نصف مليون آخر من المصطلحات الفنية والعلمية غير المفهرسة ولو قمنا بمقارنة ذلك بلغة دولة عظيمة ومتقدمة، مثل المانيا، لوجدنا ان عدد كلمات لغتها لا تتجاوز المائتي الف كلمة بكثير، ونصف ذلك العدد للغة الفرنسية! اما عدد كلمات اللغة العربية الموجودة في كتب مثل «لسان العرب المحيط» او «مختار الصحاح» فلا اعتقد انها تتجاوز الثلاثين الفا بكثير، واشك في وجود من يعرف حقيقة عدد كلمات لغة «الضاد» لسبب بسيط يعود الى عدم وجود مصدر واحد يمكن الرجوع اليه والخروج برقم يمثل عدد كلمات اللغة العربية، وإلى حقيقة أن الكلمة الواحدة تكتب بأشكال مختلفة، في المفرد والجمع والمذكر والمؤنث، وهكذا. يحدث ذلك بوجود خمسة مجامع للغة العربية في دمشق وعمان والقاهرة والرباط، وحتى في بغداد. وقد تعرض بعضها للكثير من السخرية بسبب المحاولات المضحكة التي لجأت اليها عند تعريب بعض الكلمات فكلمة «ساندويتش» المأخوذة اصلا من اسم اللورد ساندويتش، الذي كان اول من ابتدع هذه الطريقة العملية في تناول الطعام اثناء اللعب او العمل، عربت من قبل مجمع القاهرة كالتالي: «شاطر ومشطور وما بينهما كامخ او طازج»، وغير ذلك. وعلى الرغم من تعدد زياراتي للمراكز التعليمية والثقافية الاجنبية واختلاطي

بمستشرقين اجانب سبق لهم ان امضوا سنوات في مختلف الدول العربية، لسبب او لآخر، الا انني استطيع القول انني لم اقابل قط من يتقن نطق اللغة العربية من غير اهلها. كما لم اقابل حتى هذه اللحظة من العرب من يستطيع الادعاء بمعرفة كافة اسرار اللغة العربية وتعقيداتها، ولا ننسى هنا ما ذكره احد اساطين اللغة، الذي ربما يكون الخليل بن احمد الفراهيدي، والذي قال، وهو على فراش المرض، انه يموت وفي نفسه شيء من «حتى»، التي لم يستطع اعرابها!

ولو قلنا إن هناك من يعرف اسرار اللغة ودهاليزها، فان عدد هؤلاء لا يمكن أخذه في الاعتبار لقلته، وبالتالي ليس لها وزن يذكر، وتصبح الحقيقة التي يجب الاعتراف بها ان الغالبية العظمى من المتعلمين، وما اقل نسبهم، عاجزة عن فهم وادراك قواعد اللغة العربية كما يجب ان تدرك وتفهم، وكل ذلك يعود لصعوبة اللغة وشبه استحالة الالمام التام بقواعد نطقها وكتابتها. كما اصبح الكثير من الادباء والمبدعين، وفي اكثر من مجال، يتعاملون مع اللغة بالطريقة التي يعتقدون انها صحيحة، والتي قد لا تكون كذلك بنظر بعض اللغويين!

من كل ذلك يتبين بشكل واضح ان هناك حاجة ماسة لتطوير اللغة العربية لتصبح اكثر سهولة، سواء في طريقة التعليم او في طريقة الاستخدام، بحيث تصبح لغة طيبة سهلة، مع عدم الاخلال، في الوقت نفسه، بالقدرة على فهم لغة القرآن وكتب التراث والأدب وهذا يحتاج بالطبع الى جهد وعلم وخبرة نعلم جيدا أننا من غير الحائزين على اي منها كما انه موضوع شائك ومعقد سبق ان اتعب وأعيا الكثيرين قبلنا ولكن يجب ان لا يمنعنا هذا من توضيح ما يستحق الملاحظة، واقتراح ما يستحق التفكير، خاصة ان الاجتهاد في مثل هذه الامور لم يحرم بعد، وما اكثر المحرمات في مجتمعاتنا كما اننا لا نتوقع اجرا على اجتهادنا.

وقبل الدخول في موضوع اقتراحنا المتعلق بجعل اللغة العربية أقرب لروح العصر، وهو موضوع نعتقد أن تحريك الجبال ربما يكون أهون منه، وهذا لا يعود إلى صعوبة الاقتراح بقدر ما يعود إلى العقليات الجامدة والكارهة لعملية التطوير والتجديد التي تسير الكثير من أمور حياتنا، دعونا نتطرق للملاحظات الثلاث التالية:

الأولى وردت في كتاب «السخرية السياسية العربية» لخالد قشطيني، والذي يتعلق في أحد فصوله بالصراع الأدبي والسياسي الذي نشب في مصر في الثلاثينات من القرن الماضي بين السياسي والأديب محمد حسين هيكل، وأديب اللغة العربية الكبير طه حسين وكان موضوعه اللغة العربية القديمة المعهودة حيث حاول هيكل، بطريقته الخاصة، الكشف عن حقيقة مكانة طه حسين اللغوية فقام

بوضع جدول بالأخطاء الاصطلاحية التي أخذها عليه في بعض ما كتب فرد عليه طه حسين بالإشارة إلى الأخطاء التي وقعت لهيكل في مقاله بعينه! وهذا أمر لو أمعن فيه الكثيرون، وخاصة من محبي وطلاب تعلم «العربية»، لما شجعهم ذلك كثيرا على تحصيلها.

أما الملاحظة الثانية فتتعلق بما نبديه، جميعا بشكل عام، من اهتمام يصل إلى درجة الشغف والوله، بطريقة القاء الخطباء وملاحظة مخارج الكلمات عند مذياعي نشرات الأخبار مثلا والتعليق على طريقة نطقهم، وهذا ما يجعلنا عادة نعطي اهتماما أكبر لطريقة الكلام على حساب الموضوع، بحيث نتحول إلى مدرسي لغة في فصل دراسي بدلا من منصتين لمحاضرة أو شرح تفصيلي لقضية أو نظرية ما، الأمر الذي كثيرا ما يجعلنا نفشل في التركيز على صلب الموضوع!

أما الملاحظة الثالثة والأخيرة فتتعلق بحالة الخوف الهائلة التي تتتاب الكثيرون منا بمجرد التفكير في كتابة مقال أو إلقاء كلمة ولا يعود ذلك إلى عدم امتلاك ملكة الكتابة أو الخطابة، بل ربما كان العكس هو الصحيح مع الكثيرين منهم، ولكن بسبب الخوف من الوقوع في الخطأ اللغوي وسماع التعليقات والهمسات والنظرات المستهجنة.

وأعلم شخصا أن ما أقوم بكتابته من مقالات منذ أكثر من عشر سنوات يحتوي على كم لا بأس به من الأخطاء الإملائية والنحوية، ولكن ذلك لم يمثل دوما عائقا أمامي، ولم يثنني بالتالي عن الاستمرار في الكتابة ومحاولة إيصال ما أود إيصاله من رسائل وآراء باصرار شديد دون الالتفات لتبعات وعواقب الأخطاء اللغوية التي أتوقع الوقوع بها أو ارتكابها، ولحسن الحظ لم أقابل حتى الآن من ذكر لي أنه سيتوقف عن قراءة مقالاتي، أو أنه لم يفهم جزءا محددا منها بسبب ما احتوته من أخطاء إملائية أو ما اتصفت به تلك المقالات من ركاكة في اللغة أو الأسلوب! وقد التقيت، في مناسبة اجتماعية، بسفير المملكة المغربية سعادة المكي كوان، والذي غمرني بلطفه وأدبه الجم، وبهرني باتساع ثقافته وإدراكه للكثير من الوقائع التي يعتقد الواحد منا في الشرق أن أهل المغرب أبعد ما يكونون عن الاهتمام بها. ولفت نظري أن اسمه في بطاقته التعريفية كتب بطريقة لم نعتدها حيث وضع ثلاث نقط على حرف الكاف من اسم عائلته! وكان من الممكن أن لا يثير هذا انتباهي، لو لم يكن من قدم لي تلك البطاقة سفيراً لدولة تعز بلغتها العربية وينسل ملكها!

بعد الاستفسار منه تبين أن حرف الكاف بثلاث نقاط هي الكاف نفسها التي يضع البعض منا فوقها «شرطة»، والتي تسمى مجازا بالكاف الفارسية، وذلك عند

الرغبة في إعطاء كلمة أجنبية أو اسم شيء غير عربي نطقه الصحيح حسب مصدره. فاسم السفير، حسب وجهة نظره، يجب ان يكتب بالطريقة التي عادة ما يلفظ به، أي بالكاف الفارسية!

أثارت ملاحظته تلك انتباهي وبينت لي أحد أوجه الضعف التي تشكو منها اللغة العربية بسبب افتقارها إلى حروف مهمة موجودة في مختلف لغات العالم الحية، والتي لو قمنا بإضافتها، على المطابع الصحفية على الأقل، لقمنا بإسداء خدمة ثقافية هامة لقطاع كبير من القراء ولتجنبنا بالتالي الفوضى المضحكة التي عادة ما تقع فيها الصحافة عند كتابة اسم علم مثل G. Gardener حيث ستكتب مرة «جاردنر» ومرة «غاردنر»، وثالثة «كاردنر»، وكل ذلك في مطبوعات صحفية لدولة واحدة، والطرق الثلاث في الكتابة لا تعطي النطق الصحيح، ومن يحاول ان ينطق بها أمام صاحبها، كما قرأها بالعربية سيظهر نفسه بمظهر الجاهل.

كما يكاد ان يصبح نطق حرف الـ P معضلة عربية فالعرب ربما يكونون الأمة الرئيسية الوحيدة التي لا تحتوي لغتها على هذا الحرف، ولذلك تجد أن كلمات مثل Paris، People تصبح على ألسنة الكثيرين «باريس وبيبول»!، وهكذا يمكن فرز العربي من غيره بسهولة!

ولتجنب ذلك يقوم البعض بالتدريب، أو التحايل على الوضع بوضع ثلاث نقط فوق حرف الباء لتتطق P.

تتكرر هذه المشكلة مع حرف الـ V حيث يضع البعض ثلاث نقط على حرف الفاء ليصل إلى النطق الصحيح.

وعليه ندعو «القبس»، التي كانت سباقة ورائدة في الكثير من الأمور، إلى التفكير بإضافة هذه الحروف الجوهرية، لكي يمكن التغلب على الفوضى التي تواجه الصحافة في الكتابة الصحيحة لعشرات آلاف الكلمات غير العربية التي تحتوي على تلك الحروف المهمة.

والسؤال هو، لماذا هجر الاتراك وشعوب اندونيسيا والملايو وغيرهم الكتابة بالحروف العربية؟ ولماذا طوع الفرس ومسلمو الهند وبعدهم الباكستانيون حروف العربية لتفي باغراض لهجاتهم المحلية، وحذفوا منها وأضافوا إليها حروفا عديدة؟ ولماذا قام اصحاب حضارات عريقة وموغلة في القدم كاليابانية والصينية، وحتى الالمانية، بادخال مختلف التعديلات على لغاتهم وجعلها أكثر مواكبة لروح العصر؟ عصر المعلومة والسرعة والكمبيوتر!

ولماذا لا نستطيع ان نفعل ذلك مع لغتنا العربية بالرغم من عشرات الابحاث والاقتراحات المنطقية التي صدرت هنا وهناك، والتي تطرقت لمثل هذا الموضوع

الحيوي والمهم والشائك في الوقت نفسه؟

* * *

من المعروف ان الطريقة التي دون بها القرآن لأول مرة - التي توجد منها صفحات معدودة لدى بعض البحاثة والمتاحف الغربية - تشبه طريقة الكتابة بالاختزال باللغة الانكليزية، اي بدون تنقيط او تشكيل او تحديد معروف لاشكال الحروف، بحيث لا يمكن لاي كان قراءتها بطريقة سليمة، دع عنك معرفة معناها وقد طرأت على طريقة كتابة اللغة العربية تطورات عدة على مدى اكثر من الف عام الى ان وصلت حروف اللغة الى شكلها الحالي في المرحلة الاولى، ثم تبعت ذلك عملية التنقيط والتشكيل من رفع وضم وتسكين وكان اخر من تولى عملية تطوير اللغة العربية وجعلها في صورتها وشكلها الحاليين «الأتراك العثمانيون»!

ومن هذا المنطلق فان المطالبة بادخال تغييرات طفيفة على طريقة كتابة اللغة العربية، وخاصة الكتابة الصحفية، يجب ان لا ينظر إليها على انها بدعة او دعوة باطلة، بل ما هي الا مرحلة من مراحل حياة اي لغة يود اصحابها ابقائها حية، لتتمكن من مواكبة روح العصر ومتطلباته فلماذا الخوف مثلاً من التطور واتباع طريقة كتابة العربية بطريقة التقطيع، اي بابعاد الحروف بعضها عن بعض بحيث يتمكن عقل الكمبيوتر من تمييزها والاستجابة لها بطريقة اسرع بكثير من صورتها الحالية، والمسألة في نهاية الامر ليست بتلك الصعوبة التي قد يتصورها البعض، وكثير من الامم تكتب لغتها يدوياً بطريقة متصلة، وتقوم بتقطيع حروفها عند الطباعة.

وقد بين البعض أن افتقار لغة ما، كالعربية، للكلمات او المصطلحات الجديدة، خاصة تلك التي يكثر استعمالها في الحياة المعاصرة، دفع المتحدثين بها، او كتابها للاطالة في محاولة للوصول للمعنى المناسب والدقيق للكلمة، فحتى فترة قريبة لم يكن من الممكن مثلاً الاكتفاء بذكر كلمة مثل Fax دون الاسترسال في الشرح ووصف المعنى المقصود.

كما ان كلمات مثل Desk drive , أو compact desk, floppy desk لا تزال تستعمل كما هي دون ترجمة وما نراه من ترجمات لها لا تتعدى ان تكون اجتهادات فردية قابلة للاختلاف من مجتمع لآخر، دع عنك من دولة عربية الى اخرى. كما ان قبول هذه الترجمات بشكلها الحالي اخذ وقتاً طويلاً. وعلى الرغم من اهميتها وتكرار استعمالها عشرات المرات في اليوم والمكان الواحد، الا ان مجمعا لغويا واحدا لم يكلف نفسه حتى الان بوضع ترجمة لها، ربما لشعور معظمها أن الاهمال سيكون نصيب ما ستقوم ببذله من جهد.

كما يلاحظ أن غالبية المتحدثين باللغة الانكليزية مثلا، ومن المتعلمين بشكل خاص، يقوموا بكتابة لغتهم بطريقة قريبة من الطريقة التي يتحدثون بها. كما يقوم الناطقون بالانكليزية من غير اهلها بكتابة هذه اللغة بالطريقة نفسها التي يتحدثون بها ايضا وبدون اختلافات كبيرة، وربما يعود سبب ذلك الى قلة اللهجات المحلية وانعدام الامية بين المتحدثين بها من الانكليز والاميركيين ومواطني نيوزيلندا واستراليا وغيرهم. ولكن نرى عكس ذلك عندنا، حيث عادة ما تختلف لهجاتنا المحلية وطريقة كلامنا عن طريقة كتابتنا بصورة شبه تامة، وربما يفسر هذا نفور الكثيرين من الكتابة وميلهم الى الحوار الشفهي كما ان البون الشاسع بين لهجاتنا وطريقة كتابة لغتنا، واختلاف تفسير الكثير من الكلمات بين منطقة واخرى، تجعل الكثير من المشاركين في البرامج الحوارية مثلا دائمى البحث عن الكلمات الفصيحة التي يمكن ان تعطي المعنى المناسب للكلمات العامية التي عادة ما تدور في اذهانهم.

كما أن ادخال الحروف الجديدة والضرورية لتطوير اللغة العربية وجعلها اكثر تماشيا مع العصر سوف لن يؤثر بأي حال من الاحوال في طريقة فهمنا لكتبتنا المقدسة، ان لم يكن العكس هو الصحيح.

ومن المعروف أيضا أن الترتيب الحالي للحروف العربية لم يكن كذلك منذ البداية. فحروف العربية او الابدجية، نسبة الى «أ ب ج د»، كان ترتيبها كالتالي: أ ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ص ق ر ش ت ث خ ذ ض ظ غ. وهذا الترتيب يختلف بصورة جذرية عن الترتيب السائد حاليا، وهو الترتيب الهجائي، اي أ ب ت ث ج ح خ، إلخ، والذي ربما لا يعرف احد مصدره، والامر نفسه ينطبق على الترتيب السابق، وهذا يعني اننا لا نعاني فقط من التخلف العلمي والطبي والاقتصادي.. الخ، بل نشكو ايضا من تخلفنا التام في معرفة تاريخ الامر الوحيد الذي كانت لنا فيه يوما ريادة ما.

والغريب ان الترتيب القديم للحروف، الذي تم الاستغناء عنه في التدريس، تشبه بداياته ترتيب الحروف في الكثير من اللغات الحية الاخرى مثل ABCD.

وقد استعملت حروف الابدجية عند البعض في الحساب والترقيم حيث كان لكل حرف قيمة حسابية فحرف أ=1، وحرف ب=2 وهكذا. ولا اعتقد ان لهذا الامر قيمة مادية في وقتنا الحاضر، ولكن يمكن ان تكون له استعمالات معينة في ميدان تجسس الدول العربية على بعضها البعض!

ومن الملاحظ اننا عندما نرغب في ترميز فقرات بحث او مقال ما بحروف بدلا من ارقام فإننا نتبع طريقة الترتيب الابدجية، أي: أ ب ج د، وهكذا، وليس

طريقة الترتيب الهجائية.

وربما لا يزال البعض من كبار السن منا يتذكر مطلع اغنية «شادية» التي كانت تقول فيها: أبجد هوز حطي كلمن شكل الاستاذ بقى منسجم «منسجم»!

الطقوس وأزمة السلوك

عندما كنت أنتظر في سيارتي أمام الإشارة الحمراء قام قائد مركبة بيضاء كبيرة بتجاوز كافة المركبات أمامه والوقوف، بطريقة خاطئة، الى جانبي!! نظرت اليه باستغراب وطلبت منه فتح نافذة سيارته، وكان رجلا في منتصف الاربعينات، وسألته عن السبب الذي جعله يتجاوز غيره ويقف في الحارة الخطأ من الطريق ويغلقه امام السيارات التي خلفه واصحابها يحثونه بالزمامير على التحرك من مكانه! فقال إنه مضطر لأنه على عجلة من أمره! فسألته بعد أن استوحيت من ملامحه وهيبة لحيته التزامه بالدين أليس من العيب على شخص مثلك ان يرتكب مخالفة مروورية؟ فقال بدون تردد ان لا علاقة للحيته والتدين بالمرور وبمخالفاته. وهنا تذكرت اننا ربما نكون من الشعوب النادرة التي تطلب نصوصا دينية لكي تقتنع باتباع تعليمات المرور، واحترام استعمال الطريق، حتى وصل الامر الى درجة صدرت فيها اكثر من فتوى تطالب قائدي المركبات باحترام اشارات المرور وعدم تخطي الحمراء منها لأن في ذلك مخالفة لأوامر «ولي الأمر»، ولم تتطرق الفتوى لما قد تتسبب فيه مخالفة الإشارة من اضرار ومخاطر على حياة المخالف وحياة الآخرين وممتلكاتهم، فقد سبق ان ذكرت هذه التحذيرات بدون سند ديني، ولم يلتفت اليها هؤلاء الجهلة، مما اضطر ولادة الامر للبحث عن سند شرعي!

ان حاجة الكثيرين للاستعانة بفتاوى رجال الدين لتوضيح ما يشكل عليهم من امور الدين والدنيا ليس بالأمر الغريب عن مجتمعاتنا، فقد تعودنا على المثل القائل «ضعها برقبة عالم واخرج منها سالم»! وهذا يعني سؤال رجل الدين عن امر ما والنجاة بالنفس وإن تبين لاحقا ان في الامر معصية، فرجل الدين هو الذي سيتحمل وزرها في الآخرة، وهو الملام ان اخطأ في فتواه او رأيه!

ولكن الامر تجاوز كل حد ومنطق، واصبح يشكل ظاهرة خطيرة، حيث اعتقد البعض ان بإمكانهم فعل ما يشاءون متى ما قاموا بأداء واجباتهم الدينية كالصلاة والصيام وايتاء الزكاة والحج، وزادوا على ذلك بعمرة مقبولة وقراءة ما تيسر من القرآن والبر بالوالدين والتصرف بصدق وامانة، والتميز بالتعفف والاخلاص وغير ذلك من الامور الواجبة والمتعارف عليها دينيا، اما القيام بمخالفة كل قانون والتعدي على حقوق الآخرين والاستهزاء بهم واستعمال حارة الطوارئ على الطريق السريع لتجاوز مئات السيارات الاخرى في اوقات ازدحام المرور مثلا، كما يحدث من قبل الكثيرين، واجزم ان من بينهم نسبة كبيرة من الصائمين، والتسبب فوق

كل ذلك باتلاف هياكل سيارات الآخرين وكسر زجاج نوافذها بكل حبات الحجارة الصغيرة والحصى التي تتطاير نتيجة السير بسرعة عالية في مسار خاطئ، فإنها تصرفات لا علاقة لها، بمفهوم هؤلاء، بالدين، فقد ادوا ما عليهم والله، بنظرهم، لن يعاقبهم على مخالفة الوقوف في موقف للمعاقين أو عرقلة المرور بالوقوف في المكان الخطأ، فقط لأداء الصلاة.

واذكر بهذه المناسبة ما يقوم به طبيب كويتي معروف، عصر كل يوم، في أحد النوادي الصحية، حيث يقوم باستعمال إحدى مناشف النادي كسجادة صلاة، وليس هناك ما يمنع ذلك، ولكنه، وهنا وجه الغرابة، لا يكثرث بالتقاط المنشفة أو السجادة التي صلى عليها ووضعها في مكانها المناسب، بل يتركها وراءه، أما كسلا، وهذا مفهوم، أو ربما لاعتقاده بأنه طالما أدى واجبه الديني، فإن أي أمر أو تصرف آخر يصبح غير ذي أهمية، وهنا مكمّن الخطورة!

خلاصة الأمر أن المؤمن يجب أن يقرن إيمانه بتصرف منطقي سليم ونحن مدعوون للتمعن في منطقية الكثير من تصرفاتنا ومحاولة مناقشتها بيننا وبين أنفسنا، وسيجد الكثيرون من أصحاب الرأي الشجاع أننا مخطئون في الكثير مما نفعل، بعد أن فضل البعض منا ترك المنطق جانبا وتحكيم العاطفة والموروث في الكثير من تصرفاتنا.

الدكتورة ابتسام

كانت ابتسام قد تجاوزت الثلاثين عندما حصلت على شهادة في الطب، وانتهت مرحلة التدريب المعتادة في مستشفيات أيرلندا، وعملت هناك لسنتين إضافيتين لتصبح عضوا في الجمعية الملكية لأطباء العيون، قبل أن تعود لوطنها إحصائية في مجال تخصصها بدرجة شرف عالية.

لم يمر على انتظام ابتسام في العمل في أحد المستشفيات الحكومية أكثر من شهرين حتى خفق قلبها لزميلها في القسم، إحصائي التخدير التونسي، الذي بادلها شعورا بشعور، ولم تنته السنة الأولى على تعارفهما حتى قررا الاقتران ببعضهما البعض.

بخلاف شهادتهما وحبهما لعملهما وتفانيهما فيه لم يكن هناك ما يميز الدكتورة ابتسام عن طبيب التخدير سعد من الناحية الفزيولوجية، فقد كانت مواصفاتها الجمالية أقل من المتوسط، ولكن متى اهتم المحب بتقاطيع من يحب؟
اثمر الزواج خلال فترة قصيرة توأمين ذكرين، وابن، وقررا أن هذا ما كان يحلم به كل منهما من ذرية!

وفجأة عاد والد ابتسام من تايلند حيث كان في رحلة راحة واستجمام استغرقت خمس سنوات لم يعرف أي من أهله خلالها عنوانه أو طريقة الاتصال به، وكان من الممكن الاعتقاد بموته مخمورا في حانة رخيصة لولا أنه كان يتصل بهم بين الفترة والأخرى من هاتف عمومي غير واضح الصوت طالبا منهم تحويل بعض المال له. فوجئ الأب بزواج ابنته البكر، وتقبل الأمر في البداية على مضض، ولكن طريقة تصرف زوج ابنته ودخوله وخروجه لبيت العائلة وكأنه في بيته، جعله أكثر انتقادا لذلك الزواج وأكثر اصرارا على إبطاله لأن أحدا، حسب رأيه، لم يأخذ موافقته عليه! لم تفلح كل محاولات الأم لتهديته وتذكيره بتعذر الاتصال به كل تلك السنوات التي عاشها في تايلند، وأن ابنتهما كانت ناضجة وكبيرة، وهي طبيبة إحصائية، وفي سن متقدمة عندما قررت الزواج ولم يكن من السهل رفض طلبها والتعذر بضرورة الحصول على موافقته، وهو الذي لم يكن معروفا مكان إقامته أو كيفية الاتصال به، خاصة أن من أراد الزواج بها لم يكن يقل عنها في شيء، فقد كان يحمل، ولا يزال، كل الصفات التي تجعله زوجا مثاليا!

كان اصرار الأب على فسخ الزواج يزداد مع الوقت، وكان اصراره على زيارة بيت ابنته بين الفترة والأخرى وتهديدها باللجوء للقضاء أن لم تتم تسوية الأمر

خارج المحاكم سببا في تصدع اواصر المحبة والصداقة التي كانت تربط الجميع لسنوات عندما كان ذلك الاب يعيش بعيدا عنهما، فقد انقطعت الزيارات بين الطيبية وبقية اخواتها ووالدتها وغيّرت عنوان سكنها وطلبت من الوزارة تغيير مكان عملها، وكان لها ما ارادت، وارتاحت بعض الوقت من مضايقات ابائها، ولكنه تمكن بعد عدة اشهر من معرفة عنوان بيتها من المعلومات المدنية وقام بالاتصال بها هاتفيا وحدثها بود واضح وطلب منها الحضور الى منزل العائلة في ليلة ذلك اليوم حيث ان لديه مفاجأة سارة لها!

التأم شمل الاسرة كلها للمرة الاولى منذ عام تقريبا، وبالرغم من محاولات البعض اضعاف طابع المرح على اللقاء، واصطناع الابتسام الا ان من الواضح ان الجميع كان يشعر بتوتر شديد، فملاح الاب القاسية، وضحكاته العالية والمفتعلة لم تكن تبشر كثيرا بالخير.

ما ان انتهوا من تناول العشاء وجلسوا في الصالة الكبيرة لشرب الشاي حتى سألته ابنته الدكتورة عن المفاجأة السعيدة التي سبق ان اخبرها عنها، وهنا سحب الاب رشفة قوية من «استكانة الشاي التي كانت بيده، ووضعها على الطاولة ومد يده الى جيبه واخرج مغلفا صغيرا بداخله قصاصة من صحيفة محلية رفعها امامه، وقال، بعد ان وضع نظارته الصغيرة على عينيه: «هذه فقرة من محضر جلسة مجلس الامة ليوم الاثنين 15 ديسمبر والتي ناقش فيها قانون الاحوال الشخصية المقترح للتعديل على بعض احكامه، وهذا نص كلام نائب منطقتنا ووزير في الحكومة في تلك الجلسة حيث ذكر، تعليقا على احد بنود القانون، ونقلنا عن حديث شريف «ان كل من تتزوج بدون موافقة ولي امرها فإن زواجها باطل»!

انهى الاب قراءة القصاصة ووضعها في جيبها وقام خارجا وهو يقول: هذا هو رأيي النهائي، فهذا كلام رجل صالح ونائب في المجلس ووزير، ولا يستطيع الا العمل بموجبه!

مقال «العودة»

فبراير 2004

87

هناك أوجه شبه بين توقف الكاتب اليومي عن الكتابة وتوقف الفنان عن الإبداع، أو اضطرار أي منا لدخول المستشفى بسبب عارض صحي، حيث تكون فترة التوقف تلك فرصة للممثل أو الكاتب أو المريض لمعرفة مدى حب الناس له أو تجاوبهم مع ما يؤديه من عمل، ومكانته في قلوبهم وعما إذا كانوا قد لاحظوا غيابه الطويل نسبياً. وقد تبين لي شخصياً حقيقة مشاعر البعض تجاه ما كنت أكتب وتألمهم الصادق لتوقي عن الكتابة لسبب لم يكن باستطاعة الكثيرين منهم تفهمه أو وضع حد له. كما مكنتني فترة التوقف تلك من معرفة حقيقة مشاعر فئة أخرى كانت تحرص دائماً على الشاء على ما أكتب، واستمر الشاء حتى خلال فترة التوقف التي قاربت ستين يوماً، وهذا بين لي أن أكثرهم لا يقرأون! كما حرص أكثر من طرف على الطلب مني الاستمرار في الضغط على فئة محددة، دون تحديد تلك الفئة. وعلق شخص معروف على كتاباتي بالقول «عندك إياهم»، وتعني باللهجة المحلية: عليك بهم! وعندما طلبت منه تحديد الجهة التي يود مني أن أتولاها نيابة عنه، وأنا متوقف عن الكتابة منذ فترة طويلة! أشاح بوجهه ولف نفسه بـ«بشته» الثقيل وزنا ورائحة وغادر مجلس العزاء الذي تصادف وجودنا فيه دون ان يذكر دعاء المغادرة المعهود!

لقد عملت في المصارف لفترة طويلة، موظفاً ومديراً وعضو مجلس إدارة، كنت في جلها مسؤولاً بصفة منفردة، أو مع أطراف آخرين، عن منح ملايين الدنانير لمختلف الافراد والمؤسسات والشركات في صورة قروض وتسهيلات مصرفية ساعدت بشكل فعال في تكوين ونمو ثروات الكثيرين منهم. وكنت أصادف دائماً من كان يشي على فترة عملي تلك ومدى تأثير قراراتها إيجاباً على أوضاعه المالية، وكانت تعليقات الكثيرين منهم تدخل السرور إلى نفسي، خاصة أن العطاء الذي كنت أقوم به، والذي شاركني فيه الكثير من الاخوة والزملاء، كان دائماً دون مقابل مادي او منفعة شخصية مباشرة! وقد اكتشفت بعد عشر سنوات من الكتابة اليومية المتواصلة ان كل ذلك الشاء والشكر اللذين حصلت عليهما نتيجة منح تلك الأموال لا يمكن ان يساوي ما يمكن أن يسمعه الكاتب، على سبيل المثال، من شاء وشكر نتيجة كتابة مقال واحد. كما أن الشاء والتقدير والتشجيع تكون عادة مصحوبة، في الوقت نفسه، بكم مقارب له من اللوم والتقريع والهجوم من أطراف آخرين، وتكتمل

الصورة في أحيان كثيرة بدعوى قضائية ونيابة واستجواب ومحاكمة واستئناف وتمييز!

لكي لا نطيل كثيرا، فإننا ننتهز هذه الفرصة لنختتم مقال «العودة» هذا بشكر كل من سأل أو تساءل عن سبب توقفنا عن الكتابة، على صدق مشاعرهم تجاهنا، ونتمنى ألا نتعرض لوعكة كتابية أخرى تكون سببا في توقفنا التام عن التواصل مع القراء من خلال صفحات «القبس» العزيزة، وهذا أبغض الحلال!

كلية السعادة

نشرت مجلة تايم في عدد 28 فبراير الماضي تحقيقاً مطولاً عن السعادة والضحك وهذا تلخيص لأهم ما جاء فيه عن الأسباب التي تجعل قلب الإنسان يغرد مرحاً!

اهتم علماء النفس لسنوات طويلة بمسائل علاج المشاكل المتعلقة بالصحة العقلية كالقلق والاكتئاب والخوف والغيرة وغيرها وكان هدفهم الارتفاع بصحة مرضاهم النفسية من 5 درجات تحت الصفر، مثلاً، إلى نقطة الصفر، أو الحالة الطبيعية وقد شعر البعض منهم أن الهدف الجديد لعلماء النفس يجب ألا يقتصر على علاج الأمراض النفسية، بل يجب أن يمتد لما فوق الصفر بخمس درجات، أي بالبحث في الأمور التي تجعل الإنسان أكثر سعادة!

وهكذا فكر رئيس الجمعية السيكولوجية الأميركية A.P.A «مارتن سليكممان» في حث زملائه على البحث عن الأسباب التي تجعل الإنسان سعيداً بصورة واضحة في حياته، فالصحة العقلية يجب ألا تعني فقط الخلو من الأمراض العقلية، بل يجب أن تهتم كذلك بتنشيط العقل وجعل الروح وثابة.

والآن، ما الذي يجعلنا نشعر بالسعادة؟ هل هو المال، وكل ما يمكن الحصول عليه من خلاله؟ بينت الأبحاث أننا متى ما قمنا بإشباع وارضاء رغباتنا الأساسية، فإن أي زيادة في ما لدينا من مال تلعب دوراً ثانوياً في جعلنا سعداء أو راضين عن حياتنا.

هل التعليم الجيد والمناسب هو سبب السعادة؟ لا كبيرة، وفي كافة الأحوال. هل كون الإنسان شاباً، أو شابة يافعة، يجعله أكثر سعادة؟ وايضاً ليس بالضرورة، بل بينت الأبحاث أن الفئات العمرية الأكبر أكثر سعادة واستقراراً ورضاً عن حياتها من الفئات الصغرى. كما يمر الكبار بفترات سوداوية أقل مقارنة بالفئات الأصغر والتي تعيش، بشكل عام، في قلق دائم بسبب اعباء الحياة ومتطلباتها الكثيرة.

هل هو الزواج؟ على الرغم من أن المتزوجين عموماً أكثر سعادة من العزاب، فإن الزواج لا دور كبير له في جعل الإنسان سعيداً، فقد أثبتت الأبحاث أن الزيجات السعيدة هي بين أشخاص سعداء أصلاً!

هل تكمن السعادة في مشاهدة التلفزيون؟ الجواب بالنفي، فهؤلاء أكثر شقاء من غيرهم.

هل المتدينون أكثر سعادة من غيرهم؟ الجواب نعم، ولكن، كما أثبتت الأبحاث

في اكثر من دولة متقدمة، من الصعب القول ان سبب ذلك يعود الى اسباب دينية، فقد يكون للمجتمع الذي يختلط فيه المتدين دور في رفع الروح المعنوية للفرد، وجعله اكثر سعادة من غيره، بصرف النظر عن الدين الذي ينتمي اليه.

هل للأصدقاء دور في جعل الانسان سعيدا؟

نعم كبيرة جدا! فقد اثبتت دراسة قام بها اثنان من اكبر علماء النفس في اميركا على طلبة جامعة «ألينوي»، ان اكثر الناس سعادة، واقلهم احساسا بالاكتئاب، هم الذين لديهم علاقات صداقة وروابط اسرية اقوى من غيرهم، والذين هم على استعداد لقضاء وقت اطول مع رفاقهم واهاليهم.

ويمكن القول بشكل عام أنه على الرغم من صعوبة تجنب الاوقات العصيبة في حياة اي فرد، فإن الايمان الديني، ولأي دين كان، اثبت فعاليتها في التخفيف من الضغوط، ولكن حتى غير المؤمنون لديهم اعتقاد بأن ما يفشل في قتلهم يجعلهم عادة أكثر قوة.

البغدادى الكبير

كثيرا ما افتخر البعض بعدم وجود سجناء رأي في الكويت وهذا كلام غير دقيق بالمطلق فحرية الكتابة والقول والنشر، على الرغم من نصوص الدستور التي تبيحها بوضوح، غير متوافرة في الكويت، بل يصعب تخيل وجودها في ظل دولة يسير الأصوليون الكثير من أمورها وتخضع جميع كلمات مقالات كتاب الرأي فيها، ومن الليبراليين بالذات، لنظام الحسبة، الذي يعتبر سيفاً مشهراً في وجه كل من لا تتفق آراؤه وتوجهاته مع آراء مسيري الأحزاب الدينية.

حزنت كثيرا عند قراءتي لحديثيات الحكم الذي صدر أخيراً على الزميل الصديق «أحمد البغدادي»، والذي لا حق لنا في الاعتراض عليه. كما حزنت أكثر للحالة النفسية التي وجد ذلك الانسان الحر نفسه فيها، والتي دفعته مضطراً لتوجيهه نداء عبر أحد مقالاته لجميع الدول الغربية المعنية طالبا منها النظر في طلبه اللجوء سياسياً لاحداها! ان اضطرار استاذ أكاديمي، وصاحب العديد من المؤلفات وآلاف المقالات الصحفية والأبحاث الرصينة، للهجرة والاعتراب و«استجداء» اللجوء السياسي لدولة أخرى ومغادرة وطنه وأهله وأصحابه، ليست بالقضية التي يمكن المرور عليها مرور الكرام، فهي تبين بوضوح ان مقولة «حرية الرأي مكفولة»، ليست دقيقة كما ان عدم وجود سجناء رأي في الكويت حالياً لا يعني ان حرية الرأي مصنونة، بل الرأي لم يقل خوفاً من سيف الحسبة، وهذا قلل من أعداد سجناء الرأي بالتالي.

اننا نطالب هنا الاخوة النواب بالتحرك ووضع حد لقوانين الحسبة التي اصبحت البعبع الذي تخيف به قوى التخلف مجاميع المدافعين عن حرية الرأي، فبغير إلغاء مثل هذه القوانين المتعسفة وتعديل قانون الصحافة الذي يسمح حالياً بسجن الكتاب والصحافيين، فان حرية الرأي، حتى البسيط منها، ستكون في خبر كان خلال فترة قصيرة.

لقد حاول الزميل البغدادي ارسال رسالة الى من يهمهم الأمر، فهل وصلت؟ اما اولئك التفاهون الذين شمتوا فيه، وسخروا مما أصابه، فنقول لهم إن دورهم سيأتي قريباً، وسيؤكل لحمهم كما أكل بالأمس لحم زميلهم.

ثقافة «عبدالله عزام»

2005/05

تظهر الطريقة التي يتصرف بها شخص ما الكثير من جوانب شخصيته. كما تظهر الأسماء التي نطلقها على أبنائنا أو ممتلكاتنا طريقة تفكيرنا، والشخصيات التي تأثرنا بها أو التي كان لها دور في حياتنا، وكل ذلك جزء من ثقافة الفرد والمجتمع العامة. فكلما كان المجتمع بدائيا، كانت الرتبة في التسمية وتقليد الآخر أكثر شيوعا.

قام شاب مصري شديد التدين بتفجير قنبلة خلف المتحف المصري القريب من ميدان عبدالمنعم رياض في القاهرة، وأصاب عددا من السياح الأجانب، وقضى، بمحاولته تلك، على رزق آلاف المصريين المعتمدين على معيشتهم على مورد السياحة. وقام الإرهابي، بعد تنفيذ عملياته، بتفجير قنبلة في نفسه والقفز في مياه نهر النيل.

بعد تلك الحادثة بساعتين قامت فتاتان مصريتان منقبتان باطلاق النار على حافلة قرب قلعة «محمد علي»، تقل سياحا أجانب وأصيب البعض منهم بجروح خطيرة، وقتلتا، بمحاولتهما الإرهابية تلك، السياحة في تلك المنطقة. ثم قامت إحداهن بعدها باطلاق النار على شريكته قبل ان تتحرق باطلاق النار على نفسها! لا نريد التعليق على ما ذكر عن فردية الحادثتين، وان من قاموا بهما ما هم إلا جماعة صغيرة شاذة لا شأن لها ولا أهمية لها، فمن الواضح أن الأمر أخطر من ذلك بكثير.

المهم في الأمر ان هاتين الحادثتين الإرهابيتين وحادث الأزهر الذي سبقهما، وربما الحادث الإرهابي الذي وقع في المدرسة الانكليزية في قطر، نفذت باسم الشهيد «عبدالله عزام»! أي أن منفذي هذه الحوادث الإرهابية أطلقوا على انفسهم اسم من يعتقدون أنه النموذج الأمثل والقذوة التي يجب أن تقتدى في الحياة، وهو رأي تشاركهم فيه قيادة القاعدة من بن لادن والطواهري إلى بوغيث وغيره!

لا أعرف كيف سمع هؤلاء باسم «عبدالله عزام»، ولا أعرف إن كانوا قرأوا «كتابات»، التي خلفها وراءه عن معجزات المجاهدين الأفغان في حربهم ضد القوات السوفيتية، ولكن من الواضح ان إطلاق اسمه على حركتهم والانتحار باسمه، إنما يعبر عن شديد إعجابهم بشخصه وبما يمثله من مبادئ وقيم وهذا يعني أن هؤلاء، ونسبة كبيرة من شعوبنا المغلوبة على أمرها، هم إما جهلة بسبب عزوفهم التام

عن أي نوع من المطالعة الجادة، وحتى البسيطة، أو منحرفين بسبب إصرارهم على قراءة الغث من الكتب الدينية الصفراء، والإيمان بالسحر والشعوذة من أمثال «معجزات الأفغان في أرض طالبان»!

إن أي مطلع على «الإنتاج الفكري» لعبدالله عزام يتبين له بوضوح مدى سطحية تفكيره وفهمه. فسطحيته واضحة في مقابلاته وفيما كتب، كما ان موضوعاته غير عقلانية وتميل للطوباوية والمثالية الخادعة، والتي ترضي البسطاء والسذج. فغريب أن يؤمن هؤلاء الذين يعتبرون من قادة الإرهاب الدولي بعقلية من ترك مهمة الكفاح في فلسطين، أرض وطنه، وذهب ليجاهد في كابول بأموال البترودولار. وهذا يعني أن الرجل لم يكن يوما صاحب فكر أو مبدأ مثالي لكي يتبع أو يقلد أو يضرب به المثل في العلم والمعرفة، خاصة عندما نعلم أن بن لادن والظواهري وغيرهم تأثروا به، فهنا نكتشف حجم هوة الفراغ في عقول هؤلاء.

«عبدالله عزام»، الذي يطلق عليه لقب «شيخ المجاهدين الأكبر»، هو أستاذ مدرسة من أصل فلسطيني ومن خريجي الأزهر، نسي لربع قرن ان بلاده محتلة، ولهذا لم يرفع إصبعاً للذود عنها طوال تلك الفترة، وعندما قرر الجهاد فقد البوصلة وولى وجهه شطر أفغانستان يريد تحريرها من السوفيت الأشرار بعد أن اكتشف ان أموال «البترودولار»، التي بدأت تتساق ببركات العم سام من خلال المؤسسات «الخيرية» ستتجه الى هناك بعد تحالف قواه مع قوى العم سام، المحلية والاقليمية!

إن مجرد إعجاب هؤلاء الارهابيين بشخصية «عبدالله عزام» إلى درجة الانبهار، لخير دليل على سقم تفكيرهم وضلال طريقهم فلو كانت عقول هؤلاء وأفكارهم منفتحة على ثقافات الآخر، لتبين لهم بوضوح كم كانوا، ولا يزال الكثيرون منهم، على ضلال. ولكن على من تقرأ مزاميرك يا احمد؟

وجهة نظر

يعتقد الكثيرون أن المجتمع الغربي عموماً، والاميركي على وجه الخصوص، مجتمع منحل ومتفكك اسرياً واجتماعياً، وأن مجتمعاتنا بالتالي أكثر استقامة وتماسكاً. بالرغم من درجة النسبية العالية في مثل هذه الاحكام المسبقة، وفي ظل غياب الاحصائيات والمعلومات الضرورية، مع تباين وجهات النظر فيما يمكن إطلاق صفة الانحلال أو التفكك عليه، من مجتمع لآخر، فإننا لن نتطرق الى موضوع فساد وانحلال المجتمعات الغربية، لكي لا نزيد الطين الملوث بللاً، فليس من الكياسة أو الذكاء ان نصف من تغلب علينا في كل مجال، ومسح الارض بنا في كل ميدان بمثل تلك الصفات المقززة، فما عساه كان سيفعل بنا لو كانت مجتمعاته، من وجهة نظرنا، اقل تحللاً وأكثر استقامة؟

وعليه فإننا سنكتفي هنا بمناقشة مقولة ان مجتمعاتنا الشرقية، والاسلامية العربية بالذات، أكثر احتشاماً وتماسكاً من الناحية الاجتماعية، والذي يتمثل، ضمن أمور أخرى، في انخفاض معدلات الطلاق لدينا مقارنة بالمعدلات الموجودة في المجتمعات الغربية.

بالرغم من توفر المعلومات الكاملة عن حالات الطلاق في المجتمعات الغربية وعدم توفرها، للعديد من الاسباب، لدينا، فان الحقيقة تبقى ان ظاهرة الطلاق اقل انتشاراً بيننا. ولكن لو امعنا النظر أكثر وقمنا بدراسة اسباب انتشار نسب الطلاق في المجتمعات الغربية وقلتها في المجتمعات العربية لتبين لنا ان الامر أكثر تعقيداً مما يعتقد الكثيرون!

فالطلاق، أو ما يسبق ذلك من انفصال الزوجين في الفراش أو المنزل، يعود بالمكان الاول، وخاصة في المجتمعات المسيحية المتقدمة كأميركا وهولندا وانكلترا وأستراليا وغيرها، الى درجة الحرية المتاحة للفرد، هناك ومدى ايمانهم بتلك الحرية، وهي الحرية التي نفتقدها كثيراً في حياتنا، رجالاً ونساءً! فعندما يجد احد الزوجين استحالة أو عدم جدوى استمرار العلاقة بينهما، مهما كانت درجة قدسية تلك العلاقة، فان الانفصال بالطلاق أو بغيره يكون الحل الأكثر انسانية وراحة نفسية للطرفين. أما ما يحدث في مجتمعاتنا فعكس ذلك تماماً، حيث نجد زيجات كثيرة مستمرة ليس لكونها مبنية على السعادة والتفاهم والهناء، بل لاسباب كثيرة أخرى ابعد ما تكون عن السعادة أو التراحم الاجتماعي المزيف الذي طالما تغنيينا به.

فالخوف من كلام الناس ونقدهم، والاهل بالذات، وعدم توفر الامان المادي او القدرة على فتح بيت جديد، وشعور الرعب الذي يكمن في قلب كل ام من احتمال منعها من رؤية فلذات أكباده، ونظرة المجتمع الدونية للمطلقة، وامور مهمة كثيرة اخرى تجعل نسبة كثيرة من النساء تختار العيش بتعاسة تامة وفي ظل اوضاع مأساوية مهينة لكرامتها، ليس فقط لعجزها التام عن التصدي لتبعات الطلاق، بل وايضا لعلمها بأن الطلاق لا يمكن ان يتم بغير موافقة الزوج. فالقوانين الشرعية في الكثير من دولنا لا تعطي المرأة حق طلب الطلاق لاي سبب تراه، وهو المتعارف عليه بحق «الخلع»، أي حق الزوجة في الانفصال عن زوجها بالطلاق، دون ان يكون للزوج، كما جرى العرف، الحق في الاعتراض على ذلك.

ان الزواج، كما هو معروف، مؤسسة اجتماعية تهدف للتراحم والعيش بسعادة، وربما انجاب ذرية بعدها. وعليه فان العلاقة التي تربط الزوجين تتطلب توافر الاحترام والحب بينهما، وغياب اي من هذين الامرين او كليهما يجعل من استمرار الزواج في مرحلة ما امرا اشبه بالعيش في الجحيم.

خلاصة ما نود قوله هنا ان ارتفاع نسب الطلاق في مجتمع ما وانخفاضها في مجتمع آخر لا تجعل المجتمع الاول اقل سعادة واكثر انحلالا! كما ان انخفاض معدلات الطلاق لا يجعل من افراد مجتمع ما اكثر سعادة وتماسكا! فالعبرة في النهاية في مدى ما نشعر به من سعادة نتيجة وجود العلاقة الزوجية ومع من نكون، وليس في استمرار تلك العلاقة بالرغم من كل شيء.

ان هذا الامر، ضمن امور اخرى، هي الذي يجعل «غير المسلمين»، بشكل عام اكثر صدقا مع انفسهم والآخرين، وهي الاسباب نفسها التي تجعلنا مرأئين ومنافقين في علاقاتنا الاسرية وربما لن يمر وقت طويل لنكتشف ان احد اهم الاسباب وراء الجرائم الأسرية البشعة التي وقعت أخيرا، يكمن في ضيق مساحة الحرية المتاحة لكل طرف، وتفضيلنا لاستمرار العيش، ولو بتعاسة، على الطلاق والعيش بسعادة.

صعوبة ان نكون إنسانيين

ورد الخبر غير الانساني والمخجل التالي في عدد القبس «2005/5/26» على لسان احد مسؤولي وزارة الشؤون الاجتماعية. «... أعلنت وزارة الشؤون أنها بصدد طرح مشروع قانون على مجلس الوزراء يسمح للابناء، مجهولي الوالدين، او من في حكمهم، الاستفادة من خدمة الايواء في وزارة الشؤون لحين صدور احكام بغير ذلك، او ابقائهم في دور الرعاية»!

وهذا يعني اننا وبعد كل هذا التقدم والانسانية اللذين ندعهما، ومختلف توصيات مؤتمرات الوسطية التي نصدرها، لا نزال، وبسبب موروث فكر ديني محدد لا نعرف كحكومة وكأمة وكشعب كيفية التعامل مع ظاهرة الاطفال مجهولي الابوة، وكأنهم نبت شيطاني غريب، لم نعرف او نسمع به من قبل؟! ومن الغريب والمخجل حقا ان هؤلاء اللقطاء، وبنص تصريح رسمي، يعاملون، ومنذ عقود طويلة، بطريقة غير انسانية بحيث حرم عليهم حتى حق الايواء في دار خدمة تابعة للشؤون، وفي دولة يزيد دخلها السنوي من البترول عن أربعين مليار دولار، في الوقت الذي لا يزيد فيه عدد مواطنيها على المليون!

لن نتحدث هنا عن دولة او دولتين تشاركانا هذا التجاهل غير الانساني والاعمى في طريقة التعامل مع هذه الفئة غير المحظوظة من الاطفال، ولكن ربما نكون الدولة الوحيدة في العالم التي لا تود أن تعرف كيفية التعامل بإنسانية مع الاطفال مجهولي الابوة.

فمن المعروف ان كافة دول العالم المتحضر، ولسنا منهم، تمنح اللقطاء الذين يولدون بطريقة معروفة او غير معروفة على ارضها كافة الحقوق التي يتمتع بها المواطن الآخر، بصرف النظر عن لون بشرته او أعراق هؤلاء او سماتهم البشرية. ولم يحدث ذلك اعتباطا او لوجود رغبة انسانية لدى تلك الدول في مساعدة هؤلاء اللقطاء، بل لان هذا هو الاسلوب الوحيد للتعامل مع حالاتهم.

لقد سبق ان تطرقنا قبل سنوات لمحنة هؤلاء، وطالبنا مسؤولي وزارة الشؤون بوضع حل نهائي لوضعهم المأساوية والمتمثلة في اصرار وزارة الداخلية على عدم الاعتراف بوجودهم، وبالتالي رفض منحهم حق المواطنة كما يفترض، بحجة ان سمات بعضهم تختلف كثيرا عن سماتنا العامة! وتظهر انهم مولودون لأباء او امهات من اصول «عجيبة» لم نعتد عليها.

نعود لتصريح مسؤول وزارة الشؤون ونقول انه من المخجل حقا ان نفكر الآن

فقط في «وضع» مشروع قانون امام مجلس الوزراء لاقرار منح هؤلاء الاطفال حق الايواء في دور وزارة الشؤون! علما بان حقهم في الايواء والرعاية وحمل جنسية الدولة التي ولدوا فيها، حق انساني بالدرجة الاولى ولا يحتاج بالتالي الى موافقة اعلى هيئة تنفيذية. فهذه الهيئة ستقوم، في احسن الاحوال، وبعد سنوات من البحث والدراسة والتمحيص والمراجعة، بإحالة مشروع القانون إلى هيئة الفتوى والتشريع التي سينام مشروع القانون في احد ادراجها، إما لعدم اهميته من وجهة نظر اللجنة واعضاءها، او لتعارضه مع المفاهيم الدينية لبعضهم الآخر.

إن المنطق والحق الإنساني يقول إن هؤلاء الابرياء احق بالرعاية والعناية من عشرات المشاريع التي تقوم بها الجمعيات المسماة بالخيرية، ولكن منذ متى كان المنطق والحق الانساني اقوى بالاعتداء من منطق الفكر الديني؟

ان ما قام به برنامج السنعوسي من كشف لحجم هذه المأساة اكثر من جيد ولكن مشكلة هؤلاء «التعساء» ستراوح مكانها لفترة طويلة قادمة، وستنتقل ملفاتهم من الصحة الى الشؤون، علما بان الامر يتطلب حلا جذريا حضاريا اسوة ببقية دول العالم، وهذا لا يمكن ان يتم دون البحث في الاسباب الحقيقية الكامنة وراء كل هذا التجاهل لوضعهم، والتي تكمن في صغر عقول البعض منا وغرابة طرق تفكيرنا، وهو الامر الذي يتطلب جرأة في المواجهة والاعتراف بأن الامر انساني اكثر منه ديني.

كما أن المنطق يقول ايضا أن من صالح مجهولي الوالدين هؤلاء ومن صالح من يرغبون في تبنيهم ومن صالح المجتمع ككل تشجيع التبني وتفرغ دور الرعاية الاجتماعية من نزلائها من الفتية والفتيات، فما يحدث من ظلم انساني واجتماعي ونفسي في تلك الدور لا يجب قبوله تحت اي ذريعة كانت.

التخلي عن الدشداشة

توجد في اللغة الانكليزية كلمة Tolerance، وعلى الرغم من أهميتها على صعيد العلاقات الانسانية، إلا اننا نفتقر إلى ترجمة دقيقة لها بحيث تعطي المعنى المقصود نفسه باللغة الانكليزية. ولو نظرنا إلى أنفسنا كأفراد وجماعات بتمعن لوجدنا شبه انعدام لفضيلة التسامح بين الغالبية منا، وربما يعود ذلك، في جزء منه، لعدم وجود الكلمة في قاموس كلماتنا، ولهذا ليس لها ترجمة دقيقة، فاصبحت هذه الفضيلة غير ذات معنى بيننا، نحن المؤمنون بقاعدة العين بالعين والسن بالسن!

باستعراض مجموعة الفضائل المعروفة الأخرى كالحب والرحمة والتآلف والتسامح والصدق والكرم واللطف، نجد ان التسامح أكثرها أهمية وصعوبة في التطبيق والالتزام. فالتسامح ليس فضيلة فقط بل أسلوب حياة. فالكثيرون منا يستصعبون قبول الآخر المختلف عنهم مذهبيا أو دينيا كشركاء أو أصهار أو حتى مرافقين أو مجاورين في الحي السكني. كما يصعب على الكثيرين منا تقبل تناول طعام الآخر أو حتى لمس ملابسه. وحذرنا تراثنا الديني من الآخر ومن دخول معابده أو السماح له بدخول دور عبادتنا، ونعيد هنا ذكر قصة ذلك المواطن البحريني الذي دخل مسجدا ليصلي فيه باحدى مناطق الكويت السكنية، وعندما اكتشف بقية المصلين اختلافه «المذهبي» عنهم وجد نفسه في المستشفى، ورحل في اليوم ذاته إلى وطنه، البحرين، وليس الصين طبعاً.

كما يصعب على الكثير مغالبة الرغبة في من المواقف التي يتعرض لها المعاق جسدياً أو ذهنياً مثلاً، على خشبة الحياة أو المسرح. ومن الصعب علينا التحلي بالصبر عندما نخاطب بطيئ الفهم، كما اننا عادة ما نشعر بانزعاج شديد لو اصطدم بنا شخص أعمى ولا نتردد في توجيه اللوم له. كما نكثر من اطلاق صفات الاعاقة على الآخرين دون انتباه أو تردد أو حتى تقدير لمشاعرهم. كما أن من يفشل من العاملين لنا في أداء عمل ما نصفه بالأهبل، ونصف الذي لم يسمع بالاطرش أو الاصمخ، وهكذا.

وربما ليس غريباً ان الكثيرين يجدون انفسهم أكثر لطفاً وتسامحاً وتقبلاً للآخر عند وجودهم في الخارج، للتجارة أو السياحة، حتى وهو في الهند أو في سيريلنكا، ولكنه لا يفعل الأمر ذاته مع نفس الجنسيات في وطنه.

وقد لاحظت على نفسي بأنني أصبح أكثر عدوانية مع الآخرين وأكثر عنفاً في

قيادة المركبة أو في التصرف في الأماكن العامة عندما أكون في بلدي، وخصوصا عندما أضع الغترة والعقال على رأسي وأبين للآخرين انني «...كويتي خليجي وعارف طريجي...»! وتبلغ العدوانية والتجبر والغطرسة الفارغة مداها عندما أجلس خلف مقود السيارة، هنا كان ينتابني شعور بالطاووسيه وكأنني أملك الطريق. لهذا وابتداء من سبتمبر المقبل، مع عودتي من الإجازة، فإنني سأقوم باستبدال الدشداشة الكويتية بالملابس العادية من بنطلون وقميص وارتداء بدلة كاملة، عندما تسمح درجات الحرارة بذلك. حيث اكتشفت من خلال تجريبي الشخصية انني اصبح بارتداء هذه الملابس اقل عدوانية مع الآخرين وأكثر ميلا للتسامح، وتقبلا لأخطاء الآخرين، وأدبا في مخاطبتهم! فهل من معترض؟

طابور «أوما سليمان»!

أقدمت «أوما سليمان» السيلانية الجنسية، على الانتحار قبل أيام شنقا في المنزل الذي تعمل فيه، وبهذا يضاف اسمها إلى العشرات، لا بل المئات، الذين سبقوها في طابور الخدم والعمالة الهامشية الذين اختاروا الانتحار أو التخلص من بؤس حياتهم في الكويت، بلد الرخاء والخير والامن والعدالة، على العيش في ظروفهم البائسة.

وعلى الرغم من تعدد حالات الانتحار هذه، وتزايد وتيرتها بشكل مقلق، فإن أي جهة معنية بالموضوع كوزارة الشؤون، أو جمعية حقوق الانسان أو الجامعة لم تقم بمحاولة دراسة هذه الظاهرة، ومعرفة ما وراءها من اسباب، وعما اذا كان هناك عامل محدد يربط بينها ويجمعها، لكي يمكن استغلاله لتقليل وقوع هذه المآسي.

لا شك ان البيئة أو الطريقة التي يعيش ويعمل بها الكثير من خدم المنازل هؤلاء، اضافة الى غالبية عمال شركات النظافة لا يمكن تصور سوئها وقسوتها الشديدة، وخلوها من الكثير من مظاهر الاحترام للنفس البشرية، والتي ربما تكون العامل الاهم الذي يدفع هؤلاء للتخلص من حياتهم. ولكن من السذاجة، بل والظلم، تردد ما يقوله البعض من ان هؤلاء الخدم من المحظوظين لمجرد تمكنهم من القدوم لدول «النفط» والعمل فيها مقارنة بالملايين من اقرانهم الذين لم تتح لهم الفرصة نفسها، والذين هم على استعداد لبذل الغالي والرخيص للقدوم لدول الخليج للعمل بها. فبالرغم من صحة هذه الفرضية في جانب منها، إلا أن هذا يجب ألا يبرر الطريقة غير الانسانية التي يعامل بها هؤلاء من قبل نسبة كبيرة من مستقدميهم، خاصة من طبقة معينة. فعلى الرغم مما تمثله الكويت وغيرها من دول النفط من رخاء في بال الكثير من مسحوقى الدول الفقيرة بسبب التفاوت الكبير في مستوى المعيشة، فإن احلامهم هذه سرعان ما تختفي بحكم الواقع، وذلك عندما تبدأ المقارنة بما يمتلكونه او سيمتلكونه مع ما يتمتع به الآخرون من ثراء، وهنا يبدأ مفعول الضغط النفسي المصحوب بالحزن على فراق الال والوطن يفعل مفعوله، ويؤدي الى حالات الانتحار هذه، خاصة اذا علمنا بأن نسبة كبيرة من هؤلاء الخدم غالبا ما يقومون بالاستدانة من المافيات لدفع رسوم لحصولها على عقد العمل في دول الخليج.

أماديوس والموسيقى

يناير 2006

يحتفل العالم المتمدن، والانساني، هذه السنة بمرور 250 عاما على مولد الموسيقار العالمي العبقرى «أماديوس ولفغانغ موزارت»! لا اعلم شيئا عن موقعنا الحقيقي في هذه الاحتفالية العالمية، ولكن أعتقد أن غالبيتنا سوف لن تشعر او تحاول ان تعرف او تكثرث بما قدمه هذا الفنان للعالم من فن رفيع أثر، شتئا أم أبينا، وسيؤثر في حياتنا الى الابد!

كما لا اعتقد ان هناك من لم يشاهد طفلا في أشهره الأولى، مستلقيا على ظهره في سريريه وهو يحاول عبثا مد يده للوصول الى لعبة بدائية معلقة على رأسه تصدر نغمات موسيقية بسيطة. ولو راقبنا تصرفات أي طفل، وفي أي عمر كان، لوجدناه يتمايل برأسه يمنا ويسرة على سماع نغمة موسيقية جميلة. كما تتحرك مشاعر الجميع، بخلاف اجسادهم، لسماع نغمة او قطعة موسيقية تذكره بأمر أو مكان أو شيء ما، وهذا ينطبق على جميع البشر ولأي جنس أو طائفة أو لون أو عرق انتموا.

كما اثبت العلم الحديث بما لا يقبل الشك، وأرجو ان لا يسألني احد عن الكيفية التي تم بها اثبات ذلك، ان الجنين يطرب لسماع نوعية معينة من الانغام الموسيقية. كما أن الحيوانات تطرب لسماع نوعية معينة من الموسيقى، وتصبح اكثر سكونا عند عزفها. ومعروف أيضا ان للموسيقى تأثيرا واضحا على النبات. ولا تكاد توجد أمة على ظهر الارض لا تمتاز بموسيقاها الشعبية او ألحانها الخاصة التي تطرب أكثر لها.

ومن المعروف أن لكل دول العالم مقطوعة موسيقية تسمى بالسلام الوطني، وهي عادة لحن مميز له معنى، ويعزف اثناء المراسم والمناسبات والاعياد الرسمية. وفي الألعاب الأولمبية يعرف السلام الوطني للفائزين بالميداليات! وبالتالي لا يجادل الا مكابر، أو جاهل، في أهمية الدور الذي تلعبه الموسيقى في حياة كل منا. ولا يمكن تخيل معيشتنا من غيرها. وان غابت الموسيقى من حياتنا، لسبب أو لآخر، فإننا سنجد انفسنا، ومن دون شعور، نصدر انغاما موسيقية محددة نحبها. كما ان الكثيرين يستعينون بالصفير او الدندنة الموسيقية مثلا للتغلب على أي مشاعر خوف في مكان موحش، ولكي يعلموا الاخرين بأنهم طبيعيين ويشعرون بالأمان!

لو نظرنا الى طرق ومقررات التربية والتعليم في مدارس الكويت، حكومية وغير ذلك، والتي توصف ظلما بالحديثة، لوجدنا ان الاهتمام بفن الموسيقى في تراجع مستمر منذ سبعينات القرن الماضي وحتى الآن، لصالح مواد اخرى لا تسمن ولا تغني، ولا نود هنا الافاضة.

ولكن يجب ان نعترف بأننا حقا جهلة عندما نعتقد، او يعتقد واضعو مناهج التربية في الكويت، او مجلس التخطيط بقضه وقضيضه، ان ليس للموسيقى اهمية تذكر، وان في امكان الطالب والطالبة تلقي المعرفة أو الفن الموسيقي خارج اسوار المدرسة،

وكان من الممكن قبول مثل هذا التجاهل الاحمق لو لم يتطور الحظر بحيث يمنع تدريس الموسيقى في مختلف المدارس والمعاهد، وليحرم تاليا سماعها، أو حتى الوقوف للسلام الوطني!

القرود والدولة الدينية

قام احد علماء الاجتماع بإجراء التجربة التالية:

احضر خمسة قرود ووضعهما في قفص، وعلق في منتصفه حزمة موز ووضع تحت الموز سلم يمكن باستخدامه الوصول للموز.

بعد فترة لاحظ العالم ان احد القرود اعتلى السلم محاولا الوصول الى الموز، هنا قام باطلاق رشاش ماء بارد قوي على بقية القرود، فأفزعها.

بعد قليل حاول قرد آخر اعتلاء السلم، وهنا كرر عملية رش الماء البارد على البقية. مع تزامن محاولة الوصول للموز، ورش الماء البارد، وصل القرود الخمسة لقناعة بأن أية محاولة وصول تعني عقابا ما، وقبلوا الواقع وتركوا الموز ليخرب. هنا اخرج العالم احد القرود من القفص وادخل قردا جديدا بدلا منه. ما أن انتبه القادم الجديد لوجود الموز، وسلم يوصله له حتى تسلقه، وهنا هجم عليه بقية القرود الأربعة ومنعوه من الوصول «لأمر محرم»! وعندما ابدى مقاومة نال ضربا مبرحا دون ان يعرف لماذا. ولكن بذكائه استنتج أن أية محاولة للوصول للموز محرمة دون سبب منطقي، ولكنها محرمة، وخلص، حيث أنه لم يعرف أن عقوبة الوصول له تعني الرش بالماء البارد!

قام العالم بعدها بإخراج قرد «قديم» ثان من القفص وادخل اخر جديدا عليهم، وحاول هذا من فوره تسلق السلم والوصول للموز فكان نصيبه نصيب من سبقه من منع وضرب، والغريب أن القرد الجديد الذي سبقه في دخول القفص شارك الثلاثة الآخرين في عملية الضرب، دون ان يعرف السبب، ولكنه قام بما قام به من منطلق «وين رايحين نروح معاكم»!!

وهنا أخرج العالم قردا ثالثا، وأدخل آخر مكانه، وقام هذا بنفس محاولة الوصول للموز، وناله ما نال من سبقه من ضرب مبرح، وشارك في الضرب القردان القديمان والقردان الجديدان، دون أن يعرفا سبب إقدامهم على هذا العمل فعملية رش الماء البارد لم يجرباها. واستمرت عملية الاستبدال حتى شملت جميع القرود الخمسة، وأدخل على الخمسة الجدد قرن سادس أكثر جدة، واستمر «طقس» المنع والضرب معه، دون أن تعرف المجموعة بكاملها ما يدفعها لأن تمنع غيرها من تسلق السلم وقطف الموز، وكأن لسان حالها يقول «نفعل كما يفعل آبائنا الأولون»!! هذه ليست دعاية، بل تجربة علمية حقيقية تمثل واقع اي مجتمع، مع تفاوت ردات الفعل بين مجتمع متقدم وآخر متخلف. ولو نظرنا حولنا لوجدنا اننا نقوم

باداء مختلف الاعمال في مكاتبنا ونتبع عادات كثيرة في انجاز اعمالنا وعباداتنا، ونؤدي الكثير من الطقوس بالاسلوب القديم نفسه دون ان يجرؤ اي منا، او يفكر، في سؤال نفسه أو غيره عن سبب اتباع هذا الاسلوب او تلك الطريقة دون غيرها. والمحزن والمحير اكثر، ان الآخرين على الرغم من جهلهم كذلك بالاسباب، يكونون عادة اكثر استماتة في الدفاع عن تلك الطرق والطقوس والدفاع عنها لتبقى كما هي!!

والآن لو فكر كل منا في كم الأمور والطقوس التي يقوم بأدائها بطريقة تلقائية، دون تفكير في سبب قيامه بها، لوجد أنه غالبا لا يعرف السبب، بل هو وجد من هو قبله، كأم واب، يقوم بها، فاتبعهم دون سؤال. ومع مرور الوقت اعتاد على الأمر، واصبح جزءا منه لا يستطيع غالبا الفكاك منه، او لا يريد أو يخاف وقف العمل به، وهكذا مع الطعام، فنحن نشتهي أن نأكل ما اعتدنا عليه، وليس ما هو عادة مفيد لصحتنا!

دعوات دعوات

اللهم أحرق زرعهم! اللهم يتم ابناءهم. اللهم رمل نساءهم. اللهم اقطع نسلهم،
اللهم خرب ديارهم!

هذه عينة من الدعوات التي لم نتوقف عن سماعها، طوال نصف القرن الماضي على الأقل، من مآذن مساجدنا في نهاية خطبة كل يوم جمعة! و«هم» يقصد بها «الآخرون»، أي غير المسلمين! وهؤلاء يشكلون القطاع الأكبر الذي يعمل في خدمتنا! فكيف نطالب بقطع نسلهم وتيتيم ابنائهم؟ ومن سيخدمنا ويتولى امر كسلنا وقلة حيلتنا، إن هلك هؤلاء؟ فهذا دعاء سخيف جدا، وغير منطقي، فهؤلاء ال «هم»، هم الذين قاموا، ويقومو، باستباط واكتشاف وصنع وحفظ واختراع مختلف الادوية والامصال الطبية لمعالجة ما يصيبنا من امراض وأوبئة وآلام واوراج! فكيف نطالب بحرق زرعهم وترمل نساءهم؟ ومن الذي سيهتهم باصابات الجرب فينا؟

و«هؤلاء» الآخرون هم ايضا اولئك الذين يعينوننا في تجارتنا، ويوفرون لنا، عن طريق الاختراع والصنع والتطوير، مختلف وسائل المواصلات، التي نستعين بها في التواصل مع اهلنا وقضاء حاجاتنا ونقل منتجاتنا! فكيف نطالب بخراب ديارهم وتشيت شملهم؟

و«هؤلاء» ايضا، هم الذين قاموا، وسيقومون إلى الأبد، باكتشاف واختراع وتطوير مختلف الاجهزة الكهربائية، التي قلبت حياتنا رأسا على عقب ووفرت لنا بيئة سعيدة ومريحة وطيبة وقابلة للعيش، كالمراوح ومكيفات الهواء واجهزة التدفئة وحفظ الاطعمة من التلف، وادوات الطبخ والنفخ والاتصال والطرب والكي وتنقية المياه وتطهير البيئة، فكيف نأتي الآن ونطالب جهارا نهارا ومن على منبر كل مسجد، ومن خلال ميكروفونات وامبلفايرات، هم صنعوها، ولديهم قطع غيارها، وطرق انتاجها وتطويرها، بترمل نساءهم وخراب ديارهم؟

وان كنا مصرين على ذلك، فهل استعدادنا، ولو بنسبة واحد في المليار، لذلك اليوم الذي يحترق فيه زرعهم وتفنئ فيه ديارهم، وتذهب ريحهم الى الأبد، لان يكون بإمكاننا صنع عود ثقاب أو عود خشب صغير لازالة بقايا ما سيعلق من لحوم «الجمال» بين اسناننا؟

ألم يحن الاوان لنعرف ونفهم ونكتشف ان هذه الدعوات، الذي لم تستجب اصلا، تدعو حقا للشفقة والرتاء؟

ألسنا حقا من الغباء بمكان بحيث اعتقدنا، وآمنا بأن من يصنع لنا ويخترع لنا
وينتج لنا هو مسخر في نهاية الأمر لخدمتنا ورفاهيتنا؟
ألم يحن الوقت لنعرف ان كراهية الغرب، وبقية العالم غير المسلم لنا، نابعة
اصلا من كراهيتنا وبغضنا واحتقارنا لهم السابق على حقدهم وخوفهم منا؟

لماذا لدينا انتحاريون؟

يونيو 2006

لماذا لدينا انتحاريون، أو بشر، على استعداد لتفجير انفسهم في مقهى أو مسجد أو أي دار عبادة، أكثر مما لدى غيرنا؟ لماذا أصبحنا مصدر الرعب الوحيد في العالم تقريباً؟ لماذا لا تكره سلطات الجمارك ولا تحذر إلا من ملتحمينا؟ لماذا تبدو من هؤلاء دائماً نظرات احتقار واستخفاف لمن لا يتشبه بهم؟ لماذا تصر هذه الجماعات على العيش خارج اطار العصر ومبادئه؟ كيف يمكن توقع الخير والصالح وسيادة السلام في العالم اجمع، وفينا من يعتقد بانه على حق وسبعة مليارات من البشر على خطأ؟

أين يكمن جمال الحياة؟ أليس في منظر فراشة تطير ورائحة عشب شذب للتلو، وضحكة بريئة تصدر عن طفلة صغيرة؟

ما هي الحياة، بكل قصرها، إن لم تكن نكتة طويلة تمتلئ بالحب والهجر والامل والالم واللهو والاكل والعتاب والصبر والقسوة والطمع والكرم والفراق واللقاء والكذب والمصارحة والاسرار واللذات والصبر والخنوع والكرامة والجنس والعائلة والابناء والبنات والاب والام والخالة والاقارب والغولف والكرة والسينما ولوحة جميلة هنا وتمثال عظيم هناك ولحن رائع في الصباح واغنية حنونة في المساء؟ لو نظرنا لحياة البعض من حولنا، وطريقة معيشتهم، التي حاول البعض ومازالوا، قلبها، وحصرها في اضيق الاهتمامات واكثرها جلباً للغم والهـم، لوجدنا انها تخلو تماماً من اجمل ما في الحياة. فهؤلاء يصرون على اعتبار انفسهم في دار فانية وما عليهم سوى انتظار الموت أو ابتغائه أو السعي اليه، من اجل الوصول لدار الخلود، ويا حبذا لو اخذوا معهم في طريقهم ارواح مئات الأطفال الابرياء.

لو تمنعنا في اسلوب حياتهم اكثر لوجدناه خلوها من الميسر والخمرة وبقيـة الموبقات الاخرى، وهذا يمكن تفهمه، ولكننا نجدنا تخلو ايضاً من أي مظاهر احتفالية أو مفرحة اخرى. فعيد الاستقلال والتحرير ورأس السنة، وحتى المولد لا يعني لهم شيئاً، وتكره الاحتفال بها، دع عنك احتفالات الإستقلال والكريسماس، أو حتى تبادل بطاقات المعايدة والتهنئة والفرح وارسال الزهور بمختلف المناسبات، فهي بالنسبة لهم تشبه بالغرب، وهذا صحيح ولكن ليس استعمال الطائرات والسيارات واتباع نصائحهم الطبية تشبها بهم؟

كما لا تشكل الالـعاب الرياضية حيزاً في حياتهم، وهنا نتحدث بشكل عام فلا

يمارس هؤلاء، لسبب أو لآخر، الهوكي ولا السلة ولا الكرة الطائرة.
كما لا تجدهم يصحون صباح الجمعة مثلا لمشاركة صديق أو أكثر في لعبة غولف تروح عن النفس، أو الذهاب لناد رياضي للسباحة أو للعب كرة ماء، أو مشاهدة لعبة بيسبول أو فوت بول أو كرة قدم على شاشة التلفزيون، فقد يتخلل ذلك اعلانات تحتوي على مناظر منقضة للوضوء، دع عنك الصلاة كما لا يميلون للمطالعة بشكل عام، غير ما هو مسموح به في نطاق اهتماماتهم الدينية وما هو مسموح لهم بقراءته عادة يكون موضوعه جافا مقبضا للنفس والقلب معا!
كما لا يشارك هؤلاء في حفلات عائلية أو تجمعات عمل تتخللها الموسيقى، ولو كانت هادئة، فهم يفضلون الابتعاد عما فيه شبهة، فكيف اذا كانت محرمة نصا وروحا؟!

كما لا يميلون للسفر لما يفرضه هذا عليهم من لباس معين وصوم مستمر عن اكل اللحوم والدجاج وحتى الكثير من ثمار البحر، بسبب حرمة تناولها. كما لا يميلون لارتياح اماكن اللهو، ولو كانت قمة في البراءة اما السينما فليس لها مكان في حياتهم، ولا يقومون فوق ذلك باستئجار افلام الفيديو لمشاهدتها في البيت، فعدد الافلام التي يسمحون لأنفسهم بمشاهدتها ليس بالكثير، من اصل عشرات ملايين الأفلام. أما قصتهم مع افلام الكرتون فحدث ولا حرج.

كما لا يميل هؤلاء لمشاهدة اللوحات الفنية والتماثيل العظيمة التي طالما بهرت ملايين البشر الذين استمتعوا بمشاهدتها، وليس للباليه أو الاوبرا مكان في حياتهم، ولا حتى في قواميس الكثيرين منهم اما الزهور، فبائعوها يقولون بان الملتحين المتشدددين ليسوا من مشتريها!

ولو نظرنا للبيانو أو السيجار أو حتى سجادة عجمية رائعة النسيج والتطريز أو غلبة كافيار طازجة أو بيت شعر غزلي رائع لوجدنا انها لا تعني لهم شيئا، فحياة الكثيرين منهم يلفها الوقار لفة والصمت لفات، وكل ذلك في إطار خشوع كبير، بحيث تبدو بعدها وخلالها كل مباحج الحياة وزينتها واطيب ما فيها فراغا وضياعا وترهات!

ولهذا كله، ولأمور كثيرة أخرى، فلا غرابة ان لدينا اراهبيين انتحاريين أكثر من غيرنا!

غيمة التخلف السوداء

يوليو 2007

ما يحدث في لبنان، وفي عدد من الدول العربية، لا يعدو ان يكون نتيجة لسياسات الجهل والتجاهل التي اتبعتها حكومات وشعوب هذه الدول اتجاه الكثير من القضايا الحاسمة، حتى نخر سوس التخلف والتعصب فيها.

لاشك ان لبنان ضحية، ولكنه ضحية شعبه، ومن يسمون بأمرته العربية من حوله، قبل ان يكون ضحية لاسرائيل! هذا هو الواقع الذي نرفض الاعتراف به، وهذه هي الحقيقة التي لن نرضى بقبولها!

من منا، لبنانيين وغير ذلك، لا يحب لبنان، وكرز لبنان وجمال لبنان، وجبال لبنان ووديانه وصفصافه وشمسه وهواءه وصيفه وشتاءه وكل ما يبدعه شعبه من خدمة وصناعة وفن وضيافة! ولكن من منا، لبنانيين وغير ذلك، يحب أو يحترم احزاب لبنان الفاشية والدينية وتجمعاته الطائفية وكنائسه المتطرفة ومساجده المتعصبة، وما يعانيه اللبنانيون من حرب أهلية صامتة، نتج عنها فقر مدقع وثراء فاحش وخراب ضمائر وفساد سياسي وإداري لا يمكن تصوره.

قلة هم أولئك الذين يكون الحب للبنان بالقدر نفسه لاحترامهم له، ومع قلتهم فانهم في اضمحلال مستمر. فلبنان هو وطن المحبة وفي قلوب جميع «المواطنين» اللبنانيين طالما كان لبنان لبنانهم ومدينتهم وضيعتهم ومذهبهم ودينهم وزعيمهم وعاداتهم وتقاليدهم وطريقة رقص دبكتهم وطبخ كبكتهم! اما غير ذلك فانهم مجموعة من المتعصبين او المتخلفين، او في احسن الاحوال «المعتريين»، أي البؤساء، باللهجة اللبنانية.

ولهذا، فكل طرف على غير استعداد لمحبة لبنان الاخر واحترامه، وقد يسعى لأن تصبح منطقته نظيفة او آمنة، او تستحق الزيارة، او الاكل فيها، أما غيرها فيمكن أن يذهب للجحيم، وبالتالي فإن نصفه يمكن أن يستباح من نصفه الاخر، دون أن يرف جف أي فريق منه، وهناك دائماً من هو على استعداد للقيام بمهمة التدمير!

اعلم بان في قلبي هذا قسوة شديدة ولوما اشد، وقد يرى البعض في الامر مبالغة غير مبررة، ولكن الم نر في حرب الثمانينات الاهلية كيف دكت مدافع حزب الله وحركة امل قرى بعضهما بعضا وفي كل جانب وطرف اخ وشقيق للآخر؟ ألم نر قواتهما تلتحمان في معارك ضارية في شوارع بيروت والضاحية الجنوبية

مستعملتين كل ما كان تحت يديهما من سلاح فتاك؟ ومع هذا لم يعلم نصف الشعب اللبناني وقتها بتلك الحرب ولم يكثرث غالبية بالأمر، ومن سمع وعلم قال: «فخار بيكسر بعضه»!

الم يهلل نصف لبنان الآخر ويدعو بدعاء «الله لا يردهم» وهو يسمع دوي مدافع «قوات» جعجع تدك معاقل انصار الجنرال عون، وكيف شاركت قوات الاثنيين في تخريب مناطق بعضهم البعض، وقتل ما لم تتمكن كل مدافع وقذائف الاطراف الاخرى من قتله وتخريبه في تلك المنطقة طوال سنوات الحرب الاهلية التي استمرت لخمسة عشر عاما!

ان لبنان الجديد يجب ان يبعث، ولكن على اسس علمانية بحثة فالتائفية هي التي خربت لبنان وهي التي ستخرب، او خربت، النسيج الاجتماعي الهش في الكويت وفي البحرين وفي دول كثيرة اخرى، وبالذات العربية والمسلمة! ان الشعوب لا يمكن ان تقسم وتصنف وتجزأ على اسس طائفية وتوزع الامتيازات لفئة وتحرم اخرى لنفس الأسباب، التي غالبا لا تستند لعقل ولا منطق، وان تم قبول ذلك في مرحلة ما فإن من الاستحالة استمرار العمل به الى الابد! ان المدافعين عن الانظمة الدينية او الطائفية هم فقط المستفيدون من بقائها وهم المتاجرون بها. ان لبنان الوطن والشعب والتراب والتراث العريق يدفع اليوم ثمن تجاهله وتأجيله لكل مشاكله ومحاولاته كنسها تحت سجادة التاريخ، لعل وعسى ان تحل نفسها وتنتهي! ولكن التاريخ لا يرحم وعذاب الشعوب لا ينسى بسهولة.

نعود ونقول ان خلاص لبنان، وأي بلد متخلف ينخر فيه الفساد السياسي، يكمن في الغاء الطائفية، وتحوله الى العلمانية، والى ان يأتي ذلك اليوم، فإن عذاب لبنان سيستمر ومعاناة اهله ستستمر، وسيستمر في الوقت نفسه تخلف الدول ذات الانظمة شبه الدينية، فالغيمة السوداء قادمة لا محالة!

الخليج، فارسي أم عربي؟

شكر مزدوج للأستاذ «خليفة الوقيان» على رده على مقالنا عن موضوع تسمية الخليج، وعلى رقي حوار، واود ان ابين اولاً ان الاستاذ وانا ربما نكون مخطئين، كما اخطأ الكثيرون غيرنا، في الاعتقاد بأن التسمية السابقة للخليج في الكويت تم الانقلاب عليها، وتغييرها الى «العربي» بسبب خطاب للرئيس عبدالناصر الذي ذكر فيه اسم الخليج، مقرونا بالعربي، نكايه بشاه ايران! فقد اخبرني ناصري عتيق، ومن مؤسسي «المنبر الديموقراطي»، أن شيئاً من ذلك لم يرد في اي من خطب ناصر، وان العكس هو الصحيح فقد كان هناك برنامج اذاعي شهير يذاع يومياً من «صوت العرب»، ويبدأ بفقرة من خطاب ناصر يقول فيها «هذه عقيدتنا، نحن العرب، حتى يمتد الوطن العربي من المحيط الاطلسي والى الخليج الفارسي!» نعود الى الرد على تعقيب الاستاذ خليفة بالقول:

اولاً: ذكر الاستاذ خليفة ان وقتنا اثنى من ان يبدد في الجدل حول قضية خلافية تتصل بتسمية ممر مائي، وهذا صحيح، ولكن الاخطر من ذلك، وما يجب الانتباه اليه، هو تسامحنا او استسهالنا لمحاولات تغيير التاريخ نتيجة ردة فعل او عداوة، او ما شابه ذلك فهذا الاستسهال في قضية تاريخية هو المقلق اكثر من صحة هذه التسمية او تلك وحسب علمي المتواضع، وذاكرتي التي في طريقها لأن تتواضع اكثر مع تقدم العمر، فإن امرا او حدثا تاريخيا جلا لم يطرأ على المنطقة في اوائل ستينات القرن الماضي لكي يستوجب الامر تغيير التسمية التاريخية السابقة التي عرفناها ابا عن جد. كما اننا، ككويتيين، معنيون اكثر من غيرنا بالحفاظ على استقرار اوضاع المنطقة وتسمياتها الجغرافية، خاصة بعد غزو صدام لوطننا ومحاولته محو اسم الكويت من خارطة العالم!

ثانياً: لا ازال أعتقد ان تسمية «الخليج الفارسي» هي الصحيحة، في «كل الاحوال»، وهذا يشبه القول ان تسمية الكويت بالكويت هي التسمية الصحيحة في كل الاحوال ودون استثناء، علماً بأن للكويت، ولكثير من دول العالم الاخرى، اسماء عديدة قديمة، ولكن استقر الرأي، مع الموثيق الدولية الحديثة، وبروز الأمم المتحدة كجهة مؤثرة، بحيث يصعب على أي طرف الغوص في كتب التاريخ واختيار ما شاء من اسماء واطلاقها على هذه المناطق أو غيرهل، بالطريقة التي يريدها. فوزارة الخارجية الايرانية مثلاً لا يحق لها مخاطبتنا بدولة «القرين» لأن الكويت كان هذا سابق اسمها. ففي عصر المعلومات والإنترنت اكتسبت كل تسميات العالم

إستقرارا واضحا يجب الإقرار به، بعيدا عن اية تعصبات عرقية وطائفية. وبالتالي يصبح ما قصدناه بالقول ان تسمية «الخليج الفارسي» صحيحة لأن كل دول العالم ومنظوماته الدولية وخرائطه قد استقرت على هذه التسمية، ورضيت بها منذ عقود طويلة، ومن العبث التلاعب بها، بصرف النظر عن تعدد وقدم التسميات الاخرى السابقة على التسمية الحالية.

وربما يكون من المفيد هنا التنويه والاشادة بالكتاب الوثائقي القيم «اصل الكويت» للكاتب ب ج سلوت، الذي ترجمه مركز الدراسات من الانكليزية الى العربية ونشره باللغتين في طبعة فاخرة عام 1998 حيث تضمن عشرات الخرائط القديمة، وبأكثر من لغة اوروبية، ومنها خريطة الرحالة «نيبور»، وجميعها تبين ان اسم الخليج المتعارف عليه هو الفارسي.

ثالثا: يقول الاستاذ خليفة: واذا كان جميع المقيمين على ساحلي الخليج من العرب، افلا يحق لهم ولمئات الملايين غيرهم من العرب المقيمين بين المحيط والخليج اطلاق اسم الخليج العربي على هذا الموقع؟ والجواب بطبيعة الحال «لا» كبيرة!! فما علاقة عدد سكان الخليج وبقية العرب بتسمية تاريخية اتفق العالم اجمع عليها، الا قلة نادرة منا رأّت غير ذلك منذ بضعة عقود فقط؟

اضافة الى اننا عندما عن لنا في الكويت تغيير التسمية، هل سألنا الفرد المغربي او العراقي عن رأيه في الامر؟ وهل تم استفتاء الشعب التونسي مثلا في التسمية الجديدة القديمة؟ وماذا عن البرلمانات العربية هل تم الاستئناس برأي اي منها في موضوع التسمية، لكي نأتي الان ونتكلم باسم الجميع ونستشهد بعددهم، وكأن الامر تم برضا الجميع وموافقتهم، وعلى هذا القياس، وهل يحق لنا تغيير اسم البحر الأحمر الى البحر العربي الأصغر!! لا لشيء إلا لأن غالبية الدول المطلة عليه، وملايين العرب من المحيط الى الخليج، يحق لهم بحر عربي اكبر وبحر اخر اصغر؟ وماذا عن بحر العرب ومئات ملايين البشر من غير العرب الذين تطل دولهم عليه؟ هل سنقبل مستقبلا مثلا قيام الهند أو باكستان بتغيير التسمية الى شيء آخر؟

رابعا: لا يختلف مع الأستاذ خليفة على صحة «غالبية» المصادر التي أوردتها عن الأسماء القديمة للخليج وهذا لا يغير من الأمر شيئا، فنحن لسنا على خلاف معه حول صحة التسميات القديمة، بل خلافا على التسمية الحالية المستقرة، التي اتفق العالم اجمع عليها فمثلا مصر الرسمية الان هي «جمهورية مصر العربية» وليس «الجمهورية العربية المتحدة»!

خامسا: جميل من الأستاذ خليفة الاستشهاد بأقوال الرحالة الدانمركي «نيبور»

الذي اكد الصفة العربية لسكان الساحل الشرقي «الايрани» للخليج وانهم يمتلكون السواحل البحرية للامبراطورية الفارسية، ولكن الاستاذ الفاضل نسي، او لم يعلم، أن الخرائط التي وضعها هذا الرحالة بالذات للمنطقة، ومنها الكويت، وردت بها تسمية الخليج الفارسي فلم اخذ شيئاً من «نيبور» وترك اشياء؟

وأخيراً: ذكر الاستاذ خليفة في اخر فقرة من تعقيبه، أنه لا يحسب ان اختلاف الرأي «بيننا» يفسد للود قضية واقول له هنا إنني اصبحت الآن اكثر ودا له عن ذي قبل، وليعذرني ان كنت قد قسوت بكلمة هنا أو جملة هناك!

ملاحظة: أخبرني صديق أنه حصل من خلال مزاد عالمي جرى في لندن قبل سنوات، ونظير دفع مبلغ لا يستهان به، على خارطة قديمة ذات قيمة أثرية وتاريخية كبيرة من وضع الرحالة الدانمركي «نيبور» يعود تاريخها الى عام 1804 وكانت، حتى لحظة وصولها جمارك الكويت، في اطارها العتيق والتمين وصندوقها الزجاجي الرائع، وهي اول خريطة يرد فيها اسم الكويت على أساس «القرين». فرحته بالمادة القيمة لم تكتمل، حيث قام موظف جاهل من رقابة، بالجمارك بشطب اسم الخليج الفارسي المذكور على الخريطة والكتابة، بخط قبيح، «الخليج العربي»! وكانت تلك الخريطة الأثرية اولى ضحايا تغيير التسمية. وصورة الخريطة المشوهة متوافرة لمن يود الاطلاع عليها.

مؤتمر الإعجاز العلمي

«.. لن تقوم الساعة حتى تتحول جزيرة العرب إلى مروج وأنهار».
«علي صادق» مشارك في بحث عن تاريخ الأرض في مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

سبق أن كتبت مرتين عن المؤتمر العالمي للإعجاز العلمي للقرآن على مدى فترة قصيرة. ومؤتمره الثامن والأخير عقد في الكويت. وهذا يعني ان سبعة مؤتمرات مماثلة سبقته. وحيث ان شيئاً مفيداً لم يتمخض عن المؤتمرات السابقة فمن المنطقي عدم توقع الكثير من المؤتمر الأخير وهذا يعني ان الخمسة ملايين دولار التي صرفت على المؤتمر قد ذهبت هباءً!

كما ان من المهم ان نعرف أن المؤتمرات السبعة الأخيرة كانت عن «الإعجاز العلمي في القرآن» ثم اضيفت السنة النبوية له مؤخراً، فأين كان «علمائنا» من السنة النبوية خلال 1400 عام، ولماذا اكتشف الإعجاز فيها عام 2006 فقط؟

في كلمة افتتاح المؤتمر الأخير صرح وزير الأوقاف السيد عبدالله المعتوق بأن مائة «عالم» متخصص في الطب وعلوم الأرض والفلك يشاركون بأبحاثهم في أعمال المؤتمر، ومن ضمنها 14 مكتشفاً علمياً موثقاً بالمنهج العلمي الدقيق! وهذا يعني ان البحوث الأخرى، وعددها 86 بحثاً علمياً، لا قيمة لها، فلماذا اذا قبلت! هل للأمر علاقة بارتضاء أكبر عدد من «رجال الدين»؟ وذكر الوزير ان هذه المكتشفات «العلمية الدينية المستمدة من القرآن والسنة ستساهم في حل أصعب واعقد المشاكل التي تعاني منها البشرية وتهدد كيانها ووجودها. فالمختبرات العلمية الاسلامية، من خلال التجارب المخبرية والتطبيقية، توصلت لنتائج ايجابية ادت لشفاء جميع حالات مرضى الايدز التي عولجت بها بهدي من حديث نبوي. وطبعاً هذا كلام لا صحة له وضحك على ذقون حكومتنا، وكل من شارك في المؤتمر.

كما أكد الوزير أن هناك نتائج أخرى توصل اليها الباحثون في مجال ايجاد العلاج الناجح لأمراض سرطان الرئة وداء الكبد وداء السكري الأول، الذي يصيب الاطفال، وغير ذلك من المكتشفات الطبية والعلمية الأخرى!

وبالتالي نقترح على وزارة الأوقاف بالتعاون مع معهد الكويت للأبحاث العلمية، والمركز العالمي للوسيط في الأوقاف، واموال مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، وجهود جامعة الكويت التكاتف لوضع اسس اقامة مركز طبي وعلمي يعنى بتطوير مكتشفات رجال الدين لدينا في شتى العلوم وبالذات الطبية منها، لكي نساهم في

تقديم العلاج «لأعقد وأصعب المشاكل التي تعاني منها البشرية»!! كما قال وزير الاوقاف. واتمنى ان يكون «علماء الامة» القدوة للبقية وطلب العلاج في هذا المركز الكويتي المسلم ونبذ طرق العلاج الاخرى من غربية وغيرها!

ان ما يقترفه البعض في حق هذا الدين يعتبر امرا مسيئاً للجميع ومؤسف، وبعد ضياع كل ذلك المال والوقت الثمين على ذلك المؤتمر، ان يصرح المشرفون عليه أن من منجزاته اختزال وقت حفل الافتتاح من 90 دقيقة الى 30، بعد الغاء عرض نموذج من اكتشاف علمي، والغاء كلمة الوكيل، وحذف قصيدة شعرية «!»، وحتى الآن لم تعرف ماهية ذلك الاكتشاف، ولم تعرف علاقة القصيدة الشعرية بالاعجاز العلمي، ولم يتأثر احد من عدم إلقاء الوكيل لكلمته!

نحن وسنغافورة

يعتبر الزعيم السنغافوري السابق، لي كوان يو، الذي التقيت به في زيارته للكويت، في نوفمبر الماضي، بدعوة من البنك الوطني، يعتبر من اعظم قادة العالم ومصلحي العصر الحديث. فإنجازاته في مختلف المجالات اشبه بالمعجزة.

خلال ندوته، ومؤتمره الصحفي، ما زالت كلماته، وبعد اكثر من شهرين، تطن في اذني وتدفغني دفعا للتساؤل عن السبب في كوننا لا نزال على تخلفنا التام في كل مجال بالرغم من تملكنا لكل شيء، او هكذا ندعي. وعن السبب في تقدم سنغافورة في كل مجال بالرغم من افتقاد شعبها، المتعدد الأعراق والديانات واللغات لكل مصدر طاقة او قوة مال! وقد اورد لي كوان يو الملاحظات السريعة التالية:

على الدول الخليجية اخذ المثال السنغافوري في التنمية. إن التحدي يكمن في التعليم، واهتمامنا يتركز على تعليم الانكليزية لجميع الطلبة والموظفين، فالانكليزية هي لغة العصر وعالم اليوم والانترنت.

العمل الاصعب هو نشر الثقافة التوعوية بين السكان، خاصة اذا كانوا من أعراق مختلفة.

من الجيد ان تقوم الدول الخليجية بتدريس القرآن والحديث وحفظه، الا انه يجب ان تدرس بقية العلوم ايضا، كالكيمياء والطب والهندسة، وسواها.

لا مانع من التمسك بالتقاليد، ولكن يجب ألا نكون تقليديين في تفكيرنا. من ناحية اخرى اعلن «عبدالله الرشيدى»، القبس 2006/9/4، المشرف على برنامج السراج المنير التابع لوزارة الاوقاف التابعة لجمعية الاصلاح الاجتماعي، التابعة للتنظيم العالمي للاخوان المسلمين، أن ملتقيات السراج الستة عشرة قد بدأت باستقبال الطلاب والطالبات الراغبين في دراسة الفقه والقرآن والسياسة النبوية والرياضة ومادة «الروح الوطنية»!

ماذا عن العلوم الانسانية الاخرى، اليس لها صاحب يرهاها؟ ولماذا لا يوجد بيننا من يود الصرف على النادي العلمي او انشاء مراكز الترجمة والابداع والصرف على الطلبة المبدعين وانشاء مراكز الدراسات والبحوث؟ وقبل كل ذلك، لماذا اختفت انشطة الكشفة والزهرات من حياتنا، وازيل بريق صالة التزلح على الجليد الى الابد، وتوقفت النافورة الراقصة عن العمل، فقط لأنها راقصة! ولماذا خفت اصوات الطرب، وقضي على كل ما له علاقة بالعلم والفن والابداع في وطننا؟ اسئلة كثيرة، ولكن لا من مجيب.

من الذي بدأ الملامة ؟

سقط 14 قتيلا في ولاية «حيدر آباد» الهندية نتيجة اشتباكات دينية بين مواطنين هندوس ومسلمين بعد وقوع انفجار في مسجد «مكة» التاريخي الذي اودى بحياة عشرة ايضا، كما صاحب كل ذلك وقوع قتلى برصاص الشرطة. وتعتقد الحكومة الهندية ان احدى الجماعات الاسلامية المتطرفة كحركة الجهاد الاسلامية البنغلادشية او جماعة «جيش محمد» او «لشكر طيبة» قد تكون وراء تفجير الاوضاع!

بصرف النظر عن الجهة المستفيدة من تفجير ذلك المسجد التاريخي، والذي سبقه قبل سنوات هدم مسجد «بابري» التاريخي، على أيدي متطرفين هندوس من اتباع حزب «جناتا»، اليميني، فإن هذه الاحداث لا يمكن النظر اليها خارج سياق العلاقة التاريخية بين المسلمين والهندوس في الهند والتي أدت في مرحلة منها الى انقسام الدولة الواحدة الى 3 دول.

تعتبر الاحداث المأساوية التي صاحبت قيام المحاربين المسلمين بغزو الهند الاكثر دموية في التاريخ الاسلامي، فقد استمرت اعمال القتل والترويع أسابيع طويلة باوامر واضحة وصارمة من قائد جيش المسلمين، محمد القاسم، الذي كان ينفذ وصايا رئيسه «الحجاج»!

خلقت عمليات القتل العشوائية والجماعية تلك رعبا لا ينسى في نفوس شعوب تلك القارة الموعلة في القدم والعراقة، وبقي ذلك الخوف من المسلمين عامة، وممن اعتنق الدين الاسلامي منهم، قرونا طويلة بعدها، وهذا اعطى المسلمين في الهند مكانة وقوة تزيदान بكثير على عددهم الحقيقي كأقلية!

كل هذا الاحترام او الخوف والحذر الشديدين من المسلمين، الذي استمر قرونا عديدة، تحول، خلال فترة بسيطة، لعداء متطرف ولمقاومة اشد لكل المظاهر والممارسات الاسلامية، وكان وراء ذلك بشكل رئيسي حزب «جناتا» الهندوسي القومي، الذي يعود السبب في تطرفه الى مجمل افعالنا كمسلمين خارج الهند وداخلها، لكل من لا ينتمي لنا، فتطرفهم ضد كل ما هو مسلم، او غير هندوسي كان ردة فعل لأفعالنا كمسلمين ولمواقفنا منهم ولاحتقارنا لكل ما يمثلونه، شكلا واكلا واعتقادا!

فالعلانية التي يمارسها الكثيرون منا، «مواطنين وحكومات»، عن قصد او غير ذلك، في رفض الآخر وتسخيف معتقداته والاستهانة بتقاليده وعدم احترامنا

لحاجتهم لممارسة طقوسهم بالطريقة التي تناسبهم في بلداننا، والنظرة الدونية لكل ما يمت لمعتقداتهم بصلة، جعلتهم يأخذون منا مثل هذه المواقف الصلبة وغير المتسامحة!

فمعتقدات الهندوس او غيرهم من مسيحيين وبوذيين وحتى يهود لا ترفضنا كبشر مسلمين، كما نرفضهم. ولم يكن الحال هكذا حتى اصبح لدينا «كم برميل من البترول»، فحاولنا ان نكون سادة العالم فعندما اصرت حكومة «طالبان» المتخلفة على تفجير تماثيل بوذا التاريخية في بانيام الافغانية، ورفضت كل التوسلات والمطالبات التي تقدمت بها حكومات وجهات اسلامية وعربية ومنظمات دولية وحكومات غربية، كان جماعتنا من متخلفي الامة الوحيدين في العالم اجمع الذين رحبوا بذلك الفعل الاجرامي في حق الانسانية! ولكن عندما جاء الدور على رموزنا الدينية ومساجدنا التاريخية التي بدأ الهندوس المتطرفون بهدمها اصبح الامر مختلفا.

نحن والأورثوذكسية

اعتذرت شركة عالمية للملابس، عن قيام احد متاجرها في اسرائيل ببيع ملابس مصنعة من مواد غير شرعية non Kosher

لفت الخبر انتباهي، حيث بين اننا لسنا الوحيدين الذين نعيش في عصور غابرة، بل هناك اقلية متطرفة اخرى، ترى الحياة بنفس المنظار التعيس!، فالخبر يعني ان الشركة نسيت ان تذكر على بعض قطع ملابسها ان ما استعمل فيها من زرار او احزمة جلدية هي من مصدر «كوشير»، أي أنها مصنوعة من عظام وجلود حيوانات تم ذبحها حسب الشريعة اليهودية!

دفعني الخبر للاطلاع على «الانسكلوبيديا بريتانكا» 1973 ص، 598 فوجدت ان اليهود الاورثوذكس هم اليهود الاكثر تمسكا بحرفية الاعتقادات الدينية التقليدية، وبالتالي يرفضون اي حركات اصلاحية تتعلق بالعقيدة الاصلية.

كما يعتقدون بأن اصول الدين التي وردت في الاجزاء الخمسة الاولى من التوراة من العهد القديم والقوانين الشفهية التي بلغت لموسى، والتي ورد شرحها في التلمود، هي نصوص مقدسة ومحصنة ضد اي تحريف وصالحة لكل زمان، وتبقى المصدر الصالح الوحيد لممارسة الشعائر الدينية!! وبالتالي قاوم اليهود الاورثوذكس بشدة الضغوط كافة للتساهل في موضوع ممارسة شعائرهم، واصروا على التمسك بحرفية النصوص فيما يتعلق بتناول الطعام واقامة الصلوات بطريقة منظمة والمواظبة على الدراسة المعمقة والدائمة للتوراة. كما انهم يصرون على فصل النساء عن الرجال، وخاصة داخل المعابد. ويحرصون بشدة على التمسك بطقوس يوم السبت، حيث يحظر خلالها القيام بأي عمل وتشغيل اي آلة كانت، من غروب شمس يوم الجمعة وحتى غروب شمس اليوم التالي، ولو تطلب الامر في حالة الضرورة القصوى، استخدام سيارة مثلاً، فإنهم يحرصون على ان يقودها شخص آخر غير منتم لهم، ولهذا تجدهم، في فترة السبت مثلاً يقفون امام مصاعد العمارة التي يسكنوها بانتظار قدوم شخص غير اورثوذكسي ليقوم بالضغط على الزر الذي ينقلهم للطابق الذي يقع فيه مسكنهم!

كما يحظر اشعال النيران، للطبخ او لغير ذلك، خلال فترة الملاحظة هذه، ولا يمنع قيام غير اورثوذكسي بالعمل نيابة عنهم، كما يحرمون ايضا عزف الآلات الموسيقية في المعبد.

يمكن بسهولة تمييز اليهود الاورثوذكس من ملابسهم السوداء غالباً، المتعددة

الطبقات والمصنوعة من اقمشة خشنة تتدلى منها قطع وشراشيب. كما يتميزون بجداولهم التي تتدلى حول آذانهم، وعلى ظهورهم، ويمتازون بطريقة حلاقة شعر مميزة وعادة ما يتركون لحاهم دون حلاقة، الا من تشذيب بسيط، ويحرص رجالهم كذلك على عدم الاقتراب من المرأة خلال فترة الطمث. وباعتقادهم ان كل ما تلمسه المرأة في هذه الفترة يعتبر «نجسا» بالنسبة لهم!

كما يتمسك اليهود الاورثوذكس بشدة بنوعية ما يتناولونه من اكل، حيث يجب ان يكون 100 % كوشير، ولا تساهل في هذا الامر، فالحيوان يجب ان يذبح ضمن طقوس معينة وباستعمال سكين حادة مع ترددات تراتيل محددة خلال عملية الذبح!

العورة والصفعة

«عورت»، أو عورة، هي التسمية الرسمية التي تطلق على المرأة في غالبية لغات الهند الرئيسية، وتستعمل كاسم وليس كصفة! وينطبق الأمر نفسه على اللغة البنغالية والأردو الباكستانية ولغات ولهجات أفغانستان والكثير من دول جنوب شرق وأواسط آسيا الإسلامية الأخرى! وهي تسمية أخذت من اللغة العربية مع دخول الإسلام إلى تلك الدول، غازيا أو حاكما أو كدين!

ولكن، ولحسن الحظ، اكتفى غالبية سكانها في العقود الخمسة الأخيرة بالتسمية دون التطبيق، حيث وصلت المرأة فيها إلى أرفع المناصب القضائية والسياسية والتشريعية السامية، على الرغم من أنها مجرد «عورة»! ولكننا، وفي الدول النفطية بالذات، كانت نظرتنا للمرأة أقرب «للعورة» منها لأي شيء آخر، على الرغم من ثراء اللغة بأسماء أكثر رحمة وكرما وذوقا وإنسانية مع المرأة، ولكن الغلبة كانت للصفة على التسمية وهكذا تمت معاملتها وتصنيفها والتعامل معها كعورة يجب إخفاؤها عن العيون والأبصار والألسن والأفكار، لكي لا يلحق بها سوء..... أو هكذا يدعون!

بعد مرور أكثر من ربع قرن على تبوؤ «عورة» هندية لمنصب رئيس الوزراء في الهند الهندوسية وبعدها في سيلان وبنغلادش وباكستان وغيرها، اصدر مجلس الأمة الكويتي بنوابه، المتخلفين منهم والمتتورين، وطنيين وسلفيين، وإخوان ومستقلين وبمباركة حكومية، وصمت إعلامي خاص ورسمي، قانونا أكد فيه، وبإصرار واضح لا يحتمل اللبس، أننا أحق بالتسمية والصفة من دول القارة الهندية وجنوب شرق ووسط آسيا، وان المرأة عورة ويجب أن تعامل على هذا الأساس، لكي تحفظ كرامتها ويصان عفافها ويحترم خفرها وتبعد عن كل ما يسيء لها، وبالتالي عليها القنوت في البيت، وخاصة بعد الثامنة مساء، على أن يكون لوزير الشؤون الاجتماعية الحق في الاستثناء!.

قانون معيب ومخجل وصفعة على وجه الرجل قبل أي جهة أخرى، وهنا لست في وارد دحضه وتفنيد بنوده، ولكن لدي سؤال بسيط واحد لا غير، والإجابة عنه ستبين مدى حالة الرياء أو النفاق والكذب التي نعيشها تحت مختلف التسميات الرسمية وغير الرسمية:

في تبرير وتفسير إصدار هذا القانون «العورة» ذكر ما معناه أنه شرع لمصلحة المرأة ولصون كرامتها وحفظ عرضها وإبعادها عن مزالق الفساد! وسنقول هنا

تجاوزا بأن هذا جميل وعظيم ومنطقي ومعقول ومقبول... ولكن لو كنا دولة فقيرة، لا نفط ولا من يحزنون، وكانت المرأة مجبرة، كما هي الحال في غالبية دول العالم الإسلامي، على العمل لساعات متأخرة من الليل لكي تستطيع الكثير من الأسر العيش بكرامة والحصول على الطعام والكساء ودفع أقساط المدارس، ولكي لا تضطر المرأة لمذلة السؤال والوقوف في مزلق الفساد، ولكن كان هناك ما يعيق عملها أمنيا ولوجستيا وأجرا.

والسؤال هو: ألن يسعى وقتها هؤلاء النواب انفسهم، المسلمون والمليتمون والطيبون، الذين أصدروا هذا القانون المعيب والمخجل، ألن يسعوا لإصدار مختلف القوانين التي تهدف لتوفير أفضل الظروف الأمنية المناسبة لعمل المرأة إلى ساعات متأخرة من الليل وإجبار الحكومة على زيادة وسائل المواصلات مساء ومساواة المرأة في الأجر مع الرجل، لأن عملها ذلك لن يساعد فقط على وضع الطعام على مائدة أسرتها والكساء على أجساد أبنائها، بل سيقبها من الوقوع في مزلق الرذيلة!!.

إذا المسألة كلها كذب ورياء. فتوافر المال بين أيدينا جعل عمل المرأة بعد الثامنة أمرا معيبا ومخجلا بحكم القانون، وإن كنا جياعا وفقراء فعمل المرأة بعد الثامنة مساء مشرف ومطلوب. وأيضا دينيا، وبحكم القانون!

وما أدراك ما العمر

هل حاولت يوما الحملقة في وجوه من يقاربونك عمرا؟ ألم تتعجب كيف غيرتهم السنون، وبدوا بكل ذلك الكبير؟ ربما فعل غالبيتنا ذلك، وبالذات النساء. فالكثيرون يعتقدون أن الآخرين فقط هم الذين يتغيرون ويبدو عليهم الكبر، أما هم فلا يمكن أن يبدو بمثل ذلك الكبر!

دعونا نقرأ قصة السيدة «جين سميث»، حيث تقول أنها كانت جالسة في عيادة طبيب اسنان جديد عليها. كالعادة أشغلت «جين» نفسها بقراءة صحف ومجلات العيادة ولكن بعد فترة تركتها ودارت ببصرها على اللوحات المعلقة على الحائط والتي كانت بينها شهادات التقدير والتخرج الخاصة بالطبيب مدون عليها بحروف كبيرة اسمه الكامل. وعند قراءة الاسم ثانياة قفز الى ذهنها صورة شاب طويل ووسيم بشعر كثيف أسود يحمل الاسم نفسه كان معها في السنة النهائية بثانوية المنطقة التي كانت تسكنها قبل 40 سنة تقريبا. وأخذت تتساءل عما إذا كان هو ذلك المراهق اللعوب نفسه الذي كانت مغرمة به، دون ان يلتفت لها، أو يعرف شيئا عن مشاعرها! توقف سرحانها عندما أخبرتها الممرضة أن دورها قد حان للدخول على الطبيب. ما أن شاهدته حتى عرفت أنه شخص آخر، فمن كان أمامها كان صاحب رأس كبير أصلع، الا من شعيرات بيضاء قليلة ناحية الصدغين. أما وجهه فقد كانت الأخاديد العميقة تشقه من كل صوب بحيث جعلته ابعد ما يكون عن صورة ذلك الفتى الغر والوسيم الذي كانت تهيم به. كما ان بطنه الكبير الذي كان يسبقه كان ابعد ما يكون عن صورة ذلك الرياضي الذي كان مثار اعجاب الكثير من زميلاتها، ولكن مع كل ذلك كانت بعض ملامحه تقول إنه قد يكون الشخص نفسه، ولكي تقطع الشك باليقين سألتها عما إذا كان سبق وأن درس في المدرسة الثانوية المركزية فأكد لها ذلك بفخر واضح. وعندما سألتها عن سنة التخرج قال: عام 1957 وهي السنة نفسها التي انتهت فيها دراستها في تلك الثانوية! وهنا سألتها الطبيب عن سبب كل أسئلتها تلك. فقالت له بتردد وخجل، خوفا أن لا يتعرف عليها، ويعرف قصة هيامها السابق به: «لقد كنت يوما ما في فصلي»!

وهنا حملق ذلك الطبيب، ذو النظر القصير والرأس الاصلع، وصاحب البطن الكبير والمخيف، والوجه الممتلئ بالأخاديد، حملق في وجه «جين» متفحضا ومحاولا تذكرها، ولكن فشل في ذلك، وعندما يئس، سألتها: وماذا كنت تدرسينا في تلك السنة؟!

سؤال وجواب

ورد السؤال التالي في صحيفة محلية قبل عشر سنوات تماما:
ما حكم الإسلام في نصراني قام بأعمال صالحة كراية أيتام وإنشاء جمعيات خيرية ومساعدة محتاجين، ثم مات على النصرانية، ولم يدخل الإسلام؟ هل يجزى على أعماله الصالحة خيرا، وهل تكون سببا في دخوله الجنة؟
الجواب: المعقود في اعتقاد المسلمين ان النصراني الذي قدم اعمالا صالحة ومات على نصرانيته فإن اعماله لا تنفعه عند الله، ولن يكون له حظ في الآخرة، وذلك لأنه فقد اصل قبول العمل وهو الإيمان بالله والدخول في الاسلام، وعليه من الخطأ على بعض المسلمين القول، في لحظة غفلة او جهل إذا رأوا نصرانيا قدم اعمالا وخدمات صالحة: إنه من أهل الجنة، فهو لاء كفار.

يلاحظ من السؤال أعلاه التالي:

أولا: ان الاعمال الصالحة حددت بأمور ثلاثة: رعاية الأيتام، انشاء جمعيات خيرية ومساعدة محتاجين! وهذا كلام غير دقيق. فوظيفة الجمعيات الخيرية هو الاهتمام بمساعدة المحتاجين ورعاية الايتام، فلم الازدواجية، ولم إهمال أعمال الخير الأخرى؟!

ثانيا: إيراد انشاء جمعيات خيرية ضمن أهم ثلاثة أمور في جدول الاعمال الخيرية فيه تجن على التاريخ والعقل. فهذه الجمعيات فكرتها جديدة، وبالتالي لا يمكن ان يمثل انشاؤها كل تلك الاهمية، خصوصا إذا علمنا ما تسببت به، سياسيا وانتخابيا وعسكريا، من خراب.

ثالثا: حصر عمل الخير بالأنشطة الثلاثة فقط يمثل قمة الازدراء للعقل البشري ولمنجزات عشرات آلاف المكتشفين والمخترعين والاطباء الذين سهلت منجزاتهم حياتنا، وقلبتهأ رأسا على عقب، وانقذت اكتشافاتهم الدوائية ومنجزاتهم الطبية حياة مئات ملايين البشر!

رابعا: يتبين من صيغة السؤال أن الأمر يتعلق فقط بالشك في حكم الاسلام في طبيعة عمل الخير الذي يقوم به شخص نصراني بالذات! وهذا يعني أن عمل الخير الذي يقوم به يهودي مثلا أو اي من اصحاب الديانات الاخرى، لا يستحق حتى السؤال، فهم في النار وبئس المصير مهما فعلوا من أعمال خير. وبالتالي فالشك فقط يدور حول عمل الخير الذي قام به نصراني! ويلاحظ هنا الاصرار على استخدام تسمية «نصراني» بدلا من «مسيحي» امعانا في التأكيد على الاستخفاف بالآخر..!

لا نود هنا التعمق أكثر في السؤال وفي الإجابة المطولة عنه والتي قمنا باختصارها، ولكن نود ان نبين ان السؤال والإجابة وردا قبل عشر سنوات في جريدة «الوطن» العدد 7745، وفي صفحة «فكرية» تعنى بتأصيل المفاهيم الشرعية¹ والسائل كان عبدالرزاق الشايحي، والمجيب النائب السابق، عواد برد العنزي، وكلاهما من أساتذة ومفكري كلية الشريعة، ومن الذين تصدوا لفترة طويلة لمهمة تربية الاجيال وتعليمها.

اما مناسبة التطرق لهذا الموضوع بعد مرور عشر سنوات على نشره فتعود لاعتقادنا بأن كل ما نراه اليوم من حولنا من عنف في التعامل مع الآخر وشدة في بغض بعضنا البعض، والتشجيع على سفك دم، ليس فقط المسيحي واليهودي وغيرهما من اصحاب الاعتقادات الاخرى، بل وحتى المسلم الذي لا يؤمن بمثل ما يؤمن به هذا الفريق من تطرف ديني شديد، يعود في المقام الاول لسكوتنا عن مثل تلك الكتابات والفتاوى والاسئلة الشاذة والاجوبة الأكثر شذوذا!

نسبية الأمانة

ورد في الانترنت ان المواطن البحريني عقيل علي سلمان فوجئ، عند الكشف عن رصيد حسابه المصرفي، انه يبلغ مليارا و300 مليون دينار بحريني و250 فلسا بالتمام! وكان عقيل متوجها للبنك لتسلم قرضه البالغ 5 آلاف دينار. ويقول عقيل انه قام من فوره بلفت نظر المدير لما في حسابه من مبلغ خيالي، وقال ان موظفي الفرع ارتبكوا فور سماعهم الخبر وعند التأكد من الرصيد قاموا بتهديده بالشرطة ان قام بسحب اي مبلغ من حسابه، ومن ثم قاموا بعكس القيد، بعد ان اعلموه بأنهم قد اخطأوا في ايداعه بحسابه. وقال عقيل ان المصرف، وهو اميركي معروف، لم يقم بتعويضه على امانته بدينار واحد!

ذكرتني هذه القصة بحادثة حصلت معي قبل 40 عاما في المصرف الذي كنت اعمل فيه وقت ذاك، واتمنى ان يكون صاحب العلاقة من قراء هذه الزاوية ليبتسم عند قراءتها، علما بأنه شخص معروف، وسبق أن كان وزيرا للنفط!

وردت للبنك حوالة مصرفية من بنك باركليز البريطاني بمبلغ 650 الف جنيه استرليني، وكان الجنيه وقتها يساوي اكثر من دينار كويتي بقليل.

ارسل البنك اشعارا بالمبلغ للعميل فطلب هذا تحويله لبنك محلي آخر.

بعد ثلاثة اشهر تقريبا اكتشف بنك باركليز أنه اخطأ في مبلغ التحويل، وان الصحيح هو 6500 جنيه فقط، وليس 650 الفا! وقام من فوره بالاتصال بنا عن طريق التلكس والهاتف لطلب مساعدتهم في استرداد المبلغ من عميلنا.

قمنا بالاتصال بالشخصية المعروفة، وكان ذلك بعد خروجه من الوزارة، وأعلمناه بالخطأ، فقال انه لم يقم بالتصرف بالمبلغ بطريقة غير امينة وإنما اكتفى بإيداعه بحساب وديعة لفترة ستة اشهر، وانه سيقوم في تاريخ الاستحقاق برد المبلغ لنا كاملا لتحويله لبنك باركليز. بعد خصم مستحقاته، واحتفاظه بفائدة الوديعة!

قمنا على الفور بالاتصال بالبنك المعني، وأعلمناه بالنتيجة، فشكروا جهودنا وتمنوا للعميل طيب الاستمتاع بمبلغ الفائدة، مكافأة له على امانته! وانتهت الحادثة بعد اشهر قليلة واعيد المبلغ لأصحابه الحقيقيين.

ولكن هل كان العميل امينا حقا؟! قد يختلف الكثيرون هنا في تحديد مدى الامانة فيمكن النظر للأمر من عدة اوجه!

الم يكن بمقدرة العميل التصرف بالمبلغ كاملا وتبديده كيفما شاء؟ ثم القول بعدها: «اقبضوا من دبش»!، خصوصا ان العرف الدولي سيكون في الغالب الى

جانبه، ان اثبت انه بدد المبلغ بطريقة تصعب استعادته، عندها سيتم تقسيط المبلغ عليه، من دون فوائد، لسنوات وسنوات!

الم يكن حريا به اعلام البنك بأن هناك خطأ في مبلغ التحويل، وان حقه يبلغ 6500 جنيه، وليس 650 ألف جنيه؟

الموضوع مثير للجدل ويحتمل أكثر من تفسير، فمن الصعب ان نطعن في امانة العميل، ولكن من الصعب ايضا ان نقول انه لم يستفد من خطأ غيره، من دون وجه حق!

الحرية مع التقدم في العمر

دخلت منزله الصيفي الجميل، كضيف وكصديق، وذلك في أحد مراح جنوب اسبانيا الجميلة، واسترعت نظري عبارة مدونة على لوحة حديدية تقول: الأصدقاء والنيبذ يتطلب الأمر أن يكونا معتقين!

فكرت في الأمر قليلا وتبين لي مدى صدق العبارة التي ربما قرأت ما يماثلها عشرات المرات قبل سنوات طويلة، ولكنها لم تعن لي الكثير وقتها!

لم تأت هذه الخاطرة عرضا فقد أرسل إلي أحد معارفي «إيميلًا» تضمن 34 سؤالًا، يمكن عن طريق الإجابة عنها، بصدق ودقة، الوصول إلى رقمين: العمر الحقيقي في لحظة ما والعمر المتوقع أن نعيشه، إن لم نتعرض لأمر أو حادث ينهي كل أحلام العيش الطويل.

من خلال الإجابة بصدق ودقة على تلك الأسئلة تبين لي أن عمري النفسي يبلغ الأربعين تقريبا، على الرغم من أنني تجاوزت الستين. وأنني سأعمر حتى ما قبل المائة بسنوات قليلة! فكرت في الأمر مليا فوجدت أن أمورًا كثيرة من حولي وفي تصرفاتي وطريقتي ونظرتي للحياة هي التي أوحى بكل تلك الإجابات المتفائلة على أسئلة الإيميل. فالعمر الحقيقي مسألة نفسية لا تقاس بعدد السنوات، بل بحقيقة مشاعرنا تجاه كل ما يحيط بنا، وما يجري حولنا!! فأنا شخصيا أشعر بأنني أعيش أجمل أيام حياتي، وأنني الآن الإنسان الذي طالما كنت أود أن أكونه، وهنا لا أتكلم عن تلك الشخصية التي ترمقني كلما نظرت للمرأة بالראس الخالي من الشعر وبتجاعيد الزمن على الجبهة وحول الفم وبالدوائر المتعرجة حول العينين، بل بما يكمن خلف كل ذلك من فهم للحياة واستعداد للاستمتاع بكل لحظة فيها. فأنا على غير استعداد للتنازل عن أسرتي الجميلة مقابل عودة شعري لكثافته ولونه الأسود القديم أو التخلص من 20 كيلو غراما من اللحم والشحم التي تعيق حركتي. ولا أرغب كذلك في التضحية بأي صديق لدي مقابل تخليصني إلى الأبد من تجاعيدي. كما أنني في هذه السن أقرب كثيرا لأبنائي الآن عما كنت عليه قبل سبعة آلاف يوم، أو أكثر، ولا أود أن أكون أقل اهتماما بهم وأكثر شعورا بالحنان نحوهم مقابل كل ما يجعلني أبدو أقل من عمري! فالعائلة التي نجحت في تربيتهما والأصدقاء الذين تمكنت من الاحتفاظ بهم طوال هذه السنوات وقائمة معارفي الذين يسعدون وأسعد بالالتقاء بهم كلما أتحت لنا الفرصة لذلك، وحالة النضج النفسي والعقلي التي بلغتها والتي كان عدم وجودها يسبب لي آلاما كنت في غنى

عنها، كلها أمور ليس من السهل التخلي عنها الآن مقابل أي شيء، ففقدتها يعني فقد كل معنى للحياة.

تقول سيدة بلغت عمرا متقدما في رسالة لها: لقد أصبحت الآن أكثر حرية عما كنت عليه، وهذا جعلني أكثر رأفة ورقة ورحمة مع نفسي ومع الآخرين وأقل انتقادا لنفسي ولهم. لقد شاهدت الكثيرين يموتون قبل أوانهم قبل أن يعيشوا المعنى الحقيقي للحرية التي لا تأتي إلا مع التقدم في العمر. فلا أحد سيعبأ إن جلست أمام الكمبيوتر حتى الرابعة صباحا، أو رقصت وحيدة مع أغنيتي المفضلة. وأعلم جيدا أن الذاكرة الضعيفة تأتي مع التقدم في العمر، ولكن حتى هذه تعتبر نعمة في أحيان كثيرة، أما الأمور المهمة فإنها تبقى عالقة في الذهن لفترة كافية. نعم لقد حزنت كثيرا على فقد حبيب وعزيز، وحتى حيوان أليف، ولكن هذا الحزن هو الذي أعطاني القوة وجعلني أكثر شفقة ورحمة وتفهما للآخرين. لقد أدت ضحكاتي وأنا صغيرة لحفر التجاعيد التي استقرت على وجهي، ولكني حتما أكثر سعادة من تلك التي خافت أن تضحك لكي لا تتكون التجاعيد لديها! ومع التقدم في العمر أصبحت أكثر إيجابية وأقل اهتماما بما يقوله الآخرون عني. كما أصبح لي الحق أكثر في ان أكون على خطأ، وأن أتناول الآيس كريم متى شئت ذلك!!

وعليه لنستمتع بالحياة...فالحياة ومضة من السعادة!

ألاسكالأ بعد بافاروتي

2007/09

بعد 40 عاما من العطاء الفني العظيم توفى مغني الأوبرا «لوجيانو بافاروتي» قبل أيام في مدينته الصغيرة، مودينا، إيطاليا، حيث دفن فيها. حزننا على موته فقد كان عملاقا في فنه كريما في ماله ونادرا في شخصيته المحبوبة. امتع هذا الفنان الكثيرين بفنه الراقى. وكان له الفضل في جعل الاوبرا فنا اكثر شيوعا. وقد ادمنت على سماع صوته طوال العشرين عاما الماضية، عندما بدأ نجمه بالصعود عالميا في منتصف الثمانينات، وحضرت عددا من حفلاته مع بدء العد التنازلي لقوة ادائه مع منتصف تسعينات القرن الماضي. اهتمت وسائل اعلام الدنيا بحدث وفاة هذا الفنان الكبير، وكان واضحا عدم اكتراث بلداننا البائسة بموته، فليس لمثل فنون الاوبرا مكان في عقولنا أو افتدتنا! وفاته ذكرتني بقصتي مع «ألاسكالأ».

يعتبر الغناء في دار أوبرا «ألاسكالأ»، التي تقع في قلب مدينة ميلانو الايطالية، فخرا لأي فنان، فهي الدار الاكثر شهرة وتميزا في العالم، وفخر ايطاليا كلها، وهذه نقطة مهمة في قصتنا!

بنت الامبراطورة النمساوية ماريا تيريزا الدار قبل 230 عاما، وقام بتصميمها المعماري «جوسيب بيرماريني». ما يميزها هو موقعها الفريد في وسط ميلانو وقربها من كاتدرائية «الدومو» الشهيرة، وساحاتها الواسعة، وبالرغم من كثرة مرتادي تلك المنطقة من الايطاليين والمصطافين، فإن من الصعب أن تجد في محيطها أية مطاعم مميزة أو للأكلات السريعة. لهذا، فكرت ومجموعة من رجال الاعمال، وفي السنة نفسها لاحتفال ايطاليا والعالم بمرور 200 سنة على «لاسكالأ»، باستثمار المطعم التابع للدار، والذي كان يشكو من الإهمال، بسبب عدم استغلاله بطريقة صحيحة.

استغرقت مفاوضاتنا مع إدارة الدار 14 يوما، قمنا خلالها بدراسة وتغطية كافة جوانب الاتفاق، وشروط التأجير، وحتى نوعية الديكور، بما في ذلك نوعية سيراميك الحمامات. ولم نترك شاردة أو واردة دون التطرق اليها. ومن ثم تقرر عقد اجتماع حاسم للاتفاق على صيغة العقد، وتم ذلك بحضور المحامين، وقبل ان نضع توقيعنا الاولي على العقد، طرح مدير الدار تساؤلا يتعلق بمدى استعدادنا للتقيد بقائمة المطعم التاريخية والقديمة! وهذا موضوع لم يسبق ان تطرقنا له،

لاعتقادنا، عن سذاجة وجهل ربما، أن من حق من يستأجر المطعم اختيار قائمة الطعام التي تحقق مصلحته! وهنا اعاد الشخص ذاته طرح السؤال بصيغة اخرى بعد ان لاحظ ترددي في الاجابة. شرحت له ان فكرة استغلال المطعم جاءت من حقيقة ان المنطقة المحيطة بساحات كاتدرائية الدومو، وعشرات آلاف من يزوروا المنطقة من سائحين، بحاجة لوجود مطعم يقدم الأطعمة السريعة، ويعمل طوال ساعات الليل والنهار. وبالتالي سنحول مطعم اوبرا لاسكالا، لمطعم لبناني يقدم الحمص والفتة والتبولة والشورما! ما ان سمع المدير والمحامي كلمة «شاورما»، حتى اغلقوا دفاترهم وجمعوا اوراقهم وقاموا، وغادروا الاجتماع دون أن يكثرثوا حتى بتوديعنا، وقالوا ما معناه أن رمز حضارة ايطاليا الفني ليس للبيع!

المواطن المجرم

بسبب تعدد الجهات الحكومية التي كنت أنوي زيارتها في ذلك اليوم، وندرة مواقف السيارات في المنطقة، هذا غير حركة المرور الخانقة، فقد قررت الاستعانة بأحد سائقي الشركة ليذهب معي!

كان السائق مواطناً هندياً، وكنت قد وافقت شخصياً قبل بضعة أشهر على عمله معنا في إدارة النقل، ولكن مسؤول الإدارة طلب تأجيل الاستعانة به نظراً لقلّة خبرته بالطرقات... وبالقيادة الجيدة.

في الطريق لمجمع الوزارات لاحظت أنه يصّر على القيادة في الحارة اليسرى من الطريق والبقاء عليها بالرغم من بطء تحركه، وكان وجوده في تلك الحارة يعرقل حركة السيارات خلفه بشكل واضح، عندما سألته عن سبب إصراره على القيادة في الحارة الخطأ لم يجب، وبدأ الارتباك عليه وهو يحول مساره للحارة اليمنى، وهنا اكتشفت السبب فطلبت منه التوقف والترجل عن القيادة!

في الطريق قلت له انني لاحظت قلّة خبرته بكيفية القيادة على طرقات الكويت، وان تصريح القيادة «العامة» الذي يحمله إما مزور وإما أنه دفع مبلغاً للحصول عليه، فاختياره قيادة السيارة في الحارة اليسرى يدل على أنه لا يزال يشعر أنه في الهند، حيث يختلف نظام المرور فيها عن الكويت! وهنا إنهار معترفاً بأنه دفع مبلغ 300 دينار للحصول على الإجازة و1200 دينار أخرى للحصول على تصريح لدخول «جنة» الكويت!! وقال بأنه اضطر لبيع حصته في البيت الذي ورثه وإخوته عن والدهم، والذي كان يعيش فيه قبل قدومه للجنة، وإن عاد للهند الآن خالي الوفاض فإنه سينام في الشارع، وبلا عمل.

أخذت أفكر طويلاً في ما علي فعله إزاء هذا الإنسان البائس! تقاذفتني الكثير من المشاعر المختلطة والمتضادة من سخط وغضب ورحمة ومودة وإنسانية وحزن. فمن الصعب علي أن أعرف كيف سمح ذلك «المواطن المجرم» لنفسه بأن ينزل إلى هذا الدرك الأسفل من الحقارة بحيث يرضى بقيام شخص لا يعرف أبسط مبادئ القيادة في الكويت بالجلوس خلف مقود مركبة شحن تزيد حمولتها ووزنها على العشرين طناً، وقيادتها في طرقات الكويت وتعريض حياة الجميع، وقد يكون بينهم أهل له، لخطر محقق مقابل 300 دينار كويتي!! فكرت كثيراً في ما علي القيام به إزاء ذلك الوضع المحزن والمثير للغثيان في الوقت نفسه! فإعلام السلطات بمخالفات هذا المقيم وما ارتكبه ذلك المواطن «الكفيل» من جرم، كما

سبق أن قمت به في حالات سابقة، سوف لن يتمخض عنه الكثير، فأقصى ما سيحدث هو «ترحيل» السائق المسكين لوطنه، بعد الصرف عليه لشهر أو أكثر في سجون الإبعاد! أما المواطن الكويتي، والمجرم الحقيقي، فلن يقترب منه أحد طالما كان هناك نائب يقف خلفه وعلى استعداد لرمي عقاله على الأرض وترجي صاحب القرار بـ«طلبتك»!

لسبب ما، قررت مخالفة كل اعتقاداتي هذه المرة، وعدم الإبلاغ عن مخالفات وحالات تزوير هذا المقيم، على أن يستمر في العمل معنا بعد أن طلبت من «كفيله» تحويل إقامته علينا. وأخذت تعهدا من السائق بالامتناع كليا عن قيادة أي مركبة لسنتين على الأقل، وأخذت إجازة القيادة منه، واستعنت به كموظف إداري في الشركة بعد أن تبين لي أن لغته الإنكليزية والمستوى الدراسي الذي حصل عليه، والذي يفوق بكثير مستوى وخلق من تاجر بإحضاره للعمل في الكويت، قد يساعده على التعلم سريعا!

أبلى الموظف بلاء حسن في وظيفته الجديدة وأصبح راتبه يزيد عما كان يمكن أن يحصل عليه من عمله سائقا لمركبة شحن.. وفجأة، وكما يحدث في أي فيلم هندي حزين، تغيب عن الحضور إلى المكتب في أحد الأيام. وعند سؤاله عن السبب قال انه يشكو من آلام في المعدة.

تطور الأمر بعدها بأيام وأصبح يتأخر في الحضور ويشكو من مختلف الأوجاع، وأصبحت تتتابه نوبات، ويرفض الذهاب للطبيب، أو المستوصف، وكان يطالب من رئيسه المباشر خصم أيام غيابه من رصيد إجازته بدلا من اعتبارها «مرضية». وفجأة تغيب لثلاثة أيام متتالية دون سبب أو اتصال بالشركة، وعندما ذهب بعض زملائه للسؤال عنه حيث يقطن، تبين أنه قد فارق الحياة في اليوم نفسه!

شعرت بحزن عليه فقد كان، بالرغم من سعادته بعمله الجديد، صاحب وجه بائس معذب. وكان وضعه يدعو للشفقة حقا وكنت صادقا في رغبتني في مساعدته ودفعه للعمل بجد حيث كان هادئا وأمينا في عمله!

المفاجأة كانت في تقرير الوفاة حيث تبين ان الوفاة نتجت عن فشل الكبد! وعند البحث إن كان مصابا بالوباء الكبدي من فئة C وهو مرض معد ومميت، وأنه دفع مبلغ 300 دينار لمسؤول «كويتي» طبيب في إدارة فحص العمالة الوافدة مقابل «تزوير» شهادته الصحية!

هل هذه هي الكويت التي «غيرها ما نبي»؟ كويت ال 2000 مسجد والتقاتل على إجازات الحج، وعمره الجمعيات التعاونية، وال 150 جمعية خيرية؟

عبدالمحسن وإمامة الصلاة

التقيت في أواخر أغسطس 1990، أثناء الاحتلال الصدامي لوطني، بالصدّيق السفير «أحمد الفهد» في بهو فندق «شيراتون الرياض»، حيث كنت أقطن وعائلتي بعد خروجنا من الكويت.

بسبب ما يعرفه عن خلفيتي التجارية والعقارية، طلب مني تولي مهمة إسكان عدد من العائلات الكويتية، التي خرجت من الكويت للرياض، بسبب احتلال العراق لوطننا، بعد أن تبرعت الحكومة السعودية ببعض المباني التي تتطلب أعمال تصليح بسيطة وتزويدها بما تحتاج من أثاث.

تطورت الأمور بسرعة أكبر من مشروع تأثيث عدد من العمارات، بعد أن بدأ عدد اللاجئين الكويتيين للعاصمة السعودية بالتزايد بشكل مخيف، وكان لا بد من التفكير بطريقة عملية أكثر، وبأسرع وقت، بعد أن أصبح النوم في السيارة أو الشارع هو الحل الوحيد أمام الكثيرين. وهنا جاءت فكرة تكوين لجنة إغاثة، والتي التأم شملها في مكتب السيد «عبدالله بشارة»، أمين عام مجلس التعاون حينها، والتي انتقلت تاليا لتشغل المقصورة الملكية في ملعب «الملز». وكان عدد من تطوع للعمل معنا لا يتجاوز السبعة بكثير، ولكن تاليا انضم لنا أكثر من مائة من المتطوعين الآخرين.

في يوم عملنا الأول، رفع اذان صلاة الظهر، فتقدم مني الأخ «عبدالمحسن العثمان»، والذي كان قبل الغزو يشغل وظيفة حكومية مرموقة في الكويت، وطلب مني أن أئتمهم في الصلاة، فأعذرت بلباقة، وطلبت منه تولي الأمر نيابة عني. فأصر على رأيه وقال اني كبيرهم سنا ومقاما وخبرة، وان الغزو العراقي لوطننا العزيز قد ألغى جميع الحواجز بين فئات المجتمع، واننا الآن اخوة متحابون، وان علينا نسيان الفوارق المذهبية! بقيت على اصراري بعدم تولي امامة الصلاة. وهنا، ولكي يضغني أمام الامر الواقع، امسك بيدي ورفعها وقال: يا جماعة «ما كو»، أي لا يوجد، فرق بين سني وشيعي، كلنا كويتيون والاخ احمد سيصلي بنا جميعا! سحبت يدي بهدوء، واعتذرت له وللجميع للمرة الثالثة، بأنني بالفعل لا أعرف كيف أكون إماما. سكتوا، وانتهى الامر على خير، بتولي الأخ عبدالمحسن لوظيفة الإمام.

بعد التحرير تولى أخينا المؤمن والطيب، الذي قام في نهاية الامر بالصلاة اماما في ذلك الجمع، مسؤولية جهة مهمة تابعة لوزارة الاوقاف، وذلك لارتباطه سياسيا بجمعية «الإصلاح الاجتماعي»، الفرع المحلي للتنظيم العالمي للاخوان.

ولكن سرعان ما تم اعفاؤه من منصبه بعد فترة قصيرة، وبهدوء، فخرج من الوظيفة والكويت مطأطئ الرأس من ثقل ما حمل في جيوبه من مسكوكات الجهة التي عمل فيها، بعد أن تم كشف تلاعبه!

تذكرت تلك الحادثة وأنا اقرأ خبر تبخر ثمانية ملايين دينار من اموال وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، وهي من الاموال التي خصصت للجنة تهتم بالصرف على المساجد وترميمها وتزويدها بما تحتاجه من مستلزمات «ضرورية»، وتنظيم الأنشطة والفعاليات الدينية. وتضاف هذه الفضيحة الى فضيحة الملايين التي خصصت لوزارة الاوقاف لصرفها بالهبل على انشاء مركز الوسطية العالمي، الهلامي، وهي الملايين التي اختفت، كما اختفى قبلها قالب ثلج شاه ايران قبل السابق، وهذه قصة أخرى.

قالب ثلج الشاه

تتميز أنظمة الرقابة المالية في غالبية دول العالم بعدم فعاليتها. وعلى الرغم من أن ديوان المحاسبة في الكويت يقوم بجهود جبارة في التخفيف من الفساد المالي في الدولة، فإن حالات الالتفاف على القوانين وخداع أجهزة الرقابة والمحاسبة متنوعة ومتعددة لا تحصى، خصوصا مع الغياب الواضح لدور مجلس الأمة كجهاز رقابي على أعمال الحكومة! وربما ليس غريبا أن طرق النصب والاحتيال تتنوع وتتزايد مع تقدم الدولة آليا واستعانتها بأحدث الأنظمة والأجهزة، وذلك بسبب جهل المواطنين وتخلفهم وقلة خبرتهم في هذه الأمور، إضافة إلى عدم ميل الكثيرين منهم لقراءة الكتيبات أو التعليمات والنصائح!

كما تمتاز الدول المتخلفة ليس فقط بزيادة معدلات الجرائم المالية والفساد الإداري فيها، بل أيضا بقلّة ما يتم اكتشافه من هذه الحالات، أو بعدم الرغبة في كشفها لسبب أو لآخر، فالكثير من المسؤولين الذين قبض عليهم متلبسين بجرائم الاختلاس أو الرشوة أو قبض العمولات أو السرقة العلنية من المال «العام»، طلب منهم، بهدوء، الاستقالة من مناصبهم لكي يكون باستطاعتهم الاستمتاع بما سرقوه أو أستولوا عليه من أموال!

يروى، وأنا هنا لست على ثقة من صحة المصدر، ولكنها قصة فيها الكثير من المعقولية، أن «كيرميت روزفلت»، الذي كان مسؤولا عن أجهزة المخابرات الأميركية في إيران خلال فترة حكم رضا شاه، والد شاه إيران السابق، أورد في مذكراته رواية تتعلق بموضوع الفساد في دول العالم الثالث، حيث يقول إنه تحدث مع الشاه عن مشكلة استفحال الفساد في إيران، وضرورة قيام الشاه بفعل شيء اتجاه ذلك، وضرورة القبض على الجناة وتقديمهم للمحاكمة ليكونوا عبرة لغيرهم. فالمساعدات الأميركية لإيران غالبا ما تنتهي قبل الانتهاء من تنفيذ المشروع الذي منحت المساعدات من أجله! وقال روزفلت إن الشاه ابتسم وقال أن تفسير ذلك ليس سهلا، ومن الصعوبة القضاء على الفساد في دولة مثل إيران. فالمساعدة تشبه قالب الثلج، فأنت تعطيني القالب فأسلمه لرئيس الوزراء الذي يقوم بدوره بتسليمه لوزير المالية، وهذا لوزير الصناعة أو لوكيل الخزنة قبل أن يصرف على المشروع من قبل لجان مختصة. وما يحدث في نهاية المطاف أن قالب الثلج الذي كان بطول 120 سنتيمترا عندما تسلمته قد اضمحل وانكمش وصغر حجمه إلى النصف نتيجة انتقاله، أو ذوبانه، من يد إلى يد! والآن لو أردت أن تعرف من الذي

سرق من ذلك القالب بحيث نقص وزنه لما توصلت الى شيء محسوس، فقد اذابت
حرارة أيدي من تناوبوا على مناولته النصف، ونحن راضون بما تبقى منه!

زواج المتعة

«اللّٰهُ للجميع والمواطن للطائفة، أما الوطن فحدث ولا حرج»
صادق جلال العظم

* * *

تقول شهلا حائري*: يعرف الفقه الشيعي الزواج «بشكل عام» بأنه عقد مقايضة يتضمن نوعا من الملكية. وهذا يعني انه في مقابل موافقة المرأة على منح الرجل حق الاتصال الجنسي، يحق لها الحصول على كم محدد من المال، وبعبارة عن الخلافات بين المذاهب فإن الزواج المؤقت، اي المتعة، كان يكتفه دائما مزيج من الغموض والازدراء. وقبل ثورة 1979 كانت الطبقات الايرانية الوسطى غير المتدينة ترفضه، ثم قامت المؤسسة الدينية بشرعنته. ولكن هذه المؤسسة تعتقد انه رحمة من الله للإنسانية وضرورة لصحة الفرد والمحافظة على النظام الاجتماعي. يعتبر زواج المتعة ظاهرة مدنية، لإرتباطه بالمواسم الدينية والتجارية، وظاهرة حربية، لإرتباطه بالغزوات، وما يعنيه ذلك من بعد عن الأهل. وحاليا تتم غالبية صفقات زواج المتعة في محيط المراكز الدينية. لكن تأييد النظام الاسلامي في ايران لهذه الممارسة ادى الى تعديل هذه الصورة.

والزواج المؤقت هو عقد بين رجل وامرأة غير متزوجة، سواء أكانت عذراء ام ارملة ام مطلقة، يتم تحديد مدته وكمية المال التي ستحصل عليها الزوجة. ولا يتطلب عقد زواج المتعة وجود شهود. كما ان تسجيله ليس مطلوبا، على الرغم من ان هذين الشرطين قد خضعا لتعديلات. ومدته ترتبط برغبة الطرفين فقد تكون ساعة او 99 عاما. وعند انتهاء المدة تستطيع المرأة ان تفترق عن الرجل من دون حاجة لحصولها على الطلاق. وللرجل المسلم حق الزواج الدائم الذي يهدف الى توليد النسل بأربع نساء في وقت واحد، اما غير ذلك فله حق التمتع في وقت واحد بأي عدد من النساء دون حدود. وللمسلمة الشيعية، حتى العذراء، وبموافقة والدها، أن تدخل في زواج متعة مع رجل آخر، في كل مرة ترغب في ذلك، شرط ان تمتع، بعد انقضاء العقد، ومهما قصرت، عن ممارسة الجنس لفترة العدة المعتادة في الطلاق، وذلك لتحديد والد الطفل في حال حمل المرأة.

ويعتبر ابناء زواج المتعة شرعيين ويتمتعون، نظريا بمكانة وحقوق اخوتهم، إن وجدوا، من زواج دائم أو زواج متعة آخر، وهذا ما يميز هذا النوع من الزواج عن الدعارة.

يعتبر زواج «المتعة»، المؤقت، عند الشيعة الاثني عشرية زواجا مشروعاً، كما سبق وان ذكرنا، طالما توافرت له شروط محددة. وبالتالي فهو زواج حلال ومجاز شرعاً، كما يجيزه القانون الوضعي في ايران ويمارس على نطاق واسع ضمن اوضاع معينة في الكثير من المدن الايرانية وفي اجزاء من لبنان، وربما في مجتمعات شيعية اخرى، ولكن على نطاق اضيق وبسرية اكبر. وبالتالي ليس هناك ما يعيب الحديث عنه، فهو شرعي وسبق ان تناولت الكثير من الكتابات الجادة موضوع زواج المتعة بحثاً وتمحيصاً، كما كان مجال شرح واسهاب من قبل الكثير من رجال الدين الشيعة وغيرهم من الباحثين.

نكتب ذلك على ضوء الضجة التي اثيرت قبل رمضان الماضي اعتراضاً على نية بث مسلسل «للخطايا ثمن» على تلفزيون «الام بي سي»، وما تبع ذلك من تدخل الحكومة الكويتية، من خلال وزير اعلامها، مع مالك المحطة مباشرة للطلب منه وقف بث المسلسل، الامر الذي عرض المحطة ومنتج المسلسل لخسائر كبيرة! شاهدت كامل الاجزاء التي اثيرت حولها الضجة والتي كانت تدور حول المتعة، ولم اجد فيها امراً يخالف ما هو معروف ومعلوم عن هذا النوع من الزواج. وبالتالي لم يكن هناك ما يمنع عرضه طالما انه ناقش الموضوع بصورة جادة ومن دون ابتذال او اسفاف او سخرية. فإذا كان المعترضون على قناعة بصواب هذا النوع من الزواج، فإن من الغريب ملاحظة اعتراضهم على خوض المسلسل فيه، فالمذهب الشيعي ليس مذهباً باطنياً، وبالتالي كان من المفترض، من الناحية المبدئية، عدم الاعتراض على سيناريو المسلسل طالما لم يتعرض لهذا النوع من الزواج بالانتقاد ولم يقدّم بعرضه بطريقة غير صحيحة.

ما نحتاج إليه حقاً هو الكثير من الصراحة والشفافية في التعامل مع القضايا الخلافية، ولكن من نكلم؟

* شهلا حائري، حفيذة آية الله الحائري. الكتاب «المتعة، الزواج المؤقت عند الشيعة»، شركة المطبوعات، بيروت، الطبعة الثامنة 1997.

غرائب الطباع

تهتم المنظمات الانسانية الدولية والحكومات الغربية بأوضاع العمالة في دول العالم الثالث بشكل عام، والاسلامية والخليجية بشكل خاص.

قضية استعباد والاتجار بالبشر ليست الجديدة ولا بالغريبة، فقد كانت دوما جزءا من التاريخ البشري، وكان اليونانيون قبل 2500 عام يقصرون حق المشاركة في الديمقراطية على الاحرار، دون الارقاء. كما تعامل الكثير من الديانات مع ظاهرة العبودية كحقيقة مسلم بها، ووضعت لها مختلف التشريعات والقواعد المنظمة، وفرقت حتى بين عقوبات جرائم الاحرار عن تلك التي يقترفها العبيد! وبالرغم من ان الاسلام حاول التقليل من ظاهرة العبودية بوضع مخارج عدة للتخلص من الرقيق والاتجار بالبشر بيعا وشراء واستغلالا، إلا أن الفتوحات الاسلامية الواسعة التي تسارعت وتيرتها في العهد الاموي، وما بعد ذلك، والتكاثر البشري وحب الاحتفاظ بالإماء، بدلا من عتقهن، خلقت رافدا لا ينضب للعبيد، بحيث استمر حتى الآن في دول إسلامية كموريتانيا والسودان. وكان امتلاك العبيد معروفا ومتفقا عليه في دول الجزيرة العربية حتى ما قبل نصف قرن.

من الحقائق التاريخية ان بريطانيا سبقت دول العالم اجمع في محاربة تجارة الرق، وكان القانون الذي اصدره البرلمان البريطاني قبل ما يزيد على 200 عام الركيزة التي انطلق واعتمد عليها الاسطول البريطاني في مصادرة السفن التي كانت تحمل الرقيق من افريقيا بصورة خاصة، واعادتهم لبلادهم. كما كانت الولايات المتحدة الاميركية، بخلاف كل الدول الغربية الاخرى، الاكثر استرقاقا للبشر في التاريخ، كما دفعت الثمن الافدح، ولا تزال، نتيجة سياسة التفرقة العنصرية التي كان تتبعها الولايات الجنوبية حتى سنوات قليلة مضت! ولا يمكن نسبة الفضل في تحريم الرق دوليا لغير الدول الغربية التي سعت مجتمعة، وبقوة، من خلال المواثيق الدولية، كالإعلان العالمي لحقوق الانسان، على تحريم إمتلاك البشر بأي شكل كان.

ما يجري من انتهاك لأبسط حقوق البشر في دول الخليج، ومنها الكويت، لايمكن النظر اليه بغير منظار العبودية والاستغلال البشع لحقوق هؤلاء، فظروف معيشة نسبة كبيرة من العمالة في دول الخليج، الخيالية الثراء، تقترب كثيرا من ظروف الرق، فغالبية العمالة الوافدة لا حقوق لها وتجبر على دفع مبالغ كبيرة مقابل دخول جنة العمل في دول الخليج ولا تكتشف سوء المنقلب الا بعد وصولها

وتبخر حتى الرمادي من احلامها، دع عنك الوردي منها!
 الطريف، او المبكي، ان الكثير من الدول المتهمة بالاتجار بالبشر تصف تقارير
 وزارة الخارجية الاميركية السنوية المتعلقة بطرق تعامل الحكومات مع قضية
 الاتجار بالبشر، بالتحيز وبكونها نوعا من التدخل في شؤونها الداخلية!

هؤلاء هم سفهاؤنا

يدين العرب والمسلمون، كبقية البشر، للغرب بالكثير من النعم، سواء من وسائل راحة وسبل اتصال وطيران وغيرها. كما إليهم وحدهم يعود الفضل في اكتشاف الكثير من اركان الدنيا التي بقيت مجهولة حتى وقت قريب، فالربع الخالي ومنابع النيل وغابات الأمازون ومنابع انهاره، ومجاهل افريقيا والوصول لقمم الهمالايا، لم يكتشفها غير غربيين من اوروبا وأميركا.

كما يعود الفضل الأول والأكبر في ايجاد الأدوية والحقن، ان لم يكن كلها، والاجهزة والامصال الطبية التي قضت على الكثير من الالوبئة التي كانت تفتك سنويا وعلى مدى قرون طويلة بملايين البشر، إلى المختبرات والشركات الغربية وللملايين الخيرية التي تم التبرع بها للجامعات ومراكز الأبحاث الطبية والعلمية، وبالتالي من المؤسف حقا ان نجد من يتطوع منا، بمناسبة وغير مناسبة، لصرف مبالغ طائلة على كتابة وطباعة وتوزيع عشرات آلاف المنشورات والمطويات التي تتضمن تهجما مقذعا على الغرب بشكل عام والمسيحي بشكل خاص، والسخرية منهم ولعنهم والتقليل من شأنهم، والدعوة لاحتقار معتقداتهم ورسم صلبانهم وهي مكسورة ومرمية في أقذر الاماكن، واستمراء الطعن والتشكيك في ميلاد رموزهم والتقول عليهم بما لم يقولوه.

والغريب ان تقبل بعض ادارات الصحف توزيع مثل هذه المطويات والمنشورات المشبوهة، ضمن صفحاتها، وكأنها تمثل وجهة نظرها، بالرغم من ان ما يتم تحقيقه من ربح مادي مقابل القيام بذلك العمل المخجل ضئيل من ناحية، ولا يقارن حتما بما يسببه من ضرر وتخريب داخلي وخارجي من ناحية اخرى، والأغرب من ذلك وقوف جماعة «المركز العالمي لنشر الوسطية» امام كل هذا الكم الهائل من الهجوم المقذع مكتوف الايدي، وكأن الأمر لا يعنيهم، وهم الذين اختاروا اول ما اختاروا، عقد مؤتمراتهم الوسطية في عقر دول الغرب، وبالذات في لندن وواشنطن، فكيف يستقيم سكوتهم عن صدور مثل هذه المنشورات لدينا مع سعيهم لكسب ود الغرب من خلال مخاطبته في كبرى عواصمه؟ وماذا سيكون رد فعلهم ان تمت في يوم ما مواجهتهم بهذه المنشورات التي تطعن ليلا ونهارا بأقدس أقداسهم؟

قد يقول قائل ان من حقنا ان نقول عن معتقدات الغرب المسيحي ما نشاء، وان ما يأتي منهم من دواء أو غذاء ندفع ثمنه نقدا لهم، وهذا المنطق سنقبل به، على الرغم من عدم صحته وخلوه من المنطق، لكن ليس من حقنا في الوقت نفسه

التشدد بمركزنا العالمي لنشر الوسطية، فهذا المركز وما ينشر من فساد ديني لا يستقيمان معا في البلد الواحد ومن جهة واحدة.
 فيا أيها المسيحي الكويتي وأنت أيها الغربي وفي أي بقعة تكونون نعتذر لكم جميعا عما بدر في حقكم من البعض من السفهاء منا، فإنهم لا يعقلون.. وننتهز هذه المناسبة لهنئكم وأنفسنا بأعياد ميلاد سعيدة ومجيدة.

ليلى وفتاة القطيف

ارتبط شاب من المنطقة الشرقية بالسعودية بعلاقة ما بفتاة من المنطقة نفسها . وبعد ان يئس من نيل وطره منها، وهذا ما اشيع عن الموضوع، قام باستدراجها إلى مكان ما، وقام وعدد من رفاقه بالاعتداء عليها جنسيا .

بقيت الحادثة طي الكتمان لفترة أشهر وانكشفت بطريق الصدفة أخيرا وتم تقديم المعتدين والضحية للمحكمة الدينية التي حكمت على الشبان بالسجن لخمس سنوات وبالجلد، وحكم على الفتاة بحكم مماثل لقبولها بأن تستدرج! نالت الحادثة اهتماما واسعا من جهات عدة، ونال الحكم بحق الفتاة، المعتدى عليها، انتقاد الكثيرين، خاصة بسبب مذهب الفتاة، ولجاناب الطائفي من الموضوع، ولكن سرعان ما خفت الضجة حولها بعد فترة قصيرة لأسباب كثيرة! وقد قام العاهل السعودي يوم أمس باصدار عفو عن الفتاة مع حرصه على تأكيد صحة الحكم.

ومن الضفة الأخرى من الخليج أوردت اذاعة BBC الرصينة قصة الفتاة «ليلى» التي بينت كم نحن في الشرق.. هم!

ليلى فتاة إيرانية من مدينة «أرك» التي تبعد اربع ساعات بالسيارة الى الجنوب من طهران العاصمة. قامت أم ليلى، عندما كانت في التاسعة، باستغلالها في الدعارة، وكان جسدها، ليس فقط مصدر الرزق الوحيد لعائلة مكونة من خمسة أشخاص، بل وطريق الحصول على المخدرات لكبارها .

تزوجت ليلى عندما بلغت الخامسة عشرة، وقام زوجها باستغلالها جنسيا بعد شهرين من اقترانه بها . قبضت الشرطة على الزوج وزوجته وزبائنهما بالجرم المشهود وقدا للمحاكمة. حكمت المحاكم الدينية على الزوج بالسجن 5 سنوات لقيامه باستغلال بيته مكانا للممارسة الرذيلة .

اشاء نظر القضية قام اخوة ليلى باغتصابها، وعلمت السلطات بالأمر فقدمتهم وليلى للمحكمة التي حكمت على المعتدين بعدة جلدات وحكمت على المعتدى عليها بتهمة اقتراف جريمة «سفاح القربي»، والتي تعني ممارسة الجنس مع المحارم، والتي يستحق مقترفها عقوبة الموت شنقا!!

تطوعت المحامية الايرانية الشهيرة «شذى صدر»، والمدافعة الصلبة عن حقوق الانسان، للدفاع عن ليلى وأقنعت اخوتها بسحب اعترافاتهم، ورفعت القضية إلى محكمة الاستئناف وكسبت البراءة لموكلتها المسكينة بعد طول عذاب وانتظار ومعاناة.

لو اضعنا إلى الحادثتين اعلاه ما جرى ويجري، من اعتداءات جنسية، في مدارس المنطقة، وفي اكثر معاقل الجمعيات الدينية تشددا واكثرها التزاما بقواعد وسنن الصحوۃ الدينية لتبين لنا ان التشدد والتطرف، وما يصحبهما من كبت وحرمان، لا يمكن أن ينتج عنهما غير الانفجار الأخلاقي المنفلت. ولو بحثنا عن الشاذ والخطير من الجرائم الجنسية، وسجلات المخافر وقضايا المحاكم ومحاضر الجمعيات النسائية المعنية، خير شاهد، لصعقنا من الأرقام، ولكن من نكلم ولمن نكتب؟. فنسبة الفتيات اللاتي يتم الإعتداء عليهن من قبل اقرب الأشخاص لهن نسبة كبيرة، ولكننا لا نود الاعتراف أو كشف مثل هذه الأمور. كما أن عقوبة الأب الذي يقتل ابنته، لشكه في سلوكها، لا تزيد على سنتين سجنًا. أما قانون الجزاء الكويتي فلا تتجاوز العقوبة فيه على مثل هذه الجرائم ثلاث سنوات سجنًا!

أغرب عملية تهريب في التاريخ

التهريب أنواع وأكثره انتشارا نقل سلعة أو بضاعة ما من منطقة جمركية ذات رسم جمركي منخفض لمنطقة ذات رسم عال، وتحقيق فائدة من الفرق. وهناك كذلك تهريب للبشر، والمتاجرة بهم، وأيضا من دولة فقيرة عموما الى دولة تتوافر فيها فرص العمل، ومن دون الحصول على اذن الدخول أو العمل. كما أن تهريب المواد الممنوعة، بجمرك أو بخلاف ذلك، كالأسلحة بأنواعها والمخدرات والحيوانات المعرضة للانقراض، أو النادرة والمتوحشة، أمر تمنعه جميع دول العالم تقريبا. وكلما طالت حدود الدولة وزادت ضرائبها، وكان مستوى المعيشة فيها مرتفعا، كان التهريب لها أكثر اغراء.

وهنا تحضرني قصة ذلك اللبناني الذي أوقفته الجمارك السورية، قبل سنوات طويلة، عند محاولته دخول البلاد على دراجة هوائية وذلك للاشتباه بنيته تهريب شيء ما داخل أكياس القماش التي كانت معلقة على جانبي دراجته. وعندما طلب منه المفتش الجمركي تفريغها تبين أنها كانت تحتوي على رمل! سمح له بالمرور بعد بعثرت الرمل في الشارع.

بعد أسبوع أعاد اللبناني الكرة وعند تفتيشه لم يعثر معه على أي شيء يثير الشبهة غير أكياس الرمل على جانبي دراجته. سمح له بالعبور بعد أن دس المفتش يده داخل الأكياس وتبين له خلوها من أي شيء غير الرمل.

وعندما عاود الكرة للمرة الثالثة أوقف لساعات في المركز لحين الانتهاء من فحص نوعية الرمل والتأكد من عدم احتوائه على مواد محظورة، وسمح له بعدها بالدخول بعد أن تبين أن الأمر ليس غير رمل ناعم عادي. ولكن في المرة الرابعة وضع رهن الاعتقال وصودر الرمل منه بمحضر رسمي وأرسل للفحص في مختبر حكومي للتأكد من تركيبته. وبعد ساعات طوال أطلق سراحه بعد التأكد من خلو الرمل من أي أمر أو شيء محظور.

ولكن عندما حاول الدخول للمرة الخامسة قام رئيس المفتشين، الضخم الجثة، بادخاله الى غرفته وطلب منه، تحت التهديد، افشاء الحقيقة من وراء محاولته نقل الرمال لداخل البلد، فقال الرجل انه يستغل انشغال المفتشين بالرمل لابعاد الشبهة عن الدراجة الهوائية التي كان يستعملها، حيث أنه مهرب دراجات! أما أغرب قصص التهريب فقد حدثت في الكويت قبل أيام عندما قام صديق بدعوتي وزوجتي لحضور حفل في أحد الفنادق بمناسبة سعيدة.

بسبب ارتباطنا في تلك الليلة بمناسبة أخرى فقد تأخرنا في الذهاب الى الحفل، ولتجنب الجلوس على طاولة لا نعرف منها أحدا، قمنا بالاتصال بمن نعرف ليقوم بحجز مكان لنا معه. لم يصدق ذلك الصديق سماع صوتي، حيث طلب مني بلهفة أن أحضر معي كمية من الثلج، حيث أن ادارة الفندق اعتذرت، ولأسباب خاصة بها، عن وضع الثلج، وبأي شكل من الأشكال، ولأي كمية، على جميع الطاولات. وقال ان الجميع بحاجة للثلج لضروره في تناول المشروبات.

وصلت الفندق، ووضعت ما كان معي على السير المتحرك، ودخلت الحقيبة داخل جهاز الأشعة، وهنا بدت الدهشى على وجه رجل الأمن، وقال مستغربا أن ما في الكيس كان أغرب ما مر عليه، فقلت له إنني اقوم بتهريب ثلج لداخل الفندق. وصلت للطابق الذي به الحفل حاملا حقيبة بها قرابة عشرة كيلوغرامات من الثلج، وخلال دقائق اختفت، أو تبخرت، الكمية بكاملها.

قضايا للنقاش

تعتبر الكويت، كصديقاتها وشقيقاتها، الخليجيات على الاقل، دولة متخلفة في أكثر من مجال وميدان. ومن العبث الادعاء عكس ذلك والقول إنها جيدة هنا وحسنة هناك، او ان اوضاعها في تطور للافضل. فواقع الحال يقول بتخلفنا حضاريا بمراحل، ليس مقارنة بالغير فقط، ولكن مقارنة بما كانت عليه اوضاعنا قبل عقود اربعة او اقل! فروح التسامح مع الآخر التي كانت أكثر وضوحا، اصبحت شيئا من الماضي. كما اختفت من المجتمع عادة مودة الغريب وتسهيل امره، واصبح قانون «إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئب» هو الساري! كما كانت هناك دور لهُو وسمر وسهر مجاورة لأماكن الزهد والعبادة، وكان هناك شاعر يشعر وشاد يشدو بجانبه، وقد يكون اخوه من امه وابيه قارئاً سمحاً يرتل ويفتي لمن شاء!

ثم جاء جراد التخلف وغطت جموعه اشعة شمس المودة والتسامح والحرية، وبخلاف ما يحدث مع ظاهرة الجراد، فقد قررت اسرابه، ولاول مرة، عدم المغادرة، بل الاستيطان بيننا بعد ان خرب بلاد غيرنا مع بدايات انهيار اموال البترودولار عليها!

يعتقد الكثيرون أن اخلاقياتنا، الاسرية بالذات، هي افضل من اخلاقيات غيرنا، واننا أكثر رحمة ومودة بعضنا لبعض، مقارنة بالآخرين، وخصوصاً الغرب «الكافر المنحل»! كما يعتقد هؤلاء بأن عامل الردع عن الاتيان بما يسيء لنا ولأقاربنا في نفوسنا واخلاقياتنا اكبر منه لدى الآخرين. ويستشهد هؤلاء بانتشار اخبار الجرائم الاخلاقية في مجتمعات «الغير»، الفقيرة والغنية على السواء، مقارنة بمجتمعاتنا «الفاضلة والمتعفة والعفيفة»!

ولكن الواقع المعاش والمخفي عن الانظار غير ذلك تماما. فمجتمعاتنا ليست الأكثر فضيلة، بل هي الأكثر محافظة على كتمان فضائحننا، والإيمان بستر العرض، وإن تطلب الامر اراقه الدم على جوانب القضية لغسل العار فلا بأس في ذلك!

وقد بينت دراسات وابحاث خاصة، شاركت فيها فرق بحث واستقصاء اوروبية، ان قضايا الاعتداء على المحارم هي الأكثر انتشارا في الدول، او المجتمعات، ذات الانظمة المحافظة مقارنة بالاقول تحفظا! ففي تجمع انثوي خاص عقد في إحدى دول المنطقة تبين ان 40 من 50 من الفتيات الحاضرات اعترفن بتعرضهن لاعتداءات «جنسية» من نوع ما من أقرب اقاربهن! وقد دفعت نتائج هذه الدراسات، وما اسفرت عنه من وقائع مخيفة، بعض اهم دول المنطقة لانشاء مراكز تدخل

متحركة في الكثير من المناطق، وخصوصاً الفقيرة والاقبل تعليماً، لاستقبال المعلومات والشكاوى المقدمة عن العنف الاسري، وبلاغات التحرش الجنسي بين المحارم، فيما تعمل جمعيات حقوق الانسان على حصر قضايا التحرش الجنسي لتضمينها ملفاً يرصد هذا النوع من العنف. وقد لاحظت هذه الجهات غياب اية لوائح تنفيذية واضحة تحدد كيفية التعامل مع اصحاب الحالات المعتدى عليها او مع المعتدين. هذا على الرغم من مطالبتها بتطبيق عقوبات رادعة بحق الأخيرين، وهذه المطالبات تعني غياب العقوبات، او الاستمرار في محاباة الرجل في قضايا تطبيق الحدود، هذا على الرغم من ان نسبة كبيرة من المتضررات من الاعتداءات الجنسية هن من القصر وفتيات من امهات مطلقات، فالمشكلة تبدأ عادة عند حصول الاب على حضانة البنات ويكون هو اول المتحرشين، ثم الاشقاء، ومن بعدهم المحارم الآخرون! وليس غريباً ان نجد أن في الكثير من حالات الحمل والاعتصاب تحاكم الفتاة وتسجن، ولكن قلما يحاسب المتحرش او المعتدي الذكر. وتذكر بعض اختصاصيات العلاج في المنطقة ان إلحاق الطفلة او الطفل المعتدى عليه بوالده، المعتدي، بعد فترة عقاب قصيرة، امر خطير، حيث ثبت ان المعتدي في مثل هذه الحالات يعود لارتكاب جريمته المرة تلو الاخرى، وهذا ما لا تسمح به، مثلاً، قوانين المجتمعات الغربية. نعود ونقول ان درجة «اخلاقية» اي مجتمع لا تعرف بالتخمين وبظواهر الامور، بل بالدراسة المعمقة والجادة، وهذه لا يمكن ان تتم بغير توافر درجة عالية من الشفافية والصدق في هذه المجتمعات في مجالات البحث والاستقصاء والقول، وهنا نجد انفسنا في الدرك قبل الاخير بقليل، بين بقية امم الارض.

التواضع وشلل الأطفال

من الأمور الغريبة المتعلقة بالجنس البشري تلك الحقيقة، التي تتطلب بعض التفكير العميق من المتشدددين دينيا، والمتعلقة بمرض «شلل الأطفال»!! فبغير إعطاء جميع الأطفال المولودين حديثا هذا المصل المضاد للشلل، فإن من المحقق إصابة نسبة كبيرة منهم بهذا المرض الذي يؤدي حتما ليس فقط الى إصابتهم بإعاقات خطيرة بل وفي زيادة نسبة الوفيات بينهم بصورة كبيرة.

كما ان انواع الشلل الخطيرة يمكن ان تتحول الى وباء سريع الانتشار، وهذا الكلام يعني ان مصير الطفل المولود حديثا يجب أن لا يترك للصدف، أو للطبيعة لتأخذ دورها.

تتفاوت نسبة الاصابة بهذا المرض من مجتمع لآخر، وتتزايد مع تخلف الدولة صحيا. وعلى الرغم من جهود مختلف حكومات دول العالم، فإن غالبيتها لا تستطيع العمل منفردة للقضاء على هذا المرض، فمرض شلل الأطفال لا يزال يعامل، رسميا، كوباء في نيجيريا والهند وباكستان، وأفغانستان بالتحديد، وجميعها، عدا الهند، دول إسلامية ذات كثافة سكانية عالية!

وقد أعلنت منظمة الصحة العالمية اخيرا ان اكثر انواع هذا المرض الخبيث خطورة على حياة الأطفال، والذي يمكن ان يتحول بسهولة الى وباء، والذي كان سببا في القضاء على حياة الملايين من أطفال العالم، سيتم القضاء عليه خلال عام 2008، وذلك توافقا مع أهداف الأمم المتحدة، وهي الأهداف نفسها التي نجحت من قبل في القضاء على النوعين الآخرين، الأقل تعقيدا وخطورة، من هذا المرض. وهذا يعني ان مرض شلل الأطفال سيختفي من العالم مع نهاية هذا العام، وهذا انجاز انساني عظيم يضاف لانجازات منظمة الصحة العالمية الأخرى التي نجحت في القضاء على أوبئة وأمراض كثيرة أخرى أصبحنا نسمع بها ولا نعرفها كالجدام والجذري والسل الرئوي وغيرها الكثير.

لا نود الحديث هنا عن دورنا، كدول عربية وإسلامية، في محاربة الأوبئة الخطيرة والأمراض الفتاكة والقضاء عليها وتجنب البشرية ويلاتهما ومصائبها، فهذا، كما يبدو أمر لم نوجد له أصلا ولسنا مهيين، أو معنيين، بالتالي للقيام به. ولكن ألا يفترض ان نكون اكثر احتراما لكل أولئك العلماء والأطباء والمتطوعين الذين سخروا أرواحهم وانفسهم وأموالهم لخدمة البشرية؟ الا يستحق كل هؤلاء منا بعض التقدير، ولا نقول الامتنان، فهذا كما يبدو ليس من تراثنا «الأصيل» ولا

من عاداتنا ولا تقاليدنا؟

إن هذه الإنجازات، وغيرها الآلاف التي تخرج من مختبرات ومصانع وجامعات دول العالم المتقدم، وحتى نصف المتقدم، تثبت يوما بعد يوم أننا نشترك معهم في العيش على كوكب واحد ومصيرنا مشترك وآمالنا وأحلامنا مشتركة، وبالتالي من الغريب حقا، بل من المستنكر، أن نلمس من الكثيرين بيننا كل هذه الكراهية للغير والعداء له وتمني الفناء لنسله، لا لشيء إلا لأن نصوص معتقداتنا تقول كذلك، أو هذا ما يحاول الكثير من رجال الدين الإيحاء به! فمن الواضح أن أي تقدم علمي أو حضاري يعني بصورة تلقائية تراجع دور الفقيه الديني ومكانته، والذي كان إلى وقت قريب، ولا يزال في الكثير من مجتمعاتنا، المهيمن على كل فهم لأمر الحياة الدنيا، والآخرة أيضا! وبالتالي فإن العلم، الذي يخالف ما يؤمن به ويعرفه، هو ألد أعدائه، وبالتالي أصبح الأمر يتطلب من هؤلاء تكفير وتحريم كل اتصال بالآخر أو ملاقاته، أو حتى تهنئته بعيدة، دع عنك العيش المشترك معه! ولا نود هنا التطرق إلى كل تلك المحاولات البائسة من البعض للتوفيق بين منجزات العلم الحديث والنصوص الدينية وكأن الأديان جاءت لفتح المختبرات!

ما نحتاج إليه حقا هو الكثير من التواضع وبعض الاحترام والتقدير للآخر.. صاحب الفضل الكبير على أمننا ورفاهيتنا وصحتنا، وحتى بقائنا!

إسلاميات

في واحدة من أكثر صور التعصب عنفا، قام مواطن كندي من أصل باكستاني، بقتل ابنته بالسكين طعنا لرفضها ارتداء الحجاب!!

على الرغم من بشاعة الجريمة التي هزت المجتمع الكندي المجبول على التسامح والغفران، وعلى الرغم من تأثيراتها المستقبلية السلبية على أوضاع الجاليات الاسلامية في تلك الدولة التي تعتبر مقصداً لطالبي الهجرة واللجوء السياسي والعيش الأفضل، فإن أيا من وسائل اعلام منطقتنا لم تعط موضوع هذه الجريمة المخيفة أي أهمية تذكر. والغريب أن هذا الصمت المريب امتد ليشمل حتى المجتمع الكندي نفسه. فالبعض لم يعر الأمر أي اهتمام، باعتبار الموضوع جريمة تصب في خانة الحمق والتعصب الاسري، أما البعض الآخر، فقد فضل الصمت لكي لا يتهم بمعاداة الاسلام والمسلمين والتعرض لمعتقداتهم بالنقد، وهذا ما أصبح يعرف بـ«فوبيا الاسلام»! وبين هذا وذلك ضاع دم تلك الفتاة البريئة هدرا.

من جانب آخر، قامت ضجة كبيرة في ماليزيا، التي كانت، وإلى الأمس القريب، من الدول الاسلامية المعتدلة الى حد ما، بسبب عزم الحكومة منع مواطني تلك الدولة من غير المسلمين، والذين يشكلون أكثر من 30% من السكان، من استخدام اسم الله، كما يلفظ باللغة العربية، في مراسلاتهم وادعيتهم وأحاديثهم!! هذا على الرغم من أن اسم الله استعمل من قبل العرب «غير المسلمين» قبل مئات السنين من ظهور دين الاسلام، وهو بالتالي ليس اسما مرتبطا بالاسلام والمسلمين، ولم يسجل رسميا باسمهم!

وذكر محلل ماليزي معروف أن اسم الله لم يكن معروفا في ماليزيا عندما وصل الاسلام الى تلك الجزر في القرن الثالث عشر، وكان الله يعرف بـ Dewata Mulia Raya، ويعني الله أو الرب باللغة السنسكريتية التي كانت متداولة وقتها في ماليزيا. نعود للقرار الوزاري الذي صدر عن وزير الشؤون الاسلامية الماليزي، عبدالله محمد زين، الذي حظر فيه على جريدة محلية ناطقة باسم الكاثوليك استخدام اسم الله بحجة أن استخدام هذه التسمية من غير المسلمين «يثير الحساسية» وقد يؤدي الى التشويش بين مسلمي البلاد!!

كما اشتمل قرار الوزير على حظر دخول أي كتب غير اسلامية تحمل اسم الله!! ونص القرار المعتمد من الحكومة الماليزية على قصر استخدام كلمة الله على

المسلمين فقط وحظر استعمالها على أتباع الديانات الأخرى!!
وقد أثار القرار جدلاً كبيراً في ماليزيا، بسبب كبر حجم غير المسلمين فيها،
سواء بوذيين أو مسيحيين أو هندوساً، أو سيخاً، وهؤلاء أيضاً يستخدمون كلمة
الله.

ودفع قرار الحكومة إحدى الكنائس إلى رفع دعوى قضائية للمطالبة بحق
استخدام الكلمة بدعوى أنها تعني الإله بشكل عام في لغة الـ «مالاي» وليس فقط
عند المسلمين.

ونقل عن صحيفة ستار أن رئيس الوزراء الماليزي صرح بأن أحد الأسباب وراء
فرض القيود على استخدام الاسم هو أن ماليزيا تستخدم الكلمة منذ زمن طويل..
وأضاف: سيتعين أن تستخدم المنشورات المطبوعة للديانات الأخرى كلمة الرب..
وليس الله لأن هذا الاسم يخص المسلمين فقط.
وهكذا نجحنا في تأميم لفظ الجلالة لصالحنا!!

من وحي هامبورغ

لا أخاطب هنا الليبرالي أو العلماني، وما بينهما، ولكنني معني بدرجة أكبر بمخاطبة المسلم الكلاسيكي والمتشدد الديني والمتطرف بمعتقداته وكل أولئك الذين يعتقدون أنهم على حق والعالم أجمع على باطل، وإن العالم ينقسم لدار سلام ودار حرب، وأن لا تعايش ولا مهادنة مع الآخر، من غير إقرار بصواب آرائنا وصلاح معتقداتنا، وأن أمامهم، اليهود والمسيحيين فقط، خيارين: إما دخول الإسلام وإما دفع الجزية وهم أذلاء، ودون ذلك الموت. أما البقية فلن تقبل منهم الجزية بل الإسلام أو القتل. وبالتالي فإن نشر العقيدة والتبشير بها واجب ولو بحد السيف، والنصر آت لا ريب في ذلك! ولكن أين ذهب واجب الإعداد «لهم» ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل؟

* * *

يعتبر الألمان من أشد وأقوى شعوب أوروبا بأسا وأكثرهم إخلاصا في أداء ما عليهم من واجبات، وإتقانا لها وتفانيا في أدائها. كما عزز من مكانة الألمان عالميا كبر مساحة بلادهم وحجم مواردهم الطبيعية الهائل وتعدادهم البشري الضخم، والأهم من كل ذلك تراثهم الحضاري والثقافي والتقني الذي قل نظيره. كل هذا أثر إيجابا على مستوى المنتجات الألمانية وقوة اقتصاد الدولة واحترام العالم لها وللقدرات الهائلة للشعب الألماني وتميزه الرفيع، الذي كان سببا في دفع البعض من فلاسفة الألمان ومفكرهم، وبعد ذلك قادتهم وعسكريهم، للاعتقاد بأن «ألمانيا فوق الجميع»، وهي المقولة التي كانت جزءا من نشيد الرايخ الوطني، وأنهم الجنس الأكثر رقيًا، وأن على الآخرين الخضوع لهم، حربا أم سلما!! قفز «هتلر» للحكم في ثلاثينات القرن العشرين، وتعهد منذ اليوم الأول لزعامته أن يجعل ألمانيا فوق الجميع، وكانت نتيجة ذلك، خلال عشر سنوات، تضامن العالم المتحضر أجمع ضد ألمانيا، مما أدى في النهاية إلى مقتل أكثر من 20 مليونا منهم، وانهايار اقتصادهم وتحطيم مدنهم ومصانعهم وتقسيم عاصمتهم ووضعها تحت وصاية الحلفاء وتقييدها بالمهين من الاتفاقيات التي قضت إلى الأبد على حلم «ألمانيا فوق الجميع»، وبعده فقط اقتنع الألمان أنهم جزء من هذا العالم وأن عليهم التعايش معه بسلام وتقبل حقيقة أن ألمانيا مع الجميع، وليس فوقهم! والآن، وبصراحة فجأة، أين نحن، كعرب، أو حتى كمسلمين، من ألمانيا وتراثها الفكري والحضاري وبأس جنودها ودهاء سياسيينها وعظمة منتجاتها وكم المعلومات

الهائل الذي تراكم لديها، وتقدمها الصناعي والطبي والتقني في كل مجال، مقارنة ببحر الأمية الأبجدية، دع عنك باقي أنواع الأمية، الذي نسبح فيه، ونحن غافلون؟! فإذا كان هذا مصير ألمانيا، الشعب والدولة، الغنية بكل شيء والمتعلمة والمتقنة والمنيع، عندما حاولت معاداة العالم وإخضاعه لإرادتها، وفرض رأيها وأسلوب حياتها عليه، كما يحاول البعض منا القيام به، فما المصير الذي ينتظرنا إن قرر العالم يوما التضامن ضدنا بسبب تصرفات السفهاء والحمقى من المتعصبين منا؟ هل يكفي أن يكون لدينا ألف أو عشرة آلاف، أو حتى عشرة ملايين انتحاري على استعداد للموت وملاقاة الحور العين في سبيل الأمة والعقيدة لكي ننتصر؟ وهل بإمكاننا حقا معاداة العالم وضمان عدم فنائنا، أو تخلفنا لقرون أخرى فوق ما نحن فيه من تخلف؟ أليس من الأفضل والأجدي، والأكثر خيرا وبركة، الاهتمام بتعليم أنفسنا وأولادنا والحصول على أفضل الثقافات والتسلح بأفضل العلوم قبل أن نطلب من العالم بلع معتقداتنا أو أن تفرض عليهم، برضاهم أو بغير ذلك؟ ألم يحن الوقت لكي يتعظ «الجماعة» ويتعلموا من تجارب ومحن ومآسي الآخرين؟. ان من الصعب، لا بل من المستحيل، فرض آرائنا على الآخرين، ولو كان من واجبنا ذلك دينيا، في عالم اليوم الذي ليس فقط لا نملك فيه حتى أدنى متطلبات البقاء أحياء من غير مساعدة الآخر، بل لا نستطيع فيه حتى التغلب على أضعف أعدائنا من غير قبول المجتمع الدولي بذلك. أسئلة «غريبة» ستبقى دون إجابة إلى أن تحل الكارثة، وهي قادمة لا محالة.

الصادق العظم والنشمي

أدلى المفكر السوري صادق العظم بحوار للرأية القطرية وردت فيه أفكار جديرة بالنقاش. قبل التطرق للبعض منه، يجب أن نذكر بأن السيد العظم قد كتب قبل 40 عاما كتاب «نقد الفكر الديني»، والذي كان له دور حينها في تشكيل وعي الحاضر.

يعتبر العظم من الفلاسفة العرب، القلة. وهو مخضرم ومثير للجدل في كل ما يقول ويكتب، وخير دليل دفاعه عن «سلمان رشدي» وقبله عن محنة إبليس، مروراً بنقد مختلف الغيبيات، من ظاهرة ظهور العذراء على الكنائس وتفسير الأحلام، والسخرية من أزماتنا السياسية وحروبنا الخاسرة ووصولاً لأوضاعنا الخبرة الحالية وما نتج عنها من وقوعنا رهينة في أيدي رجال الدين واحضانهم، خصوصاً المتطرفين منهم بالذات، الأمر الذي جر الأمة بأكملها للجوء لخيار «التمذهب» والتفوق المناطقية، وغير ذلك الكثير، كانت جميعها محل ردود من الكثيرين الذين اختلفوا معه، ولكن على الرغم من كل ذلك لم يملكو غير نقد آرائه باحترام يليق بمكانته!

ولد صادق جلال العظم في دمشق عام 1934، ودرس الفلسفة في الجامعة الأميركية، بيروت، وعمل عام 1963 أستاذاً فيها، وأكمل تعليمه في جامعة «يال» الأميركية. وتقلد مختلف المناصب الأكاديمية في أميركا وألمانيا ودمشق وبيروت وعمان.

يقول السيد العظم في مقابلة صحفية: «إن في الفترة بين عامي 1969 و1970 كانت هناك محاولة من قبل مفكرين إسلاميين للتعامل مع قضايا ومسائل العلم الحديث. وكانوا يميلون إلى الاحتكام للنقاش، والميل نحو العقل والواقع وإلى مجرى الأحداث. أما الآن فأنا أجد أن الفكر الديني الناشئ حول الإسلام في حالة أعمق من البؤس، بمعنى أننا الآن وصلنا إلى قضايا مثل فتوى إرضاع الكبير، علماً بأنها ليست صادرة عن شيخ عادي، وإنما عن رئيس قسم الحديث في جامعة الأزهر أو مرشد الأزهر.

ويقول أنه في الفترة التي كتب فيها كتاب نقد الفكر الديني، وناقش الفكرة مع رجال دين، لم تكن هناك مثل هذه النوعية من الفتاوى. من هنا يمكن القول أن هناك انحداراً كبيراً في العقل الجمعي، وابتعاداً عن الاحتكام إلى أي شيء عقلائي. أشبه ذلك مثلاً بما يصدر أيضاً عن أوساط الأزهر من قبيل التبرك بالبول

مثلاً، وشيوع هذا الجانب أو المنحى في الفضاء الإسلامي. وإن هذا يمثل انحداراً عن البؤس الذي تحدث عنه بين عامي 1969 و1970 عندما تكلم في تلك الفترة عن بؤس الفكر الديني.

ويستطرد السيد العظم في القول «.. ناقشت بعض الإسلاميين ورجال الدين مثل نديم الجسر مفتي طرابلس، وموسى الصدر وغيرهما.. في تلك الفترة لاحظت أنهم يريدون أن يتعاملوا مع العلم الحديث والثورة العلمية وتطبيقاتها، لكنهم كانوا للأسف يجهلون أي شيء عن معنى العلم، وما هي مناهج البحث العلمي؟. وربما لم تكن لديهم، منذ أن تركوا «الابتدائية»، فكرة عن الفيزياء أو الكيمياء أو التشريح إلا من خلال ما يقرأونه في الصحف. كانوا يريدون أن يتصدوا للأثر الاجتماعي الذي تتركه التطورات العلمية أو الفتوح التكنولوجية، وهم عملياً في حالة جهل شبه كامل بها. وأنا أجد أن هذا قد تعمق الآن. هناك جهل أكبر، وهناك مواقف، خاصة في الإسلام الأصولي، ترفض العلم الحديث رفضاً قاطعاً، ترفض الغرب وكل ما أنتج. وإذا دفعت تفكيرهم إلى النتيجة المنطقية يصبحون مثل طالبان في هذه المسألة. هم يمسون بقضايا في منتهى السطحية.

قرأت بعض فتاوى الإمام الخميني، والتي يطرح في أحداها صعود المسلم في كبسولة الفضاء ويناقش كيف سيقوم الصلوة ويتعرف على اتجاه القبلة في الفضاء الخارجي؟. وفي الفضاء طبعاً لا يوجد شمال ولا جنوب، والكبسولة تدور بسرعة هائلة في مدار معين في الفضاء، أيضاً المسلم عندما صعد إلى الفضاء صعد بكبسولة روسية أو أميركية، لأن الكبسولة العربية أو الإسلامية غير موجودة أصلاً. المشكلة أن الخميني لم ير شيئاً من إنجازات وفتوحات وعلوم ومعارف وتكنولوجيا الفضاء، كل ما خطر في باله كيف يركع المسلم ويصلي، وإذا ما جلس لفترة طويلة كيف يصوم؟. بعد هذا النقاش توصل إلى نتيجة أجاز فيها للمسلم بأن يصلي في الاتجاهات الأربعة. مع العلم أنه لا توجد اتجاهات اربعة. الاتجاهات هي مسألة تعارفنا عليها، شمال وجنوب شرق وغرب. مع ذلك هو اعتبر مع الأسف أننا إذا خرجنا من على سطح الكرة الأرضية فما زالت هناك اتجاهات.

هم يتصدون لقضايا مثل أطفال الأنابيب أو ما يحدث مثلاً على مستوى الحمض النووي DNA والاستنساخ.. وغيرها من الفتوح والاكتشافات العلمية. ليس لديهم أية معرفة بطبيعة هذه العلوم، وكيف توصل إليها العلماء؟ وما هي التجارب التي سبقتها؟ لا يوجد لديهم ثقافة علمية، وهم راديكاليون في ذلك.

ويقول السيد العظم ان ما ورد في كتاب أحد كبار رجال الدين «السنة» عام 1985 عن رفض كلي لفكرة كروية الأرض، ليس بالكارثة، ولكن الكارثة الكبرى أن

أحداً لم يتجرأ لا من علماء الدين ولا من مؤسسات العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، من الأزهر والزيتونة إلى القرضاوي والترابي وكفتارو وكليات الشريعة.. لا أحد تجرأ على القول إن هذا غير صحيح، وهذه كارثة كبيرة أننا لا نستطيع مجرد الرد.

وقال ان المؤسسات الدينية الرسمية، وعلى رأسها الأزهر وكليات الشريعة ودور الإفتاء، وغيرها.. هي اليوم في حالة عقم فكري كامل. لا يخرج منها شيء سوى بضاعة من قبيل إرضاع الكبير، وحديث الذبابة والتبرك بالبول وجلد الصحافيين.. والساحة متروكة تقريباً للفكر الأصولي الجهادي، وهو الوحيد الذي يطرح أفكاراً جديرة بأن تناقش وترفض، وذلك بسبب عقم المؤسسات الرسمية الأساسية التي تعتبر قدوة، ليس فيها سوى التكرار والاجترار والتحجر والعودة إلى الماضي وحماية المصالح والإبقاء على الوضع القائم والخضوع للسلطات الحاكمة. وقال انه عندما تكون سياسة الدولة اشتراكية يصبح مفتي الإسلام اشتراكياً، وعندما يكون الحكم في حالة حرب يصبحون مع الحرب، وإذا جنحوا للسلم يسيرون وراءهم.. هذا جزء من عقم هذه المؤسسات، وهو فراغ واضح في الفكر الديني، يملؤه أحفاد وأتباع سيد قطب مثلاً، وهذا النوع من الإسلام الأصولي العنيف.

المقابلة أطول من ذلك بكثير ووردت فيها أقوال عدة جديرة بالذكر في مقالات أخرى والنص متوافر لدينا لمن يود الاطلاع عليه.

ملاحظة: اصدر رجل الدين السيد عجيل النشمي فتوى قال فيها ان تولي المرأة لمنصب الوزير ليس من الولاية العامة. ثم عاد بعد 24 ساعة وخالف رأيه السابق!! للعلم، السيد النشمي عميد سابق لكلية الشريعة ومدرس وأستاذ دين!

الجعفرية والفتنة

أجرى جاسم عباس، الزميل في «القبس»، لقاء طريفاً مع السيد عبدالله الهندي، حفيد احمد الهندي، اول مطهر شعبي، من يقوم بعملية الختان، تعترف به ادارة مستشفى الارسالية الاميركية في اوائل القرن الماضي.

وتضمن اللقاء الكثير من الامور الطريفة والغريبة، وربما كان اكثرها اثارة أن دعيج العون، جاسم معرفي، عبدالحسين الخباز، فهد الموسى، محمد النشمي، عبدالحسين زاهد، عبداللطيف العمر، عبداللطيف الفلاح، خالد المسعود، عبدالعزيز الدوسري، عبدالعزيز البالول، معجب الدوسري، عبدالله البالول، سعود الخرجي، محمود الناصر، سليمان البناي، محمد تقي، ملا عيسى المطر، ملا راشد السيف، حيدر بن نخي، محمود بهباني، جاسم عبدالله، محمد الصباغة، عبدالوهاب هاشم البدر، ابراهيم اليوسف، وصاحب اللقاء عبدالله الهندي، كانوا وغيرهم الكثير من طلاب «المدرسة الوطنية الجعفرية»، التي تأسست عام 1938 بالقرب من نقعة معرفي على ساحل البحر! فكيف اجتمع كل هذا الخليط من شباب ثلاثينات القرن الماضي، الذين بلغ البعض منهم بعدها ارفع المناصب واكثرها اهمية، في مدرسة جعفرية؟ ويقول السيد الهندي انه درس في تلك المدرسة ومن ثم عمل امينا لمخزنها، واصبح مدرسا فيها، ولقد حدث ذلك، وهذا كلامنا، على الرغم من ان اتجاه المدرسة المذهبي كان يختلف، ولا يخالف، مذهبه ومذهب غالبية من وردت اسماؤهم في الفقرة اعلاه، والذين كانوا من مشارب وخلفيات متنوعة ومن جميع مناطق الكويت واسرها، والذين لم تمنع خلفيات آبائهم المذهبية واختلافاتهم العرقية من إلحاق ابنائهم بتلك المدرسة، ليس فقط لما اشتهرت به تحت ادارة المربي سيد محمد حسن الموسوي، من حزم وحب للنظام، ولا للمستوى العالي لمخرجاتها، مقارنة بكتاتيب تلك الايام، حيث كان يدرس في المدرسة الجعفرية منهج اللغة الانكليزية والرياضيات وعلوم اخرى، بل لان مجتمع ذلك الوقت كان اكثر صفاء وصدقا مع نفسه، ولم تصله بعد لعنة التعصب المذهبي والعنصري التي اشاعها الغريباء، والبعض منا بين افراد الوطن الواحد.

نكتب هذه الواقعة التاريخية ونتمنى، وليس لنا غير ذلك، ان تعود الانفس الى بعض ما كانت عليه من صدق وصفاء، فما يجري على الساحة من تناحر وبغض مذهبي واختلاف ديني وتعصب عرقي احمق سوف لن نجني منه غير الخراب، الذي سيظال الجميع دون استثناء، وما يجري في العراق ولبنان وتشاد وكينيا، درس اكثر من واضح لمن في رأسه عقل! فهل نتعظ؟ أشك في ذلك!

اللقيط في الفقه الشيعي

السيد علي حسن غلوم، المشرف على الصفحة الدينية في جريدة الوطن، المخصصة للفقه الشيعي، نشر بتاريخ 9/2 بحثا مقتضبا عن حكم اللقيط،، وورد فيه تعريف اللقيط، وأسباب الحالة وحكم التقاطه من الشارع، أو من المكان الذي وجد فيه، وضرورة العناية به خوفا من موته جوعا أو بردا. كما تطرق لموضوع أهمية البحث عن أسرة اللقيط وإعادته إليها! وأن على من وجد اللقيط رعايته حتى بلوغه سن الرشد!

وقال السيد غلوم ان الإسلام يرفض تحول اللقيط إلى ابن لمن يود تبنيه، أو حتى أخذ اسمه، بل يبقى في رعايته بغير اسم، ولكن «يجوز» أن يوصى له بجوء من ثلث تركته! ثم تطرق السيد الباحث لحقوق اللقيط فقال ان أهمها عدم جواز تحويله لعبد مملوك يشرى ويباع! ولا أدري عن أي مجتمع يتكلم الباحث؟ وقال ان من حق المنبوذ، وهي من صفات اللقيط في الفقه الشيعي، حسب ما ورد في البحث، تحديد مسار حياته بعد بلوغه الرشد! ولا أدري كيف يمكن التصرف بعكس ذلك؟ وقال ان حقوقه عدم قذفه بأنه ولد غير شرعي! ولا أدري كيف يمكن فعل ذلك وهو أصلا بلا اسم!

ومن حقوقه ما تعلق بحقه في حياة كريمة «بغير اسم؟» وهذا ما دفعنا لكتابة مقالنا هذا.

فمن المعروف أن الحياة الكريمة لا تعني فقط لقمة في البطن ولباسا على الكتف وسقفا فوق الرأس، بل تعني الاحترام في المجتمع من خلال الانتماء له بطريقة سليمة وصحيحة، وهذا لا يمكن أن يتم دون منح مجهول الأبوين، أو أحدهما، اسما كاملا وواضحا، ويفضل كثيرا أن يكون اسم من قبل تبنيه ومن قبل أن يحمل اسمه. وأن يمنح، بصورة تلقائية، ودون عائق، فور بلوغه سن الرشد، جنسية الدولة التي وجد أو ولد فيها، إن كان يعيش في كنف الدولة وتحت رعايتها. ولكن من المؤسف، وهذا ما لم يتطرق له البحث، أو يقترب منه ولو تلميحا، أن هذه الأمور لا يمكن لها أن تتحقق في ظل القوانين الوضعية الحالية لمعظم دول العالم الإسلامية، ومنها الكويت، التي تحرم حمل اسم المتبني وتحرم مشاركته في تركة من تبناه. كما يتعسف مسؤولو دور الرعاية في منح الجنسية لمجهول الابوين بالرغم من ان القانون الكويتي يعطيهم هذا الحق، كما يستوجب المنطق، وكما تنص قوانين حقوق الإنسان في جميع دول العالم... المتحضر والمتقدم والراقي؟

وكان حريا بمحرر الصفحة الدينية التطرق لهذه الجزئية المهمة ومحاولة مساعدة الكثير من نزلاء دور الرعاية الذين تمنع الأنظمة تبنيهم من قبل الأسر الراغبة في ذلك، كما تمنع منحهم جنسيتها بصورة تلقائية! والأغرب من ذلك أن أي طلب تبين يقدم لدور رعاية مجهولي الأبوين ينظر فيه على أساس ديانة ومذهب المتقدم، وهذا ما لم يتطرق له محرر الصفحة في بحثه غير المكتمل.

ويعتقد البعض ان ليس لأحد الحق في انتقاد معتقداتنا ولا النيل من عقائدنا، وأن من حقنا التصرف إزاء الغير بما تمليه علينا مصالحنا وضمائنا، ولا رقيب علينا في ذلك! وهذا قد يكون مقبولا، ولكن ما ليس من حقنا هو القول إننا الأحسن في الاعتقاد والأكمل في التصرف والأكثر رشدا ورشادا في التشريع!

اعترافات الإخوان ومؤتمرات السلف

من خلال أكثر من 20 مقابلة مع تلفزيونات الكويت الرسمية، الراي الكويتية، ابوظبي، الجزيرة، العالم، الحرة والعربية، وعبر أكثر من ألف مقال، وبضع مقابلات صحفية، أكدت المرة تلو الأخرى أن الكثير من أموال الجمعيات، المسماة بالخيرية، قد استغلت في تمويل أنشطة غير مشروعة وصرفت بغير حساب وبطريقة مشبوهة! اعترض الكثيرون بطبيعة الحال، سواء من المستفيدين من هذه الأنشطة أو من العاملين فيها، أو من الغفلة والبسطاء من ادعاءاتنا تلك، وأكدوا نزاهة القائمين على الجمعيات الخيرية أيا كانت! وأن ما يحدث هنا وهناك من اختلاسات «مليونية»، وتمويل غير مشروع وفساد مالي، ما هي إلا حالات شاذة لا يخلو منها أي نشاط. في يوم 5 فبراير 2008، أجرت «السياسة» الكويتية مقابلة صحفية مع «هاني البنا»، وهو واحد من كبار الزعماء «الماليين» للتنظيم العالمي للإخوان المسلمين، ورئيس «مؤسسة الأغاثة الإسلامية» التي تعمل في 40 دولة على مستوى العالم، ولها 35 مكتبا، يمثلها هو، وقد أعترف في المقابلة أن بعض جامعي التبرعات، لحساب الإخوان، مولوا أنشطة غير مشروعة!.

عندما يأتي مثل هذا الاعتراف من شخص في مكانة «البنا» الحزبية وأهميته المالية، مع الأخذ في الاعتبار أنه يعيش في معقل الغرب ويعمل فيه، خصوصا أنه غير مجبر على الإدلاء أو الاعتراف بمثل هذا الاتهامات الخطيرة، فهذا يعني أن من حقنا مضاعفة اعترافاته عشر مرات!، فقله أن «بعض» جامعي التبرعات يعني أن «الكثير» من جامعي التبرعات!، أما قوله أن هؤلاء البعض مولوا أنشطة «غير مشروعة»، فهذا يعني في الحقيقة أنهم مولوا «أنشطة إرهابية»!، وهذا ما كنا نقوله ونكرره منذ سنوات.

نتمنى الآن من أولئك الذين سبق وأن اعترضوا على اتهاماتنا بحق العمل الخيري في دول الخليج، والكويت بالذات، أما الرد على اعترافات هاني البنا ودحضها، أو السكوت عنا، على الأقل، عندما نقول أن العمل الخيري متهم بتمويل الإرهاب ولن يزول عنه هذا الاتهام حتى يؤمن القائمون عليه بالشفافية ويفتحو دفاترهم وسجلاتهم المالية للجهات الحكومية من دون تردد أو لف ودوران.

شجرة الوييد

في ستينات القرن الماضي وقعت كارثة بيئية في العراق، لكن النظام الدكتاتوري استطاع وقتها اخفاء الكثير من معالمها عن العالم، ولكن اخبار الكارثة البيئية تسربت إلى الكويت، ولكن أحدا لم يجرؤ على التحدث فيها، مع وجود «أزلام صدام» في الكثير من وسائل الإعلام حيناً، وتوتر العلاقة الدئم بين حكم صدام المتسلط، ونظامنا شبه الديموقراطي المستقر في الكويت.

حدثت الكارثة عندما قامت الحكومة العراقية بشراء كميات كبيرة من البذور الزراعية المعالجة التي بإمكانها البقاء في التربة بعد زراعتها لأكثر من سنة في حال عدم سقوط المطر اللازم لنموها، بسبب خاصيتها المقاومة للآفات الزراعية. وزعت الحكومة تلك البذور مجاناً على المزارعين أو الفلاح، وخاصة في منطقة جنوب العراق. كما حذرتهم من مغبة ادخال تلك البذور في طعامهم بسبب سمية المواد التي استخدمت في تكسيته وحمايتها من الآفات.

لعدم ثقة الفلاحين بحكومتهم، أو ربما لكسلهم، قاموا في مرحلة أولى بإطعام تلك البذور للدواجن وعندما لم تظهر عليها أية آثار جانبية، أو مرض بعد مرور بضع أيام، قاموا باطعامها لحيوانات أكبر، وعندما لم تظهر على هذه الحيوانات أية أعراض أيضاً، قاموا بطحنها وتناولها.

لم تستسغ الحكومة تصرف أولئك المزارعين الكسالى وقامت في السنة التالية باستيراد كميات أكبر من تلك البذور، ولكنها قامت هذه المرة بزيادة نسبة سميتها، وحذرت المزارعين من خطورتها الشديدة، ووضعت علامات تحذير بارزة على الأكياس.

لم يعبأ هؤلاء بتحذيرات الحكومة هذه المرة أيضاً، وقاموا بتكرار اطعامها لماشيتههم ولما لم تظهر عليها أي أعراض قاموا بتناولها!

وهنا حدثت الكارثة، حيث ان سمية تلك الحبوب كانت تتطلب مرور اسبوع على الأقل لكي تظهر آثارها على حيوانات الحقل، ولم ينتظر هؤلاء الفترة الكافية بسبب جهلهم بخواصها، وبالتالي قاموا بتناولها فأصيب عدد كبير منهم بأمراض مختلفة، كما امتدت الاصابات إلى المواشي والدواجن التي اصببت بأعراض تسمم واضحة ونفق منها الكثير، واصبح من الخطر تناول لحومها.

غضب المزارعون مما اصابهم وقاموا، خوفاً من بطش الحكومة أو جهلاً، برمي ما تبقى لديهم من بذور في النهر، فأدى ذلك إلى تسمم الثروة السمكية!!

وهكذا اكتملت حلقات المأساة، واصبح جزء كبير من شعب جنوب العراق نباتيا بغير إرادته، بعد ان حرم من تناول لحوم الأبقار والأغنام والأسماك لعدة أشهر. واتذكر حينها ان الكويت منعت ادخال أي لحوم أو أسماك من العراق، وشمل الحظر منتجات أخرى كالزبدة والقيمر، وحتى البقاصم!!

تذكرت تلك الحادثة وأنا أقرأ عن اكتشاف عظيم توصلت إليه مختبرات الغرب الكافر التي يصفها البعض بالنجسة، والذي تعلق بنجاح تلك المختبرات في انتاج بذور زراعية ذات قدرة عالية على مقاومة الآفات الزراعية، وخاصة في المناطق التي تنتشر فيها نباتات وأشجار الوبيد Weed التي تمت جذورها لمسافات طويلة وقريبة من السطح، والتي تتغذى على ما تصادفه في طريقها من بذور زراعية، والتي كان من الاستحالة تجنب الزراعة بعيدا عنها أو ازالتها بسبب كثرتها الغريبة وقوتها وانتشار جذورها لمسافات طويلة.

ويعتقد الخبراء ان استخدام هذه البذور سيزيد من دخل مزارعي الدول المعنية بنسب عالية تبلغ مليارات الدولارات سنويا.

فماذا فعلنا طوال قرون بدخل بترولنا من أجل رفع مستوى معيشة هؤلاء التمساء والمنكوبين؟ لا شيء!

زقزقة العصافير والهيافة

أحب زقزقة العصافير وتغريد البلابل وصوت شلالات المياه ودقات العيدروسي على المرواس. كما أعشق صوت سوناتات موزارت وما يصدر عن عود الفضالة من نغم، ومنظر قوس قزح وصوت ماريا كالاس، وهدير بافاروتي على مسرح «لاسكال» وأزياء كوكو شانيل وتصاميم ايف سانت لوران وشموخ جبال نجران وعظمة سجاد فارس. كما يسكرني صوت أم كلثوم من غير خمر، ويكيني منظر طفل جائع وأم مشردة وأب مكلوم، وأهيم بالسفر فجرا والتعرف إلى العالم وتذوق أطعمته والتواصل مع بشره، نغما وعيشا ولقمة وابتسامة، وأحب لقاء بوتشيلي ورؤية رسوم بيكاسو والانصات لصوت سيزاري أيفورا. كما أميل لتلمس أوراق الأشجار في يوم ندي وأهيم بمنظر الفراشات وهي ترفرف بأجنحتها فوق الأزهار، ولا أشبع من النظر لأهرامات مصر وما تخبئه من أسرار، واستشاق رائحة العشب المشذب توا، وشم بخار الجبس المرشوش بالماء، ومشاهدة أفلام يوسف شاهين وفرانسيس فورد كوبولا ومريم قاليباف، وقراءة «امراتين» لألبرتو مورافيا و«أيام» طه حسين و«أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ ومخرجات عقل «بل غيت» وجنون أفكار السنعوسي وقفشات عبدالحسين عبدالرضا وإبداع خالد النفيسي، وتمثيل سناء جميل وايشور كومار، والسفر بالقطار عبر البلدان والأمصار والأنفاق، والجلوس تحت قبة مساجد عشق آباد وباكو وسمرقند وشيراز واسطنبول، والاستلقاء تحت أسقف كاتدرائيات فلورنس والفاتيكان وكومو وآيا صوفيا، والتطلع بشغف لمعابد السيخ في سرينغار، والدخول إلى معابد البوذيين في تايلند، والسير في ممرات قصور المهرجات في راجستان ومحاولة استعادة طريقة حياتهم.

آه كم أود السير على قمم جبال روكي والنزول منها هرولة لوادي الغراند كانيون، والسباحة في بحيرة ناصر، وتناول أرجل الضفادع في مقاهي باريس، وتدخين السيجار في بار بمدينة انفرنس، وصيد السلمون على سواحل فانكوفر، والتسكع في ساحات مراکش، والسير دون كلل في شوارع القدس العتيقة...!!

آه كم هي جميلة هذه الحياة! وكم هي رائعة هذه الأرض التي تضم مرابع وأماكن شتى أكثر بكثير من قطع منطقة كيفان وأزقة بريدة وجمعيات الجهراء! وهنا لن نتكلم عن الكون اللانهائي الذي يبلغ حجمه من جانب إلى آخر أكثر من 93 مليار سنة ضوئية، وللمقارنة فقط فان حجم أي مجرة لا يزيد على 30 ألف سنة ضوئية، والمسافة الاعتيادية بين أي مجرتين متجاورتين يزيد عن 3 ملايين سنة ضوئية،

بل سنتكلم عن الكرة الأرضية التي يزيد عدد سكانها اليوم عن 6 بليون و700 مليون نسمة ويبلغ عمرها 4 مليارات سنة، وتشكلت الحياة فيها في المليار سنة الأولى، والتي تزيد عدد لغات ساكنيه، ومعتقداتهم على عشرات الآلاف، وبعد كل ذلك يعتقد بضعة نفر من سكان هذه المعمورة أنهم يمتلكون الحقيقة، وان الصواب فيما يتبعونه من لباس وكلام وسلام وهيئة وتصرف ومعتقد!!
سلام على الحقيقة يوم ولدت وأسف عليها يوم ماتت!!

بين هايف 1920 وهايف 2008

قام هايف شقير الدويش عام 1920 ببناء هجرة لـ«الاخوان» في منطقة تعود ملكيتها لحاكم الكويت الشيخ سالم مبارك الصباح، والهجرة هي قريبة من الحصن العسكري. اساء ذلك الاعتداء على الملكية غضب الشيخ سالم فأرسل سرية بقيادة دعيح الصباح لترهيب الاخوان وطردهم، ولكن هؤلاء قاموا بتجهيز جيش من 2000 مقاتل وتمكنوا من الاغارة على قوات دعيح وقتل الكثيرين منهم في معركة حمض. وهنا جهز الشيخ سالم جيشا آخر بقيادة «ضاري الطوالة» ومعه دعيح الصباح للانتقام من هايف الدويش، ولكن نجدة عسكرية من فيصل الدويش افسدت هذه الحملة ايضا. وهكذا ادى احتلال «هايف الدويش» لارض الشيخ سالم لان يتخذ الاخوان في النهاية، بقرار من زعيمهم الأكبر، قرارا بغزو الكويت، وكانت معركة الجهراء التي وقعت في العشرين من أكتوبر 1920 بين قوات حاكم الكويت الشيخ سالم الصباح وبين قوات الاخوان، بقيادة فيصل الدويش، الموالي لحاكم نجد، ابن سعود.

جمع الشيخ سالم ما بين 1500 الى 3000 مقاتل، منهم 500 من مدينة الكويت، ورفض عرض اشراك الشيعة معه، معللا ذلك بأن الاخوان يكفرون سنة الكويت، لانهم اهل مخزي ومعازف، اي سجائر وموسيقى، وان علموا ان بينهم شيعة فسيزداد حماسهم للقتال.

بدأت المعركة في السادسة صباح يوم 10 أكتوبر وسقطت الجهراء بعد 3 ساعات بيد الاخوان.

احتفى الشيخ سالم الصباح بمن تبقى معه بالقصر الاحمر وتشتت البقية. وما ان انشغل الاخوان بأداء صلاة العصر حتى انتهز «الطوالة» الفرصة وخرج من القصر الأحمر يطلب النجدة من الكويت.

اثناء ذلك أرسل الاخوان من يعرض الصلح، او الاستسلام، على الشيخ سالم. وكانت شروط الصلح تتضمن تكفير الاتراك ومنع التدخين والمعازف والدعارة والمنكرات في الكويت وترحيل الشيعة، وهدم المستشفى الاميركي وطرد اطبائه واعتناق مذهب الاخوان!

كان جواب ذلك الشيخ على مطالب الإخوان منسجما مع العقل والمنطق، حيث قال انه لم يثبت لديه ما يستلزم تكفير احد من اهل الكويت فالجميع مسلمون، وان شرائع الاسلام تقام فيها، اما منع المنكرات فهو على استعداد لمنعها علنا،

ولكنه لا يستطيع دخول بيوت الناس ومنعهم. كما لا يستطيع منع الاجانب الذين لا يدخلون تحت سلطته.

وصلت النجدة من الكويت وحاولت فك الحصار عن المتحصنين في القصر الاحمر ولكنها لم تنجح. وهنا لجأ الشيخ سالم للحنكة والدهاء بعد ان بدأت الاغذية والمياه بالتناقص لديه فتظاهر بقبول الشروط، على ان يقوم الدويش بسحب مقاتليه عن الجهراء باتجاه الصبيحية. وهذا ما حدث وفك الحصار عن القصر وعاد الشيخ سالم ورفاقه للكويت ورفضوا بعدها شروط الاخوان بكاملها، وكان للميجور «مور» البريطاني، الدور الأكبر في إنهاء القتال، بعد ان سلم موفد الاخوان رسالة تهديد واضحة من اي هجوم على الكويت، والقى بضع نسخ من التهديد من الطائرة على مخيم الاخوان بالصبيحية.

والآن، وبعد 88 عاما، يحاول هايف آخر، وهو النائب محمد هايف، فرض شروط الاستسلام نفسها على شعب الكويت، ولكن عبر قاعة «عبدالله سالم الصباح، فهل سنمكنه من ذلك؟

قدارة الأوروبي ونجاسته وبخله

لو عقدنا مقارنة سريعة بين مجتمعات دول مجلس التعاون والمجتمعات الأوروبية لوجدنا فوارق هائلة لا تصدق بين المجتمعين، سواء في التعليم أو الزراعة أو الاقتصاد، دع عنك ارتياد الفضاء والتجارة والسياحة والآثار والمتاحف والفنادق والطرق والخدمات الأساسية كالكهرباء والماء ومصادر الطاقة البديلة.

ولو نظرنا إلى معاهدهم العلمية وتقدمهم في الطب ومستوى مستشفياتهم لأصابنا الدهول، ليس فقط من درجة تقدمهم، بل من مدى تخلفنا وانعدام إنتاجنا، وبؤس مساهمتنا في النشاط الإنساني.

ولو قمنا بإلقاء نظرة سريعة على الفوارق الأخلاقية بين المجتمعين، لأصبنا بذهول يصعب علاجه بغير تدخل جراحي، ففي أوروبا للمواعيد قدسيتهما وللعمل احترامه، كما أن الكذب غير شائع بينهم، وعكس ذلك تماماً في مجتمعاتنا.

ولو تطرقنا لدورهم الحضاري والانساني وفضلهم على البشر أجمع في جميع المجالات، في السنوات الثلاثمائة الماضية على الأقل، لوجدنا العجب العجيب، ليس فقط في قلة مساهماتنا بل في الكم الهائل من المصائب والأحزان التي تسبب بها السفهاء منا بحق البشرية، والغرب بشكل خاص. والمجال لا يسمح هنا بتعداد أسباب ذلك، لكن لا يوجد ما يصلح للرجوع إليه من مصادرنا للتدليل على عظمة ثقافة الغرب وقيمه وأخلاقيته، أفضل مما كتبه الداعية السعودي عايض القرني، الذي لم يمنعه انتماؤه لمذهب اسلامي متشدد، وبعد أول زيارة له إلى أوروبا في شهر مارس الماضي، من أن يكتب في صحيفة سعودية.. «أنا في باريس للعلاج، أراجع الأطباء وأدخل المكتبات وأشاهد الناس وانظر إلى تعاملهم فأجد رقة الحضارة وتهذيب الطباع ولطف المشاعر وحفاوة اللقاء وحسن التأدب، كما وجدت حياة منظمة والتزاماً بالمواعيد وترتيباً في شؤون الحياة، أما نحن العرب، فقد سبقني ابن خلدون في وصفنا بالتوحش والغلظة.. وبعض مشايخنا، وأنا منهم، جفاة في الخلق وتصحر في النفس.. ونحن بحاجة لمعهد تدريب على حسن الخلق وبحاجة لمؤسسة لتخريج مسؤولين يحملون الرقة والرحمة والتواضع وبحاجة لتدريس اللياقة مع الناس!»

هذا كان رأي الداعية القرني السعودي في أهل أوروبا. أما الداعية الكويتي العوضي، والمنتسب لتيار القرني، فقد كان له رأي مختلف تماماً في الأوروبيين، فقد كتب يقول: «أما علاقة الأوروبيين بخالقهم فالبهائم أفضل منهم حالاً ومالاً، فهم

لا يحللون حلالاً ولا يحرمون حراماً.. والحقيقة أن أهل الغرب لا يردعهم دين ولا قيم ولا أخلاق، بل يردعهم فقط الخوف من العقوبات والغرامات، بل حتى شرطتهم ستشارك في السرقات إن غابت الرقابة.. الأوروبي في الغالب كرهه الرائحة، فهو لا يغتسل إلا للضرورة! ولا يستبرئ من بول ولا يتطهر من نجاسة، ولولا أن الله رزقهم جواً بارداً لرأيت رائحتهم تزكم الأنوف وتطرد الطيور وتهلك الزرع! ومن الصفات القبيحة التي يمتاز بها الأوروبي، ولا يكاد ينافسه فيها أحد من الشعوب، صفتا الجبن والبخل، وباقي صفاتهم السيئة لا يمكن حصرها!.

المقال طويل وتضمن الكثير من الذم والمسبة والتهجم، وقد أوردنا فقط مقاطع منه لنبين حقيقة مواقف البعض منا من الآخرين، خصوصاً من أكثر شعوب الأرض تقدماً وأدباً واحتراماً وفضلاً على الأمم الأخرى.

يا حيفاه

أكملت قبل اسبوع الستين من عمري المديد، وعلى الرغم من كبر الرقم، إلا أنه لا يزال لدي، بموجب حسابات شركة التأمين على الحياة وتقارير طبية مستقلة، ما يزيد عن نصف ذلك الرقم من السنوات السعيدة، قبل ان اموت طبيعيا في نهاية التسعين من العمر، وعليكم الحساب والتكسير، والتمني سلبا او ايجابا!

صحتي جيدة، وذهني لا يزال متوقدا، واشعر بأنني في قمة نشاطي الجسدي والفكري، وانه لا يزال امامي الكثير لأقوم به، وفوق هذا وذلك فإن قلبي وعقلي مليئان بأفكار تتعلق بعشرات المشاريع والخطط ولكن.. مع كل هذا، يكتنف جوانبي، احيانا كثيرة، حزن شديد، واشعر بين الفترة والاخرى وكأن اصابع لرجة تتسل خلسة بين أضلاعي لتعصر قلبي.. ألما!

لا يعود سبب ذلك لاسباب شخصية، فقد حققت في حياتي، حتى الآن، كل ما كنت اشتهي واتمنى، وربما اكثر من ذلك، ولا اشعر برغبة في تولي منصب سياسي او الحصول على جاه او التقرب لأي كان، فقد تلبستني القناعة بشكل لا فكاك منه، ورضيت بذلك الاسر الجميل طوعا!! ولكنني اشعر بالحزن لما آلت اليه الاوضاع في وطني من جهة، ولعدم وجود ولو بصيص أمل في ان تتصلح الامور فيه، ولو بعد حين. حتى ذلك الضوء الذي يتخيل البعض وجوده في نهاية النفق قد لا يعدو ان يكون مصابيح شاحنة ضخمة قادمة بسرعة كبيرة باتجاه خط سيرنا المتعثر!

لقد وصل التسبب والشلل والفساد الاداري حدا اصبح فيه الاصلاح امرا بعيد المنال، ان لم يكن مستحيلا، وكل عاقل يقبل تولي المنصب الوزاري مثلا، او اي منصب آخر عال الاهمية، لا شك مدرك بأن قبوله عائد بالدرجة الأولى لما يأتي مع ذلك المنصب من جاه ونفوذ ومصلحة شخصية، وليس لإصلاح الأوضاع ووضع الامور في نصابها الصحيح، فهذا فوق طاقة اي فرد منا!

والأمثلة على خروج وزراء «اصلاحيين» مطأطئي الرؤوس من الوزارة دون انجاز شيء، اكثر من ان تحصى، فقد تأخر الوقت كثيرا لإحداث اي انقلاب ايجابي في الاوضاع او فعل شيء مفيد بعد ان تمكنت قوى التخلف والرجعية والفساد من الامساك بغالبية مفاصل الدولة، ان لم يكن جميعها.

وأسفاه على وطني.. وأسفاه على احلام آبائنا واجدادنا التي احترقت.. وأسفاه على ضياع كل الجهود الطيبة، وكل تلك المليارات التي أنفقت على التعليم لنحصد منها كل هذا الجهل، وكل هذا الكم من الخواء المعجون بالتعصب القبلي والطائفي والديني الذي اختلط مع الفساد المالي والإداري ليصبح كتلة صماء واحدة.

آه كم انت جميلة وحلوة يا بلدي. آه كم انت رائع يا وطني.. ولكن يا حيفاه!

حرمة الموسيقى

لا يوجد فكر في العالم، من أقصاه لأقصاه، يحرم سماع الموسيقى غير فكرنا الديني السياسي، الذي لا صلة له بالواقع ولا بالعقل والمنطق. فرسالة الموسيقى تتعدى وتتحدى جميع الحدود ولا يمكن لعقل أن يستوعب مدى تأثيرها في النفس ومدى سطوتها الرائعة على المشاعر والأحاسيس بحيث تتسيك الكثير من الآلام والأوجاع، وتجعلك في الوقت نفسه انسانا سامي الخلق عذب الاحساس، وهذه هي رسالة الفن الحقيقية، ودور المطرب في هذا الفن الرفيع لا يقل عن دور الملحن أو العازف، فتجمع الثلاثة طالما أعطى البشرية، طوال تاريخها أروع الأغاني وأعذب الأصوات وأكثرها قربا للنفس البشرية التواقه لكل جميل وطبيعي ورائع.

وفي حياتنا المعاصرة، لا يمكن الفكك بسهولة من صوت الموسيقى وانتشارها العجيب بحيث أصبحنا نسمعها في ردهات الفنادق وأروقتها، وتلحق بك الى المصاعد ويتسلى بها المسافرون على الطائرات وفي الحافلات والسفن. كما أنها تسلي المتسوقين ومراجعي العيادات الطبية وممارسي الرياضة. ولا يمكن أن تغفلها الأذن في الكثير من المحال والأماكن العامة الأخرى. كما أنها تواجهك متحدية في السينما ومن خلال الشاشة الصغيرة والاذاعة وجميع أماكن التسلية واللهو، وكل هذا الحضور الطاغي شكّل في مرحلة ما معضلة للكثير من رجال الدين المسلمين، من أزهريين وغيرهم، ومن آية الله الخميني، قائد الثورة الايرانية، الذي كان يعتقد مع غالبية معاصريه من رجال الدين، ومن سبقهم، بحرمة الاستماع لها أو عزفها، ولكن مع كثرة السؤال عنها جعله في نهاية الأمر يخفف من حدة موقفه بشأنها، بعد أن أدرك بحسه السياسي أن التحريم المطلق لن يجدي نفعا مع شعب محب للحياة ومباهجها، كانت الموسيقى طوال تاريخه تشكل العمود الفقري للهو ومرحه وعنوانا لشغفه بالمتعة. ولكن من جانب آخر لم يكن بمقدور الخميني ترك الباب مشرعا أمام كل أنواع الموسيقى الراقصة أو الأغاني المبتذلة، فأفتى وقتها بجواز سماع ما لا يلهي من اللحن الموسيقي، وحرّم الماغن من الغناء، ولكن ربما غاب عنه أن أي لحن لا يلهي، ويجبرك على الاستماع له، ليس بلحن أصلا!! كما أنه ليس هناك من في مقدوره وضع خط فاصل بين ما هو ماجن أو مائع من الموسيقى وما هو عكس ذلك!!

موقف الخميني من الموسيقى لا يختلف عن موقف السواد الأعظم من رجال الدين والمفتين، فغالبيتهم يجدون أنفسهم في وضع لا يحسدون عليه عند سؤالهم

عن موقفهم منها، وهو يشبه وضع الـ Catch 22، فلا هم في حل من تحليل سماع الموسيقى على إطلاقها ولا تحريمها كلها، وذلك لصعوبة تصديق أن هناك لحنا ماجنا محرما وآخر وقورا حلالا. فما يصدر عن آلة «كمان» - ان كان جميلا وممتعا - لا يختلف كثيرا عن صوت الايقاع الجميل الذي يصدر عن دف بدائي!! فكما أن صوت «الكمنجة» يمكن أن يهز وسطا فان صوت آلة الدف يمكن أن يؤدي إلى الشيء ذاته، وحفلات الصوفييين الدينية الراقصة التي لا يستخدم فيها عادة غير الدفوف، خير دليل على ذلك.

يمكن، حسب فهمي المتواضع، تقسيم الموسيقى إلى أنواع ثلاثة أساسية في عصرنا الحديث:

موسيقى كلاسيكية أوروبية، موسيقى عصرية لكل دولة أو مجموعة من الدول، وأخيرا موسيقى شعبية. ولكل نوع من هذه الموسيقى محبوها والمعجبون بها، وسعداء الحظ هم أولئك الذين يستمتعون بكل أنواعها.

لحبة السيخي أناند

اكتوبر 2008

تعرفت على صديقي الهندوسي «دينو» في منتصف ستينات القرن الماضي، واستمرت صداقتنا حتى اليوم دون انقطاع، الا ما فرضته الجغرافيا احيانا من تباعد مادي. وفي آخر لقاء لنا في الصيف الماضي قص عليّ فلادارس القصة التالية:

عندما كنت صغيرا كانت اسرتي تعيش في مدينة ممبي، او بومبي، حيث كان ابي يمارس الطب. وفي يوم استقلت واصدقائي سيارة اجرة متهاكة يقودها مواطن من السيخي، او سرداري!! لم نتوقف، خلال رحلتنا القصيرة تلك عن اطلاق النكات على السيخي والسخرية منهم، ومن مركبة ذلك السائق العجوز، ولكن الرجل تجاهلنا تماما، الامر الذي دفعنا الى التماذي في غينا! عند بلوغ، وجهتنا ودفع الاجرة استوقفنا الرجل قائلا: لقد سمعت جميع نكاتكم وسخريتكم مني ومن افراد طائفتي. لن اطلب منكم التوقف عن فعل ذلك مستقبلا، فهذا لن يجدي نفعا، ولا اطلب الاعتذار، فهذا ايضا لا معنى له، ما اطلبه من كل واحد منكم هو ان تعطوا اول متسول سيخي تقابلوه النصف روبية هذا، وهنا ناولنا المبلغ، وذهب لحال سبيله!!

سخرنا من سداجة ذلك السائق وضحكنا كثيرا من تصرفه الاحمق، ولكن بعد مرور سنوات طويلة من تلك الحادثة، وعلى الرغم من زياراتي المتكررة للهند، لم اصادف حتى يومنا هذا متسولا من السيخي، ولا ازال احتفظ بنصف الروبية منذ نصف قرن تقريبا، فقد تعلمت الكثير من ذلك السائق الحكيم، الذي اختار تلك الطريقة المبدعة لاعطاء كل منا درسا لا ينسى في الحياة، وليقول لنا بطريقة غير مباشرة ان شعبه لا يتسول ولو جاع، وان المظهر الخارجي او العمل الذي يقوم به الانسان، مهما كان بسيطا، لا يعني شيئا، وان ما يشاع عن غباء البعض او سداجة تصرفهم ليس هو المقياس الصحيح للحكم على الكل، وان السرداري هو الوحيد في العالم الذي لا يمكن ان يلجأ الى التسول، مهما قست عليه الظروف!

على الرغم من شعوري بصحة رواية صديقي الهندي، لكنني رغبت في التأكد من الموضوع بنفسني، وهكذا قمت بالسؤال هنا وهناك وتبينت لي حقيقة ان السرداري، او السيخي، أبّي النفس يعتد كثيرا بكرامته ولا يمانع في القيام بأي عمل، ولكنه لا يلجأ الى التسول مطلقا!

تذكرت تلك القصة لدى سماعي بمشكلة الطالب اناند مع مدرسته الانكليزية في الكويت.

التحق اناند، الطالب السيخي، بمدرسة انكليزية خاصة في بداية العام الحالي. قبلت المدرسة التحاقه بها، بناء على علاماته المميزة وحسن سلوكه، بعد مرور فترة على بدء الدراسة، طلبت منه الادارة حلق ذقنه، بحجة ان الطلبة غير مسموح لهم بتربية لحاهم! رفض اناند تنفيذ الطلب، لان تعاليم دينه تحرم عليه حلق شعر رأسه وذقنه. وهنا قررت ادارة المدرسة فصله ان رفض طلبها، فأصر اناند على موقفه، وهكذا حرم من الدراسة، علما بأنه في سنته الاخيرة تقريبا وسيغادر الكويت بعد عام للالتحاق بالجامعة في الخارج.

تقدم والد اناند بطلب لادارة المدرسة لاعادة النظر في قرارها وعدم التسبب في ضياع مستقبل ابنه، فهو لن يرضخ لطلبهم غير العادل من جهة، ومن جانب آخر ليس بإمكان والده ترك مصالحه والعودة الى الهند لكي يدرس هناك من دون قيود، خصوصا ان ادارة المدرسة قبلت به كما هو، بغطاء رأسه ولحيته عند مقابلته لأول مرة، ولم تشترط عليه ازالتهما في حينه. ولكن الادارة اصررت على موقفها، على الرغم من العريضة التي تقدم بها الكثير من الطلبة واولياء امورهم تأييدا لموقف اناند! وهنا لجأ والده إلى سفارة بلاده لكي تتقذ مستقبل ابنه من الضياع، وقامت هذه بالفعل بالاتصال بوزارة التربية - ادارة التعليم الخاص، ولكن يبدو ان الوزارة، اما انها ترفض التدخل او لا تود تغيير تعليماتها، وقد باءت كل محاولاتني للاتصال بمدير التعليم الخاص او القائم بالاعمال الهندي وحتى بصاحب المدرسة الانكليزية، لمعرفة الحقيقة، بالفشل، حيث كنت فقط ارغب في معرفة الجهة التي تقف وراء هذا القرار المجحف، وأيا كانت النتيجة فهو دليل آخر على تخلفنا وتعصبنا. علما بأن الأمر تمت تسويته مع الطالب وولي مره وعاد للدراسة. وللعلم فقط فإن الشرطة البريطانية تستثني السيخ بالذات، العاملين في السلك، من وضع خوذته الرأس!

نظام الخمس

الخمس نظام مالي إسلامي فرض للتعامل مع غنائم الغزوات في عهد الرسول، وقد توقف العمل به بعد وفاته، إلا ما كان يدفع إلى «بيت المال». واحتساب الخمس مسألة معقدة، وتختلف من مذهب لآخر، وتختلف التفسيرات بشأنه من جهة إلى أخرى، ولكن بشكل عام يقوم على أساس قيام المرء باحتساب 20% من ربحه السنوي أو غنمه وتسليمه إلى جهة ثقة وعادلة، تمثل النبي أو من آل بيته، حسب التفسير الشيعي، ليتصرف به بالطريقة التي يراها مناسبة. وبسبب شك الشيعة التاريخي في توافر حكام ثقة يمكن الوثوق بهم فقد أجمعوا على أفضلية دفع الخمس إلى من هو بمكانة ولي الإمام أو نائبه، ولكن مع الوقت زاد عدد هؤلاء وتعددت المرجعيات مع زيادة أتباعهم، أو مقلديهم من دافعي الخمس. ويمكن القول إن نظام الخمس الحالي لم يترسخ إلا مع إنشاء أول دولة شيعية اثني عشرية في التاريخ، عام 1501، فالدولة الفاطمية، على الرغم من تشيعها، لم تكن اثني عشرية ولا يوجد ما يثبت أنها كانت تطبق نظام الخمس.

وعلى الرغم من الاستقلالية العظيمة التي وفرها ويوفرها هذا النظام المالي للمؤسسة الدينية الشيعية، وهي الاستقلالية التي تفتقدها المؤسسة الدينية السنية، أيًا كانت، أقول على الرغم من هذه الاستقلالية التي وفرتها لرجال الدين وقوت موقفهم من السلطة ومكنتهم من بقاء هياكلهم التنظيمية كما هي عليه لسنوات طويلة وأعطتهم القدرة على الوقوف في وجه أقوى الملوك وأعتى الطغاة، فإن تطبيق النظام، بصورته الحالية، لم يخل من المثالب.

فلو نظرنا لما دفعه ويدفعه الشيعة، ومنذ خمسة قرون تقريباً، من أموال طائلة إلى رجال الدين في صورة «خمس» لوجدنا أن من الصعب تقديرها بصورة دقيقة بسبب ضخامتها.

ولو قامت أي جهة مستقلة بإجراء مسح ميداني لمنجزات المؤسسات الدينية في قم ومشهد والنجف وكربلاء، وهي المواقع التاريخية الدينية التي عادة ما تصب فيها غالبية أخماس الشيعة، والتي أصبح البعض منها يتجه للبنان في السنوات الأخيرة، لوجدنا أن الظاهرة الوحيدة الواضحة في هذه الأماكن، عدا لبنان، هو تعدد وكبر حجم المدارس الدينية، أو الحوزات فيها، والتي يتلقى بها عشرات الآلاف من الطلبة العلوم الدينية مجاناً، مع توفير الغذاء والمسكن والملبس لهم دون مقابل. ولا يوجد خلاف ذلك ما يمكن الاعتداد به بشكل واضح ومحسوس،

فكل ما تم إنجازه من مؤسسات إنسانية في هذه المدينة أو تلك المنطقة لا يسد إلا جزءاً صغيراً من احتياجات المجتمعات الشيعية للمدارس الجيدة والجامعات المميزة والمشاريع الاقتصادية التي توفر العمل لمئات آلاف العاطلين وغير ذلك الكثير مما تعانيه مجتمعاتهم في العراق وإيران!

لا نريد هنا الدخول في تفاصيل أكثر، فهذا ما يدلنا عليه منطقنا وفهمنا الديني وقد نكون على خطأ في كل أو بعض ما ذكرناه، ولكن من الصعب مثلاً معارضة قولنا ان طريقة دفع أو تحصيل الخمس كان له أكبر الأثر في تفرق وتعدد المراجع الدينية وتنافرها وأحياناً تصارعها على كيكة الخمس، فهذا النظام الضريبي الديني كان له أثر واضح في منع وحدة الصف الشيعي ووحدة قراره ومرجعيته، حتى في الوطن الواحد أو ضمن المدرسة أو الحوزة الدينية، فلو اتحدت هذه المراجع، وفي الاتحاد قوة، فإن الخمس سيتجه لصندوق الجهة الموحدة وليس لحساب مرجع محدد، وفي ذلك تضعيف لدور المرجع ومكانته السياسية والاجتماعية! وأخيراً يمكن القول انه على الرغم من رسوخ نظام الخمس، إلا أن هناك اتجاهاً متزايداً بين رجال الأعمال الشيعة، وفي الخليج بالذات، على القيام بعملية التصرف بالأخماس المستحقة عليهم في أوجه الخير التي يرونها مناسبة من دون المرور في قنوات «وكلاء المراجع»، خاصة بعد زيادة الأقاويل عن بعض تصرفات هؤلاء وزيادة أعدادهم في كل دولة.

الهدف هو المال!

يعتقد بعض أصحاب النفوس المريضة والسذج أنني اهدف، من وراء كتاباتي، الى تقويض دعائم الدين وخلخلة اركانه، وهذا ما لم يستطع القيام به من هو أعتى واقوى مني، رأيا وحجة، فالدين باق ولن يضيره مقال هنا او رأي هناك!

ما نهدف اليه، ويهدف اليه غيرنا من الكتاب الذين يمكن وصفهم «تجاوزا» بالليبراليين او العلمانيين، هو تحقيق اهداف ثلاثة رئيسية:

اولا: الحد من سيطرة رجال الدين على مقدرات الناس والتحكم في رقابهم وآرائهم، من خلال فتاواهم، ووقف استغلالهم للدين لتحقيق الرخيص من الاهداف.

ثانيا: فصل الدين عن الدولة بحيث تتحقق الديموقراطية بصورتها الصحيحة، فلا ديموقراطية من غير حرية رأي.

ثالثا: ازالة كل ما علق بالدين على مدى عقود من التخلف، وجعله اقرب للعقل والقلب.

وللتدليل على «ثالثا» فإن ذاكرتي تزخر بكم هائل من المتناقضات التي تملأ حياتنا، والتي تكاد تخنق حس المنطق والفهم لدينا بحيث لا نعرف كيف نتصرف. فالضحك والبكاء يندمجان معا في تراجيديا عندما نسمع مثلا ان نائبا متخلف الفهم والفكر استغل «نفوذه» في اقناع ادارة المرور بتغيير اتجاه كاميرات السرعة بحيث تقوم بالتقاط ارقام السيارات المخالفة لحدود السرعة من الخلف، وليس من الامام، لان جناب النائب لا يرغب في ان تصور كاميرات الدولة «نسوة بيته» وهن مسرعات، ولكن لا مانع لديه من قيامهن بمخالفة القانون، لتقته بأن المخالفة ستسقط.. بالواسطة!

وفي مثال آخر، أجرت قناة المجد مقابلة مع من يصف نفسه بالدكتور والعالم «عبدالباسط سيد»، ادعى فيها أن رائد الفضاء آرسترونغ قال انه عندما اصبح في الفضاء رأى ان الارض كرة معلقة ومظلمة، ووجد شعاعا يخرج منها، وبالتدقيق اكثر تبين ان الشعاع يخرج من مكة، وبتقريب اشد تبين انه يخرج من الكعبة، وان له خاصية محددة، وان مكة تعتبر منطقة زوال مغناطيسي، ومن يزور مكة او يعيش فيها يصبح اطول عمرا واكثر صحة.. لانه يتعرض لتأثير اقل من الجاذبية الارضية. وقال ان في المتحف البريطاني 3 قطع من «الحجر الاسود» وان علماء المتحف اثبتوا انه من غير احجار المجموعة الشمسية!

وغني عن القول ان كل ما ذكره هذا المدعي لا صحة له، فخلال اكثر من 1400

عام لم يدع احد انه رأى شعاعا يخرج من مكة، كما ان معدلات الحياة في مكة لا تختلف فيها عن أي مدينة سعودية أخرى، والحجر الاسود لم يسبق ان فحصت خواصه من اي جهة حتى الآن، والقول بأنه من خارج المجموعة الشمسية فهو ادعاء، فالمتحف البريطاني، حسب موقعه، لم يجر اي تجارب عليه، حتى كتابة هذا المقال، ولم ينشر اي بحث بهذا الصدد.

المؤسف ان حديث هذا «المدعي»، واقوال وادعاءات كثيرة أخرى للعشرات من هذه النوعية من «العلماء» من امثال زغلول النجار وعبد الحميد الزنداني، الذي قال ان آرمسترونغ اكد صحة القرآن، وكأن المسلمين بحاجة لشهادته، كل هذه يتم تداولها على شبكات الانترنت، وتسيء الينا جميعا، شئنا ام ابينا، وهنا تكمن مهمتنا في كشف هؤلاء والتنبية الى خطرهم، فما يقومون بترويجه من قصص ونظريات لا هدف من ورائها غير الشهرة الفارغة واثرا غير المشروع.

حوار الأديان.. حوار الطرشان

ديسمبر 2008

اختلف المسلمون لقرون على من كان أحق بالخلافة من غيره، وفي غمرة اختلافهم، نسوا من يحق له حكمهم اليوم!

* * *

عقدت منذ بداية العقد الاخير من القرن الماضي وحتى الامس القريب عشرات المؤتمرات الاسلامية - الاسلامية، والاسلامية - المسيحية، بهدف تقريب الأديان والمذاهب لبعضها، واذابة الفوارق بينها، خصوصا بين اتباع المذهب الشيعي من جهة والمذاهب السنية الاربعة الاخرى، وبين مذاهب المسلمين الخمسة الرئيسية وبين المسيحية، وحيانا اليهودية! ويمكن القول دون تردد او تلغثم ان لا شيء، لا شيء مطلقا، تمخض عن اي من هذه المؤتمرات، والتي كانت في مجموعها كلاما في كلام ومجاملات وتبادل قبليات ومصافحات وعناق، وطبطنة كل طرف على ظهر الطرف الاخر، وتوزيع ابتسامات، لتنتهي هذه الاجتماعات ومؤتمرات الحوار، وكل فريق باق على موقفه لا يريد الزحزحة عنه قيد انملة، فلو كان هناك مجال او امل، ولو ضئيلا، في تقارب أتباع المذاهب والديانات المختلفة لما كانت هذه الفروق والاختلافات موجودة اصلا، فما خلقها، وتسبب في وجودها في المقام الاول، هو الذي يضمن بقاءها دون تغيير يذكر، ولقرون طويلة قادمة.

ما يحتاج إليه اتباع المذاهب السنية الاربعة وما يحتاج إليه اتباع الشيعة، لكي لا ندخل في مواضيع اكثر تعقيدا كتقارب الاسلام مع اتباع الديانات الاخرى، هو ان يقبل السني اخاه السني الآخر، وان يقبل الشيعي اخاه الشيعي الآخر، وان يقبل كل فريق اتباع الفرق الاخرى ويتفهموا مواقفهم وآراءهم ومعتقداتهم وان يرضوا بها، قبل ان يفكروا مجرد تفكير في التقارب مع الخارجي، من مسيحي او بوذي او هندوسي. فالانسان غير المنصف وغير المتسامح مع اهل بيته لا يستطيع ان يكون منصفا ومتسامحا مع اصحاب البيوت الاخرى.

وبهذا السياق اجرى السيد ابو القاسم الديباجي، وهو رجل دين معروف وامين عام «الهيئة العالمية للفقهاء الاسلامي»، وهي هيئة شيعية لا اعرف الجهة التي تنتمي إليها، اجرى في منتصف يوليو الماضي لقاء صحفيا في الكويت تطرق فيه لقضايا عدة تتعلق بالتقارب بين المذاهب الاسلامية من جهة وبين المسلمين والمسيحيين من جهة اخرى. تبين من تصريح الديباجي مدى ما نمارسه من لغو

في مواضيع التقارب المذهبي، فقد ذكر ان الهيئة التي يتولى امانتها ستختار احد علماء السنة الكويتيين ليكون عضوا فيها، وسيعلن عن ذلك قريبا! ولكن بعد مرور اكثر من خمسة اشهر لم يتم اختيار احد، ولا نعتقد ان من في رأسه عقل سيقبل بهذا «التشريف»! فما الذي سيفعله رجل دين سني في محيط شيعي معاد لفكره ومواقفه لاقصى حد، وهل سيستمع له احد لو فتح فمه برأي او اعترض على امر؟ وقال الديباجي في مؤتمره ان الهيئة تلقت دعوة من امين عام رابطة العالم الاسلامي للمشاركة في المؤتمر العالمي للحوار الذي سيعقد تحت رعاية العاهلين السعودي والاسباني في يوليو الماضي، ومشاركة 200 شخصية اسلامية من كل المذاهب من ذوي المنصب والجاه «!!» ونكتشف اليوم ان المؤتمر عقد، وعقد مؤتمر آخر بعده في اروقة الامم المتحدة وحضره عدد من كبار زعماء العالمين الاسلامي والمسيحي، ويمكن القول ان شيئا لم يتمخض عن اي من المؤتمرات غير تبادل التمنيات واكتفاء المشاركين بهز الرؤوس بالموافقة على كل كلمة قالها ممثلو الاطراف الاخرى.

وورد في لقاء الديباجي الصحفي ان هيئته تبذل «قصارى» جهدها من اجل تذيب الفوارق بين الاديان والمذاهب، والحيلولة دون اتساع الهوة بينها! ونحن نؤكد هنا ان الفوارق بقيت كما هي ان لم تتسع فـ «علماء» كل طرف، ممن لهم باع طويل في الانترنت وهم النخبة القائدة في الساحة الدينية صعدوا كثير من لهجاتهم ضد الطرف الآخر، والانترنت بقنواته الدينية التي لا تحصى تزخر بكم هائل من الاحقاد والرفض والكراهية التي يكنها كل طرف لمعتقدات ومواقف الطرف الآخر، من بين هؤلاء بعض من شارك في مؤتمرات التقارب المذهبية هذه وغيرها، ونكون حقا مسرورين لو اخبرنا السيد الديباجي عن النتائج التي تحققت من قيام هيئته ببذل قصارى جهدها في الاشهر الستة الماضية مثلاً!

وحول موضوع حقوق البشر قال الديباجي ان تلك الحقوق موجودة لدى المسلمين قبل سنها بعد الحريين العالميتين الاولى والثانية! ولا ادري من اين جاء الديباجي بكلامه هذا، علما بأن مجرد اصرارنا على طرح مثل هذه الاقوال واعتبارها من المسلمات كاف لنسف اي محاولة للتقارب مع اي طرف آخر، فلا حوار بشروط ومواقف مسبقة!

نعود للبداية، ونقول اننا لسنا ضد الحوار ولا ضد التلاقي ولا ضد التفاهم، فهذا من اساسيات اي تفكير علماني مستنير، لكننا ضد القيام بأي خطوات كبيرة وضخمة ما لم تسبقها خطوات اصغر واكثر اهمية وخطورة ونعني هنا خطوات التقارب بين المسلمين بعضهم ببعض، فكيف يمكن ان نقنع الآخر بمبدأ التقارب

معه في الوقت الذي يرفض فيه غالبية رجال دين الحوزات الدينية مواقف زملائهم رجال الدين السنة والوهابيين والسلفيين منهم بالذات؟ وكيف يمكن ان نطلب من الآخر المسيحي او اليهودي وحتى البوذي التقارب معنا وغالبية غلاة كل من المذهبيين يكفر أحدهما الآخر.

هذا هو الواقع، وهذه هي الحقيقة وادبيات كل طرف اكثر من كافية لأن تشي وتدل على حقيقة مواقفهم، وفي الاعتراف بالمشكلة نكون قد خطونا الخطوة الاولى في طريق الحل، ولكن ما اطوله من طريق، فليس من السهل الاعتراف بوجود مشكلة، دع عنك وضع حل لها.

ورد في «الوطن» 15 ديسمبر 2008 على لسان الديباجي نفسه، تعليقا على موضوع الاختلاف على تحديد يوم عيد الاضحى الاخير، ان لدى الشيعة عموما قناعة حول شرعية رؤية الهلال، ولكن «!!» بالرغم من ان جميع المتواجدين في المشعر الحرام مأمورون بمتابعة قرار تحديد يوم عرفة «وكأن هناك خيارا آخر»، الا ان الاختلاف على يوم العيد كان خارج نطاق الحج، فقرار تحديد اليوم يرجع لرأي المراجع العظام في بلادهم!

وهكذا نجد اننا في الوقت الذي نعجز فيه حتى على الاتفاق على تحديد يوم عيد الاضحى، نصر على التقارب مع المسيحيين واليهود!

الوفاء.. الوفاء يا ناس

لا تحبذ «القبس» عادة نشر ما يردها من تعليقات على ما يكتب في صفحات الرأي و«الاتجاهات»، ولم اعتد شخصيا نشر ما يردني من تعليقات في هذه الزاوية المتواضعة، ولكن لما للأخ «عبدالمحسن مظفر» من معزة، ولجمال ما كتب، ولكمّ العواطف الصادقة التي تضمنها رده، أجدني مضطرا، بسرور، لإفساح المجال له لعل وعسى يلتفت المعنيون بالأمر الى موضوع مقالي والرد عليه ويقومون بعمل شيء يساهم في رد الاعتبار لمن لهم دين كبير في أعناق الكثيرين منا:

«الأخ أحمد الصراف، جريدة «القبس» الغراء، تحية طيبة،

اطلعت صباح اليوم «الأربعاء» على ما كتبته في عمودك اليومي بجريدة القبس «كلام الناس» تحت عنوان «علماؤنا وتسامحهم»، وأود ان اعرب لك عن اعجابي الشديد واتفاقي الكامل معك في ما كتبته، وهو يتسق تماما مع نظراتك الإنسانية الموضوعية في معظم مقالاتك التي اتحاور معك بشأن بعض ما فيها على الهاتف. ولكنني في هذه المرة رأيت من الأنسب ان اكتب إليك - لأهمية موضوع مقال يوم 17-12 - بدلا من الحوار على الهاتف، أو في الحقيقة، إضافة إليه، لأنني أرى ان هذا الموضوع جدير ان تتسع دائرة الاهتمام به بين الكويتيين الحريصين على رسم صورة إنسانية جميلة لهذا الوطن الصغير العزيز علينا.

صلب الموضوع وأساسه هما تقدير الكفاءات البشرية من مختلف الأعراق والمذاهب والجنسيات التي خدمت الكويت في مجالات مختلفة على امتداد التاريخ الحديث لدولتنا الفتية، هناك رجالات «ونساء» عظام قدموا لنا خدمات جليلة، ولكننا لم نحفل بتكريمهم او تقديرهم في الوقت المناسب، بل لم نفكر في الأمر حتى بعد فوات الأوان، والأوان لم يفث إذا كنا جادين في نظرتنا إلى هذه الامور، ولم نستخف بها او نستعلي عليها، وسأبدي بعض الملاحظات حول اثنتين ذكرتهما في مقالتيك الجيدة، مع أن في بالي شخصيات أخرى تستحق منا التبجيل والاحترام:

الفنان صالح الكويتي وأخوه داوود يكفي أنهما في ذلك الوقت لم يكن للكويت شأن كبير ولا منزلة عالية كما هي الآن، اعتزا وافتخرا دائما بأن ينسبا نفسيهما إليها، ويجعلا الكويت في اسم عائلتهما، ويورثا ذلك الاسم العزيز لأولادهما وأحفادهما، على الرغم من انهما برزا ونشطا فنيا في مدن عربية اخرى لعل أبرزها بغداد عاصمة الفن والثقافة في ذلك الوقت. وظل هذان الرجلان معتزين ومفتخرين بالكويت حتى بعد هجرتهما إلى فلسطين مضطرين واقامتتهما هناك واكتسابهما

للجنسية الاسرائيلية. وربما استمع كثير منا إلى الفنان صالح الكويتي واشادته بالكويت وبالفتره التي عاش فيها في لقاءاته الإذاعية من «اورشليم القدس». نعم يا أحمد، الكويت كانت أولى بالاحتفال بمئوية هذا الفنان الكبير الذي ادخل فعلا السعادة والسرور وحب الحياة ليس فقط الى قلوب أجدادنا وآبائنا، بل حتى إلى قلوبنا نحن في هذا الوقت وقلوب أبنائنا وبناتنا، فكثير منا لا يزال ينتشي بألحانه البسيطة الجميلة وأغانيه العذبة الشجية. ولكن كثيراً منا عندما يطرب لتلك الألحان والأغاني لا يدري انها من تراث ذلك الفنان المبدع. وأنا لا يزال يتردد في أذني صوت المطرب العراقي الريفى الشهير حضيرى أبو عزيز «وليس حضيرى!» وهو يقول ضمن مقطع غنائي له: «جرّ الكمنجة عدل يا صالح كويتي!»

لقد كنت سعيداً جداً عندما نشأت علاقة ودية عفوية - بفضل الإنترنت والتقدم التكنولوجي الحديث - بين ابنتي شروق وابن صالح الكويتي شلومو الذي اطلع على ما جاء في مدونة شروق «الجابرية زحمة» حول الفنان العتيق مع وضع إحدى أغانيه على المدونة، فكانت الاستجابة سريعة من ذلك الابن. وجرى تبادل عدد من الرسائل الودية بين الطرفين، سقطت فيها جميع العوائق التي فرضتها الظروف السياسية، وتلك التي أوجدتها الانتماءات العرقية والدينية والمذهبية التي فرقت بين الناس، ولم ينتج عنها غير الأحقاد والعداوات وسوء الفهم المتبادل، في الوقت الذي نطمح فيه جميعاً إلى تحقيق السلام والعدل والتفاهم والتعاون العالمي، للوصول إلى مستقبل أفضل للبشرية.

أما الدكتور لويس اسكدر «وليس اسكندرا»، ذلك الطبيب الإنساني الرائع، فاعتقد ان الكويتيين جميعاً - وفق تجارب مختلفة معه - يذكرون بالعرفان فضله عليهم. لقد كان لويس اسكدر إنساناً بمعنى الكلمة، محباً للخير، حريصاً على خدمة الناس «أيا كانت مستوياتهم» بكل إخلاص وتواضع. أذكر جيداً ولا أنسى أبداً موقفاً له معنا «ونحن من أسرة متواضعة» كيف أتى إلى منزلنا وتبسط في الحديث مع صغيرنا وكبيرنا بلغته العربية المحدودة في ذلك الوقت. مرض والدي في أواخر الأربعينات من القرن الماضي، وكنت وقتها صغيراً دون العاشرة من عمري، فذهبت بالسيارة مع أخي الأكبر إلى منزل الطبيب الإنسان الدكتور اسكدر، وكان الوقت يقترب من منتصف الليل، كان نائماً وقتها، ولكنه لم يتأخر في ارتداء ملابسه البيضاء الأنيقة البسيطة وركب معنا في السيارة حاملاً معه حقيبته السوداء. في الطريق من الوطنية إلى الميدان، كان يمزح معي ويتقرب إلي وأنا صغير ويلقنني بعض الكلمات بالإنكليزية حتى وصلنا إلى منزلنا. مد يده بلطف شديد إلى والدي المستلقي على ظهره متألماً وأجلسه ليبدأ الفحص والتشخيص. ثم أعطاه العلاج

اللازم «شرباً وابتريت من حقيبتة». لم يكن والدي راقداً على سرير بل ممدداً على أرضية الغرفة المغطاة بالحصير والبساط وفي جانب منها مسندان فقط. أثناء الفحص والتشخيص والعلاج السريع كانت والدتي تعد الشاي للضيف العزيز في حوش البيت الترابي الصغير. وضع المكان الذي أعد فيه الشاي وعرض على الدكتور الأميركي لم يكن مناسباً أبداً، ربما كنت أنا أتأفف من شرب الشاي فيه، ولكن الدكتور اسكدر استجاب لطلب والدتي وتناول منها الشاي بعد ان جلس «بملابسه البيضاء النظيفة» على أرضية الليوان الاسمنتية، ومد رجله الى أرضية الحوش الترابية السمراء، وألقى بعض كلمات الشكر والمجاملة لوالدتي على كرم ضيافتها! ثم ودع من في البيت بكلمات طيبة وتطمينات لوالدي المريض. وفي طريق العودة الى منزله كان مصرا على الجلوس معي على مقعد السيارة الخلفي ليواصل لطفه ومزاحه معي ومحاولة تعليمي الانكليزية، وأخي عبدالله يقود السيارة مبتسماً وهو ينظر إلينا في مرآة السيارة الأمامية. وصلنا منزله بعد الثانية من منتصف الليل. ودّعنا بابتسامة لطيفة وكأنه يعرفنا من سنين ودلف الى منزله. تلك الدقائق والساعات القليلة لا تُمحى من ذاكرتي رغم مرور ما يقارب ستين عاماً عليها. كان لنا في ما بعد خمسة أو ستة لقاءات أخرى متباعدة مع الطبيب الإنسان لويس اسكدر في المستشفى الأميركي. لا أظن أنني رأيت أو سوف أرى طبيباً في مثل تواضعه وحرصه على متابعة المريض وكأنه قريب له!

هذا الذي كتبته لك هنا عن الدكتور اسكدر سبق ان ذكرته شفاهة بحضور القس لويس اسكدر ابن الدكتور لويس اسكدر، بعد محاضرة له - على ما أذكر - في دار الآثار الاسلامية في 21 فبراير 2000، وكان ذلك تعبيراً عفواً مني وعرفانا بجميل ذلك الانسان الطيب في حضور ولده.

رجال مثل هذين النموذجين يا أخي أحمد يستحقون منا كل التقدير والتكريم، فشكراً لك على ما كتبته، وعسى ان ندرك بعض ما فاتنا».

الزرزور وعازف الفيولين

قبل اربعين عاما، عندما زرت لندن لأول مرة، عام 1968، صدمت حضاريا بأمور عدة ليس المجال هنا لسردها جميعا، ولكني اتذكر ان رؤية العصفور الصغير وهو يحط على طاولة طعامي في حديقة «الهايدبارك» كان مفاجئا لي! فلم يسبق ان امتلكت طيور بلدي تلك الجرأة في الاقتراب من البشر، وضحكت بداخلي وانا اكلم نفسي قائلا ان ذلك الزرزور الصغير ما كان ليجرؤ على المخاطرة بحياته ومستقبله، لو كان يعرف الخلفية «الحضارية» التي جئت منها، والتي لم تكن تسمح لطائر، مهما صغر حجمه، بأن يقترب كل تلك المسافة من دون ان تنتهي حريره او حتى حياته.. الى الابد.

كما كنت اتعجب من طريقة حياة الموسيقيين المشردين، واختيارهم الشارع كمأوى. وكثيرا ما كان العزف الجميل لبعضهم يستوقفني لدقائق طويلة للاستماع له وانا اعبر انفاق المترو الارضية في طريقي الى عملي في البنك. وكنت اتساءل دائما عن سبب عدم قيامهم بالعزف في الحفلات والاماكن العامة طالما كانت لديهم كل تلك المواهب! كما كنت احتار في سبب عدم وجود مأوى لهم في دولة غنية كبريطانيا، قبل ان اعرف ان غالبية هؤلاء كانوا ولا يزالون يفضلون ما يوفره لهم النوم في الشارع من حرية مقارنة بالعيش في الملاجئ، لما تفرضه من قيود على حرية تحركهم ونومهم وروتين حياتهم الخالي من اي التزام بقواعد او قيود لا تتقبلها نفوسهم التواق للحرية المطلقة وغير المسؤولة!

تذكرت كل ذلك وانا اقرأ قصة جوشوا بل، ففي يوم من ايام يناير الباردة اسند رجل ظهره الى حائط في احدى محطات مترو العاصمة الاميركية واشنطن، وبدأ بعزف مقطوعة رائعة للموسيقار العالمي باخ، على آلة فيولين قديمة، استمر عزفه لخمس واربعين دقيقة، واثناء ذلك مر به الآلاف في طريقهم الى اعمالهم، بعد ثلاث دقائق من العزف توقف رجل في منتصف العمر لثوان ليستمع له قبل ان يسرع الخطى مرة ثانية، وبعد دقائق اخرى توقف رجل للحظات ليسقط دولارا في الاناء الموضوع امامه، قبل ان يستمر في طريقه، وبعدها بدقائق جلس رجل آخر على مقعد خشبي مقابله وانصت للعزف مليا قبل ان ينظر الى ساعته وينطلق الى حال سبيله، واجبر طفل والده على التوقف لينظر في وجه العازف وحركات يديه، وكان الوحيد الذي ابدى اهتماما، او ربما فضولا، اكثر من الآخرين، ولكن وقوفه لم يطل كثيرا بعد ان اجبرته والدته على مواصلة السير! وتكررت الحال مرات عدة

مع اطفال آخرين، وفي جميعها اجبروا على مواصلة سيرهم. خلال الفترة كلها توقف 6 اشخاص فقط للحظات، ووضع عشرون شخصا اموالا في انائه، وكان اجمالي ما تجمع لديه يقارب مبلغ 32 دولارا، وعندما انتهى من العزف لم يلاحظ احد ذلك، ولم يكن هناك اي تصنيف، او تقدير لجهد، ولم يعرف احد من آلاف المارة ان ذلك العازف لم يكن سوى «جوشوا بل»، احد اشهر عازفي الكمان في العالم، وان المقطوعة التي عزفها كانت واحدة من اصعب ما لحن باخ للعزف على الكمان، وان الآلة التي عزف عليها كان ثمنها يزيد على 3،5 ملايين دولار! وما لم يعرفه اي من المارة ايضا ان «حفلة» جوشوا بل الاخيرة، التي كانت في بوسطن قبل يومين من وقوفه في محطة المترو، بيعت تذاكرها ذات المائة دولار بكاملها في يوم واحد.

هذه قصة حقيقية تم ترتيبها بين الفنان وبين جريدة واشنطن بوست كجزء من دراسة تتعلق بدقة الملاحظة ونفاذ البصيرة والذوق والاولويات في حياة البشر. بينت التجربة باختصار اننا، وفي اي مكان عام، لا ننتبه عادة للجماليات او ندرك حقيقتها، كما لا نتوقف عادة لتقدير قيمة اشياء كثيرة تستحق النظر او التأمل، كما لا نلتفت كثيرا لاصحاب المواهب، ان تواجدوا في المكان غير المتوقع او المناسب!

والخلاصة اننا اذا لم يكن لدينا لحظة واحدة للتوقف والانصات لواحد من اعظم عازفي القرن، وهو يعزف واحدة من اجمل المقطوعات الموسيقية، على مر التاريخ ومن خلال احدى آلات الكمان، فكم من الاشياء الجميلة الاخرى يا ترى التي لا نحس بوجودها؟

الآخر في التصور الإسلامي

الآخر، هو غير المسلم، سواء كان كتابيا، مجوسيا، مشركا او حتى ملحدًا، وحيانا يضيف السنة، والسلف بالذات، الى هؤلاء كل من يخالف مذاهبهم من شيعة واسماعيلية وبهرة او احمدية وحتى اباضية. ويتخذ غالبية الشيعة الموقف ذاته من غيرهم من اتباع المذاهب السنية، وحتى من الشيعة غير الاثني عشرية. والامر لا يقف بطبيعة الحال عند التصور فقط، بل يمتد بحيث تصبح له تبعات دنيوية، كما ان لكل طرف تصوره في تبعات ذلك بعد الموت. فهناك تمييز في المعاملة والحقوق والواجبات بين المسلم السني والمسلم الشيعي. فدستور إيران لا يسمح لغير الشيعي تولي منصب رئاسة الجمهورية، وهذا يعني ببساطة ان غير الشيعي لا يستحق تولي المنصب الرفيع، حتى لو اختار الشعب الايراني برمته شخصا سنيا، وهو افضل الناس، لتولي الرئاسة!

وعلى الرغم من عدم وجود نصوص في دساتير غالبية الدول الاسلامية السنية، على افتراض وجود دستور يعمل به بطريقة محترمة، فان من الاستحالة مجرد التفكير في امكان وصول شيعي الى منصب رئيس الدولة فيها جميعا، خصوصا في ظل الامر الواقع الذي يمنع وصولهم إلى ما هو ادنى من ذلك بكثير. اما التفرقة بين المواطن المسلم، شيعيا كان او سنيا، وبين بقية المواطنين من اصحاب الديانات الاخرى فحدث ولا حرج. فهؤلاء يصنفون عادة كفارًا، والكنفر يقسمون الى فئتين، كتابيين ومشركين، والفارق بينهما يكمن في مبدأ الجزية. فالجزية تقبل من اصحاب الكتاب من مسيحيين ويهود، وبعض الفقهاء يحشرون معهم المجوس، ودفع الجزية يعطيهم الحق في البقاء احياء. اما بقية البشر من اتباع آلاف الديانات الاخرى فليس امامهم سوى خيار دخول الاسلام أو قطع الرقبة. ومن الانصاف القول ان نص القتل لم يطبق بشكل واسع وتم التغاضي عنه على الرغم من وضوحه! وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات بين مذهب اسلامي وآخر في الموقف من غير اهل الكتاب من ناحية قبول او عدم قبول الجزية منهم، فان المبدأ الاساسي يبقى ثابتا. كما يمكن القول ان مكانة غير المسلم في المجتمعات الاسلامية هامشية بمعنى الكلمة. فجميع النصوص تطالب بقتل المشركين، حيث وجدوا، والنصوص موجودة في سورة التوبة في الآيتين 5 و29، وهي تطالب بقتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر والذين لم يحرموا ما حرم الله ورسوله ولا يدينون بدین الحق من الذين اوتوا الكتاب، الا اذا دفعوا الجزية وهم اذلاء صاغرون.

وعلى الرغم من كل ما تتضمنه دساتير الدول العربية والاسلامية من نصوص واضحة تؤكد تقديس الحرية والمساواة، دون تفرقة بين المواطنين، إلا أن غير المسلم يعامل بشك عادة في هذه البلدان، وكمواطن من الدرجة الثانية أو أقل. فشهادة غير المسلم على المسلم لا تقبل، ويشتط البعض بحيث لا تقبل حتى شهادة الكفار بعضهم على بعض. وإذا قتل الكافر مسلماً فجزاؤه القصاص، ولكن لا يُقتل مسلم بكافر، كما ورد في صحيح البخاري، مع مخالفة الاحناف لهذه القاعدة. كما لا يقتص من المسلم بالكافر في الجروح وجرائم قطع الاعضاء. ولا يطبق الحد على من قذف كافراً، بل يعزر فقط. فأعراض غير المسلمين لا تستحق ان تصان من القذف. ومتفق عليه ان غير المسلم لا يحق له الزواج بمسلمة. وتوصي بعض النصوص المسلمين حتى بعدم مبادرة اليهود والنصارى بالسلام. وللمسلم حق «استرداد سلامه» ان تبين ان من سلم عليه غير مسلم، لكي يجعله يشعر بالوحشة فيختار ان يسلم. وان على المسلم، ان التقى كتابيا في الطريق، ان يدفعه لأضيقه! وتعتبر قضية الجزية المفروضة على غير المسلمين من اكثر الامور تعقيدا في العلاقة بين الطرفين. ولهذا لا تطبق الجزية في اي مجتمع اسلامي على الرغم من اجماع الفقهاء عليها، لان في دفعها حقنا لدماء الكفار بدلا من قتلهم، او لمجرد القبول بهم في دار الاسلام. ويذهب البعض إلى القول إنها عقوبة للكفار لبقائهم على كفرهم.

فالجزية تشكل إذلالا لدافعها. وحسب قول «ابن القيم الجوزية». كما أن ضربهم على أقفيتهم، وهم يدفعوها، يشكل إذلالا وتحقيرا وإهانة لهم. وعلى الرغم من تساهل الاسلام مع اهل الكتاب في ما يتعلق بممارسة شعائهم فانه وضع قيودا تمنع اظهار الصليب ورفع الصوت في الصلاة والقراءة، ومنع بناء الكنائس.

وقد يقول قائل ان الكثير من هذه الامور غير مطبقة، وهذا صحيح، ولكن مجرد وجودها يعني ان هناك سيفا على رقاب غير المسلمين يمكن ان يفعل في اي يوم. وبالتالي من المهم تحصين القوانين الوضعية ودعم الدساتير الموضوعة لحماية الحريات الفردية والحقوق الشخصية من تسلط رجال الدين ومنع تدخلهم في شؤون البشر اليومية بصورة متعسفة.

مايكل هارت وبل غيت

كتب مايكل هارت في عام 1978 بحثه الشهير The 100: A Ranking Of Most Influential Persons In History أو الشخصيات المائة الأكثر تأثيراً في التاريخ، الذي جاء في أكثر من 560 صفحة من القطع الكبير وتضمن سيرة 100 شخصية تاريخية وكما غريباً وطريفاً ومفيداً من المعلومات عن شعوب العالم. وسبق ان قام الكاتب المصري «انيس منصور» بترجمة الكتاب قبل سنوات، ولكن بصورة غير أمينة، ووضع اسمه على الغلاف، دون الإشارة الى اسم كاتبه الحقيقي، وقام بتشويه عنوانه ليحمله «اعظم مائة شخصية في التاريخ»، والفرق واضح بين «الاعظم» و«الأكثر تأثيراً»! فقد لا يكون للشخص أي تأثير مباشر على حياتنا، ولكن هذا لا يجعله أقل عظمة في الوقت نفسه، والعكس صحيح.

يتصدر اسم النبي محمد شخصيات الكتاب لكونه الأكثر تأثيراً، وبصورة مباشرة، على حياة المسلمين. ولا ينازعه في المكانة احد، فما كان يقوم بأدائه من فروض دينية وما كان يأمر اتباعه، او ينهى عنه، من تعليمات وعبادات ونواهي، قبل 1400 عام او يزيد، لا يزال، والى حد كبير، يؤدي بالطريقة نفسها.

وجاء اسحاق نيوتن في المرتبة الثانية لتأثيره الهائل والمباشر على حياة البشر من منتصف القرن السابع عشر وحتى اليوم والى قرون عدة مقبلة. فنيوتن، ولأسباب كثيرة، يعتبر اعظم عالم عرفته البشرية، ومكتشفاته تعتبر حجر الاساس لكثير من المخترعات التي ننعم بها اليوم.

ولم تمنع مسيحية المؤلف من وضع المسيح في المرتبة الثالثة، علماً بأن مسيحيي العالم يفوق عددهم عدد اتباع أي ديانة اخرى، ولكن البحث لم يوضع على اساس الأكثر اتباعاً او قوة او سطوة بل «تأثيراً»، والتأثير المباشر لحياة المسيح وكلامه ووصاياه لا يقارن بتأثير من سبقه من شخصيات الكتاب التاريخية، وربما يعود ذلك الى قصر حياته وقلة ما نقل لنا من افعاله واقواله.

ثم يأتي بوذا وكونفوشيوس والقديس بولس والصيني «تسالون»، مخترع الورق، ومن بعده جوهان غوتنبرغ مخترع الطباعة، وكريستوفر كولمبوس تبعاً، ومن ثم ألبرت اينشتاين في المرتبة العاشرة، الى ان نصل الى المرتبة 51 وهي لشخصية «عمر بن الخطاب»، لنكتشف، حسب القواعد التي وضع البحث على اساسها، ان لا احد غيره، بخلاف النبي محمد، من منطقتنا، كان له ذلك التأثير الهائل على حياة المسلمين.

تضمنت القائمة شخصيات مؤثرة أخرى كـ «لويس باستور»، اعظم علماء الطب ومكتشف علم الجراثيم «البسترة». والكسندر غراهام بيل، مخترع التلفون، وكوبرنيكوس، وجيمس وات، مخترع الآلة البخارية التي مهد اختراعها للثورة الصناعية، وماكيافيلي، والكسندر فليمنغ مكتشف البنسلين، والاخوة رايت في الطيران، وعالم الكيمياء «لافوازييه» والنفس «سيجمون فرويد»، وتوماس اديسون، المتعدد الاختراعات والمنجزات، والايطالي «ماركوني» مخترع الراديو، وغيرهم الكثير. وربما يكون الهولندي وليام مورتون اقلهم شهرة واكثرهم نفعا للبشرية، فقد كان له دور كبير في تطوير استخدام التخدير في العمليات الجراحية، الامر الذي خفف من آلام مئات ملايين البشر، خاصة ان اكتشافه جاء قبل حربين عالميتين خلفتا اكثر من مائة مليون جريح!

ويصل المؤلف لاستنتاجات غاية في الاهمية، حيث بين ان غالبية شخصيات الكتاب قدموا من اوروبا، وان البريطانيين منهم كانوا الاكثر مساهمة في الحضارة الانسانية مقارنة بأمة اخرى. وان خمسة من الـ 18 بريطانيا قدموا من اسكتلندا، واسماء هؤلاء الخمسة وردت في النصف الاول من الكتاب. ولو علمنا بان نسبة الاسكتلنديين من بين سكان الكرة الارضية لا يتعدى واحدا على ثمانية «ثمان» في المائة فقط لعلمنا مقدار ما تركز في اسكتلندا من مواهب وخبرات.

كما يلاحظ ان نسبة كبيرة من شخصيات الكتاب برزت بين القرنين السادس والثالث قبل ميلاد المسيح! ثم تبعت ذلك فترة من السكون والخمود امتدت لفترة 1800 سنة تقريبا، أي حتى القرن الخامس عشر الميلادي، عندما تهيأت ظروف افضل للتقدم والاختراع والاكتشاف.

ويقول المؤلف ان كتب التاريخ تخصص صفحات أكثر للقادة السياسيين، ولكنه يعتقد ان التقدم العلمي كان له الدور الاكبر في تشكيل عالمنا.

وتبين من الكتاب ان 19 % من شخصيات الكتاب لم يتزوجوا، كما ان 26 % منهم لم ينجبوا، حسب ما توافر للمؤلف من معلومات. كما بين البحث ان جميع شخصيات الكتاب كانوا مميزين في نسبة ذكائهم، والغالبية سبق أن حصلوا على تعليم عال، اما غالبية غير المتعلمين منهم فقد كانوا من القادة العسكريين.

وبين البحث حقيقة غريبة وهي ان 10 % من شخصيات الكتاب كانوا يعانون داء النقرس، علما بان النسبة العالمية للمصابين بهذا المرض اقل من ذلك بكثير، وهو امر جدير بالدراسة.

لا شك ان المؤلف وضع كتابه في مرحلة اعتقد فيها، من منظوره الخاص،

ان من كتب عنهم يمثلون الشخصيات الاكثر تأثيرا في تاريخ البشرية. ولا شك ان البعض يختلف معه في الترتيب الذي اتبعه، او في اهلية البعض منهم ليكونوا ضمن المائة الاكثر تأثيرا اصلا. وربما يكون هذا حافزا لباحثين آخرين لكتابة ما يتفق وآراءهم.

واخيرا، لو كان المؤلف لا يزال على قيد الحياة لما تردد في ادخال شخصيات مؤثرة جديدة على الكتاب. ففي الثلاثين سنة الاخيرة فرضت شخصيات عالمية، ك«بل غيتس»، رئيس مايكروسوفت وستيف جوبس مؤسس «ابل»، وغيرهما انفسهما على الساحة العالمية.

بقالة إنكليزية وحذاء كويتي

اوردت وكالات الانباء ان صاحب بقالة صغيرة في احد احياء انكلترا ترك متجره مفتوحا، في ثاني ايام الاحتفال بأعياد الكريسماس، وترك لوحة اخبر بها زبائنه أنه وعماله سيتركون المتجر مفتوحا، ليذهبوا للاحتفال بالاعیاد مع اسرهم، وان بإمكانهم اخذ ما هم بحاجة إليه من مواد، ووضع ثمنها في صندوق خاص، وتمنى للجميع اعيادا سعيدة.

وعند عودة صاحب المحل في اليوم التالي وجد مبلغ 187 جنيه في الصندوق، كما وجد رسائل شكر عدة من بعض الزبائن، وهذا ما ادخل الكثير من السرور على قلبه.

لا يمكن طبعا تخيل ما كان سيحدث لمتجر هذا الرجل لو كان في وسط لندن مثلا، حيث يقطن «الربع» او لو كان في احدى مناطق الكويت، ولن نذهب بعيدا الى مدينة في بنغلادش! فثقافة الامانة والشرف لا تعرفها مجتمعاتنا الا في حال ارتباط الامانة بالحفاظ على «سلامة» اعضاء محددة من اجسادنا، اما الشرف فمفهومه الوحيد لدينا لا يحتاج الى تعريف لسخافته.

كما ان تصرف صاحب المتجر النبيل الذي تلمس بطريقة مميزة حاجة زبائنه لما يبيع في ساعات الليل المتأخرة، ووضع مصالحتهم فوق خوفه من ان يسرق، لا يمكن الا ان يوصف بقمة التحضر في التصرف، ولا يمكن وصف زبائنه الذين دفعوا كاملا ثمن ما اخذوه من البقالة، بأنهم اقل حضارة من تصرفه، وهذا حقا ما نفتقده في مجتمعاتنا التي سيطرت عليها ثقافة «نحن الفرقة الناجية»!

ذكرني هذا الخبر الجميل حقا بتجربة مماثلة مررت بها قبل 20 سنة تقريبا، عندما اضطررت واسرتي للمكوث في فندق على احد الطرق السريعة في اميركا، وتبين لنا ان الفندق يدار خلال العطل، وبعد ساعات العمل الاعتيادية، من غير موظف، وما على الراغبين في المكوث فيه، الا رفع سماعة الهاتف الوحيد الموجود في الصالة الصغيرة لكي يرد عليهم جهاز تسجيل، مرحبا وطالبا ادخال رقم بطاقة الائتمان ليرد عليك الجهاز نفسه بعد لحظات برقم سري يمكن عن طريقه فتح باب الصالة المؤدية الى غرف الفندق والى غرفتك او الغرف التي حجزتها، لتتم تسوية الامر مع الادارة في صباح اليوم التالي.

فوجئت وزوجتي بوجود بقالة صغيرة في الدور الارضي من الفندق تحتوي على كل ما قد يحتاجه القاطن فيه من صابون غسل والواح شوكلاتة واجبان وخبز وغير

ذلك الكثير، ولم يكن هناك من يبيع، وكل ما كان علينا القيام به هو اخذ ما نريد ومن ثم وضع ثمنها نقدا في فتحة صندوق حديدي، وتسجيل رقم غرفتنا وتفاصيل المواد التي قمنا بأخذها من المحل على ورقة ووضعها في الصندوق نفسه لتتم محاسبتنا عليه في اليوم التالي!

اثار اسلوب التعامل دهشتي، وتبادلت وزوجتي النظرات لهذه الامانة واحترام الآخر، وكيف ان تصرفهم الحضاري اسعفنا في تلك الساعة المتأخرة من الليل بسبب حاجتنا الى أشياء كثيرة، وقد لاحظ اصغر ابنائنا «دهشتنا» فتساءل قائلاً: لماذا تتعجبون من ذلك، انه امر عادي! وايدة بقية اخوته في ذلك، وقد شكل رأيهم صدمة «حضارية» لي ولوالدتهم، وتبين الفرق بين طريقة تفكيرهم وربما تعليمهم، الذين تلقوا الجزء الاساسي منه في المدارس الغربية، وبين الذي تلقيناه في مدارسنا ومجتمعاتنا التقليدية، فمنظر البقالة الصغيرة من غير بائع كان عاديا بالنسبة إليهم، وعكس ذلك بالنسبة إلينا، وربما لو كنا مكان اصحاب الفندق لما اقدمنا على فعل ما فعلوه بسبب مفهوم الامانة في ثقافتنا المشككة عادة في نوايا الآخر!

ملاحظة: يبدو ان لارتباط الحذاء في مجتمعاتنا بمفهوم القذارة سبباً «وجيهاً» ولم يأت بالتالي من فراغ! فقذارة الحذاء، الفعلية والرمزية، تكونت عبر السنين، بسبب ملامسته لأرضية المرحاض «القذرة جداً»، بمفهومنا الشرقي، ولو كانت الحمامات، سواء في بيوت من انطلقت منهم او من اظهروها، او بيوت الآخرين، نظيفة براقعة معالجة بمختلف المعقمات والمنظفات، لكانت احذيتهم نظيفة ايضا، ولما كانت رمزا او اداة لاهانة الآخر، فمن يرفع حذاءه في وجه الآخر، او يضربه به، فإنه يعلن على الملأ، بصورة غير مباشرة بأن مرحاض بيته، او المراحيض التي يرتادها، قذرة جدا!

مشكلة الوجود المسيحي

مارس 2009

لا يعاني المواطن غير المسلم، والمسيحي واليهودي بشكل خاص، مشاكل كبيرة في العيش بسلام مع بقية مواطنيه في غالبية دول المغرب العربي، مقارنة بوضع أقرانهم في دول المشرق، على الرغم من أن وجود مسيحيي الشرق بالذات سابق لوجودهم في أي منطقة أخرى في العالم. لذا نجد أن المواطن غير المسلم في دول المغرب، بشكل عام، لا يفكر في الهجرة، كما هو حال، وربما مآل مسيحيي الشرق الذين يملكهم يوما عن يوم الشعور بضرورة البحث عن موطن آخر، خوفا من التطرف الديني على مستقبلهم ومستقبل أبنائهم، على الرغم من أنهم كانوا هنا قبل المسلمين بمئات السنين!

يمكن القول بشكل عام، مع إصرار على تجاوز فترات مظلمة في تاريخ المسيحيين واليهود في دول الشرق، بأن أوضاع غير المسلمين «الأمنية بالذات»، في بلاد الإسلام بشكل عام لم تكن سيئة دائما، وخاصة في فترات التسامح والازدهار الثقافي والفني والبحث العلمي التي لم تستمر طويلا إبان حكم العباسيين. ولكن هذا الخوف تزايدت وتيرته مع بداية الصحوة الدينية الإسلامية «المباركة»، التي ترفض التعايش مع الآخر، ما لم يكن ذلك التعايش خاضعا لشروطها الدينية التي من أساسياتها تقسيم الآخر بين مسلم وذمي وكافر ومشرك وعبد وحر ورجل وامرأة وغير ذلك، وقد تسبب كل ذلك في حركة هجرة الشباب المسيحي إلى دول الغرب، وهي الهجرة التي بدأت هادئة ومتقطعة قبل ثلاثة عقود، وأصبحت أكثر وضوحا في السنوات القليلة الأخيرة، وبالذات من مصر ولبنان والعراق، وأغلب، وربما كل من هاجر من هؤلاء لا يفكر حتما بالعودة لما كان يوما، ومن آلاف السنين، البيت والوطن والأرض الطيبة! والغريب أن جهات إسلامية ومسيحية تشجع هؤلاء على الهجرة، سواء بالتهديد المباشر لأوضاع حياتهم، أو بإشاعة ما ستصبح عليه أوضاعهم في منطقتنا، إن تسلمت الأحزاب الدينية الأصولية زمام الحكم في أي دولة عربية، كل هذا مع وجود هاجس الدعوة التي تتبناها أحزاب وجهات عدة للعودة إلى نظام الخلافة الإسلامية، وكل هذه المطالبات كافية لبث الرعب في نفوس الأقليات المسيحية الشرقية، التي لم تنس ما عاناه آباؤهم وأجدادهم من ذل وتحقير على يد العثمانيين، التي يتجنب أتراك اليوم حتى التطرق إليها! وقد يتساءل البعض عن سبب كل هذا الاهتمام بمسيحيي الشرق، والخوف

على مصيرهم، وسبب الحرص على بقائهم بيننا، بالرغم من اختلافهم الكبير عن أسلوب عيش وتفكير الغالبية العظمى من سكان أي وطن عربي وشرقي، وللإجابة على ذلك، فإننا سنتجنب الدخول في متاهات التاريخ، وسنتجنب أيضا الجدل في العدد الحقيقي لمسيحيي دول الشام والعراق ومصر مثلا، قبل الغزو الإسلامي لبلادهم، أو بعد ذلك، لكي نؤكد حقهم في البقاء هنا ومعاملتهم كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، مثلهم مثل غيرهم، فهذا سيطول بحثه وربما لن ننهي إلى نتيجة حاسمة، على الرغم من تاريخ التعايش المشترك الذي يجمع الطرفين لأكثر من 1400 عام وهو أكثر من كاف، بل سنحاول هنا أن نبين أن وجود المسيحي، وغيره من أتباع الديانات الأخرى، بيننا ضروري لصحتنا العقلية والنفسية ولتقدمنا الحضاري والثقافي، هذا إضافة إلى حقهم الطبيعي في هذه الأرض كغيرهم من المواطنين.

فلا أحد يمكن أن ينكر حقيقة أن عطاء المسيحي لوطنه في حقول الثقافة والفنون والآداب يزيد بكثير عن نسبتهم لعدد السكان الإجمالي في أي دولة عربية أو إسلامية بشكل عام.

كما أن الفضل يعود إليهم في المقام الأول في ترسيخ مفهوم الوطن والمواطنة، وبغياهم يسهل على معادي هذا المبدأ محو هذا الشعور وإذابة الوطن في كيانات أكبر قد لا تكون مناسبة.

كما أن وجودهم بيننا، أو وجودنا بينهم، لا فرق، يجعل المجتمع أكثر تسامحا بعضه مع بعض من جهة، ومع الآخر من جهة ثانية. كما أن لغة التخاطب بوجودهم تصبح أكثر تهذيبا ورقيا، ولو كان مفتعلا في مراحل الأولى، فسرعان ما يصبح عادة وجزءا من مسار الحياة.

ووجودهم بيننا، أو العكس، يجعل من ألوان المجتمع وثقافته أكثر تعددا وتنوعا ومن الحياة أكثر بهجة. وزيارة لقرى ومدن أقباط مصر في المنصورة، أو ضيع المواردنة في كسروان لبنان، أو مدن الأرثوذكس في وادي النصارى بسوريا، ستبين ما يعنيه هذا الكلام، فهل بإمكان أحد تخيل بكفيا أو شتورة أو بسكنتا أو صيدنايا أو معلولا أو حتى المنصورة من غير مسيحييها؟

وفوق هذا وذاك فإن المسيحيين العرب، بالإضافة إلى كل مناقبهم وإسهاماتهم الكبيرة في كل نشاط، لم تقع بينهم وبين المسلمين أي حروب حقيقية منذ انتهاء الحروب الصليبية، وحتى اليوم. كما أن الكثيرين منهم وقفوا مع صلاح الدين ضد الغزاة الصليبيين. كما أن مسيحيي لبنان ومسلميه لم تقع بينهم حرب دينية واحدة طوال أكثر من ألف عام، ولكن فجأة شعر المسيحي اللبناني والعراقي والمصري

أن وجوده مهدد، بعد قتل رهبانهم وبطاركتهم وهدم كنائسهم ومنعهم حتى من ترميم القديم منها، وبعد كل ذلك ماذا يتبقى من وهج لبنان وعنفوانه وتنوعه إن رحل المسيحيون عنه؟ والأمر ذاته ينطبق على سوريا والعراق ومصر وغيرها من الدول العربية.

معجزة الجوائز والتفاح

تصاحب الأزمات المالية عادة زيادة كبيرة في عدد المحتالين وتنوع طرق احتيالهم، وتصاحب زيادتهم في الوقت نفسه زيادة في عدد السذج، أو حتى العقلاء، الطامعين في جني ربح سريع يمكنهم من الخروج من أزماتهم المالية التي تحتاج الى معجزة. وفي جميع الأحوال تبدو الغالبية العظمى على غير استعداد للتوقف والسؤال: هل هناك حقا من هو على استعداد لأن يعطي شيئا مقابل لا شيء؟ الجواب: لا كبيرة، وال «لا» هذه تشمل حتى المحسنين الحقيقيين، فهؤلاء إما يبحثون عن المردود النفسي الدنيوي أو الأجر الأخروي! فعدد من وقع في حبال نصابي نيجيريا واسبانيا لا شك كبير، وأقول ذلك من واقع ما كان ولا يزال يردني أسبوعيا، عبر البريد العادي والانترنت، من رسائل تحتاج الى درجة كافية من الغباء لتصديق مضامينها، ومع هذا لا يزال سوقها رائجا، مما يعني أن هناك دائما من هو على استعداد لتصديق أي شيء، ولو كان خيالا!

وعلى الرغم من براعة النيجيريين والاسبان في هذا النوع من النصب والاحتيال، فان دولا عديدة أخرى دخلت على الخط، وأصبح ما يرد منها أكثر حرفة ودقة بحيث يصعب حتى على العاقل مقاومة تصديق ما يرد بها من عروض مغرية، ولكن الكثيرين لا يودون تصديق أن ليس هناك عشاء أو غداء مجاني There is no free lunch!

تسلمت في الأسبوع الماضي رسالة تحمل شعار الملكة اليزابيث وصادرة عن قصر باكنغهام تقول إن «مؤسسة الملكة الخيرية»، كدأبها كل عام، خصصت مبلغ 500 ألف جنيه إسترليني لتوزيعها على 28 جهة، منها 14 خيرية، وما يماثل ذلك العدد من الشخصيات المميزة في مجالها. وأنه تم اختياري لإنجازاتي الصحفية ولإسهاماتي في حقل «حقوق الإنسان»! وأن جهات «دبلوماسية» في الكويت هي التي رشحت اسمي لنيل الجائزة!.. وطلب مني مرسلو الكتاب تزويدهم برقم حسابي في فرع مصرف بريطاني محدد، وذكروا اسم الفرع الذي أتعامل معه، وعنوانه الكامل!

أثار الكتاب فضولي، على الرغم من ثقتي التامة بأن كل ما ورد فيه كذب بواح صراح نواح. بعد البحث الذي لم يستغرق طويلا، تبين لي أن هؤلاء النصابين والمحتالين قد وصلوا الى درجة عالية من الحرفة في النصب، حيث عرفوا بأنني كاتب صحفي وسبق لي أن سكنت في بريطانيا، وأن لي علاقات طيبة مع السفارة

البريطانية، وأنني أتعامل مع فرع مصرف بريطاني محدد، والأغرب من ذلك أنهم بذلوا جهداً في دراسة مقالاتي، واكتشفوا أنني سبق أن كتبت عن موضوع حقوق الإنسان، وهذا جهد لا يمكن أن يقوم به شخص بمفرده!

كدت أصدق، إلى درجة 1 % محتويات الرسالة، وقررت الاتصال بالسفارة البريطانية لنفي ما خالجنى من شك، ولكني لم أقدم على ذلك بعد قيامي بقسمة مبلغ الجائزة البالغ 500 ألف جنيه على 28 جهة فتيين أن نصيب كل فائز سيبلغ 14/ 857 17 جنيهًا إسترلينيًا، وهذا مبلغ غريب لا يمكن تصديقه، ولا يمكن أن تتبرع به الملكة لشخص مثلي! وبالتالي شطبت الرسالة وذهبت إلى فراشي، وعندما قمت في صباح اليوم التالي من النوم، اكتشفت أنني لم أحلم بالجائزة، ولا بأنني ثري ولا بمراسم منحي الجائزة في قصر باكنغهام، لأنني ثري أصلاً وسبق أن دخلت القصر كزائر، ولم أهتم بمقابلة الملكة، لأنها لا تصافح أحداً بغير قفاز يد، وهذا ما لا أستسيغه من سيدة.

ننصح الجميع بعدم الرد على هذه الرسائل أو تزويد مرسلها بأي معلومات أو الاتصال بهم هاتفياً أو حتى الرد على مكالماتهم الخارجية، لأن الاتصال بهم مكلف والرد على مكالماتهم مكلف أكثر لوجود اتفاق بينهم وبين شركات هاتف معينة على نسبة معينة من قيمة كل مكالمة، ولو كانت بضعة دولارات بسيطة، ورفض تحويل حتى بضعة دولارات لغرض إستكمال معاملة منح الجائزة، فكل ما يطلبه هؤلاء هو القليل جداً من كل غافل لتكون حصيلتهم في نهاية اليوم كبيرة من عدد كبير من المغرر بهم، أو المغفلين.

نعوذ ونكرر أنه ليس هناك من يدفع مقابل لشيء، وليس هناك من يرغب في أن تثري «أنت» بالذات دون غيرك من سكان العالم، الذين يبلغ عددهم سبعة مليارات، فمن باع ترام وأهرامات مصر قبل 70 عاماً لا يزال قريبه يعيش بيننا، يحاول بيع الأمل نفسه لطامحين أو طامعين آخرين بثراء سريع!

وبهذه المناسبة أتذكر قصة رجل الأعمال المعروف الذي أجرت معه صحافية مقابلة وسألته عن الكيفية التي جمع بها ثروته، فقال لها إنه كان فقيراً جداً، وشعر في يوم ما بجوع شديد، ولم يكن يملك حينها غير نصف دولار، فاشتري تفاحتين ولمعهما بفركهما بقميصه الرث وذهب إلى حي المال وعرضهما أمام أحد المصارف وباعهما خلال وقت قصير بدولارين محققاً 300 % ربحاً. ثم ذهب واشتري ست تفاحات وفعل الشيء ذاته، وباعها بعشرين دولاراً، واستمر على ذلك المنوال لفترة طويلة.. وفجأة مات والد زوجته المليونير وترك لهم ثروة كبيرة!

دعوة إلى قتل 330 ألف أميركي

2009/02/15

«...أربعة أرطال من مادة «الانثراكس»، أربعة أرطال في جنطة هلكبرها، يشيلها واحد «فدائي» ويدخلها من أنفاق «مكسيكو» الى الولايات المتحدة، كفيلة بقتل 330 ألف أميركي في ساعة واحدة، اذا أتقن نثرها على الوعاء السكاني هناك «!» مرعبة هذه الفكرة، يعني 11 سبتمبر تطلع «سلاطة» عند هذا الموضوع «ضحك من الجمهور»، صح وإلا لأ؟ وما في داعي طيارات و«شكبانات» ومواعيد ومؤامرات وتوقيات. واحد عنده من «البسالة» اللي يدخل مع 4 أرطال من الانثراكس والى حديقة «البيت الأبيض» ويكت عليهم النون «أي الانثراكس» ويقوم «يبب»، وتصير المسألة طماشة!

ورد الكلام اعلاه في محاضرة عامة وتم تسجيلها على شريط انتشر على الانترنت وأصبح امام سمع وبصر العالم اجمع، وكانت المحاضرة بعنوان «العرب قبل وبعد الحرب على غزة»، وقائل هذا الكلام هو المواطن الكويتي «عبدالله النفيسي»، الاكاديمي والنائب السابق، الذي تم تقديمه في المحاضرة على أساس أنه مفكر عربي ودكتور!

كان يمكن اعتبار المحاضرة نوعا من التحذير، لعقلاء اميركا والعالم لما يمكن ان يحدث في حال وقوع مثل هذا السلاح المدمر بيد مجموعة «مجرمة»، ولكنه كان ابعد ما يكون عن ذلك فإمارات النشوة والسرور التي كانت باادية على المحاضر، والمفردات والافوصاف التي استخدمها، والكيفية التي وصف بها طريقة قتل اكثر من 330 ألف أميركي خلال ساعة واحدة، كل ذلك لا يمكن وصفه وتلخيصه بكلمات قليلة، بل يتطلب الامر مشاهدة شريط المقابلة على الإنترنت.

لأدري كيف يمكن ان نطلق وصف او لقب «فدائي» و«باسل» على من يقبل على نفسه تهريب 4 أرطال من مادة «الانثراكس» الى داخل اميركا، ونثرها على الأميركيين، وقتل 330 ألفا منهم في ساعة واحدة؟ وكيف يمكن ان نبرر للعالم ان من سيقوم بذلك العمل سيقوم ب «التيب» بعدها، اي سيرفع صوته بالزغردة والصلاة على النبي وآله، فور قتله 330 ألف نفس بشرية بريئة، سيكون بينها حتما آلاف العرب والمسلمين؟

وكيف يمكن ان نجيب عن سؤالنا عن مواقف ومشاعر الرعاع منا اذا كان هذا «منطق مفكرينا»؟

والأهم من كل ذلك ما الذي سنجنيه، عربا ومسلمين، او غير ذلك من بشر وحجر وبقر، لو قام مهوس ديني او مجنون بتطبيق كلام هذا «المفكر العظيم» بحذافيره؟ هل سيصبح العالم اكثر عدلا وسلاما مثلا، وينتشر الخير فيه؟ ام ستكون تلك اولى علامات ظهور المهدي المنتظر، عندما تمتلئ الارض جورا وظلما؟ وما الذي ستكون عليه ردة فعل حكومة الولايات المتحدة وشعبها، ان قتلنا منهم 330 ألف نفس بريئة في ساعة واحدة؟ هل سنتمكن بعدها من استعادة فلسطين من الاسرائيليين والجزر من الايرانيين والاسكندرون من الاتراك والاندلس من الاسبان؟ وما فائدة كل ذلك ان تساقطت على رؤوسنا القنابل النووية وخربت ما بقي حتى الآن صالحا في دولنا، على قلته؟ وهل ماتت المشاعر والاحاسيس فينا بحيث اصبحنا لا نكتثر لموت 330 ألف اميركي في ساعة واحدة، وقد يكون بينهم اهل واصدقاء خلص لنا، فقط لان حكومة تلك الدولة ساعدت من هو عدو لنا، وكأئنا لم نكن اعداء انفسنا لمئات السنين؟

الشيخ «عبدالله» وعصا موسى

كان الزمان أواخر ستينات القرن الماضي. كنا صبية صغاراً نعيش في الحي نفسه، نلعب كرة القدم معاً نذهب إلى البحر القريب معاً، وندرس في المدرسة الحكومية نفسها. كنا نتساوى جميعاً في قدراتنا وأحلامنا وطموحاتنا، إلا «عبدالله»، فقد كان أكثرنا بساطة وتواضعاً في فهمه ومقدرته على الاستيعاب، وبالتالي لم تكن له أحلام أو طموحات، أو حتى أمل في السفر إلى الخارج لتلقي التعليم في جامعات الغرب، فقد كان يخاف الغربة ويكره التغيير. كما كان لا يشاركنا اللعب كثيراً ولا يحب التنافس والتناحر الطفولي، وأكثر ميلاً للصمت والانزواء والبقاء في المؤخرة، وهكذا عاش طيلة سني معرفتنا به.

سنوات قليلة مرت ووجدنا أنفسنا جميعاً في الثانوية، إلا عبدالله، فقد اختار الدراسة في أحد المعاهد الدينية، فكرهه للحساب والتاريخ والجغرافيا والأحياء والفلسفة، كما أخبرنا وقتها، دفعه إلى اختيار دراسة لا تحتاج لجهد كبير، بل للقليل فقط من التركيز وحفظ العلوم الدينية والأحاديث، والتي لا يحتاج فهمها لجهد! وهكذا تفرقت بيننا السبل، وابتعد عبدالله عن «الشلة» وأصبح له أصدقاء جدد، ولكن كنا نراه في الحي أحياناً وفي طريقه للمسجد أحياناً أخرى. ومع الوقت تغيرت هيئة عبدالله فقصر ثوبه قليلاً وأصبح يطيل لحيته، ثم سافر إلى مصر لإكمال تعليمه.

خلال سنوات قليلة، أكمل غالبيتنا دراسته الجامعية، فاصبح منا أطباء ومهندسون ومحامون، وتقلبنا في مختلف المناصب الحكومية. أما عبدالله فقد عاد بعدنا بسنة، أو ربما بسنتين، بعد أن أنهى دراسته الدينية في مصر، وتوقعنا أن ينتهي الحال به مدرسا لمادة الدين أو ربما اللغة العربية!

خلال سنوات قليلة من تخرجنا بدأت العراقيل والمشاكل تواجهنا، الواحد تلو الآخر، فأشغلتنا عن بعض وفترت العلاقة بيننا شيئاً فشيئاً، خصوصاً بعد أن تركنا جميعاً الوظيفة، بسبب الروتين، واخترنا إما العمل الحر وإما التوظيف في القطاع الخاص، واختار البعض العودة للعيش في أميركا، ولكننا بصورة عامة لم ننجح بشكل مثير في حياتنا، إلا واحداً أو اثنين من الشلة، أما الباقي فقد قبلوا بـ «المقسوم».

الوضع مع عبدالله كان شيئاً آخر، فخلال ثلاث سنوات من عودته بالشهادة الدينية العالية أصبح وجهه شبه مقرر علينا في الصحف اليومية، حيث لم تكن

تخلو جريدة من صورة أو تصريح أو فتوى أو رأي له. تعين في البداية مدرسا في مدرسة ثانوية، وانتقل بعدها بعام واحد ليصبح مدرسا في كلية الشريعة، بعد أن نجح في الانضمام لأحد الأحزاب الدينية الكبيرة. كما أصبحت الألقاب الفخمة تسبق اسمه حيث أصبح فقيها تارة وشيخا تارة أخرى، وعرف بالواعظ والملاح والمفتي، ثم تطور الأمر وأصبح يلقب بالأستاذ الدكتور، وكان معروفا أيضا كخطيب وإمام مسجد. وعلى الرغم من أنه لم يكن يداوم في الكلية، فإنه استمر في قبض راتبه، من دون عمل حقيقي. وأصبح عضوا في ثلاث لجان شرعية لمراقبة أعمال البنوك والمؤسسات المالية التي تتبع النظام اللاربيوي. كما أصبح عضوا في لجنة استشارية لتطبيق الشريعة. واشتهر في مجال كتابة عقود القران، بسبب المبلغ الكبير الذي كان يصر على قبضه مقابل كل عقد، وكان المعارييس يتسابقون على وجوده في حفلات عقد قرانهم وأخذ الصور التذكارية معه. وارتفع نجمه عندما نجح، بدعم من حزبه الديني، في إقناع الحكومة بمساواة خريجي الشريعة بخريجي كليات الحقوق في الكثير من مجالات العمل. وأصبح اسم عبد الله، خلال سنوات قليلة، يظهر على العديد من المؤلفات الفقهية، ويشارك في مؤتمرات الوسطية ويدير اللجان الدينية وينشط في اللقاءات السياسية والندوات الانتخابية، مناصرا هذا ومزكيا ذاك، ومشاركا في الوفود الخارجية، ومستضيفا الزائر منها. واستكثبته مؤسسة صحفية ليكتب فيها عمودا يوميا، وبأجر مفر. ثم تطور الأمر معه وفتح مركزا في منطقة بعيدة لعلاج مختلف الأمراض بالرقية الشرعية، وأصبح المركز مصدر دخل كبير له. كل هذا دفع الإذاعة الحكومية لأن تخصص له ساعة في الأسبوع ليلقي من خلالها مواعظه على المستمعين ويجيب عن استفساراتهم. ولم يتخلف التلفزيون الرسمي عن الحفل حيث خصص له يوما آخر في الأسبوع للرد على فتاوى المشاهدين. وكان كل جمعة يلقي خطبة عصماء في أحد مساجد منطقة سكنية مرموقة. وأصبح عضوا في ثلاث جمعيات خيرية ومشرفا على أكثر من صندوق وقفي فيها.

ولو أخذنا بالاعتبار ما يتطلبه الاهتمام بمتطلبات زوجاته الثلاث وأولاده الثمانية، وما يستهلكه تأليف الكتب من جهد ووقت، وما يعنيه إلقاء المحاضرات والموامة بين متطلبات العمل في الإذاعة والتواجد في التلفزيون من وقت، وفوق هذا كتابة عمود يومي والتصدي للإفتاء والإمامة وحضور جلسات لجان البنوك والمصارف، لوجدنا أن عبد الله البسيط المتواضع القليل الاستيعاب والفهم الكاره للرياضيات والجغرافيا والأحياء والتاريخ، قد أصبح فجأة رجلا خارقا، أو سوبرمان، ولكننا لم نكن نعرف ذلك، والدليل أننا فشلنا جميعا، نحن خريجي المدارس البريطانية

والفرنسية والأميركية، في تحقيق نصف، أو حتى ربع ما حققه عبدالله من نجاح مالي ومعنوي وسياسي واجتماعي، وشك البعض في أن عبدالله ربما يمتلك «عصا موسى» السحرية ليكون بإمكانه القيام بكل تلك المهام منفردا. انتهى المسار بعبدالله ليصبح وزيرا، ثم يعاد توزيعه ثانية، وفجأة تبين أن شهادة الدكتوراه، التي طالما تباهى بحملها، مزورة، فاختفى فجأة، وهاجر لدولة عربية ليتمتع بما حقق من شهرة عريضة ومال وفير!

إكرام لحى الهيئات الشرعية

لا يشك غير المستفيدين من فكرة البنوك والشركات الإسلامية في أن الفكرة برمتها لا تعدو أن تكون طريقة كسب مميزة، ولا علاقة للدين والتدين بها لا من بعيد ولا من قريب. وسبق ان حذرنا منذ أكثر من 15 سنة، وفي أكثر من مناسبة ومقال، ولم نزل، من ان الفرق بين المؤسسات المصرفية التقليدية وتلك التي تسمى بالإسلامية شبه معدوم في غير مجال التسميات التي تطلق على التعاملات!! فهدف أي مصرف أو شركة استثمارية هو تحقيق الربح لمالكه، وهذا لا يتم بغير إضافة نسبة مئوية محددة إلى أي عملية مصرفية أو تجارية تكون مقبولة من الطرف الآخر أو العميل! وهنا نرى ان نسبة الفائدة أو الربح هي المحك والمعيار، وهذه ترتفع مع ارتفاع نسب الربح أو الفائدة في السوق المحلي أو العالمي وتخفض مع انخفاضها، من دون وضع أي اعتبار لملاءة العميل المقترض، أو ظروف السوق، أو مبادئ التآزر والتآخي مع افراد المجتمع، أو جنسية أو دين المقترض ومدى حاجته للمال، فالنسبة المضافة تسمى هنا فائدة، ولدى المتعاملين بالشركة، المسماة بالاربوية، تسمى مربحة، أو أي شيء من هذا القبيل، وهي واحدة في كافة الأحوال ومتقاربة جدا. كما ان المصارف وكافة المؤسسات المالية، التي تطلق على نفسها تسمية «إسلامية»، تخلت في السنوات الاخيرة عن تحفظاتها السابقة برفض تحديد سعر فائدة محدد ومسبق على الوديعة، واصبحت الآن تتساهل كثيرا وتوافق على دفع فائدة محددة أو الارتباط بدفع منذ اليوم الأول لوضع الوديعة لديها، وهذا التغيير الجذري في التعامل، الذي نسب سنوات طويلة من التحفظ والممانعة، لم يتطلب غير الاعياز للهيئة الشرعية، للبنك أو الشركة، اصدار فتوى تجيز ذلك، مثلما اجاز رجال الدين انفسهم، بعد التحرير، قبول فوائد محددة سلفا على ودائعها، أو قروضها للحكومة، وبررتها في حينه بكونها «هدية من ولي الأمر»! وكل هذا لا يعدو ان يكون تلاعبا على الدين والمنطق والبشر السذج، ولا علاقة للدين والشرع بها.

كما سبق ان حذرنا من ان ربط التعامل التجاري، بكل تعقيداته، بالقضايا الدينية يتضمن محاذير عدة، ليس أقلها ربط نجاح الفكرة التجارية بنجاح الفكر الديني! فنجاح واحدة تعني تلقائيا نجاح أخرى، وفشل الاولى يعني كذلك فشل الثانية.

وقد حدث ما توقعناه، فقد تعرضت مؤسسات مصرفية ومالية إسلامية كبيرة،

وفي دول عدة، لخسائر ضخمة قد تؤدي ببعضها لخسارة كامل رؤوس أموال حملة اسهمها ومقرضيها والمستثمرين معها. كما بيّنت الازمة المالية الاخيرة ان هذه المؤسسات، المسماة بالاسلامية، لا تتورع عن ارتكاب جميع انواع المخالفات والخروج على جميع الاعراف التقليدية او الدينية، التي تدعي الالتزام بها، متى ما تخوفت من السقوط! وقد بيّنت البيانات المالية، التي نشرتها الصحف لبعض شركات الاستثمار، أنها لم تتورع عن الاقتراض من الغير بصورة مباشرة وبنسب فوائد فاحشة بلغت 13%. كما ارتبطت إداراتها بقروض محلية وخارجية في فترة كانت تعلم فيها جيدا انها لن تتمكن من سدادها! وهنا نتساءل من دون اي براءة او حسن ظن: اين تقوى وورع المشرفين على هذه المؤسسات؟ واين كان اعضاء اللجان او الهيئات الشرعية من هذه المعاملات؟ ام انها جاهزة فقط لقبض المقسوم واصدار الفتاوى على خاطر ولي الأمر؟ ولماذا لم يتكرموا برفض المشبوه من تلك المعاملات او حتى الاستقالة من تلك المؤسسات؟ ولو افترضنا ان من الممكن محاسبة مدققي حسابات تلك الشركات، فمن الذي سيحاسب اعضاء الهيئات الشرعية على سكوتهم حتى الآن على تصرفات إدارات الشركات التي ائتمنها المستثمرون والمودعون على أموالهم؟

أسئلة عديدة ستبقى دون جواب لاننا نعيش في مجتمع يناقش أفراده بعضهم بعضا، ولا يود أحد التجاوب عندما نضع اصبعنا على الجرح!!

الطائفية ومجبوس اللحم

تقول صديقتنا «رولا»، إنها لاحظت في إحدى زياراتها لساحة في مومبي بالهند، ان مجموعة من الفيلة الضخمة التي كانت تقف صفا واحدا من دون حراك، كانت مربوطة بسلسلة قصيرة متصلة بقضيب حديد قصير مثبت بالارض. بدا واضحا ان قوة السلسلة والقضيب لا تتناسب وحجم الفيل وقوته، ولكن على الرغم من ذلك لم تحاول الفيلة التحرك من أماكنها، او الهرب. وتقول إنها عندما سألت احد الحراس عن سر تلك السلسلة الصغيرة ابتسم وقال إن هذه الفيلة، عندما كانت صغيرة، كانت إحدى قوائمها تربط بالسلسلة نفسها، وكانت وقتها كافية لمنعها من التحرك. كبرت الفيلة وزاد وزنها اضعافا مضاعفة، ولكن استمر ربطها بالسلسلة والقضيب المثبت بالارض، وكبر معها شعور الفيلة باستحالة التحرك والفكاك من السلسلة، فقد حاولت وهي صغيرة ولم يجد الامر كثيرا، واختارت البقاء اسيرة افكارها!

ولو نظرنا لأنفسنا لرأينا اننا جميعا تقريبا لا يسهل علينا الفكاك من اسر افكارنا القديمة ومعتقداتنا وطريقة لبسنا وطعامنا وكل ما تربينا عليه ونحن صغار. وهذا ما يتبعه المشرفون على مئات آلاف مدارس تحفيظ القرآن المنتشرة كالفطر في عشرات دول العالم، والتي تحاول كسب افئدة وود كل أولئك الاطفال لهم ولطريقة تفكيرهم وبرمجتهم حسب رغباتهم، والتي قد لا تكون متفقة مع المصلحة العامة. ولو حاول مليون شخص مثلا اقناعي بأن طعم «مجبوس اللحم» غير لذيق لما نجحوا في ذلك حتما، فطعم ذلك المجبوس يسكن تحت لساني منذ الصغر، ولا فكاك منه. ولكن لو طلب مني طبيب واحد التوقف عن تناول المجبوس لاسباب صحية لما ترددت في قبول طلبه.

وعليه فإننا مطالبون بألا نكون فيلة ضخمة وكبيرة وغير قادرة على التخلص من البالي والقديم من موروثاتنا، بل علينا فتح نوافذ عقولنا والترحيب بكل جديد صالح وجميل، وان نعرف أن الديانات العظيمة، والافكار الخلاقة ما كانت لتنتشر لو اصر اوائل من اتبعوها على التمسك بقديم افكارهم والبالي من تصرفاتهم. وانظر لما طرأ على حياتنا في نصف القرن الماضي، على الاقل، وستجد ان من الصعوبة بمكان حصر تلك التغيرات، ولو انها اتت في وقت واحد لكان مصيرها الرفض حتما، لكن التدرج هو الذي جعلها مقبولة، ولكن.. هل لا يزال لدينا الوقت للتدرج؟

فيل ملك سيام الأبيض

عندما يتعلق الامر باقتناء شيء ضخم ومهم، ولكن لا فائدة كبيرة منه، فإنه يوصف عادة بالفيل الأبيض. اصل هذا القول يعود الى ان التقاليد الصارمة في «مملكة سيام»، تايلند حالياً، كانت تمنع غير الملك من اقتناء الفيل الأبيض المقدس، الذي يسمى «البينو»! وعندما يرغب الملك في معاقبة أي فرد من حاشيته بطريقة فعالة يقوم بإهدائه فيلاً أبيض، وهذا شرف كبير بحد ذاته، لكن المشكلة تكمن في تكلفة الاحتفاظ والعناية بحيوان ضخم عظيم الشهية كالفيل! ولقدسية الأبيض منه، فإنه يحرم استخدامه في أي عمل، وهنا يصبح وجوده عبئاً كبيراً لا يطاق على من يقتنيه، وقد يتسبب في إفلاسه، وتدمير حياته.

ولو نظرنا حولنا في الكويت لوجدنا عدداً لا بأس به من الفيلة البيض التي تقف شامخة يزعم منظرها عيوننا صباح كل يوم، والتي صرفت الدولة الكثير على انشائها أو تركيبها، ولكن دون جدوى، أو فائدة تساوي ما صرف عليها، ولكنها تبقى علماً على مدى سوء تخطيطنا وقلة ادراكنا، وغياب مبدأ المحاسبة من حياتنا.

فبرج التحرير الأبيض اللون، الذي قمنا، على استحياء، بالاستفادة منه كفرع لمجمع الوزارات، وليس هذا هو الغرض الذي بني من أجله، يقف شامخاً ليدل على سوء التصرف والتخطيط والتدبير، علماً بأن تكلفته النهائية قاربت مائتي مليون دولار، دولار ينطح دولاراً!

أما الجسور الحديدية البيضاء، التي نصبته إدارة المرور على مختلف الطرق السريعة فحدث ولا حرج. فهي تخبرنا صباح كل يوم عن مدى سذاجة تفكيرنا، وفساد ذمم الكثيرين منا، وعجزنا حتى عن سؤال رئيس قسم المشتريات في الداخلية عن سبب شرائها. أما الفيل الأبيض الثالث، فهو مبنى اللجنة الاستشارية العليا بجانب أرض المعارض الذي أنفقت الدولة عليه وعلى إدارته، طوال 15 عاماً أو يزيد، عشرات ملايين الدنانير من دون جدوى أو فائدة تذكر.

وربما يكون مبنى مؤسسة البترول مبنى مرشحاً لأن يصبح فيلاً أبيض في القريب العاجل، كما حدث مع مبنى ديوان المحاسبة القديم الذي هجرته بعد سنوات قليلة الاستخدام، إلى مبنى أكبر بكثير منه، ولم يحاسب أحد ديوان المحاسبة على خطأ حساباته!

انظروا حولكم وستجدون كثيراً من الفيلة البيضاء من حولنا لا يتسع المجال لذكرها جميعاً!

حلم ليلة صيف

بناء على معطيات محددة، فمن المتوقع ان اعيش حتى أواخر التسعين من العمر، وربما بعد ذلك بقليل، وهذا يعني ان امامي 9000 يوم قبل ان افنى الى الابد، وحيث انني اقرأ يوميا ما معدله خمس صحف، اي 45 الف صحيفة حتى بلوغ التسعين، فإن كل ما احلم به قبل ان اموت، ان افتح عيني صباحا، ولا اقرأ خبرا عن كشف محاولة تهريب هواتف نقالة، او بطاقات اتصال او مخدرات إلى داخل السجن المركزي، وان المتهم عسكري في الداخلية.

وكم اشتهي ان يمر اسبوع واحد، ولا اقرأ خبرا عن القاء القبض على عاطلين مساكين بتهمة ادارة «مصنع» خمور، واحلم بوقوع نظري على خبر يبشر بالقضاء على الرشوة في البلدية. كما اتمنى ان افتح الصفحة الاخيرة لصحيفة محددة، ولا تصدم عيني اخبار جرائم شرطة المخافر مع نزلاء النظارة، وقصص الاعتداء، او التناوب في الاعتداء عليهم، او عن جرائم خطف الاحداث، والاعتداء عليهم في الصحراء، او ان تجارة الاقامات قد اصبحت شيئا من الماضي، وان المتاجرة ببيع الاعلاف المدعومة قد تم القضاء عليها، وان بيع المواد الغذائية المدعومة من الدولة اصبحت في خبر كان، وان الصحف تقول بأن ظاهرة تحويل زرائب الماشية إلى منتزهات ومخازن قد قضى عليها، وتوقفت الى الابد جرائم الاعتداء على املاك الدولة، سواء في البر او البحر او عن طريق بناء المخالف من مساجد الشينكو.

آه كما اتمنى فتح جريدة، في دولة المليون مواطن، والتي يزيد دخلها على الستين مليار دولار، واجد ان مخالفتي قوانين الإقامة قد اصبحت بالمئات، بعد ان كانوا طوال نصف قرن بمئات الآلاف، وان هم نواب المجلس اصبحت التشريع والرقابة، وليس قصص شعر الشباب والجنس الثالث وعبد الشيطان، واللف على مكاتب الوزراء والوكلاء للحصول على توقيعاتهم للمخالف من المعاملات، وان لجنة الظواهر السلبية، قد تغيرت فلسفتها تماما، واصبحت مسؤولة عن السلب من تصرفات النواب انفسهم، وان التعامل بقضايا الاعتداء على موظفي الدولة، من قبل اعضاء المجلس، قد اصبحت شيئا من الماضي، وان نائبا جرد من حصانته، وحكم عليه بالسجن لاعتدائه بالقول على موظف عام، وان اعداد مزدوجي الجنسية قد اصبحت بالعشرات، بعد ان كان في يوم ما يزيد على المائة الف.. «مواطن»! وان مستوى المعيشة في مناطق سكن العمال قد اصبحت مقبولا،

وان مناطق السكراب تحت السيطرة، ولم تعد موطننا للفارين من وجه العدالة، ولا منطقة لارتكاب الجرائم، وان قضايا ومشاكل البدون اصبحت شيئاً من الماضي، بعد ان تمت تسوية اوضاعهم جميعاً! وان قراراً صدر من البرلمان منع السكن في بيوت الصفيح.

اكتب كل ذلك بعد ان صدمت لقيام اكثر من 3000 مواطن بصورة مباشرة او غير مباشرة، بتأسيس 1200 شركة بطريقة غير قانونية، ومن دون رأسمال، ولا مقر ولا وجود فعلي، وتمكنوا عن طريق هذه الشركات الوهمية من جلب عشرات الالف العمال، مقابل قبض مبالغ مالية كبيرة منهم، ومن ثم رميهم في الشارع من دون وازع من ضمير او خلق، في دولة توجد فيها اعلى نسبة مساجد ودور عبادة في العالم اجمع! وقد حدث كل ذلك بتواطؤ واضح من جهات حكومية، فكيف يمكن ان تصدر وزارتنا الشؤون والداخلية عشرات آلاف الاقامات على شركات وهمية؟ اين جيش المفتشين، الدائم الزيارة لمكاتبنا؟ اين الاخلاق؟ اين الشرف والتدين للذان يدعي كل هؤلاء المزورين والمخربين والمتآمرين امتلاكهما؟

اقول ذلك وانا على ثقة بأنني سأموت، ولو طال العمر بي حتى المائة، وجميع هذه القضايا والجرائم، والاضاع البائسة ستكون على ما هي عليه، وحتماً إلى الأسوء!

مسلمو القرن 21

لأتباع الديانات السماوية دور كبير في إراقة دماء بعضهم البعض، ودماء غيرهم. ولكن ما شاهده العالم في السنوات الأخيرة من القرن الماضي، ومطلع القرن الحالي، من أحداث دموية، التي كان للمسلمين نصيب فيها، أمر لا يمكن تصديقه، ويدل على أن الخلل العقلي الذي أصاب الكثيرين منا، مسلمين وغير ذلك، يحتاج إلى التصدي له بعلاج طويل الأمد.

نكتب ذلك بعد حادثة تعرض سيدة مصرية مهاجرة للطعن بسكين حتى الموت في قاعة محكمة في إحدى المدن الألمانية على يد متعصب ألماني ذكر أنه سبق أن اعتدى عليها في حديقة عامة، مما دفعها إلى رفع شكوى بحقه، الأمر الذي اثاره فظعنها وزوجها في قاعة المحكمة، وكانت وقتها أما وحاملاً في شهرها الثالث! وهنا نرى أنها كانت ضحية تعصب أعمى، وهو أمر لا يمكن قبوله تحت أي ذريعة، ولكن هذا التعصب الأعمى يغض النظر عنه، ويمارس على نطاق واسع في كامل عالمنا الإسلامي، مع استثناءات قليلة هنا وهناك. فما شهدته كثير من المدن الإندونيسية من قتل وتشريد لسكان الجزر والمدن من غير المسلمين لا يزال محفوراً في الذاكرة. كما أن تداعيات تفجيرات بالي وفنادق جاكارتا التي أودت بحياة المئات من الأندونيسيين، مواطنين وأجانب، لا تزال ذكراها حية أيضاً. كما جرى ما يماثلها على يد مجموعة أبو سيف في أدغال الفلبين وقراها.

ولا ينسى العالم ما تعرضت له، ولا تزال، دور عبادة ومساجد الشيعة والسنة في باكستان على أيدي بعضهم البعض، من تفجير وقتل للمصلين في مسلسل شبه أسبوعي، والذي رسخ التفرقة بين الطرفين ربما إلى الأبد. كما جرت أحداث مماثلة وربما أكثر دموية بين طائفتي العراق الرئيسيتين، وبينهم وضد بقية مواطنيهم من صابئة وكرد، وبالذات المسيحيين الذين لم يسلموا من شر الطرفين، قتلاً وطرداً وتشريداً وتهديداً وابتزازاً.

أما في اليمن، فحدث ولا حرج، فحرب الحكومة والحوثيين ستنافس حرب داعش والغبراء شهرة وطولاً، وجذور القاعدة التي نبتت هناك في البدء ستأخذ وقتاً لكي تقطع، وتحرق!

كما نرى الفجور في الكراهية وسفك الدماء في حروب فريقَي النزاع الفلسطيني - الفلسطيني، وما سقط في حروبهم من ضحايا يكاد يتجاوز عدد من مات منهم على أيديهم، عدد من مات على يد عدوتهم، إسرائيل، طوال 60 عاماً!

ولا ننسى تفجيرات طابا وشرم الشيخ في مصر، وما يتعرض له الأقباط فيها من قتل ومضايقة وحرمان. أما أحداث أفغانستان وحكم طالبان الهمجي، الذي لا يزال من بيننا من يحن ويتوق ويشتاق إلى حكمهم، فقد كانوا قمة في الوحشية والتعصب ضد الآخر، بشرا وحجرا وحضارة.

ويبدو ان الصومال سائر على خطى ابناء عمومته من الأفغان، ولا ننسى في هذه العجالة السودان وبطش مسلميه العرب بمسلميه من أهالي دارفور وضواحيها. كما من العيب نسيان الجرائم الدينية التي اقترفت في الكويت والسعودية وقطر وبقية دول المجموعة العربية والإسلامية، والتي يبدو ان لا نهاية لها، لأننا لم نصل إلى مرحلة الإحساس بما تشكله كل هذه الاعتداءات من خطر علينا جميعا، ومع كل هذا كان لدى كثيرين منا الوقت والمال لصرفه على ندوة «علمية» أقيمت في اسطنبول لمناقشة رؤية الإسلام لقضايا البيئة، وتقديم خطة «إسلامية» لحل مشاكلها، حيث شارك فيها 150 متخصصا، وعلى رأسهم عالم البيئة الأشهر، الإخواني يوسف القرضاوي!

ولا تسلم لي لا على الباذنجان ولا على البامية.

كذبة الاقتصاد الإسلامي

يقول الكاتب السوري المبدع «نضال نعيسة» ان ما يسمى بالاقتصاد الاسلامي ما هو إلا من مخلفات الصحة البترودولارية التي أقحمت جملة من المفاهيم والمصطلحات الوهمية الاقتصادية، بقوة اعلام بعض دول الخليج، ادخلتها في الاقتصاد، ولم يكن ادخالها بقوة المنطق والعلم والضرورات الحياتية.

كلام نعيسة صحيح الى حد كبير، فعلى مر تاريخ الأديان جميعا لم يكن هناك قط نظام اقتصادي يهودي أو بوذي أو مسيحي أو هندوسي، وكان من الممكن ان تبقى الأمور في الحدود نفسها مع الاسلام والمسلمين، كغيرهم من شعوب الأرض، لولا ذلك الانهيار الفجائي لأموال البترول على مجموعة من الدول الصحراوية المتخلفة، الذي غير الوضع رأسا على عقب بعد ان رافق هذا الانهيار ظهور طبقة من المنظرين الدينيين الطامعين في حصة من أموال هذه الدولة أو تلك الجهة، وبالتالي ظهرت على السطح مجموعة من المصطلحات الجديدة كالبنوك الاسلامية والتوريق والمرابحة والارابوية ولجان وهيئات الرقابة الشرعية وغير ذلك، والتي لم يرد لها ذكر طوال 14 قرنا! وأدى ذلك الى انتشار هذه المؤسسات، التي لم يعرفها الاسلام في تاريخه، كالفطر البري في كل دولة اسلامية، حتى ولو لم تمتلك الا بضعة قروش، ولكنها كانت، ولا تزال، فرصة لبعضهم لتحقيق ثروات هائلة من وراء استغلال الغير واستغلال سذاجتهم وجهلهم. وخير دليل على ذلك ان المؤسسات المالية التي تتخذ الاسلام ستارا، أو رداء لأعمالها، تعرضت للخسارة والافلاس في الأزمة العالمية الأخيرة كغيرها من المؤسسات المالية الأخرى، ولم تحمها الهالة الدينية وهيئاتها الشرعية وما تخرجه من زكوات من ضياع أموال مؤسسيها وحملة أسهمها!

ان الاصرار على ان هناك مؤسسات مالية اسلامية وغير اسلامية فيه الكثير من الاساءة للاسلام وللمؤسسات المالية الأخرى، فكل نتيجة سيئة تعود على صاحبها بالسوء، ومن الأفضل بالتالي وصف هذه المؤسسات المسماة اسلامية تجاوزا بـ«غير التقليدية» ونزع صفة الدين والتدين عنها. كما انه من المهم جدا وضع أنظمة وقوانين صارمة تحكم أعمالها، ومن ذلك منع الازدواجية في تولي مناصب هيئاتها الشرعية، التي يجب ان توصف بطريقة مختلفة، حيث نجد ان عددا قليلا من رجال الدين يسيطرون على عدة شركات متنافسة في وقت واحد، وربما تم اختيار هؤلاء بالذات لمرونتهم و«سهولة» التعامل معهم.

ابن الأصل وابن المدنية

تحتل قضايا الأصل، الأرومة، العائلة، المحتد وعراقة النسب حيزا كبيرا من مخيلة وتفكير وحياة الكثيرين. وكلما زادت مدنية وتحضر المجتمع زاد اعتماد افراده على ما توفره الدولة لهم من حماية وتعليم وشعور بالانتماء، والذي من شأنه تقليل اهمية قضايا الاصل والأرومة او الاعتماد على القبيلة او العائلة في قضاء الحاجات.

ففي المجتمعات القديمة، متخلفة كانت ام صحراوية، او حتى قريبة من المدنية، وقبل نشوء الدولة الحديثة بصورتها الحالية، كان للعائلة او القبيلة دور واهمية في قضايا الزواج والنسب، وحتى في العلاقات السياسية والقيادة! فالقبيلة هي التي توفر الامان والقوة للمنتسبين لها، كما ان القادة والسياسيين يأتون عادة منها، وكلما زاد حجم القبيلة، او العائلة، كانت كبر تأثيرها، سياسيا واجتماعيا، واصبحت جاذبة للانتساب لها عن طريق المصاهرة، لأن بإمكانها، أكثر من غيرها، توفير الحماية للمنتسبين لها والدفاع عن حقوقهم والذود عن حياضهم، وتوفير المناصب الحكومية لهم.

وربما لهذا السبب حدثت الردة المدنية قبل بضع سنوات في المجتمعات الخليجية، عندما عادت مجاميع كبيرة، شبه مدنية، لأصولها وتسمياتها القبلية التي سبق ان هجرتها، وذلك بعد ان رأت ما يوفره لها ذلك الانتماء من قوة وقدرة على الوصول لأعلى المناصب وأكثرها جلبا للقوة والثراء!!

وعليه فان سعي الجميع في مثل هذه المجتمعات المتخلفة لمصاهرة ابناء او بنات القبائل او العائلات الكبيرة، وذات الحسب والنسب من لوردات او بشوات او بيوت سادة ووجهاء من حملة الالقاب والاسماء الرنانة، ولو كانت فارغة، ليست بالامر المستغرب. ولو قدر لشخص كتابة ثلاثة سيناريوهات عن ثلاثة مجتمعات لقصة محددة تتعلق بموقف الاب من طلب ابنه الزواج لوجدنا ان الاب في مجتمع صحراوي او جبلي بعيد عن المدنية سيركز على انتماء الفتاة، او الفتى قبلها او عائليا. اما في مجتمع نصف متحضر وقريب من المدنية فان الاسئلة ستمحور حول ظروف اب أو أم الفتى او الفتاة، وخلفيتهما التعليمية ومكانتهما الاجتماعية، مع اعتبار أقل لأصلهما وفصلهما الأكثر عمقا وعمومية. أما اذا كان المجتمع مدنيا خالصا فمعيار الاختيار او التركيز سيكون على الجوانب المتعلقة بالفتى او الفتاة بحد ذاتهما من ناحية مستواه التعليمي والوظيفي والعمر والوسامة والجمال، مع اعطاء اهمية اقل لدور او خلفية الاب والأم!! ويعود سبب ذلك الى الفهم القديم الذي كان سائدا، ولا يزال في مجتمعات كثيرة، ان فرصة ابن الاصل في الحصول على تربية وتعليم احسن اكبر من غيره، وان هذا يجعله

يتصرف بطريقة أكثر فروسية وارفح خلقا من العامة في التعامل مع الطرف الآخر، زوجا أو زوجة أو بشرا. وان «ابن الاصل» أكثر محافظة على سمعته العائلية، مقارنة بغيره من أبناء أو بنات العامة!!

ولكن هذه المفاهيم تغيرت مع تغير المجتمعات والظروف، وأصبح الفساد أو الدونية في التصرف غير قاصر على مجتمع أو طبقة دون غيرها، بعد ان زالت الفوارق تقريبا في غالبية المجتمعات بين الأسر مع اضمحلال نظام الطبقات. نقول ذلك بشكل عام فلا تزال هناك استثناءات، والعامل الاهم وراء هذا الاضمحلال يعود للتعليم، ودوره في ادارة المجتمعات. فالتعليم المميز اصبح في متناول الجميع، بعد ان كان قاصرا، لسنوات طويلة، على أبناء طبقات اجتماعية معينة. وهكذا أصبحنا نرى في جهة أن الجميع يتسابق لمصاهرة صاحب التعليم العالي والبارز اجتماعيا والناجح سياسيا والمميز ماديا، بصرف النظر عن خلفيته العائلية. كما أصبحنا نرى في جانب آخر ان المناصب السياسية والشديدة الخطورة وادارة الشركات العملاقة أصبحت من نصيب الأكثر كفاءة والاعلى تعليما، وليست قاصرة على أبناء الاسر المميّزة، أو الثرية، حتى ولو كانوا، سابقا، من كبار القادة والسياسيين، أو من كبار حملة أسهم تلك الشركات الضخمة. ولو أخذنا بريطانيا مثالا، وهي التي تتجذر فيها روح الطبقة بشكل كبير، لوجدنا ان آخر 4 رؤساء وزارة حكموها في العقود الثلاثة الأخيرة كانوا من بنات وأبناء أكثر طبقات المجتمع تواضعا.

نختم مقالنا بالقول ان مقاييس الحكم على الآخرين تغيرت تدريجيا مع الثورة الصناعية في أوروبا في القرن السابع عشر، ليصبح المميز من بإمكانه تقديم الأفضل لمجتمعه ووطنه والجنس البشري، بصرف النظر عن أصله وفصله، وهذا لا يسري علينا، فمجتمعاتنا لا تزال على سابق تخلفها، ولأسباب معروفة للكثيرين منكم!!

يوم سقطت الحضارات

نشر محمد عز الدين الصندوق، الاستاذ في جامعة سري SURRY البريطانية، الحاصل على الدكتوراه في الفيزياء من جامعة مانشستر، ملخصا لدراسة بعنوان «السبق والتخلف الحضاري العربي». ولأهميتها وتعلقها بظروف العرب والمسلمين، فقد وجدت ان من المفيد تلخيصها، والتعليق عليها.

يقول الاستاذ الصندوق ان هناك تفسيرات كثيرة ومختلفة لظاهرة بروز الحضارات وتلاشيها، وان الامر يخضع لمنطق علمي وليس مجرد ظهور وزوال عشوائي. وان منطقتي الشرق الاوسط وشمال افريقيا شهدتا ظهور اقدم الحضارات وجميعها تركت بصماتها ورحلت، لتنتقل لشعوب اخرى. ويقول ان نمو الحضارات وتلاشيها يخضعان لقانون النمو والتلاشي الطبيعي نفسه، ويمكن بالتالي اجراء دراسة كمية لأي جانب حضاري واظهار تطوره وتلاشيها بعيدا عن المبالغات والتفسيرات الملتوية، وان تاريخ العرب، مثل غيرهم، عرف الكثير من الاحداث، فقد لعبوا دورا مهما في القرن السابع الميلادي، وكان الاسلام عاملا في ظهور حضارة المنطقة، التي يميل اغلب الباحثين لتسميتها بالحضارة العربية الاسلامية! ولأسباب خاصة به قرر القيام بدراسة علمية تعتمد على المنطق الرياضي لمعرفة سبب ظهور الحضارة العربية الاسلامية وتلاشيها بعيدا عن المبالغات الايديولوجية. ويقول انه بدأ بمتابعة النشاط العلمي لتلك الحضارة من القرن الثامن وحتى القرن التاسع عشر «700 - 1800م» وقارنه بالنشاط العلمي الغربي، معتمدا على ظهور العلماء في الرياضيات والهندسة والطب والفلك والكيمياء والفيزياء خلال الفترة نفسها كمقياس للتطور العلمي في كل مرحلة. وقال ان تلك الفترة شهدت بداية الخلافة العباسية في بلاد ما بين النهرين والخلافة الاموية في الاندلس، والفاطمية في شمال افريقيا وحتى العصر العثماني في القرن 18. وذكر أنه على الرغم من ان هؤلاء العلماء كانوا من امم واديان مختلفة فانهم كانوا يعملون ويعيشون ضمن ثقافة موحدة. ومن واقع مؤشر رياضي تبين ان النمو الحضاري العربي، في دار الإسلام، بدأ بصورة واضحة بحدود 700م واستمر حتى 1000م. فقد دخل العرب الاندلس عام 711، وتكونت الخلافة العباسية عام 750م، وبدأ وقتها الانفتاح الحضاري للعقيدة الاسلامية على الحضارات الاخرى وايمانها بحرية العقل وتقبل الآخر والبعد عن الصرامة والغلو، ولذا تمكن من لم يكن مسلما ولا عربيا من المشاركة في بناء الحضارة، كما هي الحال الآن في الغرب، حيث يشارك غير المسيحي

وغير الغربي في بناء حضارتهم. وقال الباحث ان المجتمعات الاسلامية تقبلت في تلك الفترة الفلسفة اليونانية ذات الطابع الوثني. كما شهدت الفترة نفسها نشوء وتطور فكر المعتزلة وتأسيس دار الحكمة في بغداد سنة 830 م وجامعة قرطبة سنة 970 م وجامعة طليطلة ومن بعدها الأزهر في القاهرة، وكانت مرحلة مشابهة للنهضة الأوروبية التي تلتها بقرون، حيث كانت المجتمعات العربية الاسلامية اقرب للعلمانية المعروفة اليوم! ولكن مع القرن الحادي عشر بلغ النمو في عدد العلماء نهايته، وتبع ذلك الانحدار، الذي استمر لألف عام ولا يزال.

ويختتم الاستاذ الصندوق دراسته بالقول ان الابداع في جميع جوانب الحياة احد اهم مظاهر التطور الحضاري، ولكن لا ابداع من دون حرية، فهي الشرط الاساسي في قيام التطور الحضاري، وما انقرض الحضارة العربية «وكمثال تخلف كل الاوضاع الفكرية والفنية والادبية في الكويت بعد تخليها عن تسامحها» الا نتيجة لانعدام هذا الشرط. فأى خطاب ايدولوجي او اجتماعي مقيد للحرية الفكرية يكون بيئة جيدة لتخلف الدولة وتراجعها، حتى ولو افتخرت بتطور جانب ما في حياتها، فإن ذلك سيكون على حساب جوانب اخرى. وقال الصندوق ان النيزك الذي ادى لانقراض الحضارة العربية منذ اكثر من عشرة قرون ما زال فعالا ونشطا. وكما انقرضت الديناميكيات الى الابد فيبدو ان هذه الحضارة لا امل في عودتها، واطهر النيازك هي التي تقيد التفكير الانساني الحر!!

قصة صابونتين

الصابونة الأولى: إنتقلت أسرتي لتجارة المواد الغذائية، قبل نصف قرن، بعد هجر مهنة الصيرفة. وكان لوالدي وجدي محل في سوق الطحين، الذي لا يزال قائماً، وأصبح جزءاً من المعالم الأثرية لسوق المباركية حيث توجد مطاعم السمك الشعبية. وكان والدي كثيراً ما يصطحبني معه للمحل، وخاصة في عطلة المدارس صيفاً.

كنا نبيع مختلف المواد الغذائية والاستهلاكية بالجملة، وكان يتبع المحل مخزن كبير يبعد عنه قرابة الكيلومتر، في شارع «سعود بن عبدالعزيز». وكنت أساعد في تسليم البضائع من المخزن. كما كنت أحل محل والدي، في أواخر أيام جدي، في إدارة العمل بمساعدة موظف ومحاسب، وذلك عند سفرهما، وبقيّة العائليّة للخارج، خلال فترة الصيف.

وفي أحد المواسم اكتشف مستوردو المواد الغذائية من إيطاليا، من أمثال عبدالكريم المنيس، وجاسم الوزان، وناصر الصقعي، وأحمد كمال، وملا يعقوب بن يوسف، وحسين الجاسم، ووالدي، أن ما استوردوه من كميات كبيرة من معجون الطماطم من إيطاليا، ليس بالمستوى المطلوب وهو اقرب للعصير منه للمعجون، وكانت فضيحة حيث رفض المستهلكون شراءه، بسبب ما تعرض له من غش، وحاجتهم لفتح عشرة علب للحصول على نفس نتيجة علبة واحدة من النوع القديم. احزنني الخسارة فقررت فعل شيء للتخلص من أكثر من ألف كرتون من معجون طماطم. وهكذا طلبت من بعض صبية الحي مساعدتي في بيعه، بعشر ثمنه، من خلال «بسطات» قمت بتوزيعها على مداخل ومخارج سوق الخضرة، وسوقي اللحم والسمك. ولكن البيع كان بطيئاً. وهنا فكرت في طريقة لترويج البيع، بعد أن انتبهت أن غالبية من كان يشتري طعام «الإيدام»، في تلك الأيام كن من النساء. وكانت نسبة كبيرة منهن تصطحب أحد ابنائها، أو أكثر، معها، ووجدت أن بالأمكان إستغلال الوضع بطريقة مبتكرة، فذهبت للأنبار، الاسم الكويتي القديم للمخزن، وأخذت معي معدات قص أطواق الحديد وفك خشب صناديق صابون التواليت الشهير، حيث كان كل صندوق يحتوي على كيس به عشر بالونات هواء ملونة. لم تكن العملية سهلة في مخزن غير مكيف وصيف قاتظ وعلى ارتفاع مترين وبعيدا بسنتيمترات عن سقف «شينكو» وتحت حرارة تزيد عن الخمسين! بعد ساعتين من العمل المجهد تمكنت من فتح عشرة صناديق، وبسبب ما فقدته من سوائل وما

أصابني من إجهاد عدت للبيت لأنام اليوم كله.

وفي اليوم التالي توجهت مع «فريق البيع»، إلى السوق، وقمنا بنفخ البالونات، وعرضها للبيع، فكان كل طفل يود الحصول عليها، ولكن الشرط كان أن من يريد بالونا فعليه شراء كمية محددة من المعجون، ومن خلال هذه الفكرة الرائدة تمكنا من التخلص من كمية لا بأس بها من ذلك المعجون اللعين بفضل فكرة التسويق تلك.

أما قصة الصابونة الثانية فتختلف قليلاً: كان الدكتور «ص.ح» دائم الشكوى من حساسية جلده لأنواع الصابون العادية، الأمر الذي دفع زوجته لأن تفكر في صناعة صابون يخلو من المواد الكيماوية المؤذية. بعد تجارب فاشلة توصلت لإنتاج نوعية لا تسبب الكثير من الحساسية لجلد زوجها، واكتشفت أن الذين قاموا بتجربة ذلك الصابون أبدوا استحسانهم له، وهذا شجعها لأن تقوم بإنتاج كميات كبيرة منه، وأصبح يباع للاستخدام العادي أو يقدم كهدية في علب أنيقة. وقد قمت شخصياً باستخدامه ووجدته يلائم بشرتي الرقيقة «غير الناعمة» أصلاً!

ملاحظة: عنوان المقال مستوحى من رواية «قصة مدينتين» للروائي الإنكليزي تشارلز ديكنز.

عندما أكون مسقوطاً من الحساب

في مساء يوم الجمعة 14 أكتوبر 1994 قام شاب بطعن الكاتب المصري «نجيب محفوظ»، الذي توفي قبل 3 سنوات عن 95 عاماً، في رقبته بسكين بهدف قتله. وتبين بعد التحقيق ان ذلك الشاب الشديد التدين لم يكن يدرك فعلته، وانه لم يقرأ حرفاً واحداً للمبدع محفوظ، الحائز على جائزة نوبل للأدب، وانه جاهل وسمع بانه كافر فقرر قتله!

تذكرت تلك الحادثة وانا اطلب من صديق مساعدتي في موضوع منع نشر بعض مقالاتي في احد المواقع، بعد ان تبين لي ان غالبية المتفرغين للتعليق على ما ينشر في المدونات والمواقع الالكترونية هم عادة من متواضعي الفهم والدراية، وخاصة من الذين يكونون أفكارهم من خلال ما يسمعوه من غيرهم، ويظهر ذلك من كم الاخطاء الاملائية والنحوية التي ترد عادة في تعليقاتهم ومداخلاتهم، اضافة لاسلوب مخاطبتهم السوقي. كما ان غالبيتهم، لسبب لا ادركه، يفضلون استخدام اسماء وهمية، ربما لكم التكفير والزندقة والاتهام بـ«الليبرالية والعلمانية» التي تتضمنها ردودهم من دون اي احساس بالمسؤولية. كما لا يتردد الكثير منهم من اسداء النصح، والتحذير من الكفر، بأساليب مضحكة، بالرغم من خطورتها. ويتم كل ذلك ضمن جهل واضح بالموضوع اساساً!

لست جزعاً من الموت، ولا اعتقد ان بامكاني وقف ما قد يحصل لي بسبب كتاباتي، ولكن لا اريد ان اتعرض، او يتعرض اي كاتب حر، لما تعرض له الاديب الكبير نجيب محفوظ او غيره العشرات من المبدعين في عالمنا المظلم، علماً بانني لا ادعي الوصول لقامة اي منهم. اقول ذلك بعد ان تحولت بعض مواقع الصحف الورقية والالكترونية والبلوغات، وخاصة في الكويت، الى منابر بث الكراهية والاتهام بالكفر والزندقة والخروج عن الدين، من غير ادراك ان البعض منا لا يزال يعيش بعقلية العصور الوسطى، والذي قد تستهويه فكرة ملاقات الحور العين من خلال دماء كاتب او مفكر.

لا ندعو، لا هنا ولا في اي مكان آخر، لتكليم الافواه والحجر على الرأي والرأي الآخر، ولكن بما ان للنشر ادبياته وقواعده، فاننا ندعو اصحاب المواقع الالكترونية إلى الالتزام بالحدود الدنيا من الرقابة على ما يردهم من تعليقات وحذف المسيء منها.

عدم الكمال الذي خلق الكمال

مقدمة: تعتبر المكونات الإثنية لسنغافورة صعبة، بالمقارنة بالدول المجاورة لها، فشعبها يتكون من صينيين ومالايين وهنود تاميل. وعلى الرغم من اختلافهم في لون البشرة والتقاطيع واللغة والعقيدة والديانة والعادات والتقاليد، إلا حكومتهم نجحت في أن تخلق منهم نسيجاً موحداً، ساهم في وضع سنغافورة، ضمن أكثر دول العالم ثراء واستقراراً وتقدماً، على الرغم من افتقارها لشتى الموارد والثروات الطبيعية.

تبلغ مساحة سنغافورة 710 كيلو مترات مربعة فقط «الكويت 18 ألف كلم تقريبا» ويعيش على هذه المساحة الضيقة 5 ملايين إنسان، وقد ظهرت للوجود كميناء صيد قبل 190 عاما، ونالت استقلالها عام 1959، واتحدت مع ماليزيا عام 1963، ولحسن حظها، انفصلت عنها بعد سنتين! ولم تتخلّ الجزيرة عن ديموقراطيتها وتسامحها منذ استقلالها، ورئيسها حاليا من أصل صيني، ورئيسا الوزراء والبرلمان عادة من مسلمي الملايو، ولا يوجد أي حظر ديني أو عرقي على أي منصب حكومي. وعلى الرغم من أن لغات الدولة الرسمية هي الصينية والمالايية والتاميل، إلا أن الإنكليزية الرسمية هي اللغة السائدة في التواصل والحكومة. ويبلغ دخل الدولة القومي 238 مليارا، مقارنة بـ 200 مليار للكويت النفطية!

توجد في سنغافورة وزارة تهتم بتطوير العلاقة بين فئات المجتمع، وتهتم كذلك بالشباب والرياضة. وقد أنتجت هذه الوزارة إعلانا تلفزيونيا يروج لفكرة التعايش بين مختلف أطراف المجتمع والدعوة، بطريقة غير مباشرة، للزواج المختلط، وكل ذلك في قالب فكاهي لا يخلو من الإبداع والضحك، على الرغم من تركيزه على أحداث تجري في مآتم زوج من أصل صيني وأرملته من التاميل.

لقد زرت سنغافورة عدة مرات ورأيت نجاح حكومتها في جعل شعبها كتلة منتجة واحدة تعمل لخيرها وخير وطنها، وهذا ليس بكلام إنشائي، فقد درست بعض أوضاع سنغافورها، والتقيت براعي نهضتها، وتمنيت كثيرا لو كان بالإمكان الاقتداء بها، ولو في مجال تنظيم حركة السير أو حتى جمع القمامة، دع عنك الصناعة والتجارة!

وعلى الرغم من أن سنغافورة كانت مستعمرة، وبريطانيا هي التي فرضت مكوناتها العرقية المتعددة، لكن ذلك لم يمنع شعب تلك الجزيرة الصغيرة من تجيير ذلك التنوع الاثني لمصلحتها، كما لم تقم الغالبية الصينية، أو سكانها

الأصليون، بالجلوس على قارعة الطريق والطم لتأمر الدول الاستعمارية عليهم، بل فعلوا المستحيل لتحويل بلدهم الى ما هي عليه الآن من تقدم بفضل الديمقراطية واحترام كرامة الإنسان وعقله! وأجزم بأن مناهج مدارسها لا تتضمن دروسا عن كيفية الاستتجاء، كما هي الحال عندنا، وكأن من وضع مناهجنا افترض أننا أرسلنا أبناءنا للمدرسة من دون تعليمهم كيفية تنظيف أنفسهم بعد قضاء الحاجة!

الانسحاب من صخب الحياة

يضاطر كثير من قادة الجيوش، في خضم معاركهم العسكرية، إلى الانسحاب من معركة ما، إما نهائيا وإما تكتيكيا لتجميع القوات والتزود بالمؤونة والتفكير في خطط حربية أكثر فعالية. وحاجة الأفراد لهذا التراجع من الروتين اليومي، أو ما يسمى الـ Retreat، لا تقل عن حاجة الجيوش، فنحن أيضا نخسر في الحياة معارك نفسية ومالية وعاطفية، ونحتاج لأن نبتعد عن الآخرين مليا للتفكير في أسباب الفشل، ولوضع خطط جديدة والخروج بأفكار أكثر عملية والتزود بالوقود اللازم، وهذا ما قمنا به أخيرا، كما سبق أن ذكرت في مقال سابق، حيث انسحبت وجمع من الأحبة، إلى قلعة حصينة في منطقة «أكسفورد شاير» الإنجليزية، وكانت المحصلة أكثر من رائعة، وأنصح بالاستفادة من برامج Brahma Kumaris «براهما كوماريز» الروحانية لفوائدها النفسية والعقلية الكثيرة، سواء للأشخاص العاديين أو القادة والمفكرين!

* * *

تعلمنا من الحياة أننا ربما نكون في أحيان كثيرة بحاجة إلى الالتقاء بالأفراد الخطأ قبل أن نلتقي بالأفراد المناسبين. وعندما نلتقي بهؤلاء في نهاية المطاف سنعرف وقتها الفرق بينهم وبين الآخرين، وسيشعرنا ذلك بالامتتان. وربما ليس من السهل معرفة قيمة وأهمية ما نملك إلا بعد فقد ذلك الشيء، والصحيح أيضا أننا لا ندرك قيمة بعض الأشياء وأهميتها إلا بعد الحصول عليها. وقد يكون صحيحا أيضا أن المستقبل المشرق يعتمد أحيانا على نسيان الماضي، فنحن في نهاية المطاف لا يمكن أن نستمر في النجاح من دون نسيان ما صادفنا من فشل وإحباط، وألم نتيجة فقد عزيز أو هجر حبيب. ويجب أن يكون لدينا ما يكفي من السعادة، لنصبح أكثر لطفا، وأن نمر بما يكفي من المحن لنصبح أقوياء، وأن نشعر بما يكفي من الآلام لنصبح رحماء، وأن نمتلك ما يكفي من الأمل لنصبح سعداء، فأكثر الناس سعادة ليس الذين يمتلكون الأفضل من كل شيء، بل أولئك الذين يحصلون على الأفضل مما لديهم. وربما مطلوب منا أن نقوم يوميا بإسداء معروف لمن هم حولنا، حتى ولو كان ذلك يعني تركهم لحالهم. كما أن هناك لحظات في الحياة نفتقد فيها بقوة غياب من نحب، كأب، ابن، أم، ابنة، طفلة، صديق أو زوجة، ونود لو نستطيع إخراجهم من داخل أحلامنا وضمهم إلى صدورنا في عناق عميق، وعندما نلتقيهم بعدها، ويكونون أمانا فنسعر مقدار معزتهم في قلوبنا.

إن الرقة المتناهية في نفوسنا تعني قوة حقيقية. وهذه القوة، على الرغم من أنها ترى وتتفهم، لكنها لا تتدخل في حياة الآخرين، وهي كفرع شجرة تلامس أوراقها الأرض، ولكنها لا تأخذ شيئاً منها، وعدم الأخذ هو الرقة بذاتها. وقد يكون مطلوباً منا أن نحلم كما نشاء وأن نذهب إلى ما نرغب من أماكن وأن نكون ما نود أن نكونه، لأننا نعيش حياة واحدة وفرصة واحدة لأن نفعل ما نرغب في القيام به.

وباء النقاب.. والملك عبدالله !

قامت شركة الكوكاكولا في منتصف ثمانينات القرن الماضي بالإعلان عن تغيير طعم مشروبها الشهير، ولأول مرة منذ 99 عاما. وقد رفض محبو الكوكا الطعم الجديد، مما اضطر الشركة لتوفير النوعين معا في الأسواق، ولكن مع استمرار الاعتراض اضطرت في نهاية الأمر الى سحب المشروب الجديد من السوق، والإعلان عن فشل التجربة. وقد انتهزت «الببسي كولا»، منافستها الرئيسية في أميركا وبقية العالم، الفرصة وقامت بنشر إعلان في جريدة النيويورك تايمز الشهيرة، وعلى صفحة كاملة بيضاء تماما وكتبت في منتصفها الجملة التالية بخط صغير: After 99 years of eye to eye, the other eye blinked. Pepsi Cola أو بعد 99 عاماً من العين في العين «المخازن» رَفَّت العين الأخرى. التوقيع: ببسي كولا! وهذا يعني انه بعد 99 سنة من التنافس بين الشركتين رَفَّت عين الشركة المنافسة فغيرت طعم مشروبها. وقد فاز الإعلان في حينه بجوائز عدة.

ولو عدنا الى منطقتنا، لوجدنا ان الكويت والسعودية كانتا دائمتي التنافس في الكثير من الميادين والمجالات الرياضية والطبية ورعاية المواطنين وبناء الطرق والمساكن، وكانت الدولتان دائمتي التأثير بعضهما في بعض، بالرغم من الفوارق بينهما، وكانت الكويت رائدة في الكثير من المجالات، ولكن بدأت أحوالها بالتدهور، وبعد تنافس استمر عقودا طويلة بين الدولتين رفت عين الكويت تعباً وفازت عليها السعودية بالضربات الأربع التالية: أولاً، افتتاح جامعة الملك عبدالله الجديدة. ثانياً، السماح بالاختلاط بين الطلاب والطالبات فيها. ثالثاً، تعيين مدير «سنگافوري» للجامعة ذات التقنية العالية. رابعاً، اعفاء رجل الدين الشثري من مناصبه الدينية المرموقة لانتقاده قرار الملك المتعلق ببعض أنظمة الجامعة.

ومن جانب آخر، قام شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي بتلخيص موقفه الشخصي والرسمي من النقاب، وذلك بالطلب من طالبة في أحد المعاهد الأزهرية خلع نقابها، لانه «عادة وليس عبادة». كما اصدر قرارا منع بموجبه ارتداء النقاب في الأزهر، وأصبح هو الموضة التي لم تعرفها مصر منذ عهد الفراعنة حتى ما قبل سنوات قليلة!

لا نحاول هنا التستر على سعادتنا بقرارات الملك عبدالله الكبير ولا بموقف شيخ الأزهر، فالحقيقة تقول ان الاصرار على ارتداء النقاب غير مبرر، خاصة بعد ان تحول من عادة لأمر شخصي الى عبادة. كما أصبح يمثل رأياً دينياً سياسياً

يراد من خلاله ايصال رسالة لمن يهمه الأمر بأن من سيقود الشارع هم من يقفون وراء هذا النقاب، وهؤلاء لا شك يريدون الشر بالمرأة، بعلمها وبغير ذلك، ويهدفون الى «نتف» كل مكتسباتها وإعادةتها الى «حظيرة» القرون الوسطى، ففي هذا العصر البالغ التعقيد الذي نعيشه، وأمام كل هذه المخاطر التي تحيق بنا، من تكنولوجيا، عقائدية أو صحية، لا يمكن الاعتداد بمبدأ «الحرية الشخصية» عندما يتعلق الأمر بتصرف يخص الجماعات المتأسلمة، ورفض الحرية الشخصية نفسها متى تعلق الأمر بتصرف ليبرالي أو علماني حراً فظهور وباء ما يتطلب تطعيم الجميع ولا يمكن هنا رفض أخذ الطعم بحجة الحرية الشخصية، فهذا هو السخف بذاته، فعدم أخذه ضار بسلامة المجتمع، ولا خيار لأحد، ايا كان، في الرفض. وما اصبحت مجتمعاتنا معرضة له من مخاطر سياسية وعقائدية دينية لا يختلف عن تعرضها لوبئة مرض الطيور أو الخنازير أو القردة، حيث يتطلب الأمر الحذر والانتباه لكل مجهول، والتطعيم ضد كل وباء. وارتداء النقاب «الطالباني» الشديد التخلف والسماح لمرتدياته بالتجول في الاسواق ودخول الاماكن العامة واداء الوظائف الحساسة والخطيرة أمر بالغ الخطورة، فالنقاب لا مبرر له في مجمل حياتنا، كما لم يكن مبرراً طوال قرون في العالم اجمع، فالبشرية استمرت من غيره لمئات آلاف السنين، فكيف أصبح فجأة واجبا محتما يتطلب الموت في سبيل تنفيذه؟ وكيف تسمح السلطات الأمنية في الكويت للمنقيات بالاشراف على مجموعة من الوظائف الخطيرة، كالتدقيق على جوازات الخروج من المطار عبر المنافذ، خاصة ان أياً من كبار ضباط الأمن في المطار، لا يجراًون على الطلب من الموظفة المنقبة الكشف عن وجهها للتأكد من هويتها، ومع هذا نشكو دائماً من هروب مطلوبين ماديا وأمنيا من الموائى الرسمية!

ان الأمر يتطلب من الحكومة اتخاذ كل ما يلزم لإعادة الأمور الى نصابها. فلم يعرف تاريخ الكويت الحديث ومنذ بدأت المرأة بالعمل في الحكومة وجود سيدات عاملات منقيات حتى عندما كن يقمن بمهمة التدريس في خمسينات القرن الماضي، فكيف بعد نصف قرن تعود عقارب الساعة وتصبح المنقبة الكاملة هي الممثلة للصفاء والنقاء، وغيرها عكس ذلك.

إسلام جدي وهطول المطر

لم يعيش جدي طويلاً، نسبياً، ولكني تأثرت به كثيراً، وكان قارئاً وغير ملتزماً دينياً، وحج أكثر من مرة، وبالرغم من أنه كان يقدم مساعدات مادية لدور العبادة والحسينيات فإنه كان يكره رجال الدين المتسولين الذين كانوا يأتون من العراق وإيران لزيارته في المحل أو البيت والمطالبة بحصتهم من خمس «جدهم». وبالرغم من تدينه وتأثيره الطاغى فإنني لم أسمع منه، أو من أساتذتي في المدرسة، من فلسطينيين ومصريين وكويتيين، ومنهم الجسار ومهنا وشهاب ومحمد علي والأيوب والتركي وكثيرون غيرهم، أن الجهل يكمن في عدم معرفة موضع إبريق التشطيف في الحمام، أو أن المسواك أفضل من فرشاة الأسنان، وأن الزبيبة على الجبين لازم تشوفها العين لعلاقتها بالسرطان المستقيم، وأن الأظافر يجب أن تقلم، ليس من باب النظافة، بل لكي لا تترتاح الشياطين تحتها. كما لم أسمع منه أو منهم أن جلوس «المرأة» على الكرسي والأرائك والمراجيح حرام لكونها من المفسد، وأن «الفرشخة» تمكن الجن من الدخول فينا. ولم يحرم رجال الدين في زمانهم على المرأة قيادة السيارة، وهو منع لا أصل له ولا معنى، بحكم أن المرأة ممنوعة من الخروج من بيت أبيها إلا إلى بيت زوجها أو لتلقي العلاج أو إلى المقبرة يوم تموت. وأمام هذا المنع يصبح تحريم الكعب العالي على المرأة ووضع الزينة والعطور والخلاخيل ولبس الذهب من الأمور المضحكة حقاً. ولكن مع هذا يستلزم جلد لابس البنطلون 40 جلدة أمام الملاء لعدم التزامها بالحشمة. كما أصبحت الموسيقى محل خلاف كبير بين أصحاب العمائم الخضراء ومرتدي الفتر الحمراء. ومع زيادة الجرعة الدينية، وتعارضها مع متطلبات الحياة العصرية، زاد استهلاك المهدئات والمسكنات وأدوية علاج الاكتئاب، وهذا أدى إلى زيادة الأمراض والأوجاع الأخرى والمصاحبة لها مع كل فتوى، فهذا يحرم حقنة الوريد في رمضان وآخر يحللها، وثالث يسمح بالتحاميل الشرجية ورابع يعارضها. كما عشنا سنوات طويلاً نحتفل مع غيرنا بالأعراس ولم نسمع قط أن فتاة في العاشرة تزوجت رجلاً في الخمسين مثلاً، أو العكس! وفجأة أصبح هذا الفعل، وبفتاوى ونصوص شيعية وسنية أمراً مباحاً حتى لو تعلق بوطء طفلة طالما «تحمّلتها». وعاش جدي ومات ولم يمنعني من لعب كرة القدم، التي أصبح لعبها محرماً، إلا بشروط سخيفة، ليأتي آخر ليجيز إفطار لاعبا إن كان عليه تمثيل بلده في مباراة ما، وآخر يحرم لعبها، أو مشاهدة النساء لها. أما الزهور فشراؤها وإهداؤها حرام لشبهة التشبه باليهود

والنصارى، ولا أدري لماذا لا يكون ركوب الطائرة تشبها باليهود والنصارى. كما أن قيادة السيارة بالنسبة لهم والسفر الى تايلند وشرب الماء المثلج والتمتع بمكيف الهواء فلا تتضمن أي شبهة بالغرب الكافر! ثم يأتي سفيه ليكتب مقالاً يلفت نظرنا فيه لتأخر نزول المطر علينا في هذه الأيام، وأن سبب ذلك يعود الى زيادة ذنوبنا ومعاصينا وظلمنا، والظلم حسب قوله، «يجبس الأمطار في السماء»! ويزيد على كل ذلك بأن تأخر المطر هو بسبب المعاصي التي يجاهر بها الناس! ولا أعرف ما هي هذه المعاصي والمطاعم والمقاهي بعد أن نجح وفريقه في إققال المطاعم والمقاهي مع منتصف الليل!

نعود ونقول ان الشرهة، أو الحق ليس على هؤلاء الكتاب، ولكن على الإدارة الحكومية البائسة بكل المقاييس التي سمحت وسهلت لمثل هذه الأشكال وأصحاب هذه الأفكار ان يتحكموا في رقابنا ومصائرنا، بعد ان سلمتهم الصحافة والإذاعة والتلفزيون ليفرغوا على رؤوس الجميع كل ما بداخلهم من سموم تخلف وحقد وبغض.

سلوكي وسلوك سليمان المطوع

في بداية ستينات القرن الماضي تأبطت ملف «تخرجي» من مرحلة الدراسة المتوسطة، واتجهت إلى ثانوية الشويخ للالتحاق بها، كما فعل بقية أقراني، وهناك، فتح ناظر المدرسة الملف وتصفحه وقلب النظر فيه ورفع رأسه ونظر الي وقال ما لا أستطيع نسيانه حتى اليوم: يا ابني ليش ما تروح الثانوية التجارية أحسن لك؟ أنت أبوك تاجر، وتتعلم التجارة هناك!! فقلت له انني أود الالتحاق بمدرسته فقال لي: خليني أكون صريح معاك، درجاتك في السلوك مو زينة «أي غير جيدة»، وما اقدر أقبلك عندي، أنت باين عليك شيطان!

وكانت تلك نقطة تحول مفصلية في حياتي، حيث غادرت مكتبه وأنا حزين لرفض قبولي، واتجهت الى شارع فهد السالم، حيث موقع مدرسة المثني، في الموقع الحالي لمجمع المثني، والتحقت بـ«الثانوية التجارية». وبالرغم من أنني لم انه دراستي فيها فإن تأثير سنواتها الدراسية، وما تبع ذلك بعدها، لا يزال ممتدا في حياتي حتى اليوم.

في أسبوعنا الأول في الثانوية التجارية اكتشفنا كطلبة أننا شربنا مقلبا حكوميا غير سار أبدا، فالمدرسة افتتحت على عجالة، وبأسلوب كويتي عربي إسلامي صميم أساسه البركة ومبناه الثقة بالغيب والإيمان بالقدر، حيث لم توجد هناك أي مقررات ولا منهج واضح ولا كتب ولا مواد تدريس ولا خطة دراسية، بل مجموعة من المدرسين، وغالبيتهم من مصر، ومبنى من الطوب الإسمنتي، وعدد من الصفوف المدرسية المتهالكة... ولا شيء غير ذلك. وكان مدرسو مختلف المواد يدخلون الفصل ويخترعون موضوعا «تجاريا» للتحديث فيه، وهكذا إلى نهاية العام.

بعد أكثر من نصف قرن من التحصيل العلمي، والعمل الحكومي والخاص، والذي قضى ردحا منه مربيا وناظرا لثانوية الشويخ، وإداريا كبيرا في نفط الكويت، ووزيرا ورجل أعمال، تقدم هذا المواطن، وبعد كل منجزاته وخدماته وتاريخه التربوي الطويل، بطلب لإنشاء جامعة خاصة، بالتعاون التقني مع «معهد الهند للتكنولوجيا»، وهي الجامعة التي سبق لنا ان كتبنا عنها مقالا قبل أيام، والتي تعتبر واحدة من أفضل الجامعات في تخصصها. وبالرغم من هذا الإنجاز الباهر في الحصول على موافقة الجامعة الهندية فانها كانت بداية متاعب صاحبنا مع الروتين الحكومي، فمنذ أكثر من سنة وهو ينتقل من لجان إلى أخرى ومن توصية إلى اجتماع ومن موافقة لتتبعها غيرها، لينتقل من التربية وتعليم إلى أملاك الدولة

ثم الفتوى والتشريع بعدها وديوان المحاسبة وغير ذلك. ولا يزال صاحبنا، وبعد أكثر من عام بانتظار الموافقة النهائية التي يبدو أنها ستتأخر كثيرا! هذه هي قصة سلوكي وسلوك سليمان المطوع، المربي الفاضل والوزير السابق، وقصته مع حكومته. فدرجات سلوكي المتدنية في شهادتي المدرسية دفعته لعدم قبولي طالبا في مدرسته، فدفعتني ذلك للالتحاق بالمدرسة التجارية والخروج منها غير آسف للعمل موظفا في بنك الخليج، وهو العمل الذي فتح أمامي أبواب النجاح في كل مجال طرقته. ودرجات سلوكه العالية في كل عمل قام بأدائه ورفضه اتباع الملتوي من الطرق في الحصول على حقه، جعلته ينتظر أكثر من عام لورقة واحدة من المفترض ألا يستغرق الحصول عليها ثلاثة أو أربعة أشهر بالكثير، وخاصة لمشروع تربيوي وحيوي ينتظره الكثيرون.

فأي نوع من السلوك تطلب حكومتنا «الرشيدة» اتباعه؟

أنا أحبك، أنا جاسوس

نوفمبر 2009

في فيلم أميركي مشوق قالت الفتاة لوالدها الذي كان يراقصها في حفل زفافها: إنني أحبك يا أبي! فرد قائلاً: وأنا أحبك أكثر. فقالت: لماذا قلنا لك إنني أحبك ترد علي بأنك تحبني أكثر؟ فقال: انتظري حتى يصبح لديك أبناء لتعرفي ما أعنيه! وهكذا نحن نشتهي ونتألم ونقاسي الكثير مما يفعله أبناؤنا بنا، ولكننا نادراً ما نتذكر ما سببناه لوالدينا من آلام وقلق. فحبنا لهما لم يكن يوماً بمقدار حبهما لنا. وقد ذكرني المشهد السينمائي بتجربة مررت بها قبل 42 عاماً عندما سجنتم في العراق، وكان ذلك بعد حرب «الأيام الستة» بأشهر، وكنت وقتها أدير قسماً صغيراً في بنك الخليج، فقد قررت يومها أنا وصديق السفر في إجازة إلى إيران، عن طريق البصرة، كما كان يفعل أقراننا بحثاً عن الإمتاع والمؤانسة، وكذلك لغرض بيع سيارتي الفورد المستأنف هناك، بعد أن تأثر سعرها في الكويت وندرت قطع غيارها نتيجة مقاطعة الدول العربية للشركة المصنعة. وفي المركز الحدودي عثر مفتش مركز صفوان على بعض الأجهزة الكهربائية معي واعتبر الأمر تهريباً، وأن علي دفع غرامة مالية كبيرة، ولكن بالبحث أكثر عثر في درج السيارة على رسالة موجهة لإسرائيل! وهنا تم التحفظ علي وأرسلت مخفورا، بتهمة التخابر مع العدو، لإدارة مكافحة التجسس في البصرة. وهناك شرحت للمسئول قصة الرسالة وكيف أن موظفا فلسطينيا من أهالي غزة يعمل عندي في القسم، طلب مني، بعد أن علم بنيتي السفر إلى إيران، أن أساعده في وضع رسالته في صندوق بريد في إيران، لوجود علاقات وقتها بين نظام الشاه وإسرائيل، وستصل الرسالة حتما لأهله الذين انقطعت صلته بهم كلياً.

تفحص «الخبير» العراقي الرسالة بتمعن شديد وقربها من الضوء ووضع قطرات من سائل خاص على بعض حروفها، ربما لكشف الحبر السري، وعندما لم يجد شيئاً قرر سجنني وإحالة الرسالة إلى مختبر متخصص! أثناءها عاد من كان معي ليخبر أهلي بالقصة وليقوم والدي بإرسال سائقه، وكان فلسطينياً يعمل أخوه الأكبر في مهنة معروفة للكثيرين في البصرة، ليساعدني في الخروج من وركتي، وهكذا كان، ولكن بعد أن مرت علي أيام أربعة متعبة، في أحد سجون البصرة، العامرة. ولولا الطعام «الفاخر» الذي كان يرسل لي داخل السجن، والذي ساعدني في كسب مودة الكثير من المجرمين في داخل المعتقل لكانت معاناتي أشد بكثير!

وخلال هذه المعاناة، وغيرها الكثير طوال 60 عاما، لم أفكر يوما بما تسببت فيه تصرفاتي وحمائاتي وحتى أمراضني من آلام وقلق وسهر وسهد لوالدي، فنحن غالبا ما نتعامل مع محبة الوالدين كأنها أمور مسلم بها، وهي كذلك، وأن محبتهم لنا أمر مفروغ منه، وهذا صحيح، ولكن علينا، لكي تستمر إنسانيتنا، ألا ننسى فضلهما علينا وأن نسدد ولو جزءا صغيرا من حقهما علينا، وهذا المقال إقرار مني بذلك.

جرائم القرف.. لا الشرف

كانت المرأة طوال التاريخ البشري الطرف الأكثر ضعفا، في المعادلة الإنسانية، وذلك لعوامل فيزيولوجية معروفة. وبسبب هذا الضعف «العضلي» أساء الرجل للمرأة وسخرها لخدمته وإشباع شهواته واعتبرها من متع الحياة الدنيا، كأى قطعة جميلة، وحتى الفلسفات والإيمانيات القديمة لم تراع متطلباتها النفسية والجسدية، بسبب سيطرة الفكر الذكوري على تلك الأفكار. ولاستمرار سيطرة الرجل على المرأة وإخضاعها للعادي والشاذ من رغباته فقد ربط سعادتها، وأحيانا كثيرة، كامل وجودها، بالجانب الجنسي، وأصبح للشرف معنى لديه يرتبط ببيكاره المرأة وإخلاصها لرجلها، أي الأخ أو الأب، قبل الزواج، وبعده. وبالتالي ربط الرجل شرف العائلة والقبيلة، وأحيانا الدولة، كما رأينا في أكثر من مثال عبر التاريخ، بالطريقة التي تتصرف بها المرأة، وهذا جعلها تعيش في هاجس جنسي مستمر وخوف دائم من فقد العذرية خارج مؤسسة الزواج، والتعرض لمختلف الإهانات والمخاطر التي تصل في حالات كثيرة الى القتل.

ولو قمنا باستعراض الدول التي تتعرض فيها النساء لمختلف أنواع القهر والاستغلال والضرب والتشويه الجسدي وحتى القتل لأتفه الأسباب لوجدنا أن القائمة تشمل دولا كثيرة، غالبيتها إسلامية. ففي كل يوم تقع جريمة قتل بسبب عدم طاعة المرأة لرجلها أو لأن الرجل، زوجا، أخا أو أباً، أو حتى خالا أو عما، شك في سيرتها وليس بغير القتل وقطع الرأس يمكن للشرف الرفيع أن يسان من الأدنى! وسكوت مجتمعاتنا الواضح عن هذه الانتهاكات والجرائم، واعتبارها أمورا شخصية وقضايا عادية، لا يعني إلا قبولنا ومشاركتنا غير المباشرة بتلك الجرائم والمساهمة في زيادة حالات الاعتداءات غير المشروعة وغير الإنسانية على المرأة، ولا شك أن الكثيرات من النساء يتم اضطهادهن في عالمنا البائس هذا وينتظرن لحظة الاعتداء اللفظي عليهن أو ضربهن واستغلالهن من قريب باسم الشرع أو عادات المجتمع وتقاليده.

وقد سعت منظمات دولية عدة، من خارج عالمنا الأكثر شرفا، معنية أساسا بصحة الجنس البشري وسلامته للتقليل من جرائم الاعتداء على المرأة والفتيات الصغيرات بالذات في مجتمعاتنا، سعت لإصدار بيانات عالمية تندد بسوء المعاملة هذه وتطالب بوضع حد لما يسمى بجرائم الشرف، وذلك ضمن برنامج يسعى لرفع الظلم عن المرأة. فأي رجولة وشجاعة تلك التي لا تتحقق إلا بنحر طفلة لا

تتعدى الثانية عشرة من العمر، وفي الوقت نفسه يتراكم مرتكب الجريمة هلعاً من أعدائه الحقيقيين. وكيف تتحقق الرجولة بقتل زانية ويترك شريكها الرجل لأن قبيلته أو جماعته ترفض التخلي عنه، وتترك هي لمصيرها الأسود؟ وأي رجولة تلك التي ترضى بقتل المرهف من مشاعر المرأة وحاجاتها الجنسية بالإصرار على ختانها سعياً لحفظ شرف العائلة؟

ولماذا نسعد ونفتخر بشرفنا ولا نعطي إنسانيتنا أي أهمية، هل لأن هؤلاء أقل قيمة من أن يكونوا بشراً حقيقيين؟.

وتتعامل الكثير من دول العالم، والإسلامية والمتخلفة منها بالذات، والكويت ليست استثناء، بخفة فاضحة مع جرائم الشرف، التي تكون ضحيتها امرأة أو فتاة تقتل على يد أخ، زوج، أب، وأحياناً خال أو عم، بسبب علاقة جنسية حقيقية مع رجل، أو حتى إشاعة ملوثة للسمعة وللشرف الرفيع الذي يعتقد الكثيرون أنه لا يمكن أن يسلم دون أن يراق على جوانبه الدم! وفي بريطانيا، التي يستلذ مخربو الأمة وكبار فارغي العقل فيها بوصفها بكل وصف مخجل، ولا يترددون في الوقت نفسه عن اللجوء إليها وقت الحاجة وقضاء أحسن الأوقات في ضيافتها صيفا، والاستجارة بها عند وقوع الخطر، حكمت إحدى محاكمها على مهاجر كردي من تركيا، وقيم في بريطانيا، بالسجن مدى الحياة، بعد إدانته بقتل ابنته. وكانت الفتاة قد اختفت منذ عشر سنوات حينما كان عمرها خمسة عشر عاماً ولم يتم العثور على جثتها في حينه، ولكن الأم تقدمت للشرطة ببلاغ ضد زوجها محمد جورين «49 عاماً»، متهمه إياه بقتل ابنتهما لمجرد الاشتباه بعلاقتها الغرامية برجل.

وتقع هذه الجريمة ضمن ما يعرف لدينا بجرائم «الشرف»، حيث يقوم شخص بقتل أنثى من قريباته بحجة الحفاظ على شرفه.

وكانت المحكمة استمعت لإفادة والد الفتاة الذي أبدى فيها امتعاضه من العلاقة التي أقامتها ابنته مع رجل يختلف عنها في العقيدة، ولكونه أكبر منها بـ 15 عاماً. ونقلًا عن موقع الـ«بي. بي. سي»، فقد قال القاضي إن محاولات والد الفتاة أن يبدو «معاصراً» ورب أسرة متنورا لم تفلح في خداع هيئة المحلفين، وقال القاضي للأب: الحقيقة أن ابتسامتك الغامضة أخفت شخصية عنيفة ومتسلطة، وزوجتك امتلكت في نهاية المطاف الشجاعة لتتحرر من تسلطك وتكشف ما تعرفه بشأن ما قمت به في يناير من عام 1999، «وأنت تخلصت من الجثة ببراعة، بحيث لم يعثر عليها أبداً».

وحكمت المحكمة على الأب القاتل بالسجن بحيث لا يفرج عنه قبل أن يقضي في السجن عقوبة دنيا لا تقل عن 22 عاماً. كما برأت المحكمة كلا من شقيقي

المتهم، جمعة وعلي جورين البالغين 42 و55 عاما على التوالي من تهمة المشاركة في القتل.

وحيث إن من الصعب تصور صدور مثل هذه الأحكام المنصفة لكرامة المرأة في أوطاننا، فإنه أثبت أن بريطانيا أكثر شرفا ومحافظة على أرواح الفتيات الضحايا من الكثير من المتشدقين بقضايا الشرف في تصرفاتهم ومعاملاتهم. كما أنها أكثر عدالة من الدول التي تكتفي بإصدار أحكام سجن مخففة لا تتعدى الأشهر الستة في قضايا مماثلة، حتى لو كانت الضحية فتاة صغيرة حاملا، أو معتدى عليها، أو ربما عذراء طالت سمعتها الإشاعات، كما حصل أكثر من مرة في حوادث قتل في الأردن وغيرها. والمؤلم في الوقت نفسه أن القاتل في مثل هذه الجرائم ينظر إليه الكثير من المجتمعات بمنظار البطل والشريف، وهذا شجع على ارتكاب المزيد منها.

متى سينتهي بلاء كربلاء؟

كتب الكربلائي، نسبة لكربلاء العراق، «كاظم حبيب»، مقالا بعنوان «متى سينتهي البكاء في مسقط رأس الحسين؟» قال في مقدمته: «يعيش أهل كربلاء، مسقط رأسي، في كرب وبلاء دائمين، يعيش بنوها وبناتها في هم قاتل وفي محنة لا تنتهي، استشهاد فيها الحسين وصحبه في صراعهم ضد الظلم والطغيان، فحوّل شيوخ الدين تلك الشهادة الى مآتم لا تنتهي بدلا من جعلها مشهدا يجسد انتصار الانسان على الظلم عبر الاستشهاد، وأصبحت المدينة سنة بعد أخرى مرتعا للحزن الدائم والطمس القاهر وسيل من الدماء، وكل هذا يعيش عليه ومن خلاله كثير من البشر...». أكتب ذلك بمناسبة شريط خطبة مسجلة للداعية عبدالحميد المهاجر يقول فيها أمام جمهرة من المستمعين بأنه أصيب بمرض عام 1984، ونقل الى لندن لتلقي العلاج، وهناك قام طبيب يهودي صهيوني باعطائه ابرة نتج عنها اصابته بشلل تام، وانه كان قادرا فقط على تحريك يديه، وقد اخبره رئيس المستشفى، وذكر اسما انكليزيا، انه سيبقى كذلك حتى نهاية عمره! وقال المهاجر انه عندما اختلى بنفسه اضاء ضوء الغرفة الأحمر الذي يمنع دخول أحد عليه وتوجه بالدعاء للسيدة فاطمة الزهراء، فما لبثت ان لبث النداء وشفته من شلله وها هو الآن في تمام صحته!

انتهى المهاجر من خطبته وسط تهليل وتكبير جمهوره وسيل عارم من الدموع تملأ مآقيهم، من دون ان يكلف أحدهم نفسه سؤال الخطيب عن ملابسات ما ذكر او التيقن من حقيقة روايته أو مجرد التساؤل عن معناها. والقصة، بكل تفصيلاتها، تتضمن اساءة غير مباشرة لمقام فاطمة، فكيف نصدق انها ترضى ببقاء العراق، وكربلاء بالذات، من دون ماء نظيف ولا كهرباء مستمرة ولا شوارع مرصوفة، ولا مدارس جيدة ولا معاهد علمية ولا صناعة، حتى نصف متقدمة ولا منازل كافية، ويعاني شعبها من البطالة والعجز والمرض والفقر ويعيش الحزن طوال قرون، كيف نرضى انها تقبل بكل هذا البؤس وتذهب الى لندن لتعالج السيد عبدالحميد المهاجر من شلله؟

ان صناعة الحزن واستدرار الدموع ولطم الصدور وشق الرؤوس لن تتوقف طالما بقي امثال هؤلاء، فمثله والمئات غيره لم يحاولوا يوما تجيير ملحمة الحسين لتنمية الوطن أو رفع شأنه، وبث الحماسة على العمل الجاد في نفوس أهله وتقديم مجتمعه، لان جميع هذه الأمور «لا توكل خبزا» بالنسبة إليهم ولا تحافظ على مكانتهم، ويهمهم بالتالي بقاء الاوضاع على ما هي عليه، أو حتى زيادة جرعته، مثل ما أصبحنا نراه من مواكب دينية مليونية في العراق وغيرها.

الشيعة.. والنوايا الحسنة

مقدمة: يتراوح عدد الشيعة في العالم ما بين 170 مليوناً و200 مليون، ويقطن ثلثاهم في إيران والعراق وأذربيجان. وينقسم الشيعة عقائدياً إلى أربع فرق: اثني عشرية ويشكلون 85% من الشيعة، إسماعيلية، زيدية، وربما علوية. أما من الناحية الفقهية فهم فرقتان فقط، اثني عشرية «جعفرية» وزيدية، وتنتمي قبائل الحوثيين للأخيرة ويعتبرون أقرب للشوافع منهم للشيعة، والشوافع هم الأقرب للشيعة بين أتباع المذاهب السنية الأربعة. وبالرغم من غلبة المذهب الشيعي في إيران، فإن تشيعها بدأ فقط عام 1501 مع بداية الدولة الصفوية. يشكل الشيعة، إضافة لإيران، الأغلبية في أذربيجان والعراق والبحرين. كما يوجدون بنسب كبيرة في: باكستان، تركيا، اليمن، الكويت، لبنان، ألبانيا، وأفغانستان. ويتميز الملتزمون من أتباع المذهب الشيعي الاثني عشري باتباعهم نظام المرجعية، أو المقلد، أي أن يتبع الفرد مرجعاً، أو شخصية دينية ذات مرتبة دينية عالية، وينصاع لفتاواها وإرشاداتها، وغالباً ما يدفع نسبة الخمس من أرباحه لها. أما بقية فرق الشيعة فلا يدفعون الخمس عادة، ولهم قائد ديني ودنيوي واحد متفق عليه بينهم.

* * *

لا يخلو اتباع المذهب الشيعي، كغيرهم من أتباع المذاهب الإسلامية الأخرى، من البدع والخرافات والعادات التي لا يعرف لها أي أصل أو معنى. وعلى الرغم من محاولات الكثير من كبار قادة المذهب، الذين لا يتسع المجال لذكرهم وبيان أقوالهم، السعي لتخليصهم من هذه البدع والشوائب والخرافات، إلا جميع محاولات هؤلاء للحد من الغلو، وخاصة في مناسبات العزاء، من لطم وتطبير وجلد للظهور بالسلاسل، باءت بالفشل، ولم تُجد يوماً في تخفيف الغلو والتطرف. لا بل لوحظ في السنوات الأخيرة أنها أصبحت أكثر حدة، مع زيادة تطرف الأطراف الأخرى المعادية لهم. ويعود سبب ذلك إلى أمرين: تحول ممارسة الشعائر إلى مؤسسة كبيرة يتعيش من ورائها عشرات آلاف المقرئين والمزورين ومتعهدي المناسبات الكبيرة وأصحاب المصالح الأخرى للصيقة بها في كل مدينة، مما يجعل التخلص من بعض المناسبات، أو حتى التخفيف منها أمراً غاية في الصعوبة، ويتعرض الداعي لها أحياناً لاتهامات شديدة ليس أقلها التآمر على تراث المذهب. أما السبب الثاني فيتعلق باستشراء داء الجهل والامية بين غالبية العامة، وهم الوقود الدائم لأي مناسبة دينية، وهذا ما دفع أخيراً آية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازي،

من قم، للتحذير من اتساع نطاق الخرافات المنتشرة بين العوام، وعدم وجود نص ديني يؤيدها. وقال إن حجمها سيتمدد بمرور الزمن فيسيء الى المذهب ويلقي بظلاله على الدين.

فهل هناك من يود أن يفهم مدى التأثير السلبي المدمر لمثل هذا النوع من التطرف الديني في شعوب الدول التي ورد ذكرها في المقدمة؟ أشك في ذلك، فطريق النوايا الطيبة ليس مفروشا دائما بالورد!

يوم في حياتي

استيقضت اليوم مبكرا مع أصوات العصافير والفجر يحاول تمديد وقته، ليعطي الطيور ما يكفي من الهدوء، قبل أن يبدأ صخب الحياة. تسلت من غرفة النوم، مرتديا بنطالا قصيرا وحذاء رياضيا، وانطلقت إلى ممشى المنطقة. عدت بعد ساعة لتناول إفطاري المعتاد، وأنا استمتع لفيروز تشدو «طلعت يا محلى نورها شمس الشموسة»، وهنا خطر على بالي أمر لم أفكر قط في القيام به، وهو ألا أذهب إلى العمل في ذلك اليوم! فطوال 45 عاما لم أنقطع عن عملي الوظيفي أو التجاري يوما واحدا، إلا لظروف القاهرة! وهنا بدأت من فوري بوضع برنامج اليوم بعيدا عن الهاتف النقال والقليل والقال وقبض الأموال وصرفها!

خرجت من البيت مرتديا السهل من الثياب واتجهت إلى «ستاربكس» لارتشف قدحا من الكابتوتشينو، والتقيت هناك بصديق قديم أصر على دفع فاتورة القهوة عني كدليل على سروره لما كتبت في ذلك اليوم، وهذه أول مرة أستفيد فيها بطريقة مباشرة مما أكتب. ثم انطلقت بعدها إلى صالة خاصة تقوم بعرض بعض أعمال الفنان كامل الفرس، المتعدد المواهب، وحجرت واحدة منها، كما زرت معرضا آخر، وكان للفنان التشكيلي الكبير سامي الصالح، المشهور بسامي محمد، وهناك أيضا حجرت تمثالا يرمز لتعانق مشاعر الغضب مع الحديد الصلب. وقبيل الظهر قمت بزيارة مكاتب «دار الآثار الإسلامية» للحصول على برنامج الموسم الحالي، وتبين لي كم هو دسم ومفيد، ومدى ما بذل المشرفون عليه من جهود جبارة في ترتيبه، ووجدت أن الدار بصدد ترتيب أمسية موسيقية في الليلة التالية لمغنية الأوبرا الكويتية الرائعة أماني الحجري على مسرح الدار في حولي، وهو المسرح نفسه الذي استضاف قبلها عازفة البيانو الرائعة «رينارا أخوندوفا». كما تبين أن فرقة إذاعة راديو وارسو، التي تزور الكويت بمناسبة مرور 200 عام على ميلاد الموسيقار العالمي شوبان ستعزف لساعتين في صالة الهاشمي 2 في فندق ساس، ومنيت نفسي بسهرة عظيمة في تلك الليلة. ومن هناك اتجهت إلى السالمية للاطلاع على بعض أنشطة جماعة «لويك» النشطة، وفي الطريق استمعت للشريط الخاص والجديد الذي أهداني إياه عازف البيانو الشاب والواعد حمد العماري، ابن أخ الفنان الكبير سلمان العماري، آخر أساطين مؤدي أغاني البحر القديمة، وتضمن الشريط بعضا من أغاني حمد الإسبانية الجميلة.

وبعد أن خرجت من «لويك» أوقفت سيارتي على شارع الخليج «العربي»

وتمشيت على الشاطئ، وأنا أستمع من خلال الآي بود لكلمات مرتجلة لزياد الرحباني واشعار لفاروق شوشة. وفي طريق العودة إلى البيت استمعت لمزيد من المعزوفات الكلاسيكية العالمية مع أغان إيطالية قديمة، وأنهيت اليوم بالاستماع لأغنية «سكن الليل» لفيروز، بعد أن خرجت من الهاشمي 2، وعندما وضعت رأسي في نهاية اليوم على الوسادة تذكرت أن كل ما قمت به في ذلك اليوم من أفعال جميلة يعارضها نصف أعضاء مجلس الأمة وجميع أولئك «الأفذاذ» الذين وقعوا عرائض تطالب بتسهيل دخول فلان للكويت أو منع آخر من دخول جنتها وكأنهم نواب رضوانها.

أنا واليهود.. والتشريح!

في منتصف السبعينات، دخلت وزوجتي أحد فنادق روما للمبيت فيه، وكان الوقت متأخراً، وما هي إلا لحظات حتى امتلأ بهو الفندق بعدد من الشباب، وعرفنا أنهم يهود، وعلموا بمن نكون. لم نهنا بنومنا في تلك الليلة، لاعتقادنا بأننا سنتعرض حتماً للآذى أو الإزعاج منهم، ولكننا كنا نعيش في وهم كبير.

بعدها بسنوات زارني والدي في لندن فاصطحبته وأبنائي إلى حديقة عامة، وفجأة وقع ابننا محمد من إحدى الألعاب، ومن علو 3 أمتار تقريبا على الأرض، دون حراك، فحملته وأنا أتلقت طالبا المساعدة فلم أجد أحداً، فركضت به كالمجنون نحو الطريق الخالي تماماً ولمحت، بعد دهر، سيارة قادمة توقف سائقها ونقلني لأقرب مستشفى، وفي الطريق تنهشتني الأفكار من كل صوب فموت محمد يعني موت أمه حزناً عليه! وماذا عن أبي والأولاد الذين تركتهم في الحديقة من غير علم، وغير ذلك من الأفكار المقلقة جداً. في المستشفى استعاد الصبي وعيه، ولكن الخطر لم يزل عنه كلياً، فشكرت الرجل الشهم على مساعدته وودعته فرفض، وقال انه سينتظر لحين زوال الخطر ليعيدني من حيث أتى بي! من حديثنا المقتضب علمت أنه مهندس بريطاني وعرف من أكون. حالتي النفسية لم تسمح بالاسترسال أكثر. بعدها بأشهر تقدم لي رجل في حفل وصافحني متسائلاً إن كنت أتذكر أين التقينا، فhezزت رأسي بالنفي، فقال انه الذي نقلني وابني للمستشفى فعانقته بحرارة، واعتذرت له على تقصيري في حقه، ولكنه قال انه لم يكن ليختلف لو كان في وضعي، وعلمت بعدها أنه يهودي ملتزم.

لا أقصد من وراء ما سرردته أعلاه تجميل صورة اليهود، فهم حسب تجاربي الكثيرة، ويشاركني الرأي من عرفهم عن كتب، لا يختلفون عن غيرهم، ففيهم، كما هي الحال معنا، الطيب والشرير، ولكن المشكلة أن تراثنا الديني يأبى علينا ذلك، ويدفع للعداء الأزلي ليس فقط مع الكفرة والمشركين والزنادقة والملحدين، بل وحتى مع الليبراليين والعلمانيين والمسيحيين واليهود، دع عنك البوذيين والهندوس وغيرهم. وفي موقع الشبكة الإسلامية www.islamweb.net ورد النص التالي، الذي يعطي فكرة عن حقيقة نظرتنا لبعض القضايا، ففي فتوى عن موضوع تشريح الجثث في كليات الطب يقول هؤلاء انه لا يمكن أن يحدث تساهل في تشريح الجثث، فيؤتى بجثة مسلم لتشرح، فهذا لا يجوز مطلقاً. ولكن لضرورة التعليم يؤتى بأجساد ليست لمسلمين «ليحصل عليها» قضايا التعلم.

الأصيل والبيسري

تنتشر في مجتمعات كثيرة، ومنها المجتمع الإنكليزي، ظاهرة الطبقة، فهناك من تعتبرهم مجتمعاتهم أعلى أو أدنى طبقة من غيرهم، إما لأسباب اجتماعية، قبلية، عرقية أو دينية مذهبية وذلك حسب طبيعة كل مجتمع وظروفه. ففي المجتمعات الصحراوية أو الرعوية مثلاً يكون الانتماء للقبيلة هو الفيصل، وغير المنتمي يصبح أضعف من غيره لانعدام من يقف معه إن تعرضت حياته للخطر مثلاً، خاصة مع غياب أو ضعف الحكومات. وفي المجتمعات المدنية، وبالذات في الدول المتخلفة يكون المنتمون لدين أو عرق الأقلية أقل شأنًا اجتماعيًا، ولكن أهمية الانتماء القبلي أو العشائري تصبح أقل مع تقدم المجتمعات وصدور القوانين الضامنة لحقوق الأفراد. وفي الكويت كان للأصل والفصل أهمية كبيرة ولكن مع الوقت فقدت الكثير من أهميتها مع تعاظم دور الدولة وزيادة التعليم وثراء الأسر والأفراد المنتمين لطبقات أدنى، ولكن حلت التفرقة المذهبية محلها في العقود القليلة الأخيرة، وربما فاقتها أهمية. وفي أنحاء كثيرة من الجزيرة العربية يشار للمنتمين لقبائل محددة بالأصيلين أما غيرهم فهم بياسر، أو بيسري. وأفادنا الزميل عبدالله العتيبي، «الموسوعة الحية» بأن هذه التسمية يقصد بها عادة الانتقاص من عائلة أو شخص ما، ولا يعرف أصلها بالدقة، ففي «لسان العرب» ورد ما معناه أن «بيسرة» قوم جاؤوا من السند، وأنهم من الذين يؤجرون أنفسهم لأصحاب المراكب أو للعمل كمرتزقة. وفي المعجم الذهبي الفارسي «بيسري» تعني «بلا رأس»، أو «بي سر» أو بلا أساس أو أصل. وجاء في موسوعة حمد السعيدان الكويتية: يطلق بيسري على الشخص الذي لا ينتمي لقبيلة أو عشيرة معينة، أو لا ينتسب أصلاً للعرب^١، ويقال هو شخص بيسري أي لا أصل له في الأنساب العربية، وبيسري كلمة فارسية «بي سار» أي بلا رأس.

ومن المعروف أنه حدث في فترة من التاريخ تحركات ديموغرافية ما بين الخليج وشبه القارة الهندية، وفي الاتجاهين، كان من نتائجها نزوح أقوام من الهند باتجاه الخليج أولاً ومن ثم باتجاه مناطق مثل البصرة وبلاد الشام، وعمل هؤلاء كمقاتلين أو حراس على ظهور السفن الملاحية الخليجية أو كخدم للتجار ومالكي المراكب، ومن أبرز هذه الأقوام من يسمون في التاريخ العربي بالزط ويسمون في الأدبيات التاريخية الهندية بالجات. ولئن كان الزطوط هم أبرز من ذكروا من بين المهاجرين الهنود الأوائل إلى ديار العرب، فإن هناك أيضاً أقواماً أخرى مثل

السيابجة أو البياسرة. وأول من أشار إلى البياسرة من المؤرخين هو أبو الحسن المسعودي في الجزء الأول من كتابه «مروج الذهب»، لكن المسعودي لم يبين أصل كلمة بيسري أو بياسرة، واكتفى بالقول انها تطلق على من ولدوا من المسلمين بأرض الهند. ويرجح أن تكون الكلمة هندية كوجراتية وتعني الخليط، مما يقودنا إلى فرضية أن البياسرة طائفة تكونت نتيجة زيجات مختلطة ما بين المهاجرين الأوائل إلى الهند من الخليج الفارسي واليمن والعراق والحبشة، أو ما بين هؤلاء وشعوب الهند.

الليبرالية والذكاء البشري

بعد فترة قصيرة من قيام إحدى الصحف المحلية بنشر مقال مثير للاشمئزاز والتقزز لأحد كتابها، اتهم فيه الليبراليين بأنهم يمارسون الجنس مع بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم، نشرت مجلة «ناشيونال جيوغرافكس» المرموقة مقالا لخصت فيه بحثا سبق أن نشر في دورية Social Psychology Quarterly للبريطاني ساتوشي كنازاوا، أستاذ علم النفس التطوري في جامعة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، حيث ذكر فيه أن الذكاء، وخاصة ما تعلق منه بقدرتنا على حل المشاكل التي تواجهنا فجأة ومن ثم التفكير بطريقة منطقية للتعامل معها وحلها، له جانب جديد لم ينتبه اليه أحد من قبل. وأعطى مثلا على ذلك كيفية التعامل مع حادثة نشوب حريق مفاجئ في الغابة، فكارثة مثل هذه نادرة الوقوع في حياة سكان مجتمعات كثيرة، ولا تحدث يوميا، وبالتالي فإن الاستجابة لها لم تكن يوما من الأمور التي اعتاد أسلافنا على التعامل معها بصورة مستمرة، فلم تنقل لنا تجاربهم معها من جيل لآخر، خصوصا أن النجاة من الحريق والتعامل معه يتطلبان عادة القدرة على اتباع أسلوب تفكير جديد ومن ثم تملك الإرادة على تجربة تلك الطريقة، وهنا يصف البروفيسور كنازاوا الذكاء العقلي بأنه الميل نحو اتباع قيم وخيارات اجتماعية غير مألوقة، وهذا باعتقاده يخلق لدى الأذكاء ميلا أكبر لتبني قيم اجتماعية وتصرفات أكثر حداثة وجدية في حياة البشر، كالليبرالية والحرية الدينية ورفض الخلود للنوم المبكر، ضمن أمور كثيرة أخرى. كما لاحظ أن أفراد هذه الفئة لا يميلون الى تعدد علاقاتهم الزوجية، كما أن رفضهم للمؤسسات الدينية المتزمتة يجعل عقولهم تتعامل بطريقة أفضل مع مستجدات الحياة.

وقد قام العالم كنازاوا بإجراء تجربة أخضع فيها عددا من الطلبة المراهقين لاختبارات ذكاء نموذجية يمكن من خلالها قياس مستويات ذكاء كل واحد منهم. وقام بعد سبع سنوات بمقابلة الطلبة أنفسهم وسؤالهم عن معتقداتهم الدينية والسياسية فتبين له أن أولئك الذين اعترفوا بأنهم أكثر ليبرالية، دينيا وسياسيا، هم الذين سبق ان حصلوا على درجات ذكاء أعلى من غيرهم في تجربته السابقة. وعلى الرغم من أن الفارق بين الطلبة الليبراليين الأذكاء وغيرهم لم يزد في المتوسط عن 11 نقطة فإن هذه النقاط باعتقاد البروفيسور كنازاوا كافية لتحديد الفرق.

فالليبرالية بنظره، في جزء منها، تعني الاهتمام العميق برفاهية وسلامة عدد

كبير من البشر الذين لا نعرفهم والذين ربما لن نلتقي بهم في حياتنا، وهذا الاهتمام بحد ذاته مفهوم جديد على الجنس البشري. فتاريخيا كان الإنسان، حتى فترة قصيرة، لا يهتم بغير عائلته المباشرة وأصدقائه، ولم يكن للغرباء نصيب لديه، ولكن الوضع في عالمنا اليوم تغير بشكل جذري وأصبح أكثرنا ليبرالية أكثرنا اهتماما بقضايا البيئة ورفاهية وسلامة الشعوب الأخرى، والعكس صحيح!!

ناس تخاف، ما تختشيش

كان شارلز بلم Charles Plump يعمل طيارا في البحرية الاميركية خلال حرب فيتنام، وعند قيامه بالطلعة 75 تمكن الفيتناميون من اسقاط طائرته بصاروخ ارضي، ولكنه نجح قبل تحطمها في القفز منها والهبوط بمظلته بسلام على الارض، ولكن الفيتناميين كانوا بانتظاره، حيث ظل مسجوناً لديهم 6 سنوات، وبعد معاناة طويلة اطلق سراحه.

وفي يوم كان جالسا وزوجته في احد المقاهي عندما تقدم منه رجل وقال له: انت «شارلز بلم» اليس كذلك؟ وكنت طيارا حربيا في فيتنام، وتم اسقاط طائرتك! فسأله شارلز كيف عرفت ذلك، فرد قائلا: انا الذي وضب وعبأ لك مظلتك الجوية، ويبدو انها عملت بشكل جيد! هنا شعر شارلز بتسارع دقات قلبه ووقف ليشد على يد الرجل شاكرا له اخلاصه في عمله، وابدى شديد امتنانه، فلو اهمل، ولو قليلا، في عمله لما تسنى له ان يعيش يومه!

لم يستطع شارلز النوم في تلك الليلة، وهو يفكر في ذلك الرجل، متخيلا هيئته على حاملة الطائرات تلك وهو بملابسه البحرية الاميركية البسيطة وقبعته المتواضعة، واخذ يتساءل بينه وبين نفسه كم مرة مر بذلك البحار دون ان يعيره اي اهتمام او ينتبه له او يلقي عليه التحية او حتى يبتسم له؟

فقد كان هو قائد مقاتلة حربية، اما الرجل فبحار بسيط. كما فكر في الساعات التي قضاها ذلك البحار على طاوولات خشبية، وهو يعمل على تجهيز المظلات وفك خيوطها وترتيب عملية فتحها والعناية بتفاصيلها الصغيرة والمهمة من دون ان يعرف من الذي سيستعين بها في نهاية الامر، وتكون سببا في انقاذ حياته!

والآن، من الذي وضب لك براشوتك اليوم؟ ففي حياة كل فرد منا هناك من يقوم بتوضيب براشوت او اكثر لنا، وربما يكونون اناسا لم نلتق بهم او نعرفهم، فهم يقومون بعملهم بصمت دون ان نشعر بهم، فموظف مراقبة جودة المياه مثلا في اي محطة تقطير مسؤول عن توضيب وتجهيز براشوتاتنا، وفني صيانة المصاعد في اي عمارة، ومهندسو الطيران الذين يسهرون على صيانة طائراتنا، ومراقبو الحركة الجوية في المطار، وجيش آخر من الممرضين والاطباء والمدرسين الذين يعتنون بتعليم ابنائنا والذين يكمن دورهم في تجهيز وتحضير المظلة الجيدة التي نستطيع جميعا من خلالها مواجهة متاعب الحياة ومصاعبها والهبوط بسلام، وجميع المخلصين في عملهم من هؤلاء يستحقون منا كل الشكر ووافر التقدير.

ولكن لو نظرنا حولنا لمدى التزام عشرات آلاف موظفي الدولة بعملهم وبنوعيته والأمانة في أداء ذلك، لوجدنا ان الغالبية لاتعمل بضمير، ولهذا غالبا ما تسقط بنا البرشونات التي يقومون بتحضيرها، إلى الهاوية. السبب ان نسبة كبيرة من هؤلاء ينطبق عليها المثل المصري: ناس تخاف بس ما تختشيش!

ظاهرة الاقتراب من الموت

يعتقد البعض أنهم مروا بتجربة العودة من الموت، أو الاقتراب الشديد منه. وقد دَوَّن الكثيرون تجاربهم في كتب ومنشورات، وعلى الرغم من تعدد خلفيات وثقافات أصحاب هذه التجارب، فإنهم اتفقوا جميعاً تقريباً على رواية مشاهد محددة لظواهر معينة. ولهذا بدأ العلماء قبل ما يقارب الـ 100 عام بالاهتمام بهذه الظاهرة وتدوين تجارب الأفراد الذين مروا بها، ومراقبة الحالات الجديدة، ومحاولة وزن الأجساد بآلات قياس وزن بالغة الدقة، وادعوا أنهم وجدوا فروقاً لا تذكر بين وزن الجسم قبل الوفاة وبعدها، أو خروج الروح، كما يقال.

ومع زيادة وسائل الاتصال وانتشار الانترنت زادت تقارير العودة الى الحياة بعد الموت، وتأسست من أجل ذلك جمعيات وصدرت كتب عدة في هذا المجال المثير والمثير، وعن تجارب الموت التي واجهوها، وكتبوا حتى عن «الحياة في الجانب الآخر»! وتوجد على الانترنت مواقع عدة تعالج هذه الظاهرة التي يؤمن بها عدد متزايد من البشر، وأن الأرواح موجودة ولها وزن يمكن قياسه وأنها عندما تغادر الجسد تجتمع في مكان محدد، وقد تعود مرة أخرى الى الأرض لتتجسد في شكل بشري أو آخر.

هذا في جانب، أما في جانب آخر فقد اكتشف العلماء مؤخراً، بعد سلسلة من الاستطلاعات والاختبارات، أن لظاهرة الموت والعودة الى الحياة سبباً آخر لا علاقة له بالأرواح. فعندما يظن المرء أنه يرتفع بروحه عن جسده بحيث يراه ممدداً تحته على السرير، أو يشعر بدرجة من النشوة والطمأنينة «غير الدنيوية» التي لم يشهد مثلها طيلة حياته، أو أنه يسير داخل نفق مظلم في آخره ضوء ساطع، أو أنه يلتقي بأقاربه الموتى، قبل «استيقاظه» من هذه الحالة، وهي الحالات التي أجمع غالبية من مروا بهذه التجربة أنهم مروا بوحدة أو أكثر منها، وهي الحالة أو الظاهرة التي تسمى علمياً «تجربة الاقتراب من الموت»، أو «العودة من الموت»، هي ظاهرة يكثر حدوثها خصوصاً وسط أولئك الذين يخضعون لمبضع الجراح أو في اللحظات التي يعانون فيها ذبحة صدرية. لكن دورية «كريتيكال كير» الطبية البريطانية نشرت قبل أيام بحثاً أعده فريق علمي من سلوفينيا يقول انه ربما وجد تفسيراً للأمر، حيث يقول فريق جامعة ماريبور انه وجد رابطاً يمكن أن يؤدي الى حدوث هذه التجربة الغريبة، يتمثل في ارتفاع مستويات ثاني أكسيد الكربون في الدم. وتبعاً له فإن هذا الارتفاع يؤدي الى تغيير التوازن الكيميائي في الدماغ، مما

يؤدي بدوره الى خداع صاحبه. فيجد أن روحه ترتفع عالياً فعلاً فوق جسده، أو أنه يسير في نفق يصل بين الحياة والموت، الى آخره من تلك التخيلات الغريبة. وقد نظر الفريق الطبي في حالات 52 من المرضى الذين عولجوا من أزمات قلبية بالمستشفيات، وكان كل منهم قد أنعش و«أعيد الى قيد الحياة» بعد توقف قلبه عن الخفقان وانقطاع أنفاسه. وفحص مستوى الكيماويات في أجساد هؤلاء خلال معالجتهم، خاصة ثاني أكسيد الكربون، وطلب اليهم لاحقاً الاجابة عما يتعلق بتجاربهم وأحاسيسهم خلال فترة المعالجة.

وتبعاً لنتائج هذا الاستطلاع، فقد قال 11 من أولئك المرضى، أنهم وقفوا على الحد الفاصل بين الموت والحياة، ومروا باحدى الحالات التي اخذت ظاهرة «العودة من الموت» اسمها هذا. وقالت الدكتورة زليخة كيتيس، التي ترأست فريق البحث: «وجدنا أن لدى أولئك المرضى الأحد عشر معدل تركيز ثاني أكسيد الكربون في دمائهم يزيد كثيراً بالمقارنة مع تركيزه لدى أولئك الذين لم يشهدوا الظاهرة». وأضافت هذه الباحثة أن الأرجح هو أن «تجربة العودة من الموت» لا ترتبط بالعمر أو الجنس أو المعتقدات الدينية أو الخوف من الموت أو العقاقير التي يحقن بها المريض، مع اقرارها بأن مزيداً من التجارب ضروري لقطع الشك باليقين، فقد قالت ان الأمر يتعلق أساساً بزيادة معدلات ثاني أكسيد الكربون في الدم، وان هذا هو المدخل الصحيح الى الفهم الكامل لأسباب تلك الظاهرة.

ما لله الله وما لقيصر لقيصر

ابريل 2010

عندما أصبحت في بداية التسعينات عضوا في مجلس إدارة أحد المصارف، كانت فكرة تحويله للنظام الإسلامي، أو فتح وحدة تختص بالمنتجات الإسلامية، على جدول أعمال أول اجتماع. عارضت المشروع برمته بعد أن قرأت ودرست الفكرة ووجدت مدى ضبايبتها وما تضمنته من أساليب غير مقبولة في العمل المصرفي التقليدي لاعتماده على نظم وقواعد غير متفق عليها، شديدة التقلب من يوم لآخر ومن حالة لأخرى. وكنت ولا أزال أعتقد أن مصير مثل هذه المؤسسات الفشل لا محالة، هذا إن تركت دون تدخل، الأمر الذي سينعكس سلبا على المعتقد الديني في نهاية الأمر. كما أن مصطلحات عملها يصعب التقيد بها دون استغلال حاجة الآخرين، خاصة مع زيادة رغبة المشرفين على هذه الشركات في تحقيق أقصى الأرباح، الأمر الذي يجعل من التقيد بالقيم الدينية والأخلاقيات المالية أكثر صعوبة، خاصة مع تغير العقليات والأجيال.

وقد كتبت عدة مقالات عن التجربة المالية الإسلامية، وبقيت، بالرغم من أن كافة مؤشرات نجاحها وما حققته من نجاح مالي كبير، على شكي بقدرتها على الاستمرار، وإن الأمر لا يتطلب إلا وقوع أزمة مالية حقيقة لتتضح هشاشتها وتستمرها بالدين، وكانت محنة الغزو العراقي أول تجربة حقيقية تتعرض لها هذه المؤسسات وكادت أن تطيح بها، مع بقية المصارف الأخرى، لولا الدعم المالي الحكومي، الذي تسبب في إحراج تلك المؤسسات الدينية بسبب ما تضمنه الدعم من شروط تخالف فلسفة تأسيسها، إن صح التعبير. وقد تمكنت في نهاية الأمر من تخطي الأزمة من خلال فتاوى هيئاتها «الشرعية» التي بررت لها تقبل ما كانت دائمة الرفض له من منطلقات دينية شديدة الوضوح، ولكن حجم الخسائر التي كانت ستتعرض له نتيجة التمسك بمبادئ تأسيسها جعلها أكثر تسامحا دينيا، وقبولا لـ «قبض» فوائد سنوية محددة تجنبا لانهايار محقق، وهذا كشف رخاوة الأسس التي أنشأت عليها تلك المؤسسات، وبينت إن هدفها الأساسي هو تحقيق أقصى الأرباح وليس الالتزام بمبادئ العقيدة!

ثم جاء الإعصار المالي العالمي الأخير، وهنا أيضا لم تتمكن هذه المؤسسات من تجاوزه بسلام. ففي التقرير الأخير لشركة «كامكو»، كبرى شركات الاستثمار المربحة «القبس 22/2» وفي الجزئية المتعلقة بنشاط الشركات الاستثمارية

المدرجة التي تعمل وفق أحكام الشريعة الإسلامية «التي لا يوجد أصلاً أي اتفاق عام عليها والتي تختلف قواعد عملها من دولة لأخرى» ورد أن هذه الشركات، وبالرغم من القفزة النوعية في نمو أرباحها وزيادة حجم أصولها وثقة عدد كبير من المستثمرين بأدائها، إلا أنها كانت الأكثر تضرراً من الأزمة! فقد انخفضت القيمة السوقية للشركات الـ 14 المدرجة، والمسماة بالإسلامية، بنسبة 75% مع بداية العام الحالي لتصل لـ 732 مليون دينار من أصل 3 مليار دينار! وقد سبق الأزمة الأخيرة بخمس سنوات حدوث تقلبات حادة في أرباح هذه الشركات تزيد عن الضعف، على الرغم من زيادة عددها. وتسببت الأزمة الأخيرة في القضاء على سابق أرباحها التي قاربت 400 مليون دينار لتصل خسائرها لما يقارب 200 مليون دينار، ويعود السبب الرئيسي لهذه الخسائر لأدائها السيئ وتوسعها في الاقتراض القصير الأجل مقابل الاستثمار في المشاريع الطويلة الأجل، وأيضاً بسبب انغماسها في المضاربة بالأوراق المالية الإسلامية والمتاجرة بالأسهم، وهي الثغرة «الدينية» التي كانت هذه الشركات تحقق من خلالها جزءاً كبيراً من أرباحها دون عمل إنتاجي حقيقي، وهو ما يخالف تماماً الأهداف التي تأسست من أجلها، وأنها كغيرها تبحث عن أقصى الأرباح بأسهل الطرق، وأن الهدف هو الربح وليس العمل ضمن معتقد ديني محدد والترويج له لينعكس إيجابياً على المؤمنين به.

نقول ذلك ليس من باب الشماتة ولكن من أجل الدعوة لعدم إقحام الدين في كل عمل ونشاط مصرفي وتجاري غير مهياً له، وأن نعطي ما لله وما لقيصر لقيصر.

القس دانيال وشعب البيراها

أرسلت إحدى الكنائس الأميركية في عام 1980 القس «دانيال ايفيريت Daniel Everett»، لقبائل «البيراها» Piraha في ادغال الامازون في البرازيل ليتعلم لغتهم ويدعوهم للمسيحية. قضى دانيال سنوات عديدة واسرته معهم وتعلم ثقافتهم وأتقن لغتهم، وبعد ثلاثين عاما تقريبا وضع كتاب «Don't Sleep, There are Snakes» الذي يحكي فيه تجربته المثيرة.

يقول دانيال انه تعرض في يومه الأول لسخرية أبناء القبيلة بسبب كمية المواد والملابس التي احضرها معه، والتي تبين مع الوقت عدم حاجته اليها. وقال انه طوال وجوده بينهم لم ينس ابدا انه هناك لترجمة الكتاب المقدس للغتهم المحكية، بعد تحويلها للغة مكتوبة. وانه كان في وقت فراغه يبادلهم الحديث عن معتقده. وفي احد الأيام اكتشف ان البيراها لا يعرفون معنى الإله وان لا اسم له في لغتهم او حتى ما يعطي معناه، وبالتالي اضطر لخلق تسمية «الأب في الأعلى» ليسهل عليه الحديث معهم عنه. وقال لهم ان إيمانه بالمسيحية جعل لحياته معنى افضل. وعندما سأله كبيرهم عما يفعله «الأب في الأعلى»، قال له انه يصنع النجوم والأرض! وعندما سألهم من صنع نهرهم الكبير، قالوا انه وجد هناك ولم يوجد احد. وعندما سألهم من أين جاؤوا، تبين له انه ليس لديهم فهم لوجود خالق ولا إيمان بقصص تراثية ولا يتحدثون عن الماضي البعيد ولا المستقبل غير المنظور، ولا توجد لديهم تصورات خيالية، بل يعيشون الحاضر فقط، فهو المهم لديهم. وفي إحدى الليالي قص عليهم حادثة انتحار امه بالتبني فضحكوا من القصة وسخروا منها لانها انتهت حياتها، فليس لديهم ما يدعو لأن يقتل الإنسان نفسه، وعندما تكلم معهم عن المسيح سألوهم عن لون بشرته، وعما اذا كان ابيض بلونه ام اسمر مثلهم، فقال انه لا يعرف الاجابة، فهو لم يسبق له ان التقى به، ولكن لديه كلماته، وهنا سألوهم كيف يمكنه الاعتقاد بقوة كلمات شخص لم يسبق له ان التقى به..؟ وهنا فقدوا الاهتمام تماما بسماع المزيد منه عن حياة المسيح وتضحياته، فهم يؤمنون فقط بما يرونه ويلمسونه أمامهم، ومثل هذا الاكتشاف صدمة له دفعته للتفكير في جدوى مهمته التبشيرية، وفائدة وجوده بينهم، وفقد آخر امل يوم جاءه «كوا أوي» وقال له: نحن نعلم انك تركت وطنك وبيتك لتخبرنا عن المسيح، ولكننا لا نريد ان نكون اميركيين مثلكم، فنحن نحب الشراب ولا نحب الارتباط بامرأة واحدة ولكننا نحبك انت ولا نرغب في سماع شيء عن المسيح. فقال لهم: ان لم تريدوا

المسيح فأنتم لا تريدونني، فوجودي بينكم هو لمساعدتكم في الاختيار بين الفرع والتعاسة، وبين الإيمان وعدمه، وبين الجنة والنار، ولكنهم لم يفهموا ولم يقتنعوا. ويقول القس دانيال انه تكلم بعدها مع زوجته «كارين» في الامر وقررا العودة لاميركا، وهناك فكر كثيرا في مهمته، وكيف انه أرسل ليقنع شعبا يعيش بسعادة ورضا تامين مكتفيا بما لديه من ماديات بسيطة، ليقنعه بأنه ضائع وتعيش، وأنه بحاجة الى من ينقذه، ولكنه وجده ليس بحاجة الى من يرشده او الى من يمد له يد المساعدة ويدله على الطريق الصواب. وكان رفض البيراها للإنجيل الدافع الرئيسي للقس دانيال للشك في معتقداته، ولترك الكنيسة بعدها وانهايار حياته الزوجية نتيجة لذلك.

تضمن الكتاب تفاصيل كثيرة عن تجربته المثيرة وكيف انه ترك المدنية في نهاية الامر وعاد للعيش بين قبائل البيراها وكيف اصبح احفاده يقومون بزيارته بين الفترة، والأخرى.

صديقي محمود «جست»!

التقيت بمحمود في الثانوية التجارية وأحببته لبساطته وطيبة قلبه، وكان ذلك في ستينات القرن الماضي. لم يكن محمود ذكيا ولا مواظبا على حضور فصول الدرس، كبقية أقرانه من الطلبة الفلسطينيين، ولكن لم يكن لطموحه وأحلامه حدود، فقد كان يحلم بأن يصبح يوما ما نجما سينمائيا أو رجل أعمال. كما كان يحلم دائما بالهجرة إلى أميركا. ولسبب ما كان واقعا في غرام كلمة جست JUST الإنكليزية، ويؤمن مخلصا بأنها من أهم الكلمات وأعظمها لفظا، خصوصا عندما ينطقها بطريقة استعراضية ماداً ذراعيه لأقصى امتدادهما. وكان يردد كلمة «جست» في الجد والمزح والحزن والفرح، فان أعطيته شيئا يبادرك بالقول شكرا «جست»، وإن أخذت الكرة من بين قدميه لحق بك وهو يردد متحمسا «جست جست»، وكان على قناعة بأن سر اللغة الإنكليزية وجمالها -وهي اللغة التي لم يكن يعرف منها غير عدد محدود من الكلمات، يكمن في كلمة JUST! وفي أحد الأيام فاجأنا محمود بالقول انه غير قادر على الاستمرار في الدراسة، وانه سيتوقف عن الحضور ويتفرغ لطلب الفيزا لأميركا، وأنه سيستمر في التواجد ليل نهار أمام السفارة حتى يقبل طلبه، ولو تطلب الأمر النوم أمام بوابتها.

مرت الأيام، ونسينا محمود مع مشاغل الدراسة والاستعداد لامتحانات نهاية السنة، وفي يوم ما جاء من يخبرنا أن «محمود جست»، هكذا أصبح يعرف بيننا، قد نجح في الحصول على الفيزا وانه هاجر بالفعل إلى أميركا.

تركت الدراسة في نهاية ذلك العام وعملت في بنك الخليج ومرت سنوات طويلة تغيرت فيها أحوالي كثيرا وأصبحت لي عائلة. وفي أحد الأيام وعندما كنت في إحدى محطات تعبئة الوقود لمحت من يشبه «محمود جست» مرتديا غترة وعقالا فوق بدلة العمل التي كانت مقررة على العاملين في شركة البترول وقتها. وعندما جاء دوري في المحطة أوقفت محرك السيارة ونزلت منها متجها نحوه فيما أنا مرتبك خشية التسبب في احراج، فقد كنا نجلس معا على مقاعد الدراسة نفسها وننقسم «سندويتشة» الفول أو الفلافل من مطعم أبوخليل القريب. ولكنه لم يتعرف عليّ، فربما تغيرت ملامحي أنا كذلك، أو ربما دفعته عزة نفسه لأن يتماسك ويتجاهلني، وبادلتة الأمر ذاته رحمة به وبنفسه. وعندما انتهى من تعبئة خزان الوقود دفعت له الحساب بعد إضافة خمسة دنانير عليها، وأسرعت لتشغيل سيارتي ومغادرة المحطة، ولكن سرعان ما لحق بي محمود مناديا، بعد

أن انتبه إلى أنني دفعت له أكثر من ضعف ما هو مطلوب مني، طالبا مني التوقف وعندما فعلت مد يده بمبلغ الخمسة دنانير، قائلا انني دفعت له أكثر من اللازم، فسأله إن كان يعرف الإنكليزية فقال: «شوي»، فقلت له: IT IS JUST FOR YOU فرفع يده لرأسه شاكرا، واخذ المبلغ، ولم يقل شيئا، وابتسامة لطيفة ترسم على وجهه. وفي اليوم التالي، شعرت بأنني قصرت معه وأنه كان يجب عليّ فعل شيء من أجل صديق قديم، ولكنني لم أره بعدها أبدا، بالرغم من أنني قمت باستخدام تلك المحطة مرات عديدة في الأسابيع التالية، وعندما اتصلت بشركة البترول الوطنية، حيث يعمل، لأسأل عنه في شؤون العاملين سألتني الموظفة عن أسمه الكامل فارتبكت ولم أجد جوابا، بعد أن اكتشفت أننا، وفي غمرة سعادتنا بمحمود وبإطلاق لقب «جست» عليه نسينا اسم عائلته!

نعاج وأسود

يقول فولتير إن من حقنا استخدام أقلامنا وكأنها ألسنتنا، وتحمل مخاطر ذلك الاستخدام. ويقول: ان تمسك بالقلم يعني بصورة تلقائية انك في حرب «مع الآخرين». ولكن هذه الحرب لا يمكن أن تكون شرعية إن لم تدعم بصدق الموقف والقضية عما تتكلم أو تكتب. والحقيقة أنني حاولت، ومن خلال آلاف المقالات، أن التزم بالحقيقة ما استطعت، حسب فهمي وعلمي، ولا أعتقد أنني وفقت دائماً في ذلك، ولكن ما أنا على ثقة منه أنني لم أكن صادقاً دائماً في اختيار ما كنت أود التصدي له من صور الظلم والتعسف في المعاملة والقهر والجهل الذي يعيش فيه الكثيرون، أقول ذلك بالرغم من إدراكي أن ليس من السهل أن يكون الكاتب منصفاً وصادقاً حيال كل أمر دون أن يتعرض هو، والأشد من ذلك من يحب، للأذى والمضايقة، وحتى للقتل.

ومن هذا المنطلق ومن إيماني العميق بالحاجة لمن ينكأ الجراح ويضغط على التقيحات ويستأصل الأورام، بالجراحة وغيرها، فإنني أعتقد أن لي دوراً، ولو متواضعاً هنا والآن، إن كان بسبب ما نمر به من وضع مزر من ناحية الحريات بشكل عام، وسيطرة قوى التخلف على مختلف المقدرات، وزيادة مطالباتها بفرض الحدود، من ضرب وجلد المخالفين، وكنتم أصواتهم وحجز حرياتهم، وحتى تعريضهم للقتل! لكل هذا أجد نفسي عاجزاً، ولأسباب كثيرة، عن أن أقول أو أكتب ما أشعر بأنه يمثل الحقيقة. وحتى ان وجدت العزم فلا ضمان بأن ما سأكتبه سيجد طريقه للنشر، وبالتالي يصبح أمام المرء أحد خيارين، أو كلاهما: التوقف عن الكتابة أو البحث عن أجواء أقل تسمماً وأكثر حرية.

المحزن أن ما لا يعلمه «البعض» ولو علموا به لما فعلوا شيئاً، أن من الاستحالة تقدم أي أمة من دون حرية وكرامة، وما تقدم الكويت القصير والمتواضع في مرحلة ما إلا بسبب مناخ الحرية الذي كان سائداً، وما تخلفها الحالي إلا نتيجة اختفاء تلك الحرية وغياب ذلك التسامح والود الوطني، وإن كان هؤلاء البعض يرغبون في أن يكونوا أسوداً لشعب أقرب للنعاج منه لأي شيء آخر، فبالعافية عليهم، فلست أنا من سيمنعهم من ذلك، ولكن ما هكذا تورد الإبل، والأيام بيننا.

أن تنجح في الحياة

ذهب الرجل للطبيب شاكيا تساقط شعر رأسه واتساع رقعه الصلع فيه، فأخبره هذا بأن الصلع أمر وراثي ولا يستطيع فعل شيء حياله فاحتج الرجل قائلاً إن شيئاً ما يجب القيام به، خاصة أن لا أحد من أهله يعاني الصلع، فقال له الطبيب إن الوراثة قد بدأت به، وأنه سيورث الصلع من بعده لأبنائه! تذكرت هذه النكتة وأنا أقرأ مقولة، أو حكمة الفيلسوف والكاتب الفرنسي فرانسوا ماري أرو المعروف بفولتير «1694 - 1778» وDo well and you will have no need for ancestors

أي: «حقق النجاح في حياتك وسيغنيك ذلك عن الزهو بتاريخ أجدادك!» وهذا يعني ان المرء عندما ينجح في عمله بشكل مميز تصبح قضية الأصل والأرومة غير ذات أهمية، وهذه المقولة، أو الحكمة تحاكي الواقع بشكل غريب. فنحن نتحدث دائماً عن الأصل والفصل والنسب والعائلة والقبيلة والمحتد وغيرها من الأمور المتعلقة بالخلفية العائلية، ولكن ما ان يصيب شخص بسيط ومتواضع النسب حظاً كبيراً من النجاح السياسي أو المالي العظيم، أو حتى في مجال لم يطرقه أحد من قبل، فإن النظرة الاجتماعية له تتغير تماماً ويصبح الانتساب له ومصاهرة بيته أمراً مطلوباً وغير مستهجن من دون التفات لقضية الأصل والفصل، ويصح هذا أكثر في المجتمعات المتقدمة والمدن الحضرية الكبيرة، ولكن لا تخلو منه المجتمعات الأقل تقدماً.

ولو نظرنا حولنا واستعرضنا أسماء الكثير ممن حققوا ثروات كبيرة، سواء من خلال المضاربة في الأسهم أو العقار أو المتاجرة بالسلاح وتبييض الأموال وما هو أسوأ من ذلك، لوجدنا أن غالبيتهم ينحدرون من خلفيات متواضعة، بالمقاييس القبلية والحضرية المتخلفة. كما نجد أن أسماء كالحريري أو الفايد، وحتى الملياردير السابق عدنان خاشقجي، كأمثلة وليس على سبيل الحصر، وفي الكويت من يماثلهم الكثير، مع احترامنا للجميع، قد حققوا شهرة وصيتاً واحتراماً اجتماعياً كبيراً بالرغم من عدم وجود قبائل تقف وراءهم أو ألقاب تسبق اسماءهم، وليسوا بشوات سابقين ولا بكوات لاحقين، ولم يكونوا قبل سنوات قليلة حتى «أفندية»، ولا تربطهم صلة بلورد أو كونت أو ماركيز، ومع هذا يتمنى الكثيرون مصاهرتهم والاقتران ببناتهم والارتباط بهم بطريقة أو بأخرى. كما لا يخلو الإنترنت من إشاعات اقتران أو علاقات حميمة بين ملوك ورؤساء في المنطقة وخارجها مع «صبايا البيوتات» الجديدة التي فرضت نفسها، أو أصبحت هي بالذات، من مكونات المجتمعات

المخملية، أو الراقية»!!»، وعندما أراد الأمير «رينيه»، عاهل موناكو الراحل، الزواج قام باختيار نجمة سينمائية من هوليوود لتكون أميرة قلبه وشعبه، ولم يبحث عن زوجة من بنات أسر أوروبا الملكية مثلاً. كما يمتلئ فضاء الإنترنت أيضاً بإشاعات اقتران ملوك عرب وأجانب ببنات أسر فاحشة الثراء بالرغم من بساطة خلفياتهن العائلية وتواضع جمال غالبيتهن! نعود ونكرر مقولة فولتير بأن ما علينا غير أن نبلي البلاء الحسن في الحياة، وستأخذ بقية الأمور مجراها الطبيعي.

مجرد سؤال

يعتبر الفنان الأميركي الراحل «جورج كارلن» Goerge Carlen من أشهر فلاسفة الكوميديا في أميركا، إن لم يكن في العالم، وأكثرهم إثارة للجدل. ولكارلن مجموعة أقوال يوردها البعض في كتاباتهم وتنتشر على الإنترنت دون الإشارة لقاتلها، وربما أكون أحدهم. يقول في أحدها، إن من تناقضات عصرنا أننا أصبحنا نمتلك عمارات أطول ولكن وجهاً نظراً أكثر ضيقاً، وأننا ننفق أكثر ولكن نتمتع بالحياة بصورة أقل. كما أصبحنا نمتلك بيوتاً أكبر، ولكن عائلاتنا أصبحت أصغر، كما أن شهادتنا أعلى ولكن مداركنا أقل، ومعرفتنا أوسع ولكن أحكامنا أضيق، ومشاكلنا أكثر ربما لأن الخبراء بيننا أكثر. كما أن صحتنا أصبحت أضعف بالرغم من زيادة أدويتنا وأطبائنا، كما ونوعية. وأصبحنا نشرب أكثر وندخن بشراهة، ونصرف بغير تدبير ونضحك بدرجة أقل، ونقود السيارة بسرعة ونغضب بسرعة أكبر، ونطيل السهر ونقوم من النوم متعبين ومتأخرين، ونقرأ أقل ونشاهد التلفزيون أكثر وفوق هذا نادراً ما نفكر بالروحانيات.

وبالرغم من أننا نجحنا في مضاعفة ثرواتنا، كأمم وأفراد، فإن قيمنا تناقصت. وأصبحنا نتكلم كثيراً ولكن نحب بدرجة أقل، ونكره هذا ونبغض ذلك. وبالرغم من نجاحنا في خلق حياة لأنفسنا فإننا فشلنا أن نحياها بطريقة سليمة، وأضفنا سنوات لعمرنا ولكن لم نضف قيمة لتلك السنوات. ونجحنا في الوصول للقمر إلا أننا واجهنا صعوبة في الوصول والتواصل مع جارنا عبر الشارع. وتمكننا من اختراق الفضاء الخارجي ولكن عجزنا عن ملامسة فضاءنا الداخلي! كما نجحنا في تنظيف مناطق كبيرة من التلوث ولكن نسينا تنظيف أرواحنا من الأحقاد والضغائن، وأصبحنا نكتب أكثر ونتعلم أقل، وما تعلمناه هو أن نستعجل ولكن فشلنا في أن نتروى! كما صنعنا كمبيوترات أضخم بإمكانها خلق نسخ أكثر وتقارير أشمل، ولكن تواصلنا مع بعضنا أصبح أقل وأقل. وأصبح عصرنا عصر الأكلات السريعة والهضم المتكاسل، وأجسام أكبر ولكن شخصيات أصغر وأضعف. وأصبحنا نعيش عصر الدخل العائلي المزدوج ولكن بحالات طلاق أكثر. ونسكن بيوتاً أجمل ولكن بشروخ عائلية أكثر.. إنه عصر السرعة في السفر واستخدام الحفاضات والمناديل الورقية وكل شيء استهلاكي سريع، وأصبحت صيدليات المنزل تحتوي على أدوية للكآبة والترهل وخلق السعادة الوهمية والشعور المزيف بالسكون والاطمئنان! إنه عصر يأتي لك فيه هذا المقال بأسرع من لمح البصر فيما أن تأخذ بمعانيه، أو

ببعضها على الأقل، أو تقلب الصفحة وتستمر في حياتك، ولكن قبل أن تفعل تذكر أن من المهم أن تقضي وقتاً أطول مع من تحب فلن يكونوا من حولك إلى الأبد، وأن تضم صغارك الى صدرك وتقول لهم كلمة حانية فهؤلاء أيضاً لن يطول مكوثهم حولك عندما يكبرون ويذهبون لحال سبيلهم...».

ويقال ان من أقواله في تعريف السيجارة انها لفافة تبغ في طرف منها نار وفي طرفها الآخر شخص غبي، وهو راض بذلك! أما السيجار، ففي طرفه نار وفي طرفه الآخر غبي أكبر، وهو سعيد بذلك!

وهنا يخطر على بالي السؤال التالي: لو كان جورج كارلن يعيش بيننا فما الذي كان سيقوله فينا، هذا إذا تجرأ أصلاً على قول شيء؟ مجرد سؤال!

الهند وباكستان.. مثال صارخ

يقول «إد كريس»: ينقسم العالم الى عدة معسكرات، وكل منها على استعداد لارتكاب أبشع الجرائم بحق الآخر، فقط لإثبات أن قصته أقرب للصحة! لأسباب كثيرة، طالب زعماء الهند المسلمون، وعلى رأسهم «محمد علي جناح»، السلطات البريطانية التي كانت تحكم شبه القارة الهندية، بأن تكون لهم دولتهم المستقلة. وهكذا خرجت باكستان للوجود في 14/8/1947 ضد رغبة زعماء الهند، ومنهم غاندي. ومات الملايين جراء ذلك في أعمال عنف دينية. وفي عام 1971 أعلنت باكستان، التي يعني اسمها «أرض النقاء أو الطهارة»، تحولها الى «جمهورية إسلامية»، وسرعان ما انفصل عنها جزؤها الشرقي مكونا جمهورية بنغلادش، ربما الأكثر طهارة ونقاء منها! على الرغم من أن عدد سكان باكستان يبلغ 170 مليوناً، مقارنة بالهند «مليار و180 مليوناً» أي 15% تقريبا، بيد أن إنتاج الهندي القومي يزيد على 11 ضعف الإنتاج الباكستاني. كما يبلغ دخل الفرد فيها 3176 دولاراً مقارنة بـ 2660 دولاراً فقط في باكستان.

تنتج الهند كل ما تحتاج له من غذاء ودواء. كما تصنع كل ما تحتاج له من أدوات نقل ومحركات، وتعتبر الصناعة فيها متقدمة بشكل كبير وتعتبر مكتفية ذاتيا في كل شيء تقريبا. كما تعتبر الهند أكبر ديموقراطية في العالم، ولم تتخل عن نظامها البرلماني الحر منذ استقلالها. أما جارتها باكستان، التوأم في كل شيء، فلا تنتج شيئا ذا أهمية وتحتاج لاستيراد كل احتياجاتها من الخارج، ولم تعرف الاستقرار السياسي والأمني منذ تأسيسها، وكان الحكم فيها عسكريا ودكتاتوريا في غالب الأحوال، خاصة بعد تحولها الى جمهورية إسلامية تطبق الشريعة!

مدارس الهند العلمانية التي وضع أسس الرياضيات فيها جواهر لال نهرو أصبحت تصدر للعالم سنويا 50 ألف عقل متخصص في أكثر المجالات العلمية تقدما، أما الـ 15 ألف مدرسة دينية المنتشرة في كل أنحاء باكستان، فقد خرجت للعالم الكثير من «العقلليات الإرهابية»، وكانت أكبر منجزاتها انطلاق حركة طالبان منها.

ولو راقبنا حركة الجريمة، المالية منها بالذات، على نطاق دولي، لرأينا وجودا حيويا للعناصر القادمة من أرض النقاء والطهارة. كما أن عالم المال يعرف اليوم عشرات الأسماء الهندية اللامعة في عالم المليارات والفن والصناعة والعلامات التجارية المعروفة في أكثر من مجال، مع اختفاء لأي نشاط باكستاني في أي

ميدان أو مجال، سوى ربما لعبة الكريكيت.

الهند وباكستان مثال صارخ على ما يمكن أن ينتج عن انفصال توأمين، أحدهما يتجه الى التطرف الديني، الذي يقود بالتبعية الى الدكتاتورية والبطش وسياسة الحزب أو الرأي الواحد والحجر على الحريات. والآخر يتجه الى العلمانية وينهض من فقره ويصبح لاعبا دوليا ويزدهر اقتصاده وينبغ في كل مجال لإيمانه بالحرية والتعددية. وكمثال أخير على مدى الفارق الحضاري بين الدولتين نجد أن الهند، ومنذ عام 1947، لم تشكل حكومة بغير مشاركة فعالة للمسلمين تزيد عن نسبتهم المئوية من السكان «14%». في الوقت الذي لا تطبق فيه باكستان شيئا من ذلك حتى مع بقية الأقليات فيها.

سلام على العلمانية أينما وجدت

إيران وتركيا.. مثال صارخ آخر!

تقوم العقائد بفعل ثلاثة أشياء بطريقة فعالة جدا: تقسيم الناس لشيع وطوائف، السيطرة عليهم، وإغراقهم في الوهم.

يعتبر الكثيرون، وأنا أحدهم، إيران بلدا رائعا به كل شيء تقريبا. فهذه الدولة المترامية الأطراف، والتي تتفاوت فيها درجات الحرارة من الشمال البارد الى الجنوب الحار لأكثر من 20 درجة، والتي تكسو الغابات مناطق شاسعة منها، وتغطي الثلوج هامات جبالها، ولها شواطئ رملية رائعة، وبها كم هائل من الآثار، تتوزع على مدن عدة رائعة الجمال، وبها أسواق قديمة لا تضاهى بثرائها، إضافة إلى شعبها الميال للحياة الجميلة La Dolce Vita، ومع كل ما فيها من ثروات مائية ومعدنية وبشرية هائلة، إلا أنها تبدو غالبا وكأنها لا تمتلك اية مقومات النجاح، على الرغم من أنها يمكن أن تكون الأقوى في المنطقة، اقتصاديا وسياحيا وثقافيا، لدرجة أعتقد فيها أنها وأميركا -والى حد أقل بكثير روسيا والعراق- الدول الأربع الوحيدة في العالم، التي تمتلك. ولكن إيران، بشعبها الشديد المراس، البالغ عدده 75 مليوناً، ومساحتها التي تزيد على مليون و600 ألف كيلو متر، لا تشكل أهمية على المستوى الدولي بغير صوتها العالي وقدرتها على خلق الهلع والرعب لمن يعاديه. فهي لا تنتج - تقنيا وصناعيا وفنيا - شيئا يستحق الإشارة إليه، وتعتمد في معيشتها على الاستيراد من الخارج وما تبيعه من بترول، والحصار «الغربي» الذي بدأت آثاره بالظهور ستكون له تبعات اقتصادية وبشرية وزراعية بالغة القسوة. وهنا نجد أن هم شعبها، كما هي حال غالبية شعوبنا، أصبح يتركز في نهب ما يمكن نهبه في ظل كم الفساد المستشري، والوقوف على أبواب السفارات للحصول على فيزا، أو الهرب من جحيم الدولة الدينية، لأقرب دولة، ويا حبذا لو كانت أوروبية أو أميركية، وللأبد. أما حال نسائها فحدث ولا حرج!

والسؤال هو: ما الذي ينقص إيران لتصبح دولة مزدهرة؟ ولماذا يهرب منها مواطنوها ويعرضون أنفسهم للموت أو السجن في سعيهم للبحث عن عمل؟ أليست هي لقمة العيش؟ وكيف تفشل كل الأنظمة التي حكمت إيران منذ مائة عام أو أكثر -وبكل غنى الدولة- في أن تؤمن لهذا الشعب الحد الأدنى من الكرامة والعيش الكريم؟ وكيف فشلت إيران، بكل امكاناتها، في أن تكون دولة جاذبة لليد العاملة بدلا من أن تكون طاردة لها؟ أليس هو النظام السياسي، الذي فعل الشيء ذاته في غالبية دولنا العربية الاسلامية المباركة؟!

ولو نظرنا الى تركيا، التي حولها مصطفى كمال أتاتورك الى دولة علمانية متقدمة، التي يقارب عدد سكانها سكان ايران، يعيشون على نصف مساحة إيران، وليست لديهم أية ثروة بترولية، ولا معدنية كبيرة، لوجدنا أن تقدمها الصناعي والزراعي والتجاري مبهر على كل المستويات. كما تتمتع بحرية وديموقراطية تفوقان بأشواط كثيرة ما لدى ايران، ويكفي أن المواطن التركي معزز مكرم بما له من حقوق في الحِل والترحال وقت ما شاء، ولا توجد عشرات محطات التلفزيون والاذاعة في خارجها تهاجم نظامها وتطالب باسقاطه!

ان مثال ايران وتركيا مثال آخر صارخ، اضافة الى مثال الهند وباكستان، على ما يمكن أن ينتج عن تبني العلمانية كنظام سياسي، مقارنة بالأنظمة الدينية التي لا تؤمن الا بالرأي الواحد، والحاكم الواحد المطلق الصلاحية.

بنك «اج اش بي سي»، البريطاني

يعتبر مصرف HSBC واحدا من أكبر مصارف العالم، وتعني الحروف الأولى من اسمه «المؤسسة المصرفية لهونغ كونغ وشانغهاي». بدأت قصة نجاح هذا البنك عام 1959 عندما قام بشراء كامل حصص الملكية في البنك البريطاني للشرق الأوسط، وكانت تلك تذكرة دخوله لواحد من أسرع أسواق العالم نموا.

تأسس البنك البريطاني في لندن عام 1889، وكان اسمه حينها «بنك الإمبريالي لفارس» أو The Imperial Bank Of Persia، وسبق أن أسسه البارون جوليوس دي رويتر، مؤسس وكالة أنباء رويترز الشهيرة، والذي حصل على حقوق الامتياز لمصرفه من شاه إيران لستين عاما، مع حقوق طبع وإصدار عملة البلاد الوطنية، والعمل كبنك للإمبراطورية الفارسية. وصدر له ترخيص من الحكومة البريطانية وقتها بهذا الشأن، وتمكن البنك في الفترة من 1889 وحتى 1920 من فتح 26 فرعا في مختلف المدن الإيرانية. وفي الفترة من 1930 وحتى نهاية أربعينات القرن الماضي شهد البنك تغيرات عدة، حيث تنازل عن حق إصدار العملة الوطنية لـ «بنك ملي» الحكومي. كما غير اسمه إلى «بنك إيران الإمبراطوري»، بعد أن ألغت الحكومة تسمية فارس واستبدلتها بـ «إيران» الأكثر تمثيلا لبقية فئات الشعب. وفي عام 1949 أجبرت الحكومة الإيرانية البنوك الأجنبية على التنازل عن 55% من ملكيتها للبنوك الوطنية. ثم تبعت ذلك بقرار منع البنك من تداول النقد الأجنبي فلم يجد أصحابه بدا من إغلاق أبوابه عام 1951، ولكن ليس قبل أن يحتاط لنفسه ويتوقع مثل هذا اليوم، حيث قام بفتح أفرع عدة خارجية في الكويت عام 1942، والبحرين 1944 ودبي 1946 وبعدها في مسقط وبيروت ودمشق وعمان، وهذه التغيرات حصلت جميعها تحت تسمية «البنك البريطاني لإيران والشرق الأوسط»، وأزيل من الاسم «إيران» بعد خروج البنك منها عام 1952.

ومع سيطرة HSBC على البنك البريطاني قام بالتوسع أكثر وفتح فروعاً في السعودية والشارقة وأبوظبي والعراق وتونس والمغرب وليبيا وعدن والأردن، وهذا أتاح له العودة لإيران، وإن لفترة قصيرة، حيث أمتت المصارف الأجنبية جميعها عام 1979. كما أجبرها التأمين على ترك دول عدة أخرى بعدها مثل سوريا، العراق، عدن، ليبيا، ودخلت إدارته في مشاركات فعالة في السعودية ومصر، ولا تزال.

وفي عام 1994 قام البنك بنقل مركزه الرئيسي إلى جزيرة جيرسي البريطانية، وتغير اسمه في عام 1999 ليصبح HSBC للشرق الأوسط. قد لا تعني هذه المعلومات الكثير للبعض ولكنها تتضمن حيننا لزمن مضى، خاصة لأولئك المصرفيين القدماء من أمثالي، ومن لا يزال على قيد الحياة من موظفي البنك البريطاني للشرق الأوسط، والذين لا بد أن يكون من تبقى منهم حيا، في خريف أعمارهم.

جلد الزانية ورجمها

تعترف الدول الاسلامية كافة بصحة حد رجم الزاني والزانية، ولا خيار لهما في ذلك! ولكن القوانين الوضعية لغالبيتها لا تقر طريقة العقاب هذه، وان باستحياء، ولكن بعضها تقرها في حدود، ولكن لا تطبقها والبعض الآخر تقرها وتطبقها علنا دون اهتمام بحقوق انسان أو عدالة أو رحمة، خاصة أن التطبيق يكون دائما علنيا، مع اقتصاره غالبا على النساء دون الرجال، وكأن المرأة يمكن أن تزني مع شبح لا يرى! وقد رأينا في السنوات العشرين الماضية، عدة تطبيقات بشعة لهذه العقوبة وضعت دولنا بجدارة في قمة الدول المتعسفة في معاملة شعوبها.

وورد في القبس، 2010/6/10 أن السلطات الايرانية قررت بعد ازدياد ضغوط المنظمات الدولية عليها، وقف تنفيذ حكم محكمة يقضي بـ رجم السيدة «سكينة أشتياني» (43 عاما) بسبب اقترافها جريمة الزنى. وقال بيان صادر عن سفارتها في لندن انها تفكر في وسيلة أخرى لتنفيذ حكم الموت بحق المتهمة بالزنى، علما بأنها سبق أن جلدت 99 جلدة! ولا أدري كيف تقبل هذه الأنظمة بدفن امرأة في التراب حتى ما دون كتفيها بعد جلدها، ومن ثم تناوب جمهور من الرعاع على قذفها بالحجارة حتى الموت، دون أن يرف لأحد منهم جفن أو يتحرك ضمير؟ وكيف يمكن أن نفسر سكوت كافة المنظمات العربية الاسلامية المعنية بشؤون الانسان عن هذا الحكم القضائي الشاذ الذي يرسخ تفردنا بمثل هذا العقاب غير الطبيعي لامرأة أتت فعلا جنسيا مع رجل ليس بزوجها؟ والغريب أن غالبية هذه الاحكام في دولنا الباهرة تنفذ بحق النساء فقط، غير عابئين بالرجل الشريك، فكيف تزني امرأة دون رجل؟ وكيف يمكن لدولة أو دول تعيش في هذا العصر، أن يصدر قضاؤها مثل هذه الأحكام الوحشية، فماذا تركنا لسكان الغابات ورجال العصابات؟

عود لموضوع HSBC

تعقيبا على المقال الذي كتبته قبل أيام عن البنك البريطاني، وتاريخ HSBC، أرسل الصديق «عبد الحميد المزيدي» التعقيب التالي: عزيزي أبو طارق. أثار مقالك المنشور في القبس 27/7/2010، الكثير من الشجون لدي. وقبل أن أعلق على مسيرة بنك HSBC يدفعني الحنين إلى الماضي للتطرق الى ما كنا - والدك عبدالله وأنا - نقوم به، حيث كنا نعمل عند والدينا، جاسم الصراف ومنصور المزيدي، في محل لصرافة التجزئة وإجراء صفقات العملات، بمقاييس أربعينات القرن الماضي. وفي غياب العملات الورقية وقتها، كنت أقوم ووالدك بتسليم المباع من العملات المعدنية كالريال السعودي والفرنك الفرنسي والدراخما اليونانية والتومان الإيراني، لمشتريها ونقبض ما يقابلها من العملة المحلية وهي الروبية الهندية آنذاك، في صورة قطع معدنية. وكنا نعبئ المسكوكات في أكياس من الخيش أو الكتان السميك، وكان كل كيس يستوعب بين ألفين إلى ثلاثة آلاف قطعة معدنية، وكنا نحملها لتسليمها أو استلامها، من المشتري أو البائع، وهكذا طوال اليوم. والطريف أن والدك عبدالله كان ماهرا في عد العملات المعدنية، فعندما كان يضع يده على «كمشة» أو عدد من هذه العملات نجد أنها دائما عشرين قطعة! ونعيد تأكيد العد بعد تفريغها من يد إلى أخرى وبإيقاع أشفاق لسماعه اليوم، وكان كل إيقاع بأربع قطع معدنية، وكل خمسة إيقاعات منها تبلغ العشرين ثم نضعها بجانب بعضها في إناء خاص معد لذلك، بواقع خمس أكوام أو مجموعات لنحصل في النهاية على مائة قطعة، وهكذا يجري العد بسرعة وسهولة! وفي أحد الأيام، وبعد أن سلمنا أكياس العملات المعدنية الثقيلة لأحد التجار، طلبوا منا العودة إليه واستعادتها منه، فاستغربنا الطلب، وكانت أعمارنا وقتها لا تزيد عن 15 سنة، وهنا شرحوا لنا بأنهم قاموا بإعادة شراء تلك العملات لمن سبق أن بيعت لهم، وهكذا عدنا لاسترجاع تلك الأكياس الثقيلة دون أن نفقه معنى كلامهم! وبعد فترة فهمنا أن بعض الصرافين، مثل محلنا ومحلات الصيرفة الأخرى كالمزيني والطخيم والغربلي وغيرهم، تردهم برقيات من البصرة والرياض وإيران بأنباء تقلب العملات وتغير قيمها، وبالتالي يسبق هؤلاء غيرهم بالبيع أو الشراء لتوافر المعلومات لديهم. وهذا يذكرنا بأن ما يجري الآن من تدوير للصفقات، بيعا وشراء، بهوامش ربح أو خسارة ضئيلة جدا أمر عادي، ليس وليد هذا الزمان بل هو قديم. نعود لبنك HSBC، أو البريطاني، الذي استعرضت قصة تأسيسه، والبلدان التي

حل بها مرة كضيف مُعزز، ليصبح بعدها منبوذا فيطرد، حيث كان أول مقر له في الكويت بالقرب من مقهى «قاصد خير» في منطقة المباركية، وكانت مساحته لا تزيد عن 50 متراً، وعدد موظفيه أقل من 20. ولو قارنا الحاضر بالماضي نجد كم تغير الزمن، بعد أن أصبحت العملات ورقية، لا بل رقمية تحول من حساب إلى آخر بلمح البصر. وأصبح إصدار العملات غير مقتصر على الدول بل حتى الأفراد بإمكانهم إصدار مبالغ محددة مقابل أرصدة لهم، علما بأن جميع عملات العالم لها تغطية محددة من الذهب والعملات الأخرى، إلا أميركا التي تتفرد بأنها تُصدر عملتها بلا رصيد أو غطاء فعلي، والطريف أن الثقة بالدولار هي الأكبر، وبالذات عند أكثر الناس انتقادا لسياسات أميركا... عجباً!!

اليوم الذي قد لا يأتي أبداً

قال صديقي إنه كان يرافق أحد معارفه وهو يتفقد غرفة نومه، وهناك فتح علبة جميلة في خزانة ملابس خاصة بزوجته وبدأ في تفريغ محتوياتها في حقيبة كبيرة، ووقعت يده على قطعة لفافة ورق لماع وجميل وعندما فتحها وجد أنها تحتوي على فستان سهرة غالي الثمن، وتذكر أنهما سبق أن اشترياه في أول زيارة لهما لمدينة نيويورك قبل 8 أو 9 سنوات مضت! وبدأ واضحاً أنها كانت تحتفظ به ليوم مميز. وضع الرجل اللفافة والملابس الأخرى في الحقيبة لينقلها الى مكان خاص، فقد توفيت زوجته قبلها بأيام!

نظر الرجل إلى صديقه وقال له: لا تحتفظ أبداً بالأشياء المميزة والجميلة للأيام الخاصة، فكل يوم في حياتنا هو يوم خاص وجميل بحد ذاته، ويجب أن نستمتع بأيامنا كلها ما دمنا على قيد الحياة! ويقول الصديق إن تلك التجربة غيرت حياته وعلمته الكثير، وأصبح يقضي وقتاً أطول مع أسرته وأقل في العمل، وأن الحياة أصبحت بالنسبة له مصدراً للتجارب التي يجب أن يعيشها وليس البقاء حياً في أثنائها، وأنه أصبح لا يحتفظ بأفضل مما لديه ليوم خاص فكل يوم خاص في حياته، فإلى متى يحتفظ بأواني الكريستال من دون استخدام، بانتظار ضيوف قد لا يأتون أبداً، وإن أتوا فلن يكثرثوا كثيراً إن كان الشاي أو القهوة التي قدمت إليهم في أوان فاخرة أو عادية، إن لم يكن طعمها جيداً! وهل ضيوفه أولى بجميل أثاثه وأدواته المنزلية الفاخرة منه؟ ومتى سيرتدي أفضل ملابسه؟ ألم يحتفظ ببعض منها للمناسبات السعيدة؟ وعندما تأتي المناسبة نجد أنها أصبحت ضيقة علينا! ولماذا لا نرتدي أفضل ما لدينا عندما نذهب للتسوق أو لقضاء أي حاجة؟ ولم الاحتفاظ بأفضل العطور لمناسبة محددة، وقد تتبخر ولا يأتي ذلك اليوم، أو لسبب ما نفقد حاسة الشم! ولم نستمر في تكرار جمل مثل «يوماً ما سأتجول في معالم وطني التي يأتي السياح لرؤيتها» أو «سأرتدي هذه الحلة في زفاف ابن اختي»! أو انني سأذهب في رحلة طويلة فور انتهائي من بناء البيت؟ وهكذا تمر الأيام وتنتهي الأعمار وتبقى الوعود من دون تنفيذ، ويخفي عبق الورد من دون أن نشمه وتنتهي موضة الملابس من دون أن نرتديها ويضيق الحذاء وهو بانتظار من يضعه بقدميه. ولا أدري ما الذي كان سيفعله أي شخص منا لو علم بأنه سيموت غداً، بالرغم من صعوبة الاحتمال، فما الذي سيفعله؟ ربما سيقوم بالاتصال بمن سبق أن اختلف معهم ليطلب مغفرتهم، أو سيقوم بارتداء أفضل ما

لديه والخروج في جولة مع الزوج/ الزوجة والقيام بما كانا يودان دائماً القيام به، ولم يفعلنا كتبادل القبلات علناً أمام الشاطئ، والاتصال بالأهل والأصحاب فرداً فرداً ووداعهم بلطف، وغفران إساءات الآخرين! فإذا كنا سنفعل ذلك إن علمنا بموعد وفاتنا فلم الانتظار إذاً، ومن يدري متى سيموت؟ ولم لا نقوم بكل الأشياء الجميلة اليوم قبل الغد؟!

مايكل وماج فلادارس

سبق ان كتبت أن عملي في البنك في ستينات القرن الماضي كان نقطة فاصلة في حياتي، ولهذا اضطر أحيانا للرجوع لتلك الفترة للنهل منها، وأستميح القراء عذرا إن كان في هذا التكرار ما يزعجهم ولا أريد هنا أن أبدو كصاحبنا المؤرخ الذي كان دائم الإشارة لجذته قبل الدخول في أي حديث أو قصة تاريخية!

* * *

كان «مايكل فلادارس» مديرا لي في بداية عملي في البنك، وكان شخصا لطيف المعشر دمث الخلق، ويختلف إلى حد كبير عن الصورة النمطية للموظف الهندي، حيث كان عالي الصوت دائما وصاخبا في عمله، وكان ذا اطلاع واسع بما كان يقوم به من عمل مصرفي، وبالحياة عامة. وكانت لديه دائما كمية من الروايات التي كان يسعد بسردها عن تجاربه ورحلاته حول العالم. وكانت زوجته «ماج» تعمل في وظيفة مرموقة في السفارة الأميركية وقتها، وقد ساعدتها وظيفتها في مرحلة لاحقة في الحصول على الجنسية الأميركية والهجرة وأسرتها لأميركا، حيث انقطعت أخبارهم عنا منذ ذلك الحين، وربما يكون فلادارس الآن في منتصف الثمانينات من عمره، إن كان لا يزال على قيد الحياة.

اسم فلادارس برتغالي، وربما اكتسبته أسرته من أيام استعمار البرتغال لمناطق واسعة من جنوب الهند مثل «جوا». كان يبدي اهتماما خاصا بتدريبي وتمضية وقت وجهد في شرح عمليات البنك المعقدة لي. وفي يوم استضافني في بيته لتناول العشاء، ولا أزال أتذكر تحذيره لأبنائه من الإفراط في تناول الزبدة، وهي النصيحة التي أعمل بها حتى اليوم، وقد شكرته كثيرا على تكريمي بمشاركة عائلته عشاءهم. كان فلادارس يحب الحياة والحديث عن أسفاره، وكان يبدأ قصصه خلال فترات الاستراحة، أو بعد إغلاق أبواب البنك للعملاء، بسؤالي عما إذا سبق ان زرت المدينة التي ينوي الحديث عنها في ذلك اليوم، وكنت وقتها لم أزر غير العراق وإيران ولبنان، وبالتالي كان جوابي دائما بالنفي، وهنا كان ينطلق في الحديث عن رحلته إلى النمسا أو سان فرنسيسكو أو دزني لاند أو لندن ومغامراته وذكرياته في كل منها! وفي يوم ما، وهو مستطرد في سرده، قاطعته متسائلا عن عمره ففوجئ بسؤالي وقال بتردد: 45 عاما! فقلت له بكل هدوء انني أصغر منه بربع قرن، وعندما أصبح في عمره سأكون قد زرت أضعاف ما قام بزيارته من مدن ومعالِم! ففغرفاه، لا أدري مستغربا أو مستنكرا، ولم يقل شيئا ولم يكمل روايته، ولا أعرف

ما الذي كان يفكر فيه وقتها، ولكن علاقتنا أصبحت بعدها أكثر ندية وفسرت سكوته بأنه ربما صدم من ذلك الفارق بين عمرينا، أو ربما شعر بأنني على حق، أو أنه اعتبرني فظا، وصريحا أكثر من اللازم.

تذكرت تلك القصة وأنا أقرأ عن أن احدى علامات التقدم في العمر هي عندما نشعر بأننا نعرف الكثير عن الحياة، وفي هذه اللحظة بالذات يتوقف الآخرون، من أصدقاء وأبناء بسؤالنا عن أي شيء، لأنهم أصبحوا هم كذلك يعرفون الشيء الكثير عن الحياة!

الخلاصة أن الكبر يصبح أمرا متعبا، وأحيانا، مثيرا للشفقة إن لم نحتمل له بجميل الذكريات وعديد الصداقات والمحافظة على الصحة والإكثار من الآهات، فلا حياة من غير فضول وبهجة وحب ودهشة!

حلول الإخوان لمشاكل العصر

يقول ابراهيم الهضيبي، العضو السابق في حركة الاخوان المسلمين في مصر، وحفيد الهضيبي المرشد، وأحد مؤسسي الحركة، الذي خلف حسن البنا بعد مقتله، انه بالرغم من ايمانه بافكار الاخوان الاساسية فإنه تركهم بعد ان اصيب بخيبة امل من ضبابية اهدافهم. وفي مقابلة مع اذاعة الـBBC ضمن برنامج وثائقي بالانكليزية عن الاخوان، قال: ماذا يريد هؤلاء؟ هل يريدون ان يكونوا حاكما ام حركة اجتماعية قوية ام حركة سياسية سرية؟ يستحيل ان يكونوا كل هذه الاشياء مجتمعة، هذا ما لا يمكن القيام به في وقت واحد، ولهذا تركتهم!

ما واجه الهضيبي الصغير واجه آلاف المنتمين للحركة في ما يتعلق بعدم وضوح اهدافها، ورفضها الصريح للاعلان عن سياساتها وخططها التنموية، وما يتعلق بطرق مواجهتها وتعاملها مع مختلف الاحداث السياسية والاقتصادية، فليس هناك «مانيفست» او منشور واضح متفق عليه يعلن مواقفهم من الديمقراطية والمشاركة في الحكم ونظام الملكية والخلافة وتداول السلطة والانتخابات البرلمانية، وغير ذلك الكثير. كما غير معروف موقفهم من الحركات السياسية والدينية الاخرى ومن قضايا حيوية كالمرأة والرق والقصاص الديني، ومعاداة اميركا، والاصرار في الوقت نفسه على طلب المساعدة الغذائية والعسكرية والنقدية منها!

لا يوجد لدى الجماعة أي تصور واضح عن كيفية القضاء على الرشوة والفساد الاداري، في مصر على الاقل، وطرق توفير مئات آلاف الوحدات السكنية والوظائف لمئات آلاف الخريجين كل عام، في الوقت الذي تعيش نسب متزايدة تحت خط الفقر بكثير. وكل ما يعرف عن الحركة في مثل هذه المواقف هو صراحة قولهم: دعونا نحكم وسترون العجب!

وبمراجعة مواقعهم على الانترنت نجد مدى ضبابية اهداف الحركة، حيث ورد في احدها ان من اهدافهم السعي لاصلاح سياسي واجتماعي واقتصادي من منظور اسلامي شامل في مصر، وكذلك في الدول العربية التي يتواجد فيها الاخوان المسلمون مثل الاردن والكويت وفلسطين! ولكن لم يتبرع احد بشرح ما يعنيه ذلك، وهل سيكون المرشد العام هو الخليفة؟ وان وجد أي شرح فهل هناك اتفاق تام عليه؟

ومن أهداف الجماعة دعم «الحركات الجهادية ضد الاستعمار في غزة والعراق ودعم لبنان ضد «حركة الفجر»! كما يدعون للاصلاح من خلال تكوين الفرد

والاسرة والمجتمع ثم الحكومة الاسلامية، فالدولة فأستاذية العالم وفقا للاسس الحضارية للاسلام! ومن الطبيعي ان ليس هناك أسس معروفة ومتفق عليها لما يسمى بالحضارة الاسلامية!

وورد في كتاب «الاسلام» لـ«سعيد حوى»، أحد كبار قياديين الاخوان في سوريا، ومن الجيل الثالث بعد البناء، أن البشر قسمان: مسلمون وكافرون، وأن الذين يرون علينا كبيرا أن «نسترق» الكفار «أي نتخذ منهم عبيدا» واهمون، فالذي يرفض عبودية لله يستاهل أن يكون عبدا! كما أن لا حق لأهل الذمة في وظيفة من وظائف الدولة ولا حق لهم في الشورى أو السيادة.

ويقول في الجزء 2 ص 17 «... والآن وقد انتهى الرق فلا يستعبد حر في المجتمع الاسلامي، أما اذا دخلنا معارك مع الكفرة، أيا كانوا، وقتلنا رجالهم فماذا نفعل بنسائهم وأولادهم؟ والحل هو توزيع النساء والأطفال على المحاربين كعبيد، ويعاملوا بمقتضى أحكام معاملة العبيد، وطريق الحرية مفتوح أمامهم اذا سلكوه وتحل مشكلتهم ببساطة وهدوء...».

وحسب معرفتي وعلمي المتواضعين لم يتصد أحد حتى الآن لكلام «الحاج حوى» أو يعلن عن عدم الاتفاق معه علما بأن صفحات الكتاب الثمانمائة تحمل أهوالاً أكبر بكثير، وننصح بالاطلاع عليه، لمزيد من التشويش في معرفة فكرهم المشوش

العلاقة بين الفقر والتدين

يُبين استطلاع أجراه معهد غالوب الأميركي للأبحاث أنه كلما زاد فقر الدولة وتخلّفها كان للعامل الديني دور أكبر في حياة السكان. فبنغلاديش الأكثر فقراً عالمياً، هي الأكثر تديناً، فـ 99% من شعبها يعطي الدين أهمية قصوى، والعكس في السويد، والدول الاسكندنافية عموماً، فهي أقل اهتماماً بالنواحي الدينية، وهي في الوقت نفسه أغنى دول العالم، حيث يهتم 17% فقط من شعبها بالقضايا الدينية. وربط الاستطلاع بين تزايد أهمية الدين في حياة الأشخاص، وتزايد معدلات الفقر في بلادهم، وكمثال النيجر واليمن واندونيسيا ومالاوي وسريلانكا والصومال وجيبوتي وموريتانيا وبوروندي. وكشف الاستطلاع الذي أجري في 114 دولة على مستوى العالم، وتم نشره على الموقع الإلكتروني للمعهد، أن هناك علاقة عكسية بين ارتفاع نسبة دخل الفرد سنوياً، وأهمية الدين في حياته، موضحاً أنه إذا كان دخل الفرد يتراوح بين صفر و2000 دولار سنوياً، فإن أهمية الدين تصل إلى 95%، ثم تقل إلى 92% إذا كانت نسبة الدخل بين 2000 و5000 دولار سنوياً، ثم تتناقص إلى 82%، إذا كان مستوى الدخل بين 5001 و12500 دولار سنوياً، لتصل إلى أقل نسبة لها وهي 47% حينما يزيد الدخل السنوي للأفراد على 25 ألف دولار سنوياً. وجاء في التقرير أن الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي حققت المفارقة في هذه العلاقة، إذ على الرغم من كونها إحدى أغنى دول العالم، إلا أن 65% من شعبها يرون أن الدين مهم في حياتهم اليومية، على عكس الدول الغنية المتقدمة الأخرى.

وذكر الاستطلاع أن الدول الثرية بكل شيء، والتي بها أقل معدلات الاهتمام بالدين في الحياة اليومية هي: أوستينا، والسويد، والدانمرك، واليابان، والصين، والمملكة المتحدة، وفيتنام، وفرنسا، وروسيا، وبيلاروس، إذ سجلت الأخيرة نسبة 34% من شعبها يهتم بالمسائل الدينية في حياته اليومية، فيما سجلت أوستينا 16%.

وشمل الاستطلاع أيضاً عدداً من الدول العربية والأفريقية والإسلامية التي تفاوتت نسب أهمية الدين في الحياة اليومية لشعوبها، إلا أنها بقيت نسباً مرتفعة، وكانت المفاجأة «لمن قام بالاستفتاء» أن تأتي مصر، رائدة التوير في العقود الماضية، على رأس قائمة الدول الأفريقية والعربية من ناحية اهتمام شعبها بالقضايا الدينية، حيث بلغت النسبة 97%، تليها السعودية وتركيا والجزائر

والكويت، وكانت هذه الدول متقدمة «أو متأخرة!» على البحرين والإمارات وقطر وعمان والمغرب. كما كانت المفاجأة الثالثة تجاوز النسبة في سوريا الـ 80 %. وقد نُشر التقرير كاملاً في جريدة «المصري اليوم».

ونعتقد أن هناك ملاحظات جادة على الاستبيان، فبالرغم من صغر عدد من شارك فيه، بسبب تعدد الدول المشاركة، إلا أن المعهد ربما اعتمد على مجموعة من الحقائق المعروفة الأخرى في الوصول إلى ما توصل إليه. ففيتنام، البوذية تاريخياً، لا ينتشر فيها الاهتمام بالدين مثل غيرها، إلا أنها أكثر فقراً من دول مجاورة لها مثل تايلند، الشديدة التدين. كما نجد أن تخلف الدول النفطية، بالرغم من غناها، وتعمّق المشاعر الدينية في أميركا بالرغم من ثرائها، ربما يعودان لوجود جهات تستفيد من أوضاعها الدينية وتحقق منها أرباحاً مالية من خلال جمعياتها أو مؤسساتها الدينية. وفي السياق نفسه لوحظ أن «مظاهر» التدين في رمضان الماضي في الكويت فاقت أية سنة قبلها بكثير، ولكن صاحبها «مظاهر» تخلف مساوية لها! ففي الوقت الذي زاد عدد من أحيوا العشر الأواخر من رمضان في مسجد الدولة من 50 ألفاً إلى 75 ألفاً إلى 90 ألفاً، ليبلغ 160 ألف مصلٍّ في ليلة 27 رمضان. وورد في صحف الفترة نفسها تقريباً أن كويتياً ضُبط وفي ملفه أسماء 63 ابناً «مزوراً»! وأنه تم الكشف عن تعيين 63 طبيباً بشهادات مزورة! وأن 29 ألف كويتي ممنوعون من السفر، أي 3 من بين كل مائة كويتي! وأن 15 ألف قضية أمام المحاكم، غالبية أطرافها مواطنون! وأن النيابة العامة تطالب المواطنين بـ 60 مليون دينار! فإذا كانت هذه حال الكويت الصغيرة والمرفهة والمدللة، فما هو حال باكستان ومصر ونيجيريا؟

العلمانية والعقل والحل

يقول فكتور هوغو:

THOSE who make you believe in absurdities can make you commit
atrocities

أولئك الذين بإمكانهم دفعك للاعتقاد بسخائف الأمور بإمكانهم أيضاً دفعك
لارتكاب الفظائع.

* * *

كان رجل يسير على جسر عال عندما شاهد شخصاً يتسلق حاجز الجسر بقصد الانتحار، فصاح به أن يتوقف عن فعلته. وعندما أصبح يقربه سألته، لماذا يود قتل نفسه، فنظر إليه هذا بحزن وسألته عما يدفعه لأن يسمع أسبابه، بعد أن فقد الأمل في كل شيء. فسألته الرجل إن كان مؤمناً أم ملحداً فرد هذا قائلاً: إنه مؤمن، فسألته إن كان مسيحياً، أم بوذياً أم يهودياً، فرد الآخر بأنه مسيحي. فرد صاحبنا بفرح ظاهر، قائلاً: وأنا كذلك. ثم سألته إن كان بروتستانتيًا أم كاثوليكيًا، فقال إنه بروتستانتي، فصاح هذا بحبور أكبر، وأنا كذلك. واقترب منه خطوة أخرى، وسألته إن كان بروتستانتيًا معمدانيًا أم بروتستانتيًا من الكنيسة الابسكولوجية، فرد بأنه من المعمدانية، فصاح صاحبنا ببهجة، وقال وأنا كذلك. ثم سألته إن كان من الكنيسة المعمدانية التابعة للرب أم من الكنيسة المعمدانية الإلهية فقال إنه من المعمدانية التابعة للرب، فصاح والدموع تترقرق في عينيه وهو يقول: وأنا كذلك. وسألته بصوت تخنقه العبرات إن كان من المعمدانية الإصلاحية الأصلية أم المعمدانية الإصلاحية المعدلة، فقال إنه من المعدلة، فنظر له الرجل باستغراب عجيب لهذه الصدفة واقترب منه كثيراً حتى أصبح بمحاذاة قدمه، وقال: وأنا كذلك. وسألته إن كان ينتمي للكنيسة المعدلة في عام 1789 أو المعدلة في عام 1915، فرد قائلاً إنه ينتمي للمعدلة سنة 1915، هنا قام الرجل بدفعه إلى النهر ليلقى حتفه، وهو يقول: اذهب إلى الجحيم أيها الكافر!

تبين هذه النكتة التي توزع على الإنترنت أن البعض، وربما الأغلبية، على استعداد لأخذ أكثر المواقف تطرفاً لأسباب أكثر من واهية، فالبحث عن أوجه الخلاف الديني أو العقائدي مع الآخرين وبناء المواقف عليها عملية ليست صعبة، ولو بحثنا في أسباب الأزمة الطائفية التي مرت بها الكويت أخيراً لوجدنا أن كل من شارك فيها برأي أو موقف من هذا الطرف لا بد أنه بنى رأيه أو موقفه على

معطيات تاريخية راسخة في ذهنه. والحال نفسه ينطبق على الطرف الآخر الذي فعل الشيء ذاته من منطلقات أو تأويلات وتفسيرات محددة موجودة في ذهنه كما في ذهن غيره، فمن على حق هنا؟

وفي جميع الأحوال نرى أن فرص الاتفاق بين الطرفين أكثر من فرص الاختلاف، ولكن العاطفة الجاهلة، والأطراف المستفيدة من وجود الخلاف وما أكثرها، تدفع دائماً بنقاط الاختلاف إلى السطح، بحيث لا يمكن قبول أو رؤية غيرها، وهنا يغيب العقل وتسيطر العاطفة «الجاهلة» على النفوس والتصرفات، ويظهر الحمق في أروع أشكاله!

وبالتالي لا يصبح أمام المجتمعات المماثلة لنا غير اتباع العلمانية سبيلاً، وهي التي حاول بعض المعممين ومن مسدلي الغتر على رؤوسهم تصويرها بكونها معادية للدين، والعكس أكثر صحة، فليس هناك من حماية للأديان والمعتقدات من تسلط الدولة والجهلة كالعلمانية، فهنري الثامن، ملك إنكلترا، هجر الكاثوليكية، عندما رفض الكرسي البابوي طلبه بالموافقة على تطليق زوجته، وأجبر شعبه على اتباع البروتستانتية التي عين نفسه، وذريته من بعده على رأس كنيستها، نقول ذلك بصرف النظر عن أي المذهبيين، أو الدينين، أقرب للصحة. والأمثلة على تسلط الدولة على الدين والدين على الدولة أكثر من أن تحصى وتعد، وبالتالي فالعلمانية، التي يرهبها رجال الدين لأنها تكشف تسلطهم وتحكمهم في رجال السياسة، هي التي كانت السبب في تقدم جميع المجتمعات الغربية إنسانياً وعلمياً وسياسياً وثقافياً، وبغير اتباعها لا يمكن للنفوس أن تهدأ، ولا أن يطمئن أي طرف لسلامته إن بقي على معتقده أو يهدأ باله من الاعتداء عليه وتكفيره فقط، لأنه فسر بعض الأمور «الخلافية»، وهي خلافية أصلاً، بطريقة مختلفة!

الانتحار الجماعي

عرف التاريخ الحديث، وبالذات في السنوات الثلاثين الأخيرة، الكثير من حالات الانتحار الجماعي، وخاصة بين المنتمين إلى الجماعات الدينية، سواء لأسباب خاصة أو سياسية، وربما كانت هناك حالات مماثلة قديما ولكن تفاصيلها غير واضحة، كحركة الحشاشين التابعة لحسن الصباح وغيرها من الفرق الانتحارية. وأول حادثة موثقة من هذا النوع وقعت في أواخر عام 1978، وقد تابعتها في حينها وأنا مشدوه، وكانت محصلتها 909 أميركيين بين رجل وامرأة وطفل، من أتباع شعب المعبد الذين قضوا انتحارا في مدينة جونغستاون بغويانا الأمريكية الجنوبية، بعد أن أقنعهم «نبيهم» «جيمس جونز» بتناول شراب يحتوي على سم السيانييد للتخلص من حياتهم بعد رفض روسيا، التي كان شعب المعبد يتفاوض معها، طلب هجرتهم الجماعية لها، وبعد تورطهم بقتل عضو كونغرس وآخرين قرب معبدهم. وقد أرعبتني وقتها مشاهدة صور الأمهات وهن يقمن، دون وجل، بإطعام السم لصغارهن، ومنهم رضع، ثم تناوله بعدهم، بلا تردد! ولا تزال صورهن، وهن يحملن أطفالهن، ماثلة في ذهني حتى اليوم. وقد أدركت في حينه كم هي مرعبة فكرة الموت لدى الإنسان العادي المسالم، وكيف ينقلب نفس الإنسان إلى مجرم أو مجنون بمجرد تشربه بمبادئ عقيدة دينية تستسهل الموت لأنفه الأسباب.

وفي الفترة من 1994 وحتى 1997 قام أتباع معبد أخوية أو جماعة الشمس Order of the Solar Temple بسلسلة من محاولات الانتحار الجماعية نتج عنها موت 74 عضوا، ترك بعضهم رسائل وداعية ذكروا فيها أنهم هاربون من كم المراء، والهيبيوكروسي والاضطهاد في هذا العالم، وأنهم يشعرون بأن أرواحهم بعد موتهم ستذهب إلى نجم في السماء! وبيّنت سجلات الجماعة التي صادرتها شرطة مدينة كوبيك في كندا أن بعض أعضائها تبرعوا بمبالغ كبيرة لزعيمهم جوزيف ممبو. وفي 26 مارس 1997 مات 39 عضوا من أتباع جماعة بوابة السماء Heaven's Gate في عملية انتحار جماعي في مزرعة رانشو سانتافيه في كاليفورنيا، ونقلت محطات التلفزيون وقتها وقائع اقتحام المزرعة من قبل الشرطة. وكان أتباع هذا المعبد يؤمنون بأن أرواحهم ستغادرهم للحاق بـ«قوارب اجسادهم البشرية» التي ستقلهم في رحلة على متن سفينة فضاء يعتقدون بأنها ستلحق بالمذنب «هال بوب»! كما قام بعض هؤلاء بالتخلص من اعضاءهم التتاسلية، قبل الإقدام على الانتحار، استعدادا لحياة تنتظرهم بلا ذكر ولا أنثى!

إن هذه الأمثلة وغيرها الكثير تبين أن الموت في سبيل عقيدة أو مبدأ ديني أمر لا يقتصر على شعب أو دين معين، أو حتى على زمن محدد، فالهوس الديني كاف ليس فقط لأن يقدم البعض على قتل نفسه، بل وأيضا السعي لتوقيع أكبر عدد من الضحايا، بصرف النظر عن كونهم أبرياء أو غير ذلك، وكل ذلك نتيجة رؤى أو خيالات معينة.

كما تبين أن قتل شخص لنفسه في عملية انتحارية في سبيل عقيدة معينة لا تجعله هو أو ما يؤمن به صحيحا!

وجهة نظر غربية

أجرت قناة في تورنتو، كندا مناظرة بين طوني بلير رئيس وزراء بريطانيا السابق، والكاتب «كريستوفر هيتشنز» تعلقت بمدى أهمية الدين في حياتنا. وحضر المناظرة جمهور زاد على 2700. وبالرغم مما عرف عن بلير المحامي ورئيس الوزراء البريطاني السابق، من قوة حجة وخبرة، اضافة الى تدينه، بعد ان تحول قبل سنوات الى الكاثوليكية، فان هيتشنز المريض والمنهك من مرض السرطان، تغلب عليه بالحجة، وفق رأي الحضور.

سعى بلير للتركيز على ان الدين قوة لا يستهان بها في نشر الخير في العالم، وجاء ذلك في رده عن سبب وقوفه الى جانب أميركا في حربها الاخيرة في العراق. وقال ان العالم بحاجة للاعتقاد الديني ليبقى متماسكا. ورد هتشنز بأن هذا صحيح بنفس مقدار حاجة العالم لتخويف الاطفال من عذاب النار، وجعل المرأة في مستوى ادنى، فهل هذا في مصلحة البشرية؟ واضاف ان للدين دورا في منع استتباب السلام في الشرق الاوسط، كما ان له دورا فيما تتعرض له النساء من اضطهاد في انحاء عدة من العالم، واعطى مثالا على حالات الاغتصاب والقتل الجماعية التي تعرضت لها رواندا، والتي تعتبر من اكثر دول العالم تدينا، والتي لا يزال كثير من المسؤولين عن ارتكاب الجرائم الجماعية فيها يختبئون خلف منابر الكنائس فيها! وهنا رد بلير معترفا بأن الدين تم استخدامه لارتكاب ما لا يمكن وصفه من جرائم، ولكنه كان ايضا المحرك للخير، فجميع من شارك ويشترك في التخفيف من المجاعة في افريقيا هم من المدفوعين دينيا. كما كان للمبادئ الدينية، وبالتعاون مع المبادئ العلمانية، الدور الاكبر في القضاء على الرق، وقال ان الدين هو الذي رعى محادثات السلام في شمال ايرلندا، وكيف انه حضر أخيرا اجتماعا لردم هوة الاختلاف الديني بين الطرفين المتنازعين! وهنا رد عليه هيتشنز ساخرا بأنه تأثر من كلامه عن تجسير الاختلافات الدينية في ايرلندا، ولكن من اين جاءت الاختلافات الدينية؟ أليس من أكثر من اربعمائة سنة من قتل كل طرف لأطفال الطرف الآخر، اعتمادا على اي نوع من المسيحيين هم؟ ورد بلير بأنه يعترف بان للدين دورا في كثير من الصراعات، ولكن مما لا طائل تحته وضع الدين جانبا في حياتنا، فعلى رجال السياسة والدين، في عصر العولمة الذي نعيشه، ايجاد طريقة لدفع الناس للعب دور ايجابي اكبر مع بعضهم.

وكانت نتيجة المناظرة ان 68 % من الحضور اتفقوا مع هيتشنز على ان الدين

عامل مهدم اكثر منه قوة دافعة! وهذا ينطبق على مجتمعاتهم المتحررة والمفتوحة والحرّة في مناقشاتهما، ولا تنطبق بالضرورة على مجتمعاتنا «!». وفي السياق نفسه قامت هيئة متخصصة في الاستقصاءات في شهر سبتمبر الماضي بطرح ما يشبه اسئلة المناظرة على عينة من 18000 مشارك من 21 دولة، والسؤال عما اذا كان للدين تأثير ايجابي في حياة البشر، وجاءت النتائج متفاوتة، فأكثر من 90 % في السعودية واندونيسيا قالوا نعم. وجاءت بعدهم الهند والبرازيل وجنوب افريقيا بنسبة 56 % واميركا 62 % وكوريا 60 % وتركيا 45 % تقريبا الى أن تصل الى اقل من 20 % في دول اوروبا الغربية، وبالاخص بلجيكا والسويد.

أصحاب الرسالة الخالدة

تغنى حزب البعث البائس طوال تاريخه الدموي والمأساوي بشعار «أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة»! وشارك الكثيرون الحزب في تأييدهم للشعار والاعجاب به وترديده، ولكن لا أحد من هؤلاء عرف يوما، أو يعرف الآن، شيئا عن مضمون أو فحوى، أو حتى الخطوط العريضة لتلك الرسالة الخالدة! فهل يعني ذلك أننا الأمة الوحيدة التي لها رسالة خالدة «سرية» وبقية أمم الأرض «كخه» مثلا، وبلا رسالة؟ أما بخصوص الشق الأول من الشعار والمتعلق بـ «أمة عربية واحدة»، فهذا لا شك حلم يراود مخيلة الكثيرين، ولكن دون تحقيقه الصعاب الكثيرة، وأولها فشلنا، ككويتيين ومصريين وعراقيين وسوريين في أن نكون كويتيين ومصريين وعراقيين وسوريين في المقام الأول. فخلق هوية وطنية واضحة وخلق مواطن صالح منتم لوطن محدد أمر سابق لأي وحدة بين أي كيانات. فالوحدة المصرية السورية وغيرها من محاولات الوحدة الأخرى فشلت، ليس لأن الصهيونية والاستعمار وقوى «الاستكبار» الأخرى كانت ضدها، بل لأن عوامل الفرقة كانت أصلا في أطراف الوحدة نفسها، إضافة إلى أن محاولات الوحدة تلك كانت فوقية وليست نتيجة رغبة شعبية، والهوية هنا لا تعني البطاقة الشخصية، بل ما هو أعمق من ذلك بكثير! فكم هي نسبة العرب من دول شمال إفريقيا ومصر والسودان والمشرق الذين يودون الحصول على تصريح أو اذن هجرة لأوروبا والعالم الغربي؟ لا شك أن معرفة النسبة، لو تم إعلانها، سيشكل صدمة لأصحاب الرسالة الخالدة!! ونحن بحاجة لأن نكون مواطنين كويتيين صالحين قبل أن نكون بمراحل كثيرة عربا وحدويين أو طالبي وحدة مع «الأشقاء» الآخرين!

وبهذا الصدد، نشرت «الإيكونومست» البريطانية الرصينة قبل فترة مقالا تحليليا عن «عالم العرب، والعوامل المشتركة بينهم»، ورد فيه أن العالم العربي، وهي تسمية مضللة، يتكون من 22 كيانا، وينتمي لأعراق وطوائف وملل وديانات وأصول متنوعة من مصريين اقباط ولبنانيين موارنة وسوريين أرثوذكس وبربر مغاربة وجزائريين ومسيحيين أفريقيين ووثنيين سودانيين وعراقيين كرد وسريان واشوريين ويمنيين يهود وبيض وسود وسودانيين مسلمين إضافة لعرب الجزيرة! ويمتد هذا العالم من المحيط الأطلسي وحتى الخليج، ومن الصحراء الأفريقية جنوبا وحتى تخوم هضبة الأناضول شمالا، وبالتالي فإن أي تعميم عمن يسمون بالعرب، وخبراتهم، وغرائزهم وأساليب عيشهم وسياساتهم ومعتقداتهم يجب أن

يتم التعامل معه بحذر كبير. فان تقول انك عربي يشبه أن تقول أنك أوروبي، فالهوية هنا غير واضحة! فمن الصعب أن تقنع سودانيا مسيحيا أو وثنيا لا يتكلم العربية أو من بربر جبال المغرب أنه عربي، وأنه عضو في الجامعة، فهو سيسخر من ذلك حتما.

وبالرغم من ان الغالبية تتكلم العربية إلا أن من الصعب على السوري «العادي» أن يفهم ما يقوله المغربي «العادي» مثلا، فالحدود التي تقسم الدول العربية حاليا لم تحددها تاريخيا الفروق الاثنية أو الدينية بين الدول العربية، بل هي التي تدخلت الدول الاستعمارية، التي كانت تحكم المنطقة، لوضعها بناء على رغبات أهالي المنطقة وشعوبها، للقضاء على نزاعات الحدود بينهم، إن بسبب الفروق الأثنية او القبلية وغيرها. وبالرغم من ان غالبية العرب يدينون بالإسلام فان غالبية المسلمين ليسوا بعرب، وبالرغم من أن الإسلام يعطي العرب شعورا قويا بالانتماء إلا أنه عامل تفريق في الوقت نفسه، إما بسبب الفروق المذهبية بينهم أو بسبب عدم إيمان الكثير من المتشدددين دينيا بالقوميات السياسية. كما أن العالم العربي يشكو من قلة محاولات الوحدة بين كياناته، ودور الجامعة العربية لم يزد يوما عن محاولة عقد لقاءات لمناقشة الاختلافات بين الاعضاء والاستمرار في مناقشتها دورة بعد أخرى.

ولو نظرنا لفسيفساء الشعوب العربية لما وجدنا لباسا موحدًا أو طعاما مشتركا يجمعهم، أو ملامح قريبة من بعضها. وحتى الدول الخليجية الأقرب من غيرها لبعضها البعض تختلف شعوبها في غالبية مظاهرها الداخلية والخارجية وفي العادات والطعام، وحتى في الأهواء والرغبات. ويقول كاتب المقال ان قناة الجزيرة ربما قامت بدور في تقارب العرب أكثر من اي جهة أخرى.

الإنكليزي البغيض!

على الرغم من التاريخ الاستعماري البغيض الذي اشتهر به الإنكليز، فإن من الصعب عدم الاعتراف لهم بقدرات ومعارف لم تتوافر لغيرهم، وهي التي مكنتهم من خلق أكبر إمبراطورية استعمارية عرفتها البشرية، والاحتفاظ بها لأطول فترة. والحقيقة أن الكثير من الدول، حتى المتحمسة دينياً، مارست نوعاً أو آخر من الاستعمار المشابه، وإن بصورة أكثر قسوة وبشاعة. كما أن قلة من الزعامات والدول التي لا توجد لديها نوازع استعمارية ورغبة في استغلال قدرات الغير و«نهب» ثرواتهم، وعمليات الفتح الدينية هي نوع من الاستعمار السيئ السمعة. تسنت لي معرفة الشعب الإنكليزي والعيش بينه قرابة ست سنوات، بخلاف عشرات الزيارات المتقطعة الأخرى، واستطيع القول إنهم، وبعد قطع صلتهم بتاريخهم الاستعماري السابق، من أكثر شعوب الأرض رفقاً في التعامل مع الآخر واحتراماً له.

في أواخر الستينات، أخبرني شاب كويتي أنه بحاجة إلى استشارة طبية غير مكلفة، بسبب ظروفه المالية، فأخبرته بأن العلاج في لندن مجاني! التقيته بعد اسبوع فأعلمني أنه تعالج ووصفوا له خمس ابر، وأنه شعر بتحسن كبير بعد الثانية وتوقف عن أخذ الباقي، لكنه يشعر بالخوف لأن بواب مسكنه أخبره أن طبيباً يبحث عنه، وأنه زاره مرتين وانتظره في «اللوبي» مرات، وقد يخبر الشرطة عنه، وأنه يطلب مساعدتي! هدأت من روعه وذهبت معه إلى المستشفى، وتبين هناك أنه مصاب بمرض جنسي مُعدٍ وأن طبيبه خاف من أن يقوم صاحبنا بأي اتصال جنسي، قبل شفائه التام، ونقل المرض إلى غيره، وأن إنسانيته وإحساسه بالمسؤولية دفعاه إلى زيارة سكن الشاب لأكثر من 5 مرات خلال اسبوع! فكم نسبة من لديه مثل هذا الاحساس بالمسؤولية بيننا؟!

وفي منتصف الثمانينات، تقدمت بطلب الحصول على إجازة قيادة مركبة، وقبل الاختبار سألت من أعرف عن الأمور التي يجب التركيز عليها أثناء الفحص، فقال الأول: احرص على تعديل المرآة العاكسة قبل التحرك بالسيارة، وطلب آخر أن أربط حزام الأمان ونصح ثالث بتشغيل الإشارة قبل السير، لكن الجميع طلب مني عدم تبادل الحديث مع المفتش أو الفاحص أو مجاملته أو رشوته، فهذا كاف لأن اسقط في الاختبار إلى الأبد.. ولا أدري ما أصبح عليه الوضع الآن بعد أن دخل جماعتنا، وأولاد العم الآخرون، في كل مرفق حكومي في بريطانيا! لكن وقتها

لم يكن بإمكانني غير الاعجاب الشديد بكل تلك الأمانة والانضباطية في العمل، اللتين نفتقدهما في بلادنا بشكل واضح! وغني عن القول أننا لسنا مجبرين على الاعجاب بمن استعمر بلداننا لعقود طويلة، لكن لماذا نعجز دائماً - وبشكل بائس - في أن نتعلم منهم كيفية احترام العمل ومشاعر الغير؟

الإباحية المقدسة

نشر وليم كراولي William Crawley في موقعه الإلكتروني تعليقا على فيلم وثائقي سبق أن قامت الـ «بي بي سي» بإنتاجه تعلق بالأرباح التي تجنيها كثير من الشركات من تجارة وصناعة المواد الإباحية، إن بصورة مباشرة أو غير ذلك. وتضمن الفيلم الوثائقي مقابلة مع thomas Strobhar، وهو منظم حملات وكاثوليكي محافظ، سبق أن أخذ على عاتقه كشف الاستثمارات التي كانت تقوم بها المؤسسة الاستثمارية التي تدير أموال الكنائس الكاثوليكية، ومنها مؤسسة «الإخوان المسيحيين» المالية، وهي واحدة من أكبر المؤسسات التي تتعامل معها الكنائس الكاثوليكية في أميركا «وهي هنا تشبه «الأذرع» الاستثمارية العديدة لحركة الإخوان المسلمين في بلداننا»! حيث ذكر أن «الإخوان المسيحيين» يقومون باستثمار مليارات الدولارات لمئات الجهات الكنسية والمعاهد الدينية والهيئات التعليمية الدينية ومنظمات التأمين الصحية الدينية وغيرها، وأنها قامت في السنوات الأخيرة، بتغيير استراتيجياتها، بعد أن أقر أساقفة الكنائس الكاثوليكية الأميركية في عام 2003 تعديلات جوهرية تتعلق بأخلاقيات سياساتها الاستثمارية وسبل وطرق استثمار أموال الكنائس، حيث سمحت لمؤسسات مثل «الإخوان المسيحيين» وغيرها باستثمار الملايين في شركات تحقق أرباحا مجزية من تجارة المواد الجنسية، شريطة أن تكون الأرباح الناتجة عنها غير كبيرة مقارنة ببقية الإيرادات!

ويقصد بـ«الأنشطة الإباحية» شركات إنتاج الأفلام الجنسية والمنشورات الفاضحة والمطبوعات الإباحية وبرامج الكمبيوتر الجنسية وخدمات الهاتف والإنترنت الجنسية.

وبالرغم من هذا التساهل الذي تبديه الكنائس الكاثوليكية مع الشركات في ما يتعلق باستثماراتها، فإنها لا تبدي المرونة نفسها في أمور جنسية أخرى، مثل اسهم شركات إنتاج وترويج مواد تخالف تعليمات الكنيسة كصناعات الكوندوم، أو الواقي الذكري، والعيادات، والمنتجات المتعلقة بخدمات الاجهاض، أو مختبرات تجارب استخدام النخاع الشوكي!

وقال متحدث باسم «الإخوان المسيحيين» في البرنامج الوثائقي انهم يهدفون للتأثير في الاتجاهات الأخلاقية للشركات التي يقومون بالاستثمار فيها، وأن سياساتهم الاستثمارية منسجمة مع منطق العصر الذي نعيش فيه، وأن أية جهة

مسيحية لا تتفق معها في استثماراتها وتشكك في أخلاقية ما تقوم به، يجب عليها بالتالي عدم استخدام الإنترنت، وتجنب السكن في أي من فنادق العالم، والتوقف عن مشاهدة التلفزيون!

وهكذا نرى بوضوح تام أن المسألة، لدى الجهات الدينية أو غيرها، تخضع للريح والخسارة! وفي هذا السياق أتذكر أننا في أوائل الثمانينات كنا في أحد المصارف نتنافس مع مؤسسة مالية دينية على وديعة بعشرات الملايين تخص جهة علمية متخمة بالأموال النقدية. وكنا في وضع أقوى، حيث إن مدير أموال الجهة العلمية كان يصر على أن يعرف ما سيحصل عليه من عائد في نهاية سنة، وهذا ما لم يكن بإمكان الجهة المالية الدينية التعهد به، والتي كانت دائمة التشدد بانها تعمل بنظام المراهبة، وليست بالتالي في وارد التقيد بفوائد محددة مسبقا. وعندما أصر المدير على موقفه، وتبين للجهة «الإسلامية» أن الوديعة الكبيرة ستطير منها، قامت بالايحاز لـ «الهيئة الشرعية» لإيجاد مخرج، وكان لها ما أرادت، وفازت بالوديعة!

وقديما قيل: كرمال ملايين الدنانير تمحى وتعديل ملايين النصوص!

كتاب يوم الحشر والصحة المدرسية

قام الملك الإنكليزي وليام الفاتح William the conqueror في عام 1086، بناءً على نصيحة مالية تتعلق أساساً بتحصيل الضرائب، بحصر وتدوين كل تفاصيل العقارات الزراعية والسكنية والضرائب في إنكلترا وبيان ملاكها وموقع كل قطعة في سجل سمي Doomsdays book، أو: كتاب يوم الحشر، والمكون من جزأين، والذي تضمن كذلك جرداً تفصيلياً للأبواب والشبابيك، وللماشية، بما فيها الحيوانات الأليفة والطيور، والعربات، وكل ما يمتلك، من أجل فرض الضرائب عليها. وبعد ألف عام تقريباً لا يزال هذا السجل في حالته الأصلية معروضاً في المتحف البريطاني، بالرغم من كل ما مر بإنكلترا من حروب وأهوال، ويطلع عليه سنوياً الملايين، ونسبة كبيرة من طلبة المدارس.

وفي الكويت، ناشد «مركز البحوث والدراسات»، في سعيه لطبع مجلات ثقافية واجتماعية تكاد تفقد من المكتبات، وحتى لدى العامة والمهتمين بقضايا الثقافة والتراث، من لديه بعض أعداد مجلة «الصحة المدرسية»، التي صدر العدد الأول منها عام 1959، التقدم بها للمركز لتكملة عملها التوثيقي، والذي يصبح بغيرها العمل ناقصاً.

لقد عجزنا عن حفظ تاريخنا ومطبوعاتنا التي تعود لنصف قرن فقط، فكيف الحال بتلك التي تعود لعشرات القرون؟ أليس هذا دليلاً دامغاً على تخلفنا حضارياً؟ فإنكلترا التي حكمت نصف العالم لقرون، والتي فرضت لغتها وثقافتها على نصفه الآخر، لم تتجح في تحقيق ذلك بالمدفع فقط، كما فعلت سيوفنا وسنابك خيلنا، وما أرقناه من دماء، بل بحرصها على ثقافتها وتاريخها وتدوين وتوثيق وحفظ كل صغيرة وكبيرة بصرف النظر عن أهميته، والاحتفاظ به بشكل سليم يسهل الرجوع له، فسجل أحوال الطقس ودرجات الحرارة مثلاً يعود لـ 300 سنة تقريباً! إن الحضارات لا تكتب بدماء الضحايا، ولا تطبع تحت سنابك الخيل، بل بمداد أقلام المفكرين والمثقفين والمؤرخين. فمتى نتعلم من الآخرين شيئاً من الحضارة التي لم نمسك يوماً بتلابيبها؟

محامي الشيطان

كانت الكنيسة الكاثوليكية عندما ترغب في تطويب، أو اختيار من تقوم برفعه لمرتبة القداسة، كانت تقوم بتعيين من يقوم بالبحث في سيرته، والتأكد من صحة ما نسب له من معجزات، وكان هذا يلقب بـ «محامي الشيطان Devil's Advocate».. ولو اعتبرنا إسرائيل عدوة لنا، مع العلم أننا أشدّ عداء لبعضنا البعض، وعلى ضوء أحداث الثورة التونسية والمصرية، واحتمالات وقوع ما يماثلها في دول أخرى، وما يعنيه ذلك من احتمال إعادة النظر أو حتى إلغاء الاتفاقيات والمعاهدات السابقة، فإن رفض إسرائيل المسبق للسلام معنا، على طريقتنا وبشروطنا، يبدو أمراً مبرراً، وشكها في مكانه من أنظمتنا، فاصرارها على مناقشة أدق التفاصيل في أية اتفاقية يمكن قبولها! ولو كان الفلسطينيون مكان الاسرائيليين لما فعلوا غير ما تفعل! فكيف يمكن لدولة يمثل وضعها الاستراتيجي الهش، الوثوق بمن لا يثقون بأنفسهم وأنظمة حكمهم، خاصة بعد أن ربطت غالبية الدول العربية نفسها بالقضية الفلسطينية، أو العكس؟ وكان الأمر يهون لو ترك الفلسطينيون لتدبير أوضاعهم مع اليهود منذ البداية، لانتهد مشاكل الطرفين منذ زمن، ولكن هذا الربط العربي بفلسطين جعل إسرائيل تخاف السلام مع أنظمة غير مستقرة متعددة المصالح والأهواء، وبالتالي فإن الصلح بيننا وبينها لن يتم حتى نتصالح نحن مع أنظمتنا، وتصبح شعوبنا حرة، وقتها ستزول إسرائيل أو تذوب في المحيط الأكبر، ان رفضت السلام، وحتى ذلك اليوم دعونا «نغني» مع أحمد مطر:

أنا السبب، في كل ما جرى لكم يا أيها العرب. سلبتكم أنهاركم والتين والزيتون والعنب. أنا الذي اغتصبت أرضكم، وعرضكم، وكل غال عندكم، أنا الذي طردتكم من هضبة الجولان والجليل والنقب. والقدس، في ضياعها كنت أنا السبب. نعم أنا.. أنا السبب. أنا الذي لما أتيت المسجد الأقصى ذهب، أنا الذي أمرت جيشي في الحروب كلها بالانسحاب فانسحب. أنا الذي هزمتكم، أنا الذي شردتكم وبعثكم في السوق مثل عيدان القصب، أنا الذي كنت أقول للذي يفتح منكم فمه Shut up. نعم أنا.. أنا السبب. في كل ما جرى لكم يا أيها العرب وكل من قال لكم، غير الذي أقوله، فقد كذب، فمن لأرضكم سلب؟ ومن لمالكم نهب؟ ومن سواي مثلاً اغتصبتكم قد اغتصب؟ أقولها صريحة بكل ما أوتيت من وقاحة وجراة وقلة في الذوق والأدب، أنا الذي أخذت منكم كل ما هب ودب، ولا أخاف أحداً، ألسنت رغم أنفكم، أنا الزعيم المنتخب؟ لم ينتخبني أحد لكنني اذا طلبت منكم في ذات يوم

طلباً هل يستطيع واحد منكم أن يرفض لي الطلب؟ أشنقه، أقتله، أجعله يغوص في دماؤه حتى الركب، فلتقبلوني، هكذا كما أنا أو فاشربوا «من بحر العرب»، ما دام لم يعجبكم العجب ولا الصيام في رجب، فلتغضبوا اذا استطعتم بعدما قتلت في نفوسكم روح التحدي والغضب، وبعدها شجعتكم على الفسوق والمجون والطرب، وبعدها أقنعتكم، أن المظاهرات فوضى ليس إلا وشغب، وبعدها علمتكم أن السكوت من ذهب، وبعدها حولتكم الى جليد وحديد وخشب، وبعدها أرهقتكم وبعدها أتعبتكم، حتى قضى عليكم الارهاق والتعب، يا من غدوتم في يدي كالدمى وكاللعب، نعم أنا.. أنا السبب، في كل ما جرى لكم فلتشتموني في الفضائيات ان أردتم والخطب، وادعوا علي في صلاتكم ورددوا: تبت يداه مثلما تبت يدا أبي لهب!!

جريمتي، مذهبي

مواقفي الدينية لم تتغير منذ نصف قرن، دون مبالغة، ومن يعرفني يعلم ذلك جيداً، وسبق أن وضحت آرائي السياسية وغيرها من خلال مختلف الوسائل، وأكدت بإصرار وتكرار عدم تعصبي لأي مذهب أو عرق أو حتى طعام أو لباس، وأنني كويتي بكل خلجات نفسي، وثقافتي ولغتي عربية صرف، وهي التي أتقن أكثر من غيرها، ولكنني أصبحت أشعر أكثر وأكثر وكأن علي قطع إحدى ذراعي علنا لكي أدلل على صحة أقوالي وصدق مشاعري نحو وطني، وولائي لنظامه السياسي، وليس لأية دولة أخرى، قريبة أو بعيدة!

ما دفعني لهذا القول، ليس التافه من التعليقات المريضة على مقالاتي، بل ما أصبحت أقرأه وألاحظه من ازدياد وتيرة الاتهام بالطائفية والعنصرية من قبل الكثيرين في حقّي، وحق غيري، وبالذات من الذين يفترض ترفعهم عن مثل هذه الصفات. فإذا علمنا أن «المدرسة الجعفرية» لم تتل ما تستحقه من ذكر في المصادر، أو أن قلة سمعت بالشاعر «الملا عابدين الشاعر»، أو أن قلة أقل لم تعلم بأننا وآباءنا وأجدادنا، وحتى جمال عبدالناصر وبرامج «صوت العرب» لم يعرفوا اسماً للخليج غير الفارسي، فما العمل؟ إما أن ننتظر قيام من ليس على رأسه ريشة بالكتابة عن هذه المواضيع إنصافاً للتاريخ السياسي والثقافي، وهذا ربما لن يحصل، أو أن يبادر شخص مثلي بالتطرق إليها، وهنا سوف لن يسلم من سيل الاتهامات بالشعوبية والطائفية وغيرها.

ولا أدري لماذا تصبح الكتابة عن مثل هذه الاختلالات أمراً مقبولاً إن كتب عنها من ينتمي إلى طائفة معينة من المواطنين، وتصبح غير مقبولة، وحتى مذمومة إن كتب عنها غيره؟ ألا يستحي هؤلاء من احتكار الوطنية لأنفسهم، ووصم غيرهم بالعنصرية والطائفية من دون دليل، وهم برفضهم لكتابات هؤلاء في مثل هذه المواضيع يصبحون عنصريين وطائفيين، بعلم أو بغير ذلك؟

إننا جميعاً بحاجة ماسة إلى إعادة التأهيل في ما تعنيه المواطنة، وأن نتوقف عن الحكم على الآخر من خلال مقال أو موقف. فأين الجريمة في أن يقول أي كائن من كان أن الخليج كان يعرف بفارس، أو أن المدرسة الجعفرية لم تتل حقها من التدوين، أو أن هناك محاباة في التوظيف لفئة غير أخرى، إن كانت تلك هي الحقيقة؟ ولماذا يكون لفرد ما حق احتكار «الوطنية» والتحدث بما يشاء فقط لأنه جاء من هذا الجانب، ولا يحق لغيره لأنه جاء من الجانب الآخر؟ وكيف يمكن أن

نقيس المواطنة بغير الدم والمال، وإن صح ذلك، فمن الذي ضحى خلال الغزو والاحتلال بماله ودمه، أكثر من غيره؟ ألا تكفي كل تلك التضحيات لتعطي صاحبها الحق في أن يكتب فيما يشاء دون أن يتهم بالولاء لدولة أخرى، في الوقت الذي يحمل فيه الآلاف من مدعي الوطنية أكثر من جنسية؟

لقد ساقنتي الظروف خلال الاحتلال لترؤس لجنة الإعاشة في الرياض، وتسلمت من الحكومة 80 مليون دولار لصرفها على اللاجئين الكويتيين، وأعطيت حق التوقيع على حساب اللجنة منفردا مع المرحوم حمد النخيلان، وعند انتهاء مهمتي سلمت سفيرنا وقتها في الرياض كشفا يحتوي على أسماء 36 ألف «كويتي عربي فحل أصيل» من الذين تلاعبوا بمستنداتهم وسرقوا دولتهم وكذبوا في إفاداتهم، فطلب مني السفير الاستر على الأمر. وحدث التلاعب نفسه في منحة الـ 500 دينار التي وزعت على الذين بقوا في الكويت أثناء الاحتلال، وتكرر السلب والنهب من الذي يحب البعض وصفهم بـ«الأقحاح»، الذين يحق لهم الحديث في كل أمر وموضوع دون حساسية، في كل مجال، سواء في الجواخير أو الأعلاف أو المتاجرة بمواد الإعاشة، وكانت آخر فضائح «عيال بطنها» وجود 7000 معاق كذاب وسارق للمال العام!

لا أدعي أنني مواطن صالح أكثر من غيري، ولكن بإمكانني الادعاء بأنني، على الأقل، كفيت وطني من شري، وهذا ما لم يفعله الكثير من أصحاب الأصول والفصول.

فهل وصلت الرسالة؟ لا أعتقد، فنفوس هؤلاء مملوءة بالشكوك، والعقل في سبات!

شكرا لك، سيدتي

سيدتي، اعذري تقصيري في عدم التقاط اسمك، عندما أخبرتني به، ونحن في ذلك المكان الصاخب، وشكرا لسماحك لي بتقبيل يدك امتنانا لما أدخلته من سرور على قلبي بقليل كلماتك!

عملت في مصرف، موظفا ومديرا وعضوا في مجلس الإدارة، قضيت غالبية الفترة في إقراض الشركات والأفراد، وكنت أجد أمارات الرضا، وأحيانا الامتنان، في عيون زبائني كلما التقيت بهم. مرت السنون وتركت البنك واتجهت للعمل الحر وهواية الكتابة الصحفية التي جرفتني إلى آفاق جديدة، وأصبحت أتلقي قدرا أكبر من الشنائم المبطنة والسباب العلني والتهجم الشخصي، ولكن آثارها كانت سرعان ما تختفي عند سماع كلمة جميلة من قارئ وتحية أجمل من قارئة، وكيف أن صباحهم لا يعني الكثير إن لم يبدأوه بقراءة المقال مع فنجان قهوة أو «سحبة نفس» سيجارة.. كلمات قليلة تقال بعيون تلمع محبة أصبحت تتسني كل مشاعر التعب واليأس، وتزيد بمراحل عن كلمات الشكر التي كنت ألقاها أثناء عملي المصرفي. فشكرا لك يا سيدتي على إدخال الفرح لقلبي في تلك الليلة ودفعي للاستمرار في الرقص دون تعب مع شريكة دربي، ضاربا عرض حائط ذلك البيت الجميل، بكل الآراء السلبية من حولي، وبكل ذلك التعصب المذهبي الذي أعمى العيون، وبكل ذلك العنف في التعامل الذي نتج عن عمى القلوب، والذي دفعني مرات، بيني وبين نفسي، للتفكير في التوقف عن الكتابة بعد أن فشلت من التحذير من التطرف الديني والغلو في معاملة الآخر، وبعد أن ذهبت سدى دعواتي إلى التسامح، وبعد أن أصبح أكثر الناس تساهلا يلومني على انتقاداتي على الجمعيات الدينية وعلى نفاق بعض رجال الدين المتطرفين، وسرقات لجانهم الخيرية واحتيالهم في جمع الأموال، وان على الكتابة ونقد «جماعتي»! وكنت أقول لهم إنهم مخطئون، فلم أقصر مع أحد، وأن لا خطر كبيرا من هؤلاء في الوقت الحاضر، ولكنهم سيصبحون كذلك إن زاد الضغط والحصار عليهم، وعندما جاء هذا الوقت أصبح لهذا الفريق عجيب وغريب ثوابته بعد أن عجزنا عن رفض سخيف ثابته من سبقه!

شكرا لك يا سيدتي على التفاتتك الجميلة في تلك الليلة، وما تسببت به، من غير أن تعلمي، في إصراري على الاستمرار في طريقي، ووقف قرار نقل القلم من كتف المقال إلى كتف الكتاب، ولو إلى حين.

ملاحظة: لا تقل لي ما هو معتقدك أو طائفتك، بل قل كيف تنظر إلي وتعاملني من خلالها!

شعب يستحق الحياة

قامت مؤسسة استقصاء قبل سنوات بتوجيه سؤال لعدد من المواطنين الأمريكيين عن الجهة التي سيقومون بالاتصال بها هاتفياً، في حال حدوث كارثة أمامهم تمنعهم من التحرك، وإن ليس في إمكانهم إجراء غير مكالمة هاتفية واحدة، وكانت اجاباتهم جميعاً تقريباً أنهم سيقومون بالاتصال بأسرهم! وعند توجيه السؤال نفسه لعدد مماثل من اليابانيين اجاب الغالبية بانهم سيقومون بالاتصال برئيس عملهم وسؤاله عما يجب القيام به!

وعندما ضرب الزلزال المرعب الأخير السواحل اليابانية، وما رافقه من تسونامي هائل وتسرب نووي مخيف، اضطرتت، على غير عاداتي، لمشاهدة التلفزيون بكثافة، ومراقبة ورصد ردود فعل هذا الشعب العظيم، والذي كان له الدور الكبير، الذي يجب ألا ينسى في تحريرنا، ولفت نظري عدم رصد وسائل الاعلام لأية حالات نهب وسلب، كالتي شهدتها مدن اميركية وقت اعصار «كاترينا»، كما لاحظت من ردود اليابانيين على أسئلة مراسلي القنوات الفضائية مدى اتسامهم بالهدوء ودقة اتباعهم لتعليمات السلطات وسيطرتهم على مشاعر الذعر والهلع، كما كان لافتاً اهتمامهم الكبير بمن كانوا يعملون معهم أو تحت امرتهم، وما أبدوه من قلق يتسم بوقار شديد، لمصير من فقدوا من أهل، وقلقهم التالي على زملاء العمل وشركائهم، كما شاهدت أكثر من مشهد مؤثر لرجال أعمال التقى أحدهم بعامل يعمل لديه، فاغرورقت أعينهم بالدموع فرحاً، وكيف تعانق آخر مع زميل له في الشركة نفسها وكأنهما اخوين لم يلتقيا منذ سنوات، وكيف أبدى أكثر من رجل أعمال قلقه على مصير موظفي شركته التي جرفت السيول مصنعه وساوته بالأرض، وما قاله من انه يستطيع العودة لنشاطه السابق بموظفيه وعماله وليس بالمباني والمعدات، وقد بينت لي كل هذه الحوادث الصغيرة، والكبيرة في معانيها، مدى عظمة الياباني وولائه لمكان عمله، مالكا أو عاملاً، وهو الولاء النابع من ولائهم لوطنهم.

ان هذا الشعب الذي عانى الكثير في تاريخه الحديث من الكوارث وابادة شبه جماعية في الحرب العالمية الثانية، عندما القيت على مدنه قنبلتان نوويتان تسببتا في مقتل وتشويه ابدى لمئات الآلاف، والذي أصبح بعدها أكثر ميلاً للسلام العالمي، ومحبا للحرية، والذي يمنعه دستوره من المشاركة في اية عمليات حربية خارج ترابه، أصبح في فترة قياسية ثاني أكبر قوة اقتصادية في العالم، على الرغم

من افتقاره لكل الموارد والثروات الا العنصر البشري، وكما خرج من تحت رماد هيروشيما وناكازاكي شامخاً، سيرتفع من خلال انقراض الزلزال والكارثة النووية والتسونامي اقوى مما كان، ولكن هذا لا يعني انه لا يحتاج لنا، وعلينا جميعاً ان نمد له يد العون من خلال الحملة الوطنية لمساعدة الشعب الياباني.

عندما سقط قناع الإخوان

يعتبر وجدي غنيم، بالنسبة للكثيرين، ضمير حزب الإخوان المسلمين في مصر وخارجها. وفي ثورة الشباب الأخيرة في القاهرة صمت، كغيره من الانتهازيين، صمت القبور ولم يخاطر بتصريح أو برأي معارض أو مؤيد، ولكن بعد زيارة يوسف القرضاوي للميدان وصلاته في الجموع التي خطفت أحلام الشباب، ظهر غنيم وساهم وغيره في التصويت بـ«نعم» للتعديلات المشوهة على الدستور المصري، وأصبح بعدها أكثر بروزا وتصريحا.

وفي شريط مسجل تكلم، بصراحة ومن دون تردد، في قضايا الديمقراطية والحرية والدستور وحكم الشعب والمال العام، والمجتمع المدني، وحرية تكوين الأحزاب، وقال، من دون تقية أو دبلوماسية أو تزييف، وهذه تحسب له، ان آراءه تمثل الرأي الصحيح الممثل لرأي الإخوان، وموقفهم في كل مكان، والكويت ليست باستثناء. فبالنسبة له، وفق الرابط التالي، فإن الديمقراطية تقوم على الكفر، وإن قيل ان هذه هي السياسة، فعلى الأخ المسلم أن يقول: هذا هو الاسلام، وان من لا يريد الدولة الإسلامية، التي يدعو لها حزب «الإخوان»، فإنه كافر ومرتد، لأن الديمقراطية تقوم على أسس كفر! كما لا يوجد شيء اسمه «حرية التدين والاعتقاد»، بل هناك «حد الردة»! ولا يوجد شيء اسمه «حرية تكوين الأحزاب»، كما لا يوجد ما يعرف بـ«مال الشعب»، فالمالك الحقيقي للمال هو الله، وليس الشعب.

ويعتقد السيد غنيم و«الإخوان» عموما أن المسيحيين اكفر الكفرة، ولا محل لمن يقول انه يقبل رئيسا حتى لو كان صليبيا! وان المجد يجب أن يعود للدين، أو تراق منا الدماء في سبيل ذلك.

ليس في ما قاله هذا الداعية أي مبالغة أو خروج عما هو معروف عن «الفكر الحقيقي» للإخوان وآرائهم في الحكم والديموقراطية وحرية المعتقد وتكوين الأحزاب، فهل هذا ما تريده الشعوب؟ وهل ستستبدل مصر دكتاتورية مبارك بدكتاتورية «الإخوان»؟ للمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع للرابط التالي: <http://www.youtube.com/watch?v=zxIxGscLNNu>

داروين الإنسان والرق

يعتبر تشارلز داروين واحداً من أعظم علماء البشرية، ولا تزال نظريته عن أصل الأنواع، وبعد 160 عاماً، الأكثر جدلاً في التاريخ حتى يومنا هذا، ويعتقد أنها وضعت حداً لحيرة ونقاش دام طويلاً.

لم يكن داروين عالماً فذاً فحسب، بل صاحب رسالة إنسانية، فقد كان له موقف واضح من الرق سبق به عصره، وهو ما تكون لديه نتيجة مشاهداته على سواحل أميركا الجنوبية من وحشية في التعامل مع الرقيق باسم الكنيسة المسيحية، وكيف أن بعض أولئك البؤساء، وبينهم مسلمون، كانوا أكثر فهماً ورقياً مقارنة بسادتهم البيض! وقد شكلت تلك المشاهد لديه البعد الاتي الانساني الانثروبولوجي الذي ساعده لاحقاً في التوصل الى نظريته الإنسانية ومواقفه المناهضة لفكرة التفوق العرقي. وقد سعى للكشف عن مظاهر الاخوة الانسانية عبر البحث والاستقصاء العلمي، من دون التورط في أي ممارسات سياسية. ومع وفاته في 1822 ودفنه في مقبرة «وستمستر آبي» للعظماء، وصلت نظرياته عن «أصل الانسان» الى منعطف مهم وحظيت باهتمام العلماء وأصبحت لاحقاً المصدر الاساسي للتعرف على طرق التطور واساس النظريات الحديثة. وعلى الرغم من مواقف داروين الإنسانية هذه، فإن المتدينين من قومه لم يفوتوا فرصة لدحض أفكاره ومحاولة محوها ومنعها من أن تدرس، وكان أشد المناهضين له أولئك المطالبون ببقاء نظام الرق على ما هو عليه! ومعلوم أن إنكلترا سبقت العالم بتحريم الرق رسمياً في 1833، وتضرر من ذلك الكثير من مالكي الرقيق، ومنهم عرب ومسلمون، وكان الرق معروفاً في الكويت حتى ما قبل الاستقلال بقليل، وحتى بعد ذلك بسنوات في مناطق أخرى من الجزيرة العربية، وهو ما عاصرت شخصياً خلال عملي المصرفي. وقد بينت الدراسات الحديثة أن الإنسان العصري لم يتوقف عن التطور، ولكنه أصبح أكثر بطئاً من ذي قبل، وأن الإنسان كان مميزاً في عالم الحيوان وخلق لنفسه بيئة تحميه من تقلبات البيئة بطريقة لم تعرفها الحيوانات الأخرى، فالدب القطبي مثلاً تطور بتكوين فراء يحميه من البرد، ولكن الإنسان، بدلاً من ذلك، قام بقتل الدب واستخدم فراءه للحصول على الدفء. مما يعني أن التقدم التقني ابطأ من تطورنا الجيني، ولكن لم يوقفه، فلو قمنا بمقارنة جينات مختلف البشر حول العالم لأمكن ملاحظة مدى ما هنالك من اختلاف بين الأجناس البشرية وكيف تطور البعض بمعزل عن الآخر منذ أول ظهور للجنس البشري، وأحد اشكال التطور هذه لون

البشرة، كما أن هناك ظاهرة أخرى تتعلق بصعوبة قيام الجهاز الهضمي لدى البشر بهضم مواد معينة وتغلب غيرها عليها وهضمها بسهولة، فمادة السكر في الحليب، أو اللاكتوز، وقبل أن يعرف الإنسان الزراعة قبل عشرة آلاف سنة تقريبا، لم يكن بإمكانه هضمها، ولكن مع التطور البشري أصبح البعض أكثر تقبلا أو تحملا لهذه المادة من غيرهم، فـ 99 % من الإيرلنديين مثلا يتحملونها، أما في جنوب شرق آسيا، حيث لا تنتشر بينهم منتجات الحليب، فإن النسبة لا تزيد على 5. %.

لحظات السعادة النادرة

ربما من الصعب حصر اللحظات التعيّسة أو المؤلمة التي مررت بها شخصياً على المستوى العام، وملايين غيري، في نصف القرن الماضي، بسبب كثرتها، ولكن أعتقد أن من السهل حصر اللحظات السعيدة أو المبهرة، لقلتها. وبالتالي أعتقد أن تحرير وطني من احتلال عراق صدام كان الخبر المفرح الأهم في حياتي وحياة الكثيرين غيري. كما كان العثور على صدام حسين وتنفيذ الحكم شنقاً به كمجرم أمراً مفرحاً جداً، وثالثاً تتالي الثورات العربية التي رفعت من جرعة الأمل في نفوسنا المتعبة من كثرة الهزائم، والآن أتى خبر العثور على الهارب ابن لادن وقتله، فهذا الرجل لم يكتف بإلحاق أفدح الأضرار بممتلكات وأرواح شعوب الدول التي يعتقد بكفرها ولا يتردد في استخدام كل منتجاتها والتتعم بكل خيراتها، بل امتد شره لذويه فحطم السلام الداخلي والخارجي لملايين المسلمين في الغرب، واضر ببني وطنه وامتدت شروره لتشمل الكويت وأندونيسيا وقطر والأردن والصومال واليمن والعراق، التي قتل تنظيمه أكثر من عشرة آلاف من مواطنيها، غالبيتهم من الأبرياء!! يموت هذا الشخص وفي رقبته جريرة موت 15 ألف ضحية، غير الذين قتلهم، هو أو أعوانه، في أفغانستان والشييشان، ثم بعد كل هذا يأتي من هم على شاكلة أحد الكتاب الدعاة، ويرسل رسائل «التوتر» التالية: «يفرح بقتله، أي ابن لادن، من انطلت عليه مؤامرات الأميركان أو من خالفه في العقيدة، ومن يظهر الإسلام ويبطن غيره، أما نحن فلا نفرح لقتل كافر لمسلم»! وفي رسالة أخرى يقول: «قد نختلف مع بعض أفكار ابن لادن! ولكن اسأل الله ان يغفر له، ويتقبله في الشهداء، أما الجهاد الشرعي فهو ماض إلى يوم الدين»!

لثتي وحسن البنا

اضطرتت أخيراً للخضوع إلى مشرط جراح لزرع اسنان جديدة، وهذا تطلب إزالة قطع عظمية من الحنك، أو الذقن، باستخدام مطرقة ومنشار دقيقين، وزرعها في الجزء الأعلى من اللثة، وهذا تطلب قطع اللثة بطول 10 سنتيمترات، واستغرقت العملية أكثر من ثلاث ساعات متواصلة، وتم كل ذلك من دون ألم يذكر، وأنا في كامل وعيي، وكل ذلك بفضل فضيلة التخدير العجيبة، وهذا دفعني، فور العودة إلى البيت لأقرأ واكتب شيئاً عنه وعن أولئك العظام الذين ساهموا في تخفيف آلام ومعاناة مليارات البشر الذين أجروا عملية أو أكثر، وتبين المعجزة عندما نعرف حجم المعاناة الذي كان يتعرض له كل الماضي طوال آلاف السنين قبل توصل هؤلاء العظماء إلى التخدير الموضعي والكامل، حيث كان المريض يتعرض للحنق حتى يفقد وعيه ومن ثم اجراء العملية له أو بربطه ووضع قطعة جلد في فمه لبعض عليها وبعدها يبدأ النشر والتقطيع، أو يضرب في مكان من جمجمته فيفقد وعيه لساعات، أو ينوم مغناطيسياً، هذا غير اجباره على تناول الغريب من خليط الأعشاب المخدرة، أو تناول مخدر كالكوكايين أو المورفين لتخفيف آلامه، وهذه جميعاً لم تكن تجدي نفعاً، إما لضعف مفعولها وإما لخطورتها قبل واثاء وبعد العملية، الى أن جاء د. كراوفورد لونغ ليستخدم سائل الأثير، أو ether في 1842 في عملية جراحية لازالة ورم من مريض، وكررها على آخرين، ولم ينشر شيئاً عن منجزاته الا عام 1849، أثناءها قام وليم مورتن باجراء أول عملية علنية باستخدام المخدر، من دون أن يعرف بتجارب زميله كراوفورد، وكان ذلك في بوسطن. وفي عام 1947 اكتشف جيمس يونغ فعالية سائل الكلوروفورم في التخدير، وانتشر بعد أن استخدم في مساعدة الملكة فكتوريا عام 1853 في ولادة صعبة، ولكن لم يكن استخدامه آمناً على أي حال فتم التخلي عنه، أما الآن فقد تقدم علم التخدير واصبح تخصصاً عالي الأهمية، وتعددت أنواعه في التخدير العام، أما الموضعي فالأفضل حتى الآن هو الزاييلوكايين xylocaine.

ما نود قوله هنا أن لا أحد من هؤلاء الأفذاذ الذين كان لهم حتماً فضل كبير في تخفيف آلام أعضاء «لجنة تسمية الشوارع» في المجلس البلدي وبقية زملائهم في المجلس ووزيرهم صفر وكل «طوافيهم»، استحق أن يطلق اسمه على سكة أو «زنقة» في الكويت، في الوقت الذي نجد أسماء لنكرات تطلق على شوارع ضخمة وواسعة لا يعرف أحد شيئاً عن اصحابها. وكما سمي أحد شوارع الرميثية باسم حسن البنا، في الوقت الذي لا نجد فيه حتى سكة باسمه في وطنه مصر، هل لأن مصر تعتبره اربابياً مثلاً، ونحن لا نراه كذلك؟

الريحاني، أميناً

تاريخياً، ولأسباب بعضها ديني، لم يعرف العرب فن كتابة الرواية حتى عام 1914، عندما أصدر محمد حسين هيكل روايته «زينب»! ومع بداية ثلاثينات القرن الماضي بدأت روايات عبدالقادر المازني وطه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم بالانهمار. ولكن «كتاب خالد» كان أول رواية يكتبها عربي باللغة الانكليزية، وكان ذلك عام 1911 للشاعر والرحالة الاميركي اللبناني أمين الريحاني، الذي هاجر عام 1888، وهو في الحادية عشرة الى نيويورك، والذي عاد لوطنه بعدها، وجاب دولا عربية عدة، وصادق زعماءها ومنهم ابن سعود.

وبمناسبة مئوية «كتاب خالد» قامت جين أوبريان، مراسلة الـBCC في واشنطن، باجراء تحقيق عن أمين الريحاني، الذي توفي عام 1940، تطرقت فيه لروايته، وقابلت افراداً من عائلته ومن المعجبين به، وقالت إنه كان يقرأ المستقبل، فأحداث الرواية تشبه كثيراً ما يجري حالياً من ثورات وانتفاضات شبه كاسحة في شوارع ومدن العرب، وقالت إن قصته تمحورت حول أخوين لبنانيين هاجرا الى اميركا، تأقلم الأول مع محيطه، وفشل الثاني بالرغم من حياة البوهيمية التي عاشها، فاضطر إلى العودة لوطنه الذي لم يتحمل البعد عنه. وتتطرق الرواية لتعقيدات العلاقة الاميركية العربية في تلك الأيام، وكيف أثرت القيم الاميركية في العرب ودفعتهم للثورة على العثمانيين، لتنتهي الرواية بتظاهرات يقودها خالد، اللبناني، في شوارع دمشق! وكيف أن هذه العلاقة الغريبة بين أحداث الرواية وما يجري أعطت الرواية نكهتها بتطابق نظرات الريحاني وآرائه، من خلال أحداث الرواية، مع رفض الشباب للدكتاتورية والتسلط والظلم وانتهاك حقوق الانسان، في اشارة لأحداث ميدان التحرير بمصر وغيرها من العواصم العربية. وقال أحد اقرباء الريحاني إنه كان يطالب دائماً بتجسير العلاقة بين الشرق والغرب، وكان يرى في نفسه الطرف الأنسب في تلك المهمة، وأن أعماله التي تركها خلفه بينت بالفعل توجهاته الوطنية، ويقول السفير كلوفيس مقصود إن البذور التي زرعها الريحاني في مجمل كتاباته قد بدأت تعطي ثمارها، وبصرف النظر عن أي شيء فإن «كتاب خالد» أصبح أكثر صلة بواقع أوضاعنا اليوم.

من حطم مختاره ماي؟

ربما لم يسمع أحد منا بالباكستانية «مختاره ماي» من قبل، ولكن قصتها جديدة بأن تروى. ففي 2002 شوهد أخوها الأصغر يسير بصحبة فتاة من قبيلة أكثر نفوذا ومرتبة من قبيلتها، ولردع الغير عن التعدي على شرف القبيلة الأخرى الأرفع، ولو بالسير معها في الطريق، قرر حكماء القرية معاقبة الصبي بطريقة شرعية، وذلك بالحكم على شقيقته بالاغتصاب الجماعي من رجال القبيلة، وعلنا، وهذا ما حدث بالفعل.

وتقول «مختارة» إنها شعرت باليأس والمهانة، وكان أمامها أحد ثلاثة طرق: إما الانتحار، أو دفن نفسها بالحزن، وإما أن تواجه الموقف بقوة وتتحدى الظروف، وكان قرارها الأخير هو الذي دفعها لأن تتعلم وتفتتح مدرسة للبنات لتساهم في رفع مستواهن وتعريفهن بحقوقهن المهدورة.

عادت قضية «مختارة» للسطح مؤخرا بعد ان تدخلت المحكمة العليا في باكستان لوقف قرار احدى المحاكم بتبرئة خمسة من أصل الـ 14 رجلا الذين سبق وأن تمت إدانتهم بجريمة اغتصابها علنا، وهي الحادثة المأساوية التي أثارت في حينه مشاعر الكثيرين من مناصري المرأة والمدافعين عن حقوق الإنسان في العالم أجمع، ويبدو أننا لم نكن وقتها من هؤلاء، ولن نكون!

وباكستان اليوم بانتظار حكم محكمة الاستئناف بحق مقترفي هذه الجريمة المسيئة للخلق والضمير والنفس البشرية، ويذكر أن الرئيس الباكستاني السابق برويز مشرف سبق ان منع «مختارة» من السفر، ووضعها قيد الإقامة الجبرية، خوفا من أن تغادر باكستان للغرب وتفضح أنظمة بلدها، وعلى الرغم من أنها حصلت على جوازها مؤخرا، لكنها لم تحاول مغادرة وطنها.

لا أدري لماذا نحن بحاجة الى وقوع مثل هذه المآسي المؤلمة لنعرف مدى حاجة مجتمعاتنا لجبرعات كبيرة من زيادة الوعي والتعريف ببسط حقوق الإنسان، فما تتعرض له المرأة في المجتمعات المسلمة، وبالذات في المناطق المتشددة دينيا من باكستان وأفغانستان وإيران، هذا بخلاف دولنا الخليجية العامرة، أمر مؤلم ومؤلم جدا.

وفي تصريح للأنسة مختارة، التي تتمتع بوسامة لافتة، قالت إنها تلقت عروضاً كثيرة للزواج، وانها قبلتها، مع شرط موافقة زوج المستقبل العيش معها في قريتها والعمل معها في المدرسة، وقالت إنهم هربوا جميعا، لأنهم كانوا يطمعون في ما تملك.. من مال!!

أهواء ملالي وشيوخ القرون الوسطى

يعيش غالبية مسلمي أوروبا الغربية، وبعض الأقليات الأخرى، في مجتمعات متعددة الثقافات، فلها ما يشبه المحاكم الشرعية أو المحلية الخاصة بقضايا الأسرة والأرث وغيرها. كما يلعب رجل الدين دورا مهما في حياة هذه المجتمعات، وتم ذلك بفضل مجموعة من القوانين التي اقترتها برلمانات تلك الدول التي هدفت في البداية لخلق مناخ أفضل لهؤلاء المهاجرين. ولكن بعد مرور ما يقارب العقدين على هذا التسامح والتعدد الثقافي تبين لعلماء الاجتماع والسياسة وحقوق الانسان خطأ هذه السياسة، فقد استغل دعاة التزمّت والتشدد، ومن المسلمين بالذات، تسامح مجتمعاتهم الغربية الجديدة في استمرار اضطهادهم للمرأة كابنة أو زوجة أو اخت، أو حتى كأم، وكأنهم لا يزالون يعيشون في سابق مجتمعاتهم أو دولهم، سواء من خلال اجبارهن على الزواج المبكر، والعيش بالطريقة التي تناسب آباءهن أو الذكور من اخوتهن، أو الاقتران بمن يفرض عليهن، ورفض حقوقهن كبشر، وحتى ان تعلق الأمر بالدراسة واللباس، وعليه أعلنت السلطات الألمانية والايطالية والهولندية وغيرها فشل نظام تعدد الثقافات وأنها بصدد اعادة النظر فيه. وقال ديفيد كاميرون، رئيس وزراء بريطانيا، ان اتباع هذه السياسة زاد من تطرف الأقليات في بريطانيا، وان الدولة بحاجة الى هوية وطنية اقوى لمنع الآخرين من اللجوء إلى التطرف، وأن سياسة التعدد الثقافي دفعت كل طرف لأن يعيش منفصلا عن بقية المجتمع، وقلل هذا من درجة التسامح بينها بنسبة كبيرة. كما تحول المجتمع الغربي لغيتوهات، فهنا يعيش الباكستانيون، وهناك مسلمو الهند، ومنطقة ثالثة للايرانيين وغيرهم، وكل منها لها ثقافتها التي تساعد على الاستمرار في رفض الانصهار في المجتمع الأوسع والأكبر. وليس بالمستغرب أن نسمع قريبا بقوانين أوروبية «تضييقية» جديدة تهدف إلى الاسراع في عملية انصهار الأقليات بدرجة أكبر في مجتمعاتهم الجديدة، ولو تطلب الأمر استخدام «عضلات الليبرالية»، ان جاز التعبير، في تحقيق ذلك، فلا يمكن ترك تربية النشء لعقلية النجوع والقرى التي قدم منها هؤلاء بحجة الحق في «التعدد» الثقافي، فحقوق الانسان يجب ألا تترك لأهواء ملالي وشيوخ القرون الوسطى.

ماذا قالت وفاء؟

تقول الكاتبة والطبيبة النفسية وفاء سلطان، تعليقا على الأحداث التي تجري في بلداننا، إن الدكتاتور هو ناتج حتمي للثقافة الدينية! وإذا كانت الثورات ضد الطغاة مشروعة، بل وهي واجب مقدس للإطاحة بهم، فالأهم أن نثور على ثقافة ساهمت، ولا تزال، في خلق هؤلاء! وأنها واجهت كثيرا من الأسئلة التي قد لا تستطيع الإجابة عنها، لأن مواجهتها تتطلب جهدا وصبرا أمام قطيع مغيب الوعي، لا يعرف إلا أن ينطح من يقف في وجهه، وهو في طريقه لمذبحه! وتتساءل لماذا اشتعلت الثورات اليوم، وليس من قبل، علما بأن هذا الواقع المأساوي مستمر منذ عقود، وهو اليوم ليس بأسوأ مما كان عليه بالأمس؟ ولماذا بدأت الثورات في تونس وانتهت بسوريا ولم تمر على دول تفتقر أكثر منها للحرية؟ ولماذا اجهضت في بعضها، ولم تسفر عن وضع أفضل، حيث يُفترض أنها نجحت؟ وهل هناك أصابع أو عوامل خارجية وراءها؟ وقالت ان هذا الهيجان الجماهيري له أسبابه التي يحددها الوعي وأخرى يفرضها حيز اللاوعي، فالاعتقاد أن المشاركين في تلك الحركات هم من المُحِبِّطِينَ، الذين لم يعد أمامهم أي أمل في وضع أفضل قد يكون صحيحا، ولكن هذا الإحباط، إن أخذناه بمعناه السيكولوجي، لا يمكن أن يكون سمة لهؤلاء الثائرين، بل على العكس، فهم طبقة خرجت حديثا من دائرة إحباطها، واكتسبت قوة جديدة نفخت فيها روح التمرد. كما أن الإحباط يعني حالة من اليأس تجمّد صاحبها وتمنعه من أي حركة بغية تحسين وضعه. فهؤلاء ليسوا مُحِبِّطِينَ في الوقت الحاضر، بل هم خرجوا - ولو جزئيا - من حالة الإحباط التي عاشوها لسنين طويلة، أما من بقي منهم محبّطا، فليس له دور إطلاقا في تلك الحركات، فمن غير المتوقع أن الطبقة التي تعيش في المقابر مثلا قد شاركت في أحداث ساحة التحرير! فبنظرة بسيطة على ما كان الشباب الذين تجمهروا في الساحة يلبسون ويتواصلون بتلفوناتهم ومن خلال الإنترنت، لوجدنا أنهم من طبقة حديثة الإحباط، وتحررت لتوها من جزء منه. وبقدر ما يسبب القمع إحباطا، تسبب الحرية - وخصوصا في بداياتها - إحباطا، وكما تزيد الحرية من فرص النجاح، كذلك تزيد من فرص الفشل. فالحرية تضع الشخص أمام خيارات جديدة ليكون معتادا على مواجهتها، الأمر الذي يشعره بمسؤوليته الشخصية حيال وضعه، بعد أن كان يحمّل السلطات القائمة مسؤولية هذا الوضع! وما لم يملك الإنسان المواهب والإمكانات التي تساعد على أن يخلق من نفسه الشخص الذي يريد أن

يكون تصبح الحرية وبالا عليه، لأنها تعطيه الفرصة نفسها التي أعطيت لغيره، وماذا يفعل بهذه الفرصة ما لم يملك المواهب التي تساعد على الاستفادة منها؟ أي أن الحرية في تلك الحالة تعمق الفروق في الإنجازات بينه وبين غيره الأمر الذي يزيد من ضغوطه ويعمق إحساسه بفشله وبعجزه.

تقول وفاء سلطان: ان المراقب العادي لمجريات الأحداث قد يعتقد أن هذا الهيجان الجماهيري ما هو إلا تعبير عن رفض تلك الحركات للقمع الممارس عليها، الذي طال أمده، ومطالبة بحريات مستحقة منذ أمد، وقد يكون في الأمر بعض الصحة، لكنني لا أستطيع هنا أن أميز بين شكل وآخر من أشكال الحرية، فالحرية مهما تعددت أشكالها تبقى واحدة ولا يمكن الفصل بينها، فكيف تطالب تلك الحركات بالحرريات السياسية، ولا تطالب في الوقت نفسه بحرية الاعتقاد والتعبير؟ وهل يعقل أن ذلك الشاب الذي خرج لتوه من صلاة الجمعة وراح يهتف «الله أكبر» هو في حقيقة الأمر يطالب بالحرية كحق شخصي، وبغض النظر عن شكل تلك الحرية؟ إن كان الأمر كذلك، فلماذا لم نر عبر التاريخ الإسلامي حركات تطالب بإنصاف الأقليات كبشر لهم الحقوق نفسها؟ أو بإنصاف النساء كبشر لهن الحقوق نفسها؟ فتقارير الأمم المتحدة تكشف أن مئات، إن لم يكن آلاف، من النساء المسلمات يقتلن كل عام «دفاعاً» عن الشرف، فأين هي الحركات التي ثارت ضد هذا الظلم الذي لا يمكن أن يقابله ظلم آخر؟

إن الحرية مبدأ لا يتجزأ، وكما نطالب بتحررنا من قبضة الدكتاتور، كذلك يجب أن نطالب أولاً بتحررنا من ثقافة كرس وجود ذلك الدكتاتور، وكرس كره الإنسان لأخيه الإنسان في الوطن الواحد! ولا شيء يبرهن على نضوج الإنسان في فهمه للحرية، إلا إيمانه بحق غيره في أن يمارس تلك الحرية، وبالتالي لا يمكن أن أصدق أن ذلك «الثائر»، وهو يهتف «الله أكبر» يؤمن بحق الإنسان الذي لا يشاطره قناعاته الدينية في أن يستمتع بحرياته؟ وأن هؤلاء النسوة اللاتي يطالبن بحقهن في ممارسة الحرية السياسية، لا يمانعن من أن تمارس وفاء سلطان حقها في حرية التعبير؟ فلم يسمعن أحد يوماً يحتججن على ضرب المرأة في ديارنا أو على أنها ناقصة عقل وليس من حقها الشهادة منفردة وحصتها أقل في الميراث، فما الذي يقنعني بأن استيعابهن لمفهوم الحرية، كمفهوم شامل ومقدس، هو استيعاب ناضج وحقيقي؟

لم يحدث أن تغير مجتمع بشري تغييراً جذرياً من خلال ثورة من دون أن يسبق تلك الثورة تطور ثقافي تدريجي، وبالتالي فإن هذه الثورات هي في الغالب ثورة جياح ومحرومين وليست ثورة أحرار، وهذا يكسبها أهمية إنسانية أكثر، ولا يقلل

أبدا منها، فالجوع والحرمان أشد إيلاما للروح البشرية من القمع، إنها غريزة البقاء التي هي أقوى الغرائز وأقدسها، فقد يُقمع الإنسان ويظل حرا داخل عقله ومحتفظا بمعنوياته، أما أن يجوع أو يجوع أطفاله أمامه، ولا يستطيع أن يفعل شيئا، وخصوصا عندما يجد نفسه محاطا بغيلان تأكل الدجاجة بعظامها والبيضة وقشرتها، فالتقهر عندها يسحق نفسه وروحه معا.

المقال طويل ومثير وبإمكان المهتمين الإطلاع عليه في الإنترنت.

الوهم المفيد والحقيقة الضارة

لا يمكن أن يتقدم مجتمع بشري أو يتحضر دون جهد ووقت ومال. والأمم لا تتحضر وتتطور من غير سبب، أو محرك، وليس هناك أكثر أهمية من التعليم الصحيح لجعل التحضر والتطور ثابتين ومستمرين، وبالتالي يصبح للتعليم الفضل الأكبر، ويقف وراء مثل هذا النوع من التطور النوعي في تركيبة أي مجتمع. إن التعليم لا يمكن أن ينجح بغير حفظ حقوق الجميع والاهتمام بالضمان الاجتماعي وضمان حرية وحقوق الفرد بشكل مطلق. أما التقدم الحقيقي واللاحق بالأمم المتقدمة فيتطلبان إطلاق العنان للفكر البشري لينطلق إلى ما شاء.

ولو استعرضنا وضع دول العالم لوجدنا أن أفضلها على البشرية، وأكثرها تطوراً وتحضراً وتقدماً ومساهمة في الفكر الإنساني في الوقت نفسه، هي الأقل تعلقاً بالعقائد وبمعتقدات الماضي، والعكس صحيح، فكلما تخلف المجتمع زاد تمسكه بمعتقداته وتقاليده وأعرافه بسبب ارتباط معيشة نسبة كبيرة من المجتمع ببقاء مثل هذه المعتقدات دون تغيير. فلو افترضنا أن جهة علمية موثوقة ما اكتشفت مثلاً أن قبر السيد البدوي في مصر، الذي يحظى بما يقارب القدسية فيها، لا يحتوي على أي رفات بشرية، أو أي شيء آخر، فإن أول المشككين في مثل هذا الكشف العلمي هم الذين تعتمد مصالحهم ومعيشتهم، بل وحياتهم برمتها، على بقاء «الوهم» على حاله، فمجتمعاتنا بشكل عام تفضل «وهما مفيدا على حقيقة ضارة»! فمعيشة عشرات آلاف الأفراد، كسدنة المزارات والوكلاء والحراس وأصحاب المحال التجارية في المنطقة ومصنعي وباعة التعاويذ والأدعية والتذكارات والمطاعم وشركات النقل وأصحاب عشرات المهن الأخرى وأسرهم، تعتمد بشكل كلي على بقاء الوضع، أو الوهم على ما هو عليه لأهميته للاقتصاد والمجتمع وحتى أمن الوطن!

الشيشكلي والعرب

كان حسني الزعيم أول من قام بانقلاب عسكري في تاريخ سوريا، وسبقه في الانقلابات بكر «صدقي» عام 1936 في العراق. ففي مارس 1949 قام الشيشكلي باعتقال الرئيس شكري القوتلي وعين نفسه رئيساً. وتبعه في مسلسل الانقلابات أديب الشيشكلي، الذي أصبح رئيساً في ديسمبر 1949، وهذا فتح شهية عسكر بقية الدول العربية، حيث توالى انقلاباتهم في مصر والعراق واليمن وليبيا والجزائر والسودان وموريتانيا وتونس، وحتى لبنان والأردن والمغرب، وإن من دون نجاح يذكر. وتكررت الانقلابات بشكل غريب قبل أن يتعلم العسكر الدرس ويمسكوا بزمام الأمور، وليصبح الانقلاب عليهم صعباً، بعد أن تسلمت طوائفهم وأسرههم، بالتعاون مع أجهزة المخابرات، الحكم. وهكذا انتهت تقريباً مرحلة الانقلابات لتبدأ مرحلة دكتاتوريات الأسر! وفجأة غيرت انتفاضة تونس الشعبية الوضع لتتبعها مصر، ولتدخل ليبيا واليمن مرحلة الحرب الأهلية وتلحق بهما سوريا، وهذا دفع الناس للانتقال من بيوتهم إلى الشارع مطالبين بحريات أكبر وإلغاء قوانين الطوارئ وإطلاق سراح المعتقلين من الأبرياء ومحاكمة المفسدين، وإجراء إصلاحات سياسية، وحتى الآن تبدو كل هذه الحركات وكأنها انتفاضات شابة وغير دينية نجحت في كسر حاجز الخوف وأظهرت، لأول مرة، استعداد الكثيرين للتضحية بأرواحهم من أجل الكرامة والعزة «!!» وبالرغم من أن الغالبية مؤيدة لهذه الانتفاضات، قولاً على الأقل، إلا أن بعض «المثقفين» شعروا أن الأمر ينطوي على مخاطر كبيرة، فهذه الانتفاضات ستصاحبها فوضى وعدم استقرار، قبل أن تستقر بشكل نهائي، أن استقرت أصلاً! كما أن هناك احتمالاً كبيراً في أن تتجح القوى الدينية، والإخوان بالذات، في تسلم الحكم في أكثر من دولة، وهذا أخاف المثقفين والليبراليين، إلا أننا، كما يبدو، بحاجة لأن «نجرّب» حكم الإخوان، حيث يبدو أننا لم نتعلم من فشل تجربة الدولة الدينية في إيران، وبالتالي نحن بحاجة لفشل «عربي» لنثبت خواء فكر المسييسين دينياً، وميلهم المخيف نحو الدكتاتورية. كما من الضروري كشف أسطورة الدولة الدينية، فما يصدر عن أعضائها من ضجة، إضافة لتواضع لغتهم المحنطة التي تحاول ترويح سوء أفكارهم وخططهم، سرعان ما سيبين أن ما لديهم من حلول للمشاكل الاقتصادية والتربوية والسكنية ليست بأفضل من حلول غيرهم. كما أن عجزهم عن محاسبة زعمائهم ومرشديهم سيؤدي بهم في النهاية للدكتاتورية! إضافة إلى أن اهتمامهم بمجموعة من النصوص

العتيقة والهلامية الخاوية التي لا تصلح لقيادة دولة عصرية بكل تعقيداتها، سيعجل بنهايتهم إلى الأبد، وفوق كل ذلك ليس هذه الدول غير الديمقراطية طريقا، مما يعني أن عليهم القبول بـ«الآخر المختلف»، إن كان قبطيا أو كاثوليكيًا، وأن لهم ما للأغلبية من حقوق في الإدارة والحكم، فإن قبلوا بالأمر فإن ذلك سينيهي كل سابق ادعاءاتهم، وإن رفضوها فالنتيجة أكثر سوءا!

هل هناك حضارة إسلامية؟

اشتهر المفكر الراحل أحمد البغدادي بمقولة إن المسلمين هم الوحيدون في العالم الذين ينسبون الحضارة إلى الدين، علما بأنه لا توجد حضارة إسلامية ولا بوذية أو يهودية أو مسيحية! فالأديان لم تأت لتبني حضارات وتخترع وتشيد الصروح، بل لإبلاغ دعوة! ولو نظرنا إلى حضارات العالم القديمة، وحتى الحديثة منها، لما شاهدنا صلة وثيقة ومتداخلة لأي منها بدين معين، بالرغم من اعتناق أصحاب الحضارة لدين أو آخر. فالفراعنة وبلاد الرافدين القدماء وشعوب المايا والأزتك تركوا وراءهم شواهد واضحة تبين حضارتهم، ولكنهم لم يتركوا ديناً يتبع من بعدهم. ولم يعرف عن المسلمين أنهم تركوا كغيرهم آثاراً حضارية، فالمسجد الأموي الأكثر قدماً بين المواقع الإسلامية، كان كنيسة ارتوذوكسية، وآثار إسبانيا لم يعرف أنها صممت أو بنيت من المسلمين، وغالبيتها بنيت لأغراض غير دينية، فهي، بتصاميمها وموادها وعمالها إسبانية معجونة بثقافة البربر الأمازيغ، والدليل على عدم علاقة الحضارة بالدين أننا لا نجد في مهد الإسلام أي أثر أو معلم حضاري، سواء في المباني أو في الأنشطة الثقافية والفنية، وربما يكون فن الشعر هو الوحيد الذي نبغ فيه العرب المسلمون، لأنه الوحيد تقريباً الذي لا يحتاج إلى مدرب أو مبنى أو مدرسة أو مطرقة أو لون وريشة ووتر وآلة عزف! نقول ذلك ونضيف بأن الحضارات المعروفة كافة ارتبطت ونسبت إلى مناطق وثقافات جغرافية معينة، كالفرعونية والسومرية، ولكن لا يمكن نسبتها إلى دين أو معتقد. أما ما يقال عن «اختراع» المسلمين للصفير فلا يركن لأي دليل مادي واضح، وغير معروف حتى اسم من ينسب إليه الاختراع، أو حتى المنطقة التي اخترع فيها، وحتى إن صح ذلك فلا يعني الأمر وجود حضارة! كما أن الشيء ذاته يقال عن ترجمة التراث اليوناني القديم، فقد ذكر المرحوم البغدادي أن الترجمة قام بها غير المسلمين، من آشوريين ويهود، ممن كانوا يتقنون تلك اللغات الأجنبية، فالمسلمون كانوا أصلاً من محرمي دراسات المنطق والفلسفة، وكانوا يعتبرونها من أعمال الزندقة، ولكن تسامح الخلفاء العباسيين، وربما قريبتهم من «الزندقة»، سهل عملية الترجمة والنقل. كما أشك في أن أيّاً من هذه الأعمال المترجمة، قديمها وحديثها، يدرس حالياً في أي جامعة «إسلامية»! وبما أن الإسلام يجب ما قبله من أديان وثقافات، فإنه كان دوماً يمثل الفكر الغازي والماحق، وبالتالي يعتبر التصرف الذي قامت به حركة طالبان من نسف لتمثال بوذا في منطقة بانيان

مثالاً على تلك العقلية! كما أن مسجد «بابري» التاريخي في الهند بني على أنقاض معبد هندوسي، وعندما قام متطرفو الهندوس قبل سنوات بهدمه ثار خلاف بين الطرفين، دفع المئات أرواحهم ثمناً، ثم صدر حكم بتقسيم الأرض بين أتباع الديانتين، ليصبح المعبد مجاوراً للمسجد!

ولو راجعنا آراء السلف في العلماء الذين يفتخر بهم العرب والمسلمون وينسبون إليهم «حضارتهم» مثل الرازي وابن سينا والبيروني والفارابي وابن برد وابن الرومي وابن عربي وابن رشد، لوجدنا أن لا أحد من هؤلاء يعتبر مسلماً في نظر السلف! ليس القصد من هذا المقال التهجم، بل الحث على أن نبحث في تاريخنا ونصلح منه، ونبتعد عن الفارغ من الادعاءات.

الجائزة

يوليو 2011

يستضيف بنك الكويت الوطني كل عام تقريبا شخصية دولية مرموقة، لإلقاء بعض المحاضرات في مجاله، وكان «دانيال يرغن» Daniel Howard Yergin، الذي يعتبر من أكبر خبراء استراتيجيات وتاريخ النفط في العالم، ضيف هذا العام. عمل يرغن مستشارا لأكثر من إدارة أميركية، وهو مؤلف كتاب الجائزة The Prize الذي سنكتب عنه عدداً من المقالات، والذي أهله للفوز بجائزة «بوليتزر» المرموقة.

ولد يرغن عام 1947 وتخرج من جامعة «بيبل»، وحصل عام 1974 على الدكتوراه في «العلاقات الدولية من جامعة كيمبردج، وله برنامج تلفزيوني استضاف خلاله شخصيات عالية الأهمية كالرئيس بيل كلينتون وديك تشيني وغيرهما. وعلى الرغم من كل ما قرأت وعرفت عن النفط، مصدر حياة الكويت ومنطقتنا ورفاهية شعوبها، طوال نصف القرن الماضي، فإنني لم أكن أعرف مدى جهلي بهذه المادة ومدى أهميتها الخارقة إلى أن قرأت كتاب «الجائزة»، وكيف أن معارك وكوارث عالمية عدة وقعت بسبب النفط، ومنها هجوم اليابان على «بيرل هاربر»، والذي كان الكارثة والمفاجأة الأكبر في تاريخ أميركا، حتى «غزوة مناهتن»، التي تعتبر السخافة الأكبر في التاريخ. وكان الهدف من الهجوم الياباني على الأسطول الأميركي في هاواي هو تحطيمه ليصبح بإمكان الاسطول الياباني الوصول لحقول نفط جنوب شرق آسيا، دون عائق أو خوف.

كما يتضمن الكتاب، على مدى 900 صفحة من القطع الكبير، قصصاً مثيرة ومهمة عن الكيفية التي حصلت فيها شركات النفط الغربية، والأميركية والإنكليزية بالذات، على امتيازات التنقيب عن النفط في إيران والعراق والبحرين والسعودية والكويت.

تعتبر «شركة نفط الكويت» الشركة الأكبر والأقدم في الكويت، قبل أن تصبح تابعة لمؤسسة البترول، حيث تأسست قبل 77 عاما، ومع هذا لم توفق غالبا، بالرغم من عظم أهميتها، منذ أن ترك الانكليز ادارتها بعد تأميمها، بإدارة وطنية نزيهة، وأملنا كبير في أن تكون الادارة الشابة الحالية أكثر «نظافة» من غيرها! وقد وردت في كتاب «الجائزة» أمور وخفايا كثيرة عن قصة تأسيس الشركة، وكيف نافست شركة اميركية، وللمرة الأولى، شركة بريطانية على امتياز التنقيب في منطقة نفوذ بريطانية بحتة، ففي الصفحة 275 من الكتاب يروي المؤلف

قصة ذلك، وكيف أن مفاوضات منح امتياز التنقيب امتدت لعشر سنوات في لندن، أبدى خلالها أمير الكويت وقتها، الشيخ أحمد الجابر، امتعاضه الشديد لصديقه الميجور هولمز، الذي كان يمثل مصالح شركات اميركية في المنطقة، من قيام الشركات البريطانية بتوقيع امتياز التنقيب مع البحرين قبل الكويت، وكان ذلك عام 1931، واعتبر الأمر « طعنة في القلب»، وفق قوله، لما كان يعتقده من مكانة للكويت لدى بريطانيا، اضافة لأهميتها الاستراتيجية، ولما كانت تمر به وقتها من ظروف هي الأصعب في تاريخها، بعد أن نجح بائع النودل الياباني «ميكيموتو» في استزراع اللؤلؤ بكميات كبيرة، والقضاء على مصدر رزق قطاع كبير من الكويتيين، خصوصا بعد تأثر الكويت الشديد بالكساد العظيم، لدرجة دفعت حتى ملاك وتجار العبيد للتخلي عنهم دون مقابل تقريبا لعدم قدرتهم على توفير الغذاء لهم!

ويعود عدم ميل شركة Anglo - Persian Oil، البريطانية في التنقيب عن البترول في الكويت إلى أسباب عدة، الا أنها اضطرت في النهاية لفعل شيء بعد أن مثل سعي شركة Oil Gulf «غلف أويل» الاميركية للحصول على الامتياز، خطرا على مصالحها في منطقة نفوذها، وعجل في تحركها بعد فشل «اتفاقية الحماية»، بين بريطانيا والكويت، في قصر امتياز التنقيب عليها نتيجة تدخل «أندرو ميلون» سفير اميركا لدى بريطانيا واجبار الأخيرة على قبول بقاء شركتها طرفا في المنافسة، علما بأن عائلة «ميلون» كانت تمتلك الحصة الأكبر من أسهم غلف أويل!

تأخر الحكومة البريطانية لعشر سنوات في اقرار كيفية السير في موضوع امتياز التنقيب عن النفط في الكويت، دفع «س. كادمان»، رئيس شركة Anglo-Persian البريطانية، اضافة الى تطورات اخرى مع شاه ايران، الى أخذ زمام المبادرة والقدوم الى الكويت للتفاوض مباشرة مع أميرها، الشيخ أحمد الجابر، على حقوق الامتياز! ولكن الأمير الفطن والحذر رفض عرض كادمان، وطالب إعطاء شركة غلف الاميركية فرصة للمنافسة، وهنا تبين لكادمان ذكاء الشيخ، ووجد أن المنافسة بين الشركتين ستضرهما، ومن الأفضل بالتالي الدخول في اتفاق جانبي مع «غلف» لعدم اعطاء الكويت فرصة التلاعب بهما، وهكذا قام الطرفان في 1932 بتأسيس شركة نفط الكويت بنسبة 50% لكل منهما، مع اصرار بريطاني على أن تكون ادارة الشركة بيدهم. لكن مشاكل الشركتين لم تنته، فقد أثبت الشيخ أحمد الجابر أنه مفاوض صلب، وكان على اطلاع واسع بالتطورات السياسية في المنطقة وشروط منح الامتياز في العراق وايران والسعودية. كما لم يكن راضيا لقرار الحكومة البريطانية فرض سيطرتها الإدارية على الشركة، ولكنه قبل في النهاية بالتوقيع على اتفاقية التنقيب ومنح الامتياز لشركة نفط الكويت

المملوكة للشركتين بتاريخ 23 ديسمبر 1934، واللتين قامتتا على الفور بدفع مبلغ 35700 جنيه استرليني للشيخ، الى أن يتم اكتشاف النفط بكميات تجارية. كما نص الاتفاق على أن تدفع الشركة كذلك مبلغا سنويا لا يقل عن 7150 جنيها، ودفع مبلغ 18800 عندما يبدأ التصدير، او أعلى من ذلك، حسب ما يتم استخراجة من نفط. وكتقدير لجهود صديقه الميجور هولمز قام الشيخ أحمد بتعيينه ممثلا عنه في مركز شركة نفط الكويت في لندن، وبقي في منصبه هذا حتى وفاته عام 1947.

برونو والوهم الأكبر

لا تختلف طريقة تفكير أو تعامل مجتمعاتنا اليوم مع العلم والعلماء عن طريقة تفكير أوروبا قبل 400 عام، أو أكثر! فعندما جاهر الفيلسوف الإيطالي جيوردانو برونو «1548-1600»، برأيه في أن الشمس نجم كغيرها من النجوم، وأن هناك عوالم أخرى متعددة في الفضاء، مكملًا مسيرة كوبرنيكوس، كان ذلك كافياً لأن تعتبره الكنيسة كافراً وتأمراً بسجنه. وعندما أصر على آرائه بعد 6 سنوات من الحبس، قطعت الكنيسة لسانه وقتلته حرقاً! جاء بعده العالم الرياضي والفلكي «غاليليو غاليلي»، ولم تنزل أوروبا غارقة في أفكار وتقاليد عصور الظلام والإيمان بأن الأرض مركز الكون وأن النجوم والكواكب، بما فيها الشمس، تدور حول الأرض، وتوصل لاكتشافات فضائية خارقة تخالف ما جاء في الكتب الدينية المسيحية، ولكن المصير الذي لقيه برونو منعه من الجهر بها. وقد توصل لاكتشافاته بفضل توصله لاختراع التلسكوب الذي مكنه من قلب كل النظريات التقليدية القديمة، وتأكيد أفكار كوبرنيكوس عن النظام الشمسي. وقد تجرأ في عام 1632 ونشر آراءه العلمية وكان ذلك كافياً لأن تتقلب عليه الكنيسة بعد أن بين الصورة الحقيقية وراء ذلك المظهر الخادع والسطحي للأشياء الذي تريد الكنيسة التغطية عليه، وخاصة عندما ذكر بأن ما ورد في الكتاب المقدس عن مركزية الأرض يجب ألا يؤخذ به، فقد كان ذلك كافياً لأن تستدعيه محاكم التفتيش وتصدر بحقه أحكاماً قاسية، وكان وقتها قد أصبح طاعناً في السن متعباً تلاحقه الأمراض والأوجاع، ولكن الكنيسة نجحت في إجباره على تغيير آرائه، وانتهى مغضوباً عليه، بالرغم من تخفيف الأحكام عنه، وتوفي عام 1642 بعد أن فقد بصره، وأنكروا عليه حتى دفنا لائقاً. المهم هنا أن الكنيسة الكاثوليكية في روما اصدرت في عام 1992، أي بعد 400 عام عفواً عنه، واعترفت بصحة ما توصل إليه وبخطأ ما ورد في كتب اللاهوت عن مركزية الأرض وغير ذلك.

والآن، لو قارنا كم الوهم الذي أغرقنا «علمائنا» فيه على مدى قرون، وكم الوهم الذي لا تزال نعيش فيه نتيجة مختلف المسلمات الخاطئة، فهل لدى أي جهة الجرأة على الاعتراف بذلك والاستعداد للتخلي عن هذه الأوهام؟ لا أعتقد ذلك، فالأرض، برأي علمائنا، لا تزال مسطحة وهي مركز الكون، وستبقى كذلك

عندما يمتلئ الفم بالماء

احتلت القوات الأميركية والروسية كوريا بعد الحرب العالمية الثانية إثر انتصارها على اليابان، التي كانت تحتل كوريا، وسبق أن أذلت شعبها في القرن 19. قسّم الحلفاء كوريا الى دولتين، شمالية وجنوبية. اشتق اسم كوريا من أسرة Goryeo التي حكمها طويلا من عام 918 وكان لها فضل تحديثها وتطوير قوانينها. بعدها سيطر المغول على كوريا، إلى أن قام الجنرال Yi Seong-gye بتأسيس دولته وأستمرت أسرته من بعده في حكمها حتى 1910، وخلال تلك الفترة اعتنقت الدولة الكونفوشيوسية على حساب الديانة البوذية، وانتهى حكم الأسرة بالاحتلال الياباني الذي قتل فيه آلاف المتظاهرين، إلا أن تحررت من اليابان مع الحرب العالمية الثانية. خلال فترة احتلال الياباني، قامت هذه بترحيل خمسة ملايين كوري للعمل في حقولها ومصانعها بنظام السخرة، ولقي أكثر من 400 ألف حتفهم نتيجة ذلك، وفي العمليات الحربية. كما تم تشغيل ما يقارب 200 ألف امرأة كورية، قبل الحرب الثانية وخلالها، في مهام الترفيه جنسيا عن الجنود، وقد اعترفت اليابان عام 1993 بجرائمها ودفعت تعويضات مجزية لأسر الضحايا. كما كان من نتائج الاحتلال تأثر اللغة الكورية بالكثير من الكلمات اليابانية، وأجبر الشعب على تبني أسماء يابانية، وعانت الثقافة بشكل واضح، وبذلت جهود ضخمة لمسح هوية البلاد، وتم تحطيم وسرقة الكثير من رموزها الفنية وآثارها.

في يونيو 1950 قامت قوات كوريا الشمالية، بدعم سوفيتي، بغزو الجنوبية، ولكن الحرب انتهت بعد 3 سنوات، دون أن يحقق أي طرف انتصارا ساحقا على الآخر. وبدأت نهضة كوريا الجنوبية مع بداية ستينات القرن الماضي، بعد أن وصلت أوضاعها الى الحضيض، وأصبحت خلال سنوات قليلة من نمور آسيا ومنافسة قوية لسنغافورة وتايوان وهونغ كونغ، حدث ذلك بالرغم من عدم تمتعها بالعنصر او التأثير الثقافي الصيني. وفي فترة التحول الكبيرة هذه في كوريا الجنوبية تخلفت الشمالية في كل مجال، ويقال إن أكثر من ثلاثة ملايين كوري شمالي لقوا حتفهم جوعا في الفترة نفسها.

لقد زرت كوريا وأعجبت كثيرا بما حققته من تقدم تكنولوجي قارب المستويات الأوروبية، وفاققتها في مجالات عدة. وكنت ولا أزال أتساءل عن سبب نجاح هذا الشعب، المنسي، والذي بقي طويلا على هامش التاريخ، والذي تعرض لشتى صنوف الاحتلال والقهر، والذي لم يدع يوما انه يمتلك الحضارات والانهار

والديانات والرسالات، بشكل كبير في كل مجال تقريبا، وبشكل لافت، وكيف استطاع الكوريون، خلال نصف قرن، في أن يصبحوا القوة الاقتصادية الأكبر بين نمور آسيا، محققين معدلات نمو مستمرة وغير مسبقة، دون أن تنزلق لحضيض الفوضى السياسية والدكتاتورية، وأن يصبح اسمها على أي منتج دليل كفاءة وقوة. كما أصبح لشركاتها الإنشائية الفضل الأكبر في بناء مئات المشاريع الضخمة في كل أنحاء العالم.

الجواب معروف ويسمع طنينه في الأذن، ولكن في الفم ماء كثير!!

طفولتنا وطفولتهم

هاجر صديقي اللبناني «سليم زبال» وأسرته، في أوائل السبعينات الى استراليا، لم يمكث هناك طويلا، بالرغم من انه حصل على وظيفة مرموقة ذات دخل كبير ومستقبل واعد، وذلك بعد تعرضه لاستجواب مهين من الشرطة وتوبيخ وانذار من المراقبة الاجتماعية في مدرسة ابنائه وتهديد جدي بأخذهم منه ان تكرر ضربه لهم بسبب شقاوتهم. وأخبرني سليم انه شخصا مؤمن بأن الضرب أسلوب تربية ناجع، وان والده كان يضربه وهو صغير وهذا جعل منه رجلا، ولكنه قرر العودة للعمل في الكويت بسبب رفضه تدخل سلطات استراليا في طريقة تربية ابنائه، فهو يعتقد ان هذا حق يجب ألا ينازعه عليه أحد! لا أعتقد أن أفكار سليم بقيت كما هي، هذا ان كان لا يزال حيا!

أما صديقي الفلسطيني «يونس ياسين» فقد حصل في اواخر سبعينات القرن الماضي على عمل جيد في هولندا، فهاجر اليها مع زوجته الحامل، مع وعد من صاحب العمل بأنه سيحصل على الجنسية خلال ثلاث سنوات! ولكن قبل ان يكمل سنتين هناك، وبعد ان أنجبت له زوجته ولدا وبنتا، اضطر للعودة الى بلده في الضفة الغربية اثر وفاة والده المفاجئة. ويقول يونس ان رسائل من جهة رسمية في هولندا اصبحت ترده مطالبة اياه بتأكيد قيامه بإعطاء طفليه ما هما بحاجة له من أمصال مضادة لشلل الأطفال وغير ذلك، وكيف انه تجاهلها، فهو، حسب اعتقاده، أدري بمصلحة ابنيه ولا حق للهولنديين عليه. ولكن بعد فترة وردته رسالة مسجلة من السفارة الهولندية في عمان بالمعنى نفسه، ولكنه تجاهلها مما دفع السفارة لإرسال من يبلغه بصورة نهائية بأن تقاعسه عن اثبات ما يدل على اعطاء اطفاله التطعيم اللازم سيؤدي لسقوط حقهم في المطالبة بالجنسية الهولندية متى ما بلغوا الثامنة عشرة! وهنا رفض يونس تدخل السفارة و«حشريتها» و«قلة أدب» مندوبها واسمعه كلاما قاسيا! وهنا أيضا لا اعتقد ان يونس، ان كان لا يزال حيا، سعيد بقراره ذلك!

أما في 24/7/2011، ونقلنا عن ال«سي.ان.ان»، فقد قام مسلحون في اقليم هلمند بأفغانستان، يعتقد بانهم من طالبان، بشنق طفل لا يتجاوز الثامنة من العمر، بعد ان رفض والده، الشرطي، الاستجابة لطلبهم بتزويدهم بمركبة عسكرية!!

ثلاثية لبنان

يتميز اللبناني بفرديته، وعدم ميله لأي عمل جماعي، وهذا، ربما، سبب نجاحه خارج بلاده، حيث هو مقابل الآخرين، أكبر من نجاحه داخل وطنه.

وكان قدر لبنان أن يتخصص أهله منذ عقود طويلة في بيع الآخرين كل ما يفتقدونه في أوطانهم، وخاصة العرب. فقد برع اللبناني في تسويق ثلاثة أمور أساسية، إضافة لأخرى لا تقل أهمية، وهذه الثلاثة هي الهواء، أو الطقس المعتدل، الذي يتمثل في الموسم السياحي صيفا وشتاء، بعد ان أصبح الوصول للمشاتي الأوروبية أكثر صعوبة وتكلفة، وما يتبع ذلك من صناعة فندقية مميزة، ولو أنها لا تزال فقيرة في كمها، إضافة للطعام، الذي اشتهر اللبناني، فردا ومؤسسة غذائية، بالكرم في تقديمه، مع الجودة والتنوع. ويمكن القول أن لا دولة في الشرق الأوسط تجاري لبنان في براعة الخدمة «الغذائية» وفي ما يتوفر من أنشطة ثقافية وأدبية وترفيهية متعددة. وهناك التعليم، حيث بإمكان لبنان، كما كان دأبه في الستينات والسبعينات، تقديم أعلى مستوياته وبكل المجالات وبثلاث لغات، العربية والإنكليزية والفرنسية، وهذا ما لا توفره اية دولة في المنطقة، إن لم يكن في العالم. ثم أخيرا هناك الخدمة الطبية، فلا يزال لبنان، بالرغم من كل ما لحق به من دمار خلال سنوات حربه الأهلية، الأخيرة، المكان الأكثر تميزا، عربيا على الأقل، في تقديم هذه الخدمة المتقدمة، ولا تجاريا في المنطقة وتتفوق عليها «طبيا» غير «إسرائيل» التي تقارب نسبة أطبائها 4 لكل ألف مواطن، في الوقت الذي لا تزيد فيه على 3 وربع في لبنان، ومع هذا يتفوق لبنان على دول أوربية غربية عديدة مثل إسبانيا ومالطا والنرويج في عدد الأطباء فقط.

الغريب أن كوبا، التي يتعالج فيها رئيس فنزويلا شافيز من إصابته بمرض سرطان التشبث بـ «السلطة»، تنصدر قائمة الدول في عدد اطبائها، حيث تبلغ النسبة 6 أطباء لكل ألف تقريبا! أما الكويت، يا حبة عيني، فلا يزيد العدد على طبيب ونصف طبيب لكل ألف، تسبقها الإمارات والأردن وحتى رومانيا، ولكنها تسبق كل الدول الأفريقية!!

يعتبر غالبية اللبنانيين الطائفية سبب كل شرورهم! ولكن بالتمعن قليلا في الوضع اللبناني نجد أن الطائفية لم تكن دائما وبالا عليها، وبالتالي يجب قبولها والتعايش معها، كشر أو خير لا بد منه، فلا فكاك منها لا حاليا ولا مستقبلا، طالما بقيت دولنا على جهلها العقائدي. فالطائفية في لبنان كانت، وستبقى، المصدر

الأكبر للدخل غير المنظور، وما أكثر تنوع دخل لبنان غير المنظور! ينفرد لبنان بضعفه العسكري وفقر موارده الاستراتيجية والغذائية، وهذا ما يجعله، أو يجعل بعض مكوناته، بحاجة دائمة لمن يهتم بأمره ويوفر له الحماية العاطفية والأمنية!

تعدد طوائف لبنان، وهشاشة وضعه الأمني وجماله الأدبي والصحي والغذائي.. والبشري الأخاذ، أوقع الكثير من الدول، أو رؤسائها، في هواه، إما محبة خالصة أو عشقا، أو لسبب ديني أو مذهبي أو عقائدي سياسي، أو غالبا لاستخدامه كساحة لتسوية الحسابات، كما فعلت مصر عبدالناصر والسراج، وأكثر منها إيران، هذا غير شبكات تجسس الدول الكبرى واعتداءات وتدخلات إسرائيل وغيرها!

وفي الماضي البعيد وقع الدروز في هوى لبنان، فهاجروا إليها من مصر ومن الشام، وكذلك فعل الموارنة وغيرهم، وكان لمحمد علي باشا، والي مصر، تعلق بها، حيث أرسل ابنه إبراهيم ليعيث فيها ما شاء من فساد، ثم جاء العثمانيون الأتراك، ففتكوا بمن بغضوا، وأعلوا شأن من أحبوا، ومن بعدهم جاء الفرنسيون، وعندما أجلتهم بريطانيا من سوريا تشبثوا بلبنان وموارنته، وفصلوا دستوره على قياسهم إلى أن نافسهم الإنكليز في «الهيام» بلبنان لفترة قبل أن يأتي الأميركيان، وكان يا ما كان! وكان لروسيا ولع ما بأحوال لبنان وطوائفه، وكذلك فعلت الدول العربية النفطية وسبقتهما مصر، أما سوريا فلم تتوقف يوما عن دس أنفها، ومن بعد ذلك كامل جسدها، في الشأن اللبناني الكثير الإغراء والمطواع لكل غريب يحمل صرة تحت إبطه. وهكذا نجد أن البعد أو التعدد الطائفي، بمثل ما كان يمثل وبالا على لبنان، فإنه كان ولا يزال مصدر خير ونعمة عليه بسبب تعدد المهتمين والمتعلقين والهائمين به وبأرضه وشعبه المضيايف والكريم.. في كل شيء. هكذا لبنان، وهكذا سيبقى وهكذا نحبه!

امتياز لعمل الكاز

لم يعرف التاريخ امبراطورية بقوة واتساع البريطانية التي سيطرت، من جزيرة صغيرة نائية، على مستعمرات لم تكن الشمس تغرب عنها، ولم يحدث ذلك مصادفة، بل لما اشتهر به الإنكليز من قوة الشكيمة والانضباطية والالتزام الدقيق بالنظام والتعامل الجدي مع كل صغيرة.

يعتبر كتاب «يوم القيامة» Doomsday Book الذي كتب عام 1086، من أكثر سجلات التوثيق قدما في العالم، ويحتوي على بيانات احصائية طلب ملك انكلترا، وليم الأول، الفاتح، تجميعها ليعرف من رعيته يمتلك ماذا. كما سبقت بريطانيا العالم في الاحتفاظ بسجل تاريخي يبين درجات الحرارة في مختلف مناطقها، واجري أو قيد فيه عام 1659.

وبمناسبة المقال الذي سبق وأن كتبناه قبل فترة عن الكيفية التي حصلت بها شركتا النفط البريطانية والأميركية على امتياز التنقيب عن النفط في الكويت، قام الصديق ضرار الغانم بإهدائي كتابا تضمن كافة المراسلات التي جرت من عام 1911 وحتى 1934/12/23، تاريخ توقيع الاتفاقية، بين الحكومة الكويتية ومختلف أطرافها. وجاء في مقدمته أن فكرة تجميع وتوثيق كل ما تعلق باتفاقية الامتياز من مراسلات ومفاوضات جاءت بمبادرة من رجل الأعمال المعروف، المرحوم يوسف أحمد الغانم، الذي تبين له عدم وجود مثل هذا السجل القيم لدى اي جهة حكومية كويتية، وبالتالي قام عام 1970، بالاتصال بوزارة الإعلام، والتي ربما كان وزيرها الشيخ جابر العلي، وحثهم على القيام بشيء من هذا الخصوص، خدمة للتاريخ، خاصة بعد أن غيَّب الموت غالبية من وقعوا على تلك الاتفاقية التاريخية. وبالفعل قامت الحكومة الكويتية بتكليف أرشيبالد تشيشولم Archibald Chisholm، آخر الموقعين الأحياء على الاتفاقية، ليقوم بمهمة تجميع مواد الكتاب، وقام الرجل، على مدى خمس سنوات، بتصوير وتوثيق وتسجيل كل ما تعلق بالاتفاقية، مستعينا بأرشيف مختلف الجهات المعنية بالأمر في بريطانيا واميركا. وتبين من قراءة بعض فصول الكتاب أن الشيخ أحمد الجابر، بالرغم من حاجته لعائدات البترول وقتها، إلى أنه لم يتسرع في منح الامتياز، وكان مفاوضا صعبا، وتحلى بصبر كبير وأظهر قدرة نادرة على التفاوض، وعدم المهادنة في غير مكانها.

إن هذه الوثيقة التي كتبت عام 1975 لم تحظ بما تستحق من اهتمام، ونتمنى قيام جهة أكاديمية متخصصة بدراسة النسخة العربية من هذا الكتاب الوثيقة، ونشرها تعميما للفائدة، وخدمة للتاريخ.

مردوخ.. المجني عليه!

يعتبر البليونير الاسترالي الاصل، روبرت مردوخ، اكبر مالك صحف في العالم، ويتحكم في شبكتي «فوكس» وسكاي وتوابعهما. ولم يحاول مردوخ يوماً إخفاء يمينيته وتطرفه الصهيوني وولائه لإسرائيل التي يحمل جنسيتها، إضافة إلى جنسيته الأميركية، التي منحت له من الرئيس ريغان، لخدماته النقدية والإعلامية للحزب الجمهوري.

يضرب بمردوخ المثل في قدرة الصهيونية على التحكم بوسائل الإعلام العالمية، فصحفه وتلفزيوناته قادرة على تشكيل الرأي العام في بريطانيا وأستراليا وأميركا وغيرها، وكسب التعاطف الدولي لأي جهة يريدونها! وهو لم يستعمل السلاح ولا الإرهاب في الاستحواذ على وسائل إعلامه، بل قام بشرائها من أمواله ومساهميه، وكانت تلك الصحف، ولا تزال معروضة للبيع لمن يدفع أكثر. ويقول المثل: من حكم في ماله ما ظلم! فهل كنا نريده أن يدفع ماله لنصرة قضايانا؟ ومن الذي منع العرب والمسلمين من شراء ما اشترى من صحف، أو ما هو معروض الآن منها؟

أن قصة شبه انهيار سمعة إمبراطورية روبرت مردوخ المالية والإعلامية، بعد أن استجوب وابنه، بقسوة شديدة، أمام أكثر من لجنة تحقيق برلمانية في انكلترا، التي كشفت أجهزتها الأمنية حجم تورطهما في الفساد الإعلامي، وتعدد دسائسهما وألاعيبهما، وطرق الاحتيال والابتزاز والرشوة والتتصت على مخابرات الآخرين الهاتفية التي لجأ إليها، للحصول على مواد مثيرة لصحفهما وخدمه أغراضهما، التي اضطرتهما في النهاية إلى إغلاق «نيوز أوف ذي وورلد»، الأقدم والأعرق بين صحفهما، والتي قارب عمرها 170 عاماً، بسبب ما لحق بهما وبها من فضائح، وكيف اضطر مردوخ لطرد مساعدته الرئيسية، كل هذه أثبتت خطأ نظرية المؤامرة، أو على الأقل المبالغة في حجمها، وما يشاع عن تحكم الحركة الصهيونية في العالم، فلماذا لم تتقدم هذه الحركة لإنقاذ إمبراطورية مردوخ وما لحق به من عار وخسائر مالية بالمليارات؟ إن الإعلام الدولي كان ولا يزال يخضع لمن يمتلكه، عربياً كان أم إسرائيلياً، وإذا كنا عاجز من أن نمتلك أو ندير، باقتدار ومهنية، مثل هذه الصحف والمحطات التلفزيونية، فهل كنا لو امتلكنها سنسخرها لغيرنا، أو حتى نجعلها حيادية؟ وعليه لماذا يستكثر العرب على غيرهم ما يسمحون به لأنفسهم؟ فقد تحكمنا، كدول نفطية، في الإنتاج العالمي للبترول عن طريق «أوبك»، ولكننا فشلنا في أن نخضع هذا السلاح لتحقيق مصالحنا، حتى عن طريق صرف عوائده على غير أنشطة المخابرات والرشى والانقلابات وتمويل ثورات أو «ثورة» الآخرين

ميكو الفلسطيني

لا شك لدي في أن فلسطين ستعود يوما، ولو جزئيا، لأهلها، فهذا مآل التاريخ. وما يدفعني الى هذا الشعور، الذي قد لا يتفق معي البعض فيه، ليس إصرار الفلسطيني على التثبيت بحقه، اقول ذلك ليس فقط من منطلق الاحترام لهذا الحق، وعلى الرغم مما نال وطني ونالني واسرتي من أذى غالبيتهم، أثناء احتلال وطني، بل وايضا لما اصبح لموضوع الوعي بحقوق الإنسان، والآخر بالذات، من اهمية في العالم الحر الذي نعيش فيه، والذي أصبح فيه حق الشعوب في تقرير مصيرها أمرا أساسيا ويجد مناصرين له حتى بين اليهود والإسرائيليين، ومن هؤلاء ميكو بيليد Mico Peled، ابن الجنرال ماتي بيليد Matti Peled الذي شارك في حرب 1948 وحاربنا كجنرال في حرب 1967.

ألف ميكو كتابا عن القضية الفلسطينية، وعلاقته واسرته بها، بعنوان «ابن الجنرال». وفي مقابلة مع محطة تلفزيون أميركية أجريت معه في يونيو الماضي، تحدث ميكو عن معاناة الشعب الفلسطيني وآماله وتطلعاته، وحقه في وطن مستقل، وكيف أن اليهود، وجزءا كبيرا من العالم، يعيشون تحت ثلاثة أوهام أساسية في ما يتعلق بالصراع الفلسطيني – اليهودي: أولها أن حرب 1948 كانت تتعلق بتأسيس دولة لشعب بلا وطن في أرض بلا شعب! وتحدث في هذا الجزء بإسهاب عن الحياة الثرية التي كان يعيشها الفلسطيني، قبل أن تحتل القوات الإسرائيلية بيته، وكيف رفضت والدته، وهي من مواليد القدس، السكن في أحد تلك البيوت. وحكى عن تجربة مر بها أحد المحتلين عندما وجد أن القهوة لا تزال ساخنة في البيت الذي تركه أصحابه على عجل! وتحدث ميكو عن الوهم الثاني المتعلق بحرب 1967، وكيف أن الجميع اعتقد أن إسرائيل بدأت ضربتها الوقائية لأن وجودها كدولة كان مهددا، وكيف أن والده الجنرال، الذي شارك بدور رئيسي في تلك الحرب، أخبره أن وجود إسرائيل لم يكن مهددا في أي لحظة، وأنه كان أمام مصر سنوات لتبني جيشها، وبالتالي كان من الممكن جدا تجنب تلك الحرب! اما ثالث تلك الأوهام فقد تعلق بالديموقراطية الإسرائيلية، وكيف أن هذه الدولة، التي تعيش منذ ما يقارب النصف قرن في عالمين متناقضين، لم تستطع أن تتعايش بجدية مع ما تدعيه من ديموقراطية، فلا هي على استعداد لإعادة الأراضي المحتلة لأصحابها ولا لإلحاقها بها، ومضطرة بالتالي الى اتباع سياستين متناقضتين، وأبعد ما تكون عن الديموقراطية! فما ينطبق على الفلسطيني من أحكام وقواعد وقوانين ونظم لا

علاقة للمواطن الإسرائيلي بها، ويشكل هذا برأيه تناقضا فاضحا!
لو كنت مكان السلطة الفلسطينية، لما ترددت في شراء حقوق ترجمة الكتاب
بعده لغات وطباعته وتوزيعه في دول العالم الكبرى والمهمة!

من سرق ربيع الكويت؟

تقول «فيروز» في واحدة من أكثر أغانيها رقة «بكرا بيجي نيسان يسألنا... ويبيرش وردو عا منازلنا... منخبرو شو صار منسمعو الأشعار... يللي كنت فيها تغازلنا... بكرا بيجي نيسان يغوينا... ويموج زهورو بروايينا... منحكيلو عاليي كان... منسمعو الألحان يللي كنت فيها تتاجينا... ناطرين تلوح يا حلو وتبوح... وتسمع شكاويك للوردات... ناطرين نضيع عالدرب... وتشيع عن هوانا بهالدنيي حكايات... بكرا بيجي نيسان يسعدنا... وعاتلال أحلامو يبعدنا... منتيه شردانين... عا دروب مخضرين... وأرض الهوى والحب موعدنا!».

فمتى يعود ربيعنا يا وطني؟ متى يطل علينا نيساننا الذي خطف في ليلة ظالمة وظلماء؟ متى يعود الربيع لنخبره بما فعل الصيف بنا، ولنسمعه اشعار بورسلي وفهد العسكر وصوت الفضالة وشدو أمانى الحجى؟ متى يعود لنروي له كيف اغتصب دعاة الجهل أحلامنا، وكيف سيطرت قوى الغباء على إبداعات ابنائنا، وكيف غطت جحافل التعصب وجوه أخواتنا وعيونهن، وكيف جففت الشفاه الشرهة ينابيع بساتيننا؟ وكيف توقف الحب عن ارتياد حيننا، بعد ان غطت الوجوه العابسة حاراته وسكيكه الضيقة؟ يا ترى لماذا تأخرت يا نيسان كثيرا؟ فقد مرت سنوات لم نسمع فيها زقزقة عصافيرك، وحرمنا الغلاة من منظر زهورك ورياحينك، بعد أن داسوها بنعالهم التي خربت كل جميل ومفرح. متى تأتي يا نيسان لنخبرك بما فعل الأفاقون بنا وبوطننا وبذمم الكثيرين من قياديينا ومشرعينا؟ متى تأتي لتعيد الفرحة لنا فقد انقبضت قلوبنا بعد أن جفف هؤلاء عروقه من دفء دمائه، فما أكثر برودة شتائنا وما أثقل خريفنا! ارجع لنا يا ربيعنا، فالعمر يجري بنا ويكاد أن ينتهي، ونحن لا نزال ننتظر عودتك مقبلا علينا فقد اشتقنا الى نسيمك، ولأن نمرر بأيدينا على رؤوس نويرك الأصفر في صحرائنا الجميلة، ونذرف الدمع على من ظلمه القدر فغادرنا قبل أن يراك أخيرا، فمتى يتلاشى الغبار ويأخذ معه الهواء الحار، وتبدو لنا من الأفق البعيد يا نيسان؟ فقد كثر الباكون في الصفوف الاولى من صلوات «الأعياد»، متناسين من سرق أموالنا وأحلامنا وانتزع الفرح من أفئدة أبنائنا! فمتى يعود ربيع الكويت ليبقى، فقد تعبنا من طول الصيف ولهيبه الحارق والسارق، وقسوة الشتاء ورخاوة الخريف، فهل تعلم يا سيدي من سرق ربيع الكويت؟ وهل ستتوقف السرقة ويتوقف النهب والفساد، وتعيد البسمة لشفاه تيبست وهي تنتظر قطرة الندى التي لا تأتي إلا مع الربيع الجميل؟ هل ستعيده لنا يوما يا سيدي؟

لبنان الكويتي

قد لا يكون لبنان أكثر الدول فسادا، ولكن بعض أهله حتما الأكثر ذكاء في فسادهم، وقد تعلم الكويتيون منهم الكثير!

تكمّن مشكلة لبنان، في جزء منها، في الغياب، شبه التام، للتربية الوطنية من مناهج المدارس الخاصة، وحتى التاريخ اللبناني، فمن الذي يحدد ماهية التربية الوطنية ووجهة نظر من ستكتب عند الحديث عن التاريخ، وهذا جعل قلة فقط من اللبنانيين تعرف وطنها وتشعر بالانتماء اليه، وهذا بالضبط ما تتجه الأمور له في الكويت! فخلال الحرب الأهلية التي اجتاحت غالبية لبنان لأكثر من 15 عاما، كانت تمر أيام يلقي فيها المئات حتفهم في جزء من لبنان في معارك عبثية تستخدم فيها أشرس الأسلحة وأكثرها فتكا، في الوقت الذي تعيش فيه أجزاء أخرى منه، لا تبعد عن الأولى كثيرا، في عالم آخر لا يمت للحرب والهلاك بصلة! ولو لفت أحد نظر المحفّلين بما يحدث في الجانب آخر، لاكتفوا بهز اكتافهم علامة عدم الاكتراث، نتيجة جهل الكل بالكل! فما الذي يعرفه ابن بشري مثلا عمن يسكن الحاصباني، أو عيون قرقرش أو عنجر، أو العكس؟ وهل تعني أي منطقة من لبنان للبناني شيئا، بخلاف منطقته، إن تهدمت أو احترقت أو ابتلعها البحر، وهو الذي لم يسمع بها من قبل، ولم تكن يوما جزءا من وجدانه الوطني؟ إن هذا الشعور بعدم اكتراث مواطني منطقة بمصير غيرها، لا يقتصر على فئة ما، بل يشمل الجميع، وبالدرجة نفسها تقريبا. وقد خبرت ذلك بنفسي، من أسألتي لمئات اللبنانيين، من أهل وأصدقاء ومعارف، وإخضاعهم، من دون علمهم، لتجارب وأسئلة محددة.

نرى مثلا أن لبنان يشكو منذ عقود من مشكلة انقطاع الكهرباء، التي تفاقمّت مع الحرب الأهلية، وصراع المصالح! فكل من تولى الوزارة أنعم على نفسه، وحزبه، بشيء من خيراتها! ويقال أن الوزير إيلي حبيقة خرج منها بمئات الملايين، ولكنه لم ينعم بها، حيث اغتيل في موجة الاغتيالات التي اجتاحت لبنان قبل سنوات، وربما كان الوحيد الذي لم يكثرث لموته أحد. وقد أخبرني صديق بأن حكومة خليجية قررت قبل سنوات المساهمة في التخفيف من مشكلة الكهرباء في منطقة جبيلية، وبناء محطة توليد فيها، وما أن سمع مسؤول لبناني كبير في وزارة الكهرباء بالخبر حتى قام بزيارة الدولة الخليجية طالبا منها تأجيل المشروع، ولو لبضع سنوات، لكي يسترد ما استثمره في شراء عدة مولدات كهرباء ضخمة تقوم بتغذية المنطقة نفسها بحاجتها من الكهرباء! ومعلوم أن الحكومة اللبنانية لا تحقق أي عائد مادي

من توليد الكهرباء للمواطنين وبيعها، فهي إما مسروقة أو مدعومة، ولكنها حتما تحقق الشيء الكثير من استهلاك المواطنين والشركات لوقود المازوت المستورد، وبالتالي هي ليست في عجلة من امرها لحل مشكلة الكهرباء، ولو أن القانون الأخير يقول شيئاً غير ذلك، أو هذا ما نتمناه!

مهيار في مدرسة الصديق

... الثقافة والإبداع والفن ليس لهما وطن ولا تحددهما السياسة!

* * *

ذكرتني رسالة قارئٍ بحادثة بينت مدى تجنينا على أنفسنا والآخرين، عند تطرقه لدور الشاعر «مهيار الديلمي»، في الثقافة العربية، حيث أعادتني كلماته لأيام دراستي في «الصديق»، عندما طلب منا مدرس العربية حفظ بعض أبيات قصيدة لـ «الديلمي»، والتي سبق أن غناها المطرب محمد عبدالوهاب، والتي يقول فيها:

أعجبتُ بي بين نادي قومها
أُمُّ سعدٍ فمضتُ تسألُ بي
سرّها ما علمتُ من خلقي
فأرادتُ علمها ما حسبي
لا تخالي نسبا يخفضني
أنا من يرضيك عند النسب
قومي استولوا على الدهر فتى
و مشوا فوق رؤس الحقب
عمموا بالشمس همامتهم
و بنوا أبياتهم بالشهب
سورة الملك القدامى وعلى
شرف الإسلام لي والأدب
قد قبستُ المجد من خير أب
قبستُ الدين من خير نبي
و ضمنتُ الفخر من أطرافه
سودد الفرس ودين العرب

وربما قال تلك الأبيات إما تفاخرا باصله، او إيمانا به وبأدبه العربي وانتمائه للعروبة والإسلام. فالمدرس طلب منا حفظ الأبيات ولكنه لم يخبرنا من هو «مهيار»، ولهذا غاب عن ذاكرتي تماما، ولم أتذكره إلا مؤخرا، ولا أعرف لماذا، ولكن بإمكانني الجزم أن تلك القصيدة قد الغيت من كل مناهج الدراسية في الكويت، دع عنك تدريس سيرة الشاعر! لست بطبيعة الحال مؤهلا للحكم على مدى جودة شعره،

ولكن تاريخه، أو هويته، كفيلة بأن تبقى طي النسيان، لتستمر العداوة والكراهية ويستمر التجهيل بالآخر.

يعود نسب أبو الحسن مهيار الديلمي، لمنطقة ديلم القريبة من ميناء بوشهر، والتي تكتظ تاريخيا بمجموعات كبيرة من العرب، والتي هاجر منها سكان الدليم الحاليين في العراق، حسب رواية المؤرخ «مصطفى جواد». وكان مهيار كاتباً وشاعراً فارسياً مجوسياً، ولكن بتأثير من الشريف الرضي تحول للإسلام، وأصبح شعره لآل البيت، وهذا ما جعل أبو القاسم بن برهان يقول له: يا مهيار، لقد انتقلت بأسلوبك في النار من زاوية إلى زاوية، فقال: وكيف ذاك؟ قال: «كنت مجوسياً فصرت تسب الصحابة في شعرك».

كان مهيار شاعراً جزلاً، وله أكثر من 383 قصيدة، ويتصف شعره بالرفقة، وباله طویل في النظم، وعاش في بغداد، وكغيره من الشعراء والأدباء والقادة والعظماء في تاريخنا، الذي تغلب عليه «الشفاهة»، فإن تاريخ ميلاد مهيار غير معروف، وربما ولد سنة 365 هجرية، ويستحق إعادة تدريس سيرته ثانية.

«حطة» الشيخ

استدعى الشيخ الجليل مساعده وطلب منه الاتصال بعدد من الشخصيات المعروفة لكي تستعد لمرافقته في رحلته المقبلة إلى الهند، وكانت تلك التجربة، كما رواها صديق، الأولى له كمساعد للشيخ، تلك الشخصية الكبيرة، في ترتيبات السفر. بعد وصولهم والاستقرار في القصر، طلب منه الشيخ تذكير مرافقيه من «الأصحاب» لمشاركة كل منهم في «الحطة»، والحطة مبلغ من المال يدفعه الأصدقاء جميعا في ما بينهم بالتساوي، مشاركة في تكاليف رحلة أو ما شابه ذلك. ويقول إن صوت الشيخ الوقور منعه من الاستفسار أكثر، مع أنه لم يستطع اخفاء تعجبه من الأمر، والذي أقلقه التفكير فيه طوال الليل، فكيف يقوم من هو في مكانته وحكمته بذلك التصرف الغريب، ويطلب من أصدقائه، الذين دعاهم بنفسه لمشاركته رحلته تلك، والسكن في قصره الخاص، وهم ضيوفه، المساهمة معه في التكاليف من خلال «حطة» على المستوى والقدر نفسهما؟ ويقول إن فضوله «الصحفي» دفعه في اليوم التالي لأن يعود ويفتح الموضوع مع الشيخ الوقور، وهنا بدت شبه ابتسامة على وجه الشيخ، الذي قلما يضحك، أو حتى يبتسم وقال له: يا يوسف، هؤلاء كانوا أصدقائي عندما لم أكن حاكما، وكانت العادة أن نتشارك ونساهم مجتمعين في الكثير من الأمور، واليوم أصبحت حاكما، ولا أريد أن تنقطع العادة معهم! فعاد صديقي وقال للشيخ: ولكنهم، يا طويل العمر، ضيوفك الآن، وأنت الذي طلبت منهم مرافقتك، فكيف تطلب منهم مشاركتك تكاليف الرحلة؟ فرد الشيخ قائلا: هؤلاء اصدقائي ومقربون لي، وبحكم تواجدهم بقربي فأنني أسألهم عرضا في بعض الأمور واستشيرهم في ما أحرار فيه، واستأنس برأيهم، فان أغدقت عليهم الهدايا وجعلتهم من اتباعي وصرفت عليهم، فسيربط كرمي ألسنتهم، ولن يخلصوني الرأي والقول، ولن يحاولوا يوما تكدير خاطري في ما لا أرغب في سماعه، لكي لا يخسروا ما هم فيه من «عز»! ولكن طالما أنهم يشعرون بأن لا فضل لي عليهم، ماديا على الأقل، فان رأيهم سيكون صادقا، وليس بالضرورة صائبا! وأضاف الصديق أن طلب المشاركة في الحطة ربما لم يكن في مصلحة اصدقاء الشيخ من الناحية المادية، ولكنه كان حتما في مصلحة حفظ كرامتهم ومكانتهم العالية في مجتمعهم! انتهت القصة.

العبرة والحكمة واضحة ولا تحتاج إلى تفسير أكثر! وفي الغرب «الكافر» تنص القاعدة الفقهية على أن من يدفع له حق السؤال، والتمثيل النيابي، ويلخصوها بـ:

No Taxation, No representation

نصف قرن من العلمانية

آمنت في مراهقتي، ومن واقع بسيط قراءاتي، أن الحل لكل مشاكلنا الطائفية والدينية يكمن في فصل الدولة عن الدين، باعطاء ما لله وما لقيصر لقيصر. بعد نصف قرن من كسب الخبرة والتجربة والقراءات المتنوعة، أصبحت على قناعة تامة بأن العلمانية هي الحل الوحيد لأوضاعنا المأساوية «الكسيفة»، والأمثلة أكثر من أن تحصى، وقد تكون أحداث مصر الطائفية الأخيرة، التي راح ضحيتها المئات بين قتيل وجريح، بعد تلاحم جيوش الأقباط والمسلمين والقوات المسلحة في عنف طائفي فور انتشار خبر هدم كنيسة متواضعة في قرية نائية بصعيد مصر، أحد الأمثلة الحية الصارخة! هذا الهوس الديني الذي اجتاح مصر، وغيرها من مناطق المسلمين، لا تمكن السيطرة عليه بحسن الكلام وجميل النصيحة وترداد وتكرار النصوص الدينية التي تحض على التآخي والحلم والصبر ومحبة الآخر، فمقابلها هناك كم هائل من النصوص، عند كل الأطراف، التي تقول عكس ذلك! وبالتالي نحن بحاجة لأتاتورك عربي يشرع للعلمانية ويفرضها، ولو بالقوة! فهذا الهوس الديني المجنون، الذي لا يقتصر على المسلمين، على الرغم من أنهم الأكثر شراسة وعنفا لكونهم الأكثر عددا، لا يمكن حله بالتراضي أو بتجاهل وجوده، بل بالتصدي له بحلول جذرية والتحول للدولة المدنية بأقرب وقت، خاصة مع اصرار كل طرف على التصرف حسب قاعدة الفعل بالمثل، وليذهب التسامح الى البحر ولتتمت المحبة، فتلبية مطالب النص الديني أجدى وأكثر ثوابا ومنفعة.

لقد سبق ان قال الغرب بكروية الأرض فقلنا له اذهب الى الجحيم، وثبتت الرؤية بعدها وصح ما قالوه، ولكن بعد خسارة قرون من المعرفة! ثم نادى الغرب بالديموقراطية، كأفضل أنظمة الحكم، فرفضنا وناديننا بشورى هلامية وتشاور غير واضح، فتحكم العسكر والطغاة بأعناق شعوبنا، وعندما حان الوقت لنقتنع بصحة ما نادوا به كان الظلم قد طحن النفوس وأهان الكرامات، وأمات الأمل في القلوب! وعندما قال الغرب ان على دول العالم اتباع العلمانية منهج حياة ونظام معيشة، طلبنا منه أن يصمت ويبلغ الورق الذي كتب عليه مبادئها، وأن يذهب الى حيث ألفت «أم قشعم» رجالها! وهنا أيضا سيمر وقت طويل قبل أن نقتنع لأن الغالبية لا تزال على رفضها للعلمانية نظاما يحفظ حقوق الجميع في العيش بسلام ومحبة، ورفضها الآن لا يعني أن الوقت لن يأتي ونقتنع بها، كما اقتنعنا في نهاية الأمر بكل ما جاء به الغرب من مثل ومبادئ تصلح للإنسان والحيوان والنبات، بل سيأتي، ولكن كالعادة، بعد فوات الأوان.

النقاب الذي غير مجرى حياته

يقول صديقي، صباح، النطاسي الماهر إن النقاب لعب دوراً أساسياً في حياته، وكان ذلك قبل ثلاثين عاماً، وقبل أن يصبح قضية خلافية بفضل جماعات التجهيم والكبت، ومنهم صاحب «كبت أمه»! يقول إنه كان في غرفة العمليات في دولة أوروبية، حيث كان يتدرب، وكان عليه ارتداء الأردية المعقمة والواقية، ومنها قفازات الجراحة، وعدم لمس شيء بعدها قبل المباشرة في العملية، وتطلب هذا قيام ممرضة بمساعدته في شد اربطة رداءه من الخلف وتثبيت القناع، أو النقاب، على وجهه. ويقول إنه عندما استدارت لتكمله عملها، وكانت مثله مغطاة بالأردية من رأسها حتى أخمص قدميها، إلا عينيها، لاحظ أنها تمتلك أجمل زوجين من العيون رأهما في حياته! وعلى الرغم من رهبة المكان والموقف فإنه شعر وقتها بأن العينين اسرته، ودارت في رأسه وقتها أفكار عدة، ولكنه أزاحها جانباً وانكب على عمله المقدس، الذي شغله تماماً، وما ان انتهى حتى عاد بريق عينيها ليشغله مرة أخرى، ولكنها اختفت فجأة كما ظهرت! تفاصيل القصة كثيرة وطويلة ولكنها انتهت بلقاء صديقي بمن خلبت عيناها لبه لتصبح تلك المنقبة بالكمامة الطبية شريكة حياته وأم ابنائه، وليستمر افتتانه بعينيها. ما أراد صديقي الطبيب الشهير قوله إن كل تلك الأردية الطبية التي كانت تغطي كامل جسم تلك الممرضة، والقناع الذي أخفى تقاطيع وجهها، لم يمنعه، وهو الذي يمارس اشرف المهن، من ان يقع في هيامها، وبالتالي فما يضعه البعض من اقنعة أو يرتديه من ملابس لا يمنع أن تكون كافية لردع من في نفسه مرض، أو افتتان. الأمر لا يتعلق بنقاب أو رداء أو برقع أو حتى قناع حديدي بل بالتربية والتنشئة السليمة التي يوفرها الوالدان والمجتمع والمدرسة لهذه الفتاة أو ذلك الشاب، وليس أدل على صحة ذلك من نوعية الجرائم الجنسية، والاعتداءات الجنسية وحالات اغتصاب الاطفال والخدم، التي تقع في مناطق محددة مقارنة بغيرها أقل تشدداً في موضوع الرداء!

الفكرة والفكر والكفر

بيّن المؤرخ «برنارد لويس»، في كتابه What went wrong، الذي صدر قبل أحداث 11 سبتمبر بقليل، مجموعة العوامل التي أدت لفشل المسلمين في بلوغ الحداثة ومجاراة الغرب في تقدمه، بالرغم من أسبقيتهم في هذا المجال! وفي محاضرة لأستاذ أميركي، لم التقط اسمه، ذكر أن مجتمعات إنسانية تفوقت على غيرها علمياً، وأخرى تقهقرت! وتساءل عن الكيفية التي يمكن الاستدلال بها على التفوق، فقال ان الاسماء التي تطلق على المكتشفات العلمية قد تكون مؤشراً جيداً، فمن يخترع أو يكتشف شيئاً يعطيه الاسم الذي يرغب فيه. فالفيزياء الجزيئية مثلاً ازدهرت في أميركا بعد الحرب الثانية، ولو نظرنا لأسماء الجزيئات في الفيزياء لوجدناها في الغالب أسماء لمناطق أميركية. أما الإنترنت، الذي لم يكن لأميركا سبق اكتشافه، إلا أنها أضافت له الشيء الكثير، وهذا منحها ميزة الإعفاء من ذكر الحروف الأولى من اسمها usa في نهاية عناوين مواقعها الإلكترونية، كما الحال مع بقية دول العالم.

كما نجد أن الطوابع البريطانية لا تحمل اسمها، مثل بقية الطوابع، فهي أول من اخترع الطابع، وأصبح لها بالتالي «شرف» الإعفاء من طباعة اسمها عليه! وبالرغم من أن «أبراج النجوم» سميت في غالبيتها بأسماء يونانية أو رومانية، لفضلهم في اكتشافها، فإن للعرب الفضل في اكتشاف النجوم نفسها، وبالتالي تحمل ثلاثة أرباعها أسماء عربية، وهذا التقدم العربي الإسلامي العلمي حدث خلال فترة 300 سنة، بين 800 و1100 ميلادية، عندما كانت بغداد، عاصمة العالم، مدينة منفتحة على جميع الثقافات والأديان يشارك الجميع في مسيرتها العلمية، فحصل التطور في الهندسة والاحياء والطب والرياضيات، حتى الأرقام 1 2 3 المستخدمة في الغرب تسمى بـ«العربية»، وكل هذا التطور الكبير أعطى العرب الأحقية في تسمية مكتشفاتهم باسمائهم. ثم حدث الانقلاب في القرن 12م، عندما حرم الإمام أبو حامد الغزالي الرياضيات والفلسفة وغيرهما من العلوم ونسبها للشيطان! وهنا توقف التقدم العلمي الإسلامي وانهار ولم يرجع، بعد أن أقنع الغزالي الجميع بأن الوحي يشرح كل شيء ولا حاجة لمعرفة العلوم. وختم المحاضر حديثه قائلاً اننا لو نظرنا للفائزين بجوائز نوبل منذ تأسيسها لوجدنا أن ربعها ذهب لليهود الذين لا يزيد عددهم على 15 مليوناً في العالم، في الوقت الذي لم يفز فيه المسلمون، الذين يزيد عددهم على المليار بكثير، بأكثر من 5 أو 6 منها، ولو لم تنهر أوضاع

المسلمين في القرن 12 لكانت غالبية جوائز نوبل من نصيبهم! وقد كفر علماء سلف من أمثال ابن تيمية وابن قيم الجوزية وناصر الفهد علماء أفذاذاً أمثال الفارابي وابن سينا وابن الهيثم والرازي والخوارزمي وابن عربي وابن رشد وابن المقفع، وجابر بن حيان والجاحظ والكندي، ووصفوههم بالملاحدة والزنادقة المشتغلين بالسحر والطلسمات، غير المؤمنين بكتب الله ورسله واليوم الآخر. وقال ناصر الفهد في كتابه «حقيقة الحضارة الإسلامية» ان كبار المفكرين الذي كانوا سبب انتساب الفترة الإسلامية الى مقدمة الحضارة الانسانية، كانوا في حقيقتهم خارج الاسلام!

أنيس

يصعب عليّ شخصيا فصل حياة الكاتب الشخصية وأخلاقه، بشكل عام، عن كتاباته. فقد يكون الكاتب مميزا وصاحب قلم لا يجارى، ولكن يصعب احترامه أو الثقة بما يكتب ان لم تتطابق كتاباته مع الحد الأدنى من طريقة حياته! فكيف يمكن قبول قيام كاتب ما بانتقاد الحكومة أو رئيسها مثلا، إن كانت سمعته هو اصلا مصدر شك؟ أو أنه من النوع الذي لا يتردد في التكسب «الخارجي» من وراء قلمه أو تأجييره لهذه الجهة أو تلك، أو لمن يدفع أكثر؟ لا اعرف ان كنت على حق في ذلك، ولكنها وجهة نظر وجدت من الضروري التطرق لها قبل الدخول في موضوع هذا المقال والمتعلق بشخصية الكاتب أنيس منصور الذي توفي قبل فترة عن 87 عاما، فقد كان منصور غزير الانتاج، وسبق أن استهوتني كتبه كثيرا في بداية قراءتي، ولكنني توقفت عن الاعجاب به في مرحلة تالية عندما اكتشفت ما لعبه من دور في تخدير الشعب المصري، وبالتبعية شعوب أخرى، والتلاعب بعقولها وإلهائها بقضايا السحر وتحضير الأرواح والمخلوقات الهابطة من السماء، ولعنة الفراغة وغيرها الكثير من اللغو الذي خلق وقتها بلبله ذهنية كبيرة، ولكنها حققت له الشهرة والنجاح والمال!

بدأ منصور حياته الصحفية، بعد تخرجه في الجامعة، مراسلا لـ «أخبار اليوم»، واشتهر بتحقيقاته في مجلة «آخر ساعة» عن رحلاته لجنوب شرق آسيا، التي جاء منها بفكرة تحضير الأرواح بالسلة، وشغل بها المصريين فترة طويلة في أوج معاناتهم من حكم جمال عبدالناصر وأجهزة حكمه السرية. كما استفاد منصور في مرحلة تالية من قربه من السادات وتأييده للسلام مع اسرائيل، وأتاح له ذلك القرب ترؤس أكثر من مجلة وجريدة يومية، ولكن أيا منها لم تحقق نجاحا يذكر، وجاءت السقطة الكبيرة، التي سبق ان تطرقنا لها في مقال قبل فترة، عندما قام بترجمة كتاب The 100 most influential persons in History، أو «الشخصيات المائة الأكثر تأثيرا في التاريخ»، للباحث الأميركي مايكل هارت Michael Hart حيث وضع اسمه على غلاف الكتاب من دون ذكر اسم مؤلفه الحقيقي، كما بدّل فكرته بتغيير موضوع الكتاب وعنوانه وجعله «أعظم 100 شخصية في التاريخ»، وهناك فرق شاسع بين الأعظم والأكثر تأثيرا، فشخصية مثل هتلر كانت مثلا من الشخصيات الأكثر تأثيرا في التاريخ، ولكنها لم تكن على الاطلاق الشخصية الأعظم، وهكذا مع شخصيات الكتاب الأخرى.

ماذا تعلمت من طارق؟

ليس من السهل وجود طفل ذي احتياجات خاصة في الأسرة، ومع هذا للموضوع جوانبه الإيجابية، حيث أعتقد انني أصبحت شخصا أفضل، بوجود «طارق» ضمن أسرتي الصغيرة! فقد تعلمت منه وبسببه الكثير، فعندما كان في سنواته الأولى زار الكويت طبيب شهير، وكان موعدنا معه في آخر أيام زيارته. طال انتظارنا له في العيادة، كما كان الوقت مربكا، حيث كان عليّ العودة سريعا لعملي في البنك لإنجاز لم يكن أحد يمتلك صلاحية القيام به. وكان علي أيضا الذهاب لتحويل ملكية أسهم سبق وأن قمت ببيعها في اليوم السابق، لمالكها الجديد، وقبض الثمن، علما أن أسعارها في ذلك اليوم انخفضت عما كانت عليه، وهذا قد يبطل البيعة. كما كان لدي موعد، في اليوم نفسه، لتوقيع عقد بناء مسجد، مع وزارة الاشغال! ولم تكن الهواتف النقالة معروفة حينها، كما أن هواتف المستشفى لم يكن بالإمكان الاعتماد عليها يوما، وربما لا تزال على خرابها، بعد ربع قرن! وكنت أشعر بضيق شديد وحيرة لعجزني عن الاختيار بين انجاز ما هو مطلوب مني، وبين رغبتني في البقاء مع طارق ووالدته، وفجأة شعرت براحة نفسية تغشاني بعد ان اكتشفت «الحقيقة» وأنا أتساءل: أليست الرغبة في تحقيق المزيد من المال، من خلال صفقة الأسهم، وتوقيع عقد الاشغال، والذهاب لعملي في البنك، هي جميعا الدافع لرغبتني في ترك ابني ووالدته؟ ألا ندعي جميعا تقريبا اننا لا نهدف من وراء جمع المال غير تأمين حياة أفضل لأسرنا وضمان مستقبلهم؟ فإن كنت صادقا مع نفسي ومع هذا الادعاء فإنني بالتالي في المكان المناسب، مع ابني! وعلى العالم أن ينتظر، ولتذهب الأرباح إلى الجحيم، فأنا هنا من أجل صحته ومستقبله! ومن يومها تعلمت من طارق أن أضعه وأخته وأخاه وأمهم في قمة أولوياتي، وعلى من لا يشاركني الرأي، البقاء من غير زواج أو أبناء!

كما تعلمت من طارق الصبر، وصبري ليس بالمثالي، ولكن كان من الممكن أن يكون اسوأ! وتعلمت منه الصدق في المحبة، وعدم القدرة أو المجاملة، خاصة مع من نملك عدم مجاملتهم، وهم الغالبية بيننا. كما أن طارق لا يترك طعاما في صحنه دون أن ينهي، ومنه تعلمت عدم تبذير الطعام، فقد اكتشفنا مصادفة أنه لا يحب الذهاب لمطاعم محددة، بالرغم من حبه لما تقدمه من طعام، والسبب أن الكمية التي توضع في صحنه كبيرة ويتعب بالتالي في انهاءها، وبالتالي كره تلك المطاعم!

ومن الأشياء الرائعة التي تعلمتها من طارق عدم السماح لرغبة التملك في السيطرة علي. فكل ما يمتلكه طارق هو ملك لمن يحب. وبخلاف حالات المرض القليلة التي يمر بها، فإن كلامه وتصرفاته تتسم عادة بالبعد عن المجاملة أو زيف القول، وهذا ما نحتاج اليه أكثر في عالم مليء بالمجاملات «الكاذبة»، فنحن نتكلف في المديح، ونبالغ في الذم ونتجنب الصراحة، علما بأنه لم يقل يوما انه يكره فلانا!

دموع فياضة

لم أتوقع زخم وعفوية ما تلقيته من ردود على مقال «ماذا تعلمت من طارق؟»، هذا غير الاتصالات الهاتفية من اعزاء كبار وصغار. وهنا أستطيع الجميع العذر في نشر البعض منها، فقد لامست كلماتها عميق مشاعري ومشاعر وأحاسيس عائلتي الصغيرة، وجعلتنا نشعر بالفخر لوجود طارق بيننا. كما، ونحن نمر في هذه الظروف الدقيقة، التي يبدو أن دقتها لن تنتهي أبداً، أحوج ما نكون لسماع وممارسة مثل هذه المشاعر الإنسانية الطيبة والرفيعة.

يقول تيموثي إبراهيم: ربما تلقيتم أطنان الرسائل على مقالكم عن طارق، ولكن علي أن أخبرك بأنني تفاعلت بإيجابية مع ما كتبت، فقد كنت شفافاً وملهماً، وجعلتني أكثر واقعية مع «رافائيل»، ابنا الذي يشبه طارق، وشجعتني لأن أجعله على رأس أولوياتي!

وكتب الزميل العزيز صالح الشايجي: مقال رائع قرأته في الصباح، رغم أنني لم أقرأ مقال البحيري! وكتب العزيز الآخر عبدالرحمن النجار: مقال رائع يا بو طارق، سلم لي على طارق وعلى والدته، وتحياتي من لندن. أما الصديق حسام الشملان، الكابتن الطيار، فقد ذكر: شكراً على هذا المقال المنعش، فنحن أحوج ما نكون لكلماته في هذا المنعطف الذي نمر به! الرائعة دائماً «فارعة السقاف» كتبت: لا تكفي كلمات الشكر والتقدير لهذا المقال الذي يلامس شغاف القلب ويلهم، انني اتعلم منك الكثير كل يوم. فشكراً لما أنت عليه، وأنا شخصياً، من واقع معرفتي بطارق، اعلم جيداً كم هي كبيرة مزاياه، وعندما يختار الجلوس بجاني والتحدث معي أشعر بالسعادة، ولا أنسى تعبيرات وجهه، وكيف استقبلنا راكضاً، عند باب بيتكم في لبنان، وهو يحمل المظلة ليقينا من المطر!

القارئ غازي أبو بكر كتب يقول: أشكرك على هذا المقال، وأنا ممتن لأن أجد أبا مثلك رفيف الحس وإنسان بمعنى الكلمة! أما رسالة م. عبدالله شقير فقد كانت مختلفة، حيث ذكر: شكراً على هذا المقال الرائع، فقد ادركت تقصيري، وسأقوم بتغيير حياتي واعطاء عائلتي وقتاً واهتماماً أكبر. سلامي لطارق والعائلة. عبدالرحمن المناعي كتب: منذ سنتين تقريباً فتح الحظ لي نافذة جميلة بتعرفي عليك، وأدمنت كتاباتك واستمتعت بما ترسل من مواد راقية.

الرائعة زين كبرة كتبت: لقد انتهيت للتو من قراءة مقالك. واود أن أخبرك بأنني احببت ما كتبت، وعلي ان اعترف بانني، وبعد أن غادرنا ابو طلال، توقفت عن

قراءة الصفحة الأخيرة من القبس، حيث كان يكتب، ولكن، بعد مقال طارق شعرت
بأنني تغيرت، فقد ألهمتني مقالتك!
أما ح. قبازرد فقال بكل شفافية وإنسانية: انني اعيش منذ سنوات ست تقريبا
بعيدا عن عائلتي لظروف عمل، ومقالك لمس شغاف قلبي، وملاً عيني بالدموع!
وهنا أشعر بأن علي التوقف عن نقل بقية الردود، فقد غلبتني عاطفتي وأصبحت
لا أرى الأحرف بوضوح على لوحة المفاتيح!

تعليق مميز على مقال

وردني النص التالي من الصديق والإعلامي الكبير يوسف الجاسم:

«امتدادا للردود التي وصلتكم على مقالتي الرائعة «ماذا تعلمت من طارق؟»، أسمح لي بهذه الخاطرة. أنت وأم طارق وأنا وأم خالد وغيرنا كثيرون نعيش حالة متماثلة من مكابدات يومية لأبنائنا المعاقين، وهذه المكابدات ولدت وفجرت فينا قيماً ومفاهيم كانت خافية عنا وعن غيرنا ممن لم يقع في ما أوقعنا القدر فيه، فأصبح من واجبنا البوح ببعض من هذه العبر، التي سطرناها في مقالتي المستوحاة من مقالة أخرى للكاتب سامي البحيري، فما اكتشفته أنا، أنه ليس بالضرورة أن يكون ابناؤنا المعاقون هم الأضعف ونحن الأقوياء، كيف؟ فمثلاً أنا وأم خالد، زوجتي، وعلى مدى 18 عاماً من الصمود أمام حال ابنتنا «كندة»، التي كانت تجري أماننا ممتلئة بالحيوية والجمال، وتحولت فجأة إلى روح في جسد هامد مسجى على الدوام يستمد أنفاسه وغذائه من أجهزة وأنايب طبية للاستمرار في الحياة، ولكنها علمتنا الكثير، وألهمتنا الدروس والعبر، وبينت لنا المسطرة الحقيقية غير المزيفة للحياة، فأصبحنا نهل منها يومياً ما يزكي أنفسنا ويدفعها نحو إدراك ما خفي من دنيانا، وما ينتظرنا في آخرتنا بشكل معبر وبلغ. علمتنا كندة الصبر والجلد وقيم استمرار الروح والبقاء أحياء نسمع وإن كنا لا نرى، ونحس وإن كنا لا نتحرك، ونفرح ونحزن وإن كنا لا نقوى على التعبير. علمتنا البراءة والنقاء الظاهرين على وجهها المشرق على الدوام دون ردات فعل لما يجري حولها من أنواء الحياة. علمتنا لغة الصمت السرمدى بين ابنة اقتربت من الأربعين عاماً من عمرها، وهي تتلقى الحديث من أمها وأبيها ولا تتفاعل معه أو ترد عليه، ولكننا نغادرها مرتاحي النفس، حيث أنهينا معها مكالمة اليوم. علمتنا كندة مفاهيم عالم العناية الطبية الفائقة، والخروج منه إما مشياً بسلام فوق الثرى أو مغادرة أخيرة تحته، وهو عالم الشفاء أو النهاية. علمتنا تراكم الحزن والألم وتراكم الرجاء والأمل ومخزونات العاطفة وحب الآخرين، والزهد بالدنيا. وأدركنا منها عالم الصفحات البيضاء النقية من شوائب الحياة التي تضاف يومياً إلى سجل عمرها الصامت.

نحن وأنتم يا أبا طارق نعيش حالة صبر جميل ولد من رحم ألم شديد. وأروغ دروس هذه الحالة أن ضعافنا أصبحوا هم الأقوياء ونحن أمامهم الضعفاء.

لك ولطارق وأمه محبتنا الدائمة.

أخوك يوسف عبدالحميد الجاسم».

نحن والفرد نوبل

أشيع الكثير عن عدم حيادية مانحي جائزة نوبل، وأنهم مسيسون، وأن قراراتهم تخضع لحسابات محددة، إلا أن لا أحد مثلنا بالغ في الطعن في مصداقية ما منح منها، خاصة في حقل الاكتشافات والاختراعات العلمية والطبية! فما هو الاختراع، أو العمل الأدبي أو الفكري الهائل الذي انتجته العقول العربية والإسلامية، ولم يحصل على هذه الجائزة المرموقة؟ وعليه يعتبر الفوز بجائزة نوبل مؤشرا واضحا، وعادلا إلى حد بعيد، على تقدم أي أمة ومقدار مساهمة مواطنيها في الجهد البشري العام والمفيد في ميادين الاقتصاد والفن والأدب والعلم، وغير ذلك. وفي هذا الصدد، قام صديق بالبحث في موقع الويكيبيديا، وتحليل خلفيات من فاز بهذه الجائزة العالمية المرموقة عبر تاريخها الطويل، فتبين له أن من اصل 807 جائزة، فاز الأميركيون بـ 333 منها، مقارنة بـ 20 للكنديين، و120 لبريطانيا، و102 ألمانيا، و27 أروسيا، و58 لفرنسا، و فقط 19 لليابانيين، أما السويد، وطن الجائزة، فلم يفز بها غير 29. ومن الظواهر اللافتة أن 20% من الـ 807 جوائز فاز بها يهود، ومن جنسيات متعددة، منهم 10 إسرائيليين! ولاحظ الباحث أن الخلفية الدينية لغالبية الفائزين بالجائزة عادة معتدلة، ضعيفة أو حتى معدومة غالبا، مع غياب لأي متشدد أو متعصب ديني بينهم! مقابل ذلك فاز عشرة مسلمين بالجائزة: 8 رجال وسيدتان، ومن هؤلاء العشرة 6 عرب، أربعة منهم من مصر. والغريب أن 8 من العشرة فازوا بالجائزة في مجال السلام، ومن منطقة لم تعرف السلام إلا نادرا، اما الاثنان الآخران فجنسية أحدهما غير عربية، والاثنان تلقيا علومهما في الغرب!

أما النساء فقد فزن بـ 44 جائزة من اجمالي الجوائز، ومثل ذلك 5%، علما بأن العالمية الفيزيائية «ماري كوري»، حصلت عليها مرتين! ويعتقد صديقنا الباحث أن حصة النساء الضئيلة من جوائز نوبل تدعم وجهة نظر المدافعات عن حقوقهن من انهن يتعرضن للفرقة والظلم! كما تؤيد النسبة نفسها وجهة نظر المتشدددين الدينيين، ومن المسلمين بالذات، من أن النسبة نفسها تثبت افضلية الرجل على المرأة، وقوامته عليها... وتعال حلها!

الكوكاكولا

قامت شركة «كوكا كولا» أخيراً، وبعد 86 عاماً، بنقل مكان حفظ خلطتها السرية الى مقر جديد بحيث يمكن للجمهور الاطلاع على طريقة حفظ واحدة من أكثر العلامات التجارية شهرة وسرية في العالم، والتي كتب موادها ومقاديرها جون بمبرتون عام 1886، أي قبل 125 عاماً، ولم يدونها بل حفظها، وبقيت دون تدوين لأكثر من 80 سنة! وانتقل حق الخلطة والإنتاج لـ «أسا كاندلر» عام 1891، ومنها تطور إنتاج الشركة وكبرت أعمالها لتصبح ليس الأشهر والأوسع انتشاراً في العالم فقط، بعد ان بلغت قيمة علامتها التجارية أكثر من 50 ملياراً، أكرر 50 مليار دولار، بل وبعد أن أصبحت أيضاً رمزاً للرأسمالية الأميركية وثقافتها الجديدة! ولو نظرنا الى ما حققته الكوكاكولا من نجاح تجاري، وما رسخته من ثقافة استهلاكية ورمز سياسي، لوجدنا ان أياً من هذه «الانجازات» الهائلة لم يكن ضمن أكبر أحلام من وضعوا الخلطة ومن اشتراها تالياً، أي بمبرتون وكاندلر، بل من المنطقي القول أن من جاء بعد هؤلاء، وعرفوا إمكانيات المشروب التجارية، هم الذين حولوه من مشروب بسيط ومتواضع، يباع في الصيدليات، الى فكرة تجارية وسياسية عملاقة لم ير لها العالم مثيلاً، ودافعهم كان تحقيق أقصى الأرباح والمنافع لحملة أسهم الشركة وعلامتها التجارية، وهو الدافع نفسه وراء نجاح أي فكرة تجارية أو سياسية، أو حتى عقائدية. فالأفكار العقائدية غالباً ما لا يكون لمن نادى بها دور كبير، بل لم آت بعد ذلك. فالشيوعية هي من بنات أفكار كارل ماركس وإنجلز، ولكن الذي استفاد منها وروج لها هم الزعماء، أو المتاجرين بالعقيدة، الذين اتوا بعدهم، وأوصلوها للعالمية، بعد ان رأوا ما يمكن ان يحققوه من نفع مادي وسياسي لانفسهم، وهو الأمر الذي لم يكن حتماً يدور بخلد لا ماركس ولا لينين. ولو تمعنا في الطريقة الباذخة التي عاشها، ولا يزال يعيشها، قادة وأعضاء المكتب السياسي لأي حزب شيوعي، من وارثي الآباء المؤسسين، لوجدنا انه لا يختلف كثيراً عن المستوى الذي كان يعيشه القياصرة والملوك الذين سبق ان انقلبوا عليهم، كما لو تمعنا في الحياة المرفهة التي يعيشها «اكليروس» الكثير من الأديان، لما وجدنا في مستوى معيشتهم وطريقتهم ما يتفق أو يمت بصلة لما بشر به انبياءهم من تقشف وبساطة عيش! وبالتالي فالفائدة أو المنفعة الشخصية، أو القبلية العائلية، كانت، في الغالب الأعم، المحرك الأهم وراء نجاح الكثير من الأنشطة السياسية والعقائدية وغيرها، ويصح القول كذلك ان السبب في فشل الكثير من الأفكار أو المشاريع الدينية والعقائد، لم يكن سوء فكرتها، بقدر ما عاد الأمر لافتقارها الى مروجين ومسوقين جيدين!

التجمل بالحضارة

في يوم قارس البرودة، قررت الذهاب الى وسط مدينة لندن لشراء بعض الكتب. استقلت الحافلة أو الباص الأحمر، وجلست على مقعد قريب من الباب، وهو الجزء المخصص عادة لكبار السن والعجزة، ولكن الباص كان خاليا تقريبا. لففت نفسي جيدا، فقد كان الطقس باردا حقا، وما ان سارت الحافلة بضعة أميال حتى تذكرت أنني في زيارتي الأولى للمكتبة نفسها ترجلت في محطة بعيدة قليلا عنها، واضطرت للسير كيلومترا تقريبا، ولكني اليوم على غير استعداد للمشى حتى لعشر خطوات، خاصة أن المطر بدأ بالهطول. وهنا سألت سيدة كبيرة في السن كانت تجلس بجانبني، لخلو الحافلة من بائع التذاكر، عن أقرب محطة لـ«مخزن فويلز للكتب»، فقالت لي، دون تردد، بأن علي الترجل بعد محطتين، وهذا ما فعلته، وما ان سرت بضع خطوات، حتى فوجئت بتوقف الباص في غير محله، وهذا أمر نادر الحدوث، ووجدت السيدة نفسها تترجل منه وتتجه نحوي، لتقول لي: ايها الشاب، وكنت وقتها شابا بالفعل، أعتذر لك بشدة، هذه ليست محطتك، بل هي بعد محطتين أخريين، أنا آسفة جدا! شكرتها وقلت لها ليس هناك مشكلة، فوقتي كثير، وسأنتظر، واعتقدت أنها ستذهب لحال سبيلها، ولكني وجدتها تسير للمحطة وتقف معي، وهي تحمل المظلة بيدها لتقيني من المطر، فسألتها إن كانت هذه محطتها فنفت ذلك وقالت إنها ترجلت من الحافلة لأنها أخطأت معي، ولكي لا تجعلني أسير ثلاثة كيلومترات على الأقل في هذا المطر، ترجلت عنها لتلفت نظري للخطأ! نظرت لتلك السيدة، التي ربما كانت في الثمانين من العمر وسألت نفسي، لو كنت مكانها وفي سنها هل كنت سأترجل من الحافلة، في هذا البرد والمطر، لأخبر شخصا غريبا واجنبيا، ربما لن التقى به مرة أخرى في حياتي، بأنني كنت على خطأ؟

تذكرت تلك القصة، التي مر عليها الآن أكثر من 44 عاما، عندما قمت يوم 10 يناير بنشر ملاحظة أعلنت فيها عن إقامة «مركز تنوير»، ندوة للمفكر إبراهيم البليهي في الجمعية الثقافية النسائية، يوم الأربعاء، 11 يناير، في الوقت الذي كانت الندوة في اليوم نفسه لنشر الملاحظة، أي الثلاثاء. وفي محاولة متواضعة لسداد ما لتلك السيدة من دين «حضاري» في عنقي، قمت في السادسة والنصف من يوم الاربعاء، 11 يناير، بالذهاب الى الجمعية الثقافية، ووقفت على باب قاعتها بانتظار من سيأتي في ذلك اليوم لحضور الندوة، حسب ملاحظتي، لأخبره بخطئي،

وأعتذر له! لم يطل انتظاري كثيرا حيث أتى شخص وأخبرته، بالخطأ وتبعته سيده
وفعلت الشيء نفسه معها، وتركت الجمعية بعد السابعة بدقيقة، فلست مسؤولا عن
الاعتذار لمن يأتي متأخرا!
شكرا لك يا سيدتي يا من علمتني كيف أحاول أن اكون متحضرا.

الراقي والإنسانية

سبق ان تطرقنا قبل عشر سنوات تقريبا لموضوع هذا المقال، ونعيد كتابته بعد الترحيب الذي لقيه مقال سبقه عن الدرس الحضاري الذي تعلمته من سيدة إنكليزية!

ما ان أقلعت طائرة الخطوط البريطانية من مطار هيثرو، في طريقها لبوسطن، حتى اقتربت المضيفة من مسافرة وسألتها إن كانت قد فقدت شيئاً، فنفت المسافرة فقدها لشيئ! عادت لها بعد دقيقتين وكررت السؤال وطلبت منها ان تبحث في حقيبة يدها، وأن المطار على اتصال بكابتن الطائرة بهذا الخصوص، وان الإرسال سينقطع خلال لحظات! هنا بحثت السيدة في حقيبة يدها فبين أنها فقدت محفظة نقودها، وفيها مبلغ نقدي لا بأس به وبطاقات ائتمان، وأشياء ثمينة ومهمة أخرى! أسرع المضيفة لمقصورة القيادة، ورجعت بعدها لتخبرها بأن محفظتها عثرت عليها بائعة محل العطور، التي أبلغت الأمن الذي قام بالبحث عنها، وفي أثائها أقلعت طائرتها، فاضطروا للاتصال بقائدها، وهو في الجو، ليُعلموا المسافرة بالأمر! لم ينته التصرف الحضاري هنا، بل استمرت في دراميتها عندما سألت المضيفة المسافرة، وهي تخبرها بأن محفظتها سترسل لها مع رحلة الطيران التالية، إن كانت تحمل نقودا معها، أو ان احداً بانتظارها في المطار، وعندما فنفت ذلك، قالت لها انها ستعطيها، على حساب شركة الطيران، مبلغاً من المال لدفع اجرة التاكسي ولشراء أي أشياء ضرورية!

وفي اليوم التالي حضر موظف من شركة الطيران لعنوان سكن السيدة، وسلمها محفظتها بكامل ما كان فيها من نقد وأشياء ثمينة أخرى! هنا نجد أن الحضارة ظهرت في أجمل صورها من خلال تصرف بائعة شابة، ربما كانت في أمس الحاجة لما كان في المحفظة من مال، وكان بإمكانها الاستيلاء على المبلغ، أو حتى التأخر في إعلام الأمن بالأمر! وقد تصرفت تلك الفتاة بتلك الطريقة الحضارية وهي على ثقة بانها سوف لن تكافأ مادياً لأمانتها، والأغلب انها سوف لن ترى وجه تلك السيدة لنقول لها «شكراً»! كما لا أعتقد انه طراً على بالها دين ولون ولغة وجنسية من نسيت المحفظة، وهذا ذكرني بفتوى الداعية السعودية الذي حلل الاستفادة من بطاقات الائتمان المسروقة إن كان مصدرها بنكاً ربوياً! كما تجلت الحضارة في سرعة تصرف أمن المطار وتجشّمهم عناء الاتصال بالطائرة هاتفياً، بعد الاستدلال عليها من خلال تفاصيل بطاقة صعود الطائرة التي أبرزتها المسافرة

عند الشراء من محل العطور، وأخيرا توجت مضيئة شركة الطيران هذا الرقي والإنسانية في التعامل مع «البشر»، بسؤال المسافرة عن الكيفية التي ستصل فيها إلى بيتها، إن لم يكن لديها أجرة التاكسي وتبرعت لها بمائة دولار، وهو مبلغ كبير جدا في معناه بالرغم من تواضعه! وهنا يطرح سؤال نفسه طرعا: كم نحتاج لكي نصل لهذا المستوى من الإنسانية والرقي في التعامل مع البشر بصرف النظر عن خلفياتهم الدينية والعرقية؟

كيف يعيش فقراؤنا؟

تقول طبيبة عراقية في رسالة مؤثرة لصديق، إنها بكت كثيرا، وهي تشاهد موت يتيمة معاقة عقليا من نزلاء دار أيتام، نتيجة سوء تغذية وفقر دم في محيط مملوء بالثراء المادي والغذائي، وفي دار لا تبعد كثيرا عن جامع معروف يصلي فيه الآلاف أسبوعيا، ومن بينهم أعضاء في مجلس النواب، وكثير من أغنياء العراق، وتقول إنه ليس غريبا أن يموت فقراء العرب من الجوع والفقر، فذلك جزء من ارث أمة حكمها، بعد الراشدين، أكثر من مائة «حاكم» من أمويين وعباسيين وغيرهم وصولا إلى العثمانيين، الذين انتهت بهم، بعد أن استمر عهد كل هؤلاء لأكثر من 1250 عاما، لم نقرأ أو نسمع فيها عن واحد أقام العدل وأنصف الفقراء، ربما غير عمر بن عبدالعزيز، وحتى هذا لم يدم حكمه طويلا! وعندما اقتحم هولاءكو بغداد المعتصم وجد في قصوره غرفا مملوءة بالمجوهرات، وعددا لا يحصى من الجواري والغلمان، وأن هذا «ال خليفة» لم يصرف شيئا من أمواله على تسليح وإطعام جيشه والفقراء! وتقول الطبيبة العراقية إننا لو نظرنا إلى واقع وحال كثير من الأماكن الدينية، الأكثر تقديرا واحتراما، وخاصة في الدول الإسلامية لوجدنا أن غالبيتها يحيط بها حزام فقر واضح. كما نجد أن أي جهة تقدم العون لهؤلاء تحصر عونها في أتباع مذهبها أو دينها، وهذا عكس ما يحدث مثلا في كنائس الغرب، ومعابد جنوب شرق آسيا مثلا، التي يسمح للجميع بدخولها والانتفاع من خدماتها من دون تمييز أو تفرقة! وقد ذكرني كلام هذه الطبيبة، بقصة ذلك البحريني الذي قبض عليه في الكويت قبل فترة «متلبسا» بجريمة الصلاة في مسجد غير مسجد أتباع مذهب، وكيف ضرب الرجل من قبل المصلين، وكيف رحل خلال ساعات إلى الخارج!

ولو عصرنا فكرنا لما وجدنا جامعا أو كنيسة في بلداننا عرف عنها توزيع المعونات للفقراء، من دون التدقيق المسبق بدين طالبي العون ومذهبهم، وهذا أيضا عكس ما نشاهده في أماكن كثيرة أخرى، وربما يكون الاستثناء الوحيد هو مآدب رمضان، التي لا يسأل فيها عادة عن ديانة من يرتادها، ولو أنني أشك في أن غير المسلمين لديهم الجرأة على الاقتراب منها. كما لو بحثنا لما وجدنا أي مستشفى خاص في كل الدول العربية يرضى بتقديم العلاج للمضطر والمحتاج، علما، أن عددا كبيرا منها مملوك لمؤسسات خيرية ومالية إسلامية معروفة، وهذا طبعا يتناقض تماما مع ما يصرف على تمويل ومساندة الارهاب، والذي يكفي

نصفه لتحسين دخل ملايين المسلمين وتغيير معيشتهم الى الأفضل.
وتتكر الطيبة وجود ثري عربي واحد، وما أكثرهم، تبرع أو أوصى بالتبرع
بغالبية أمواله لخير البشرية، مثل «الكافر» بيل غيتس، أو أن أحداً من أثريائنا أو
مشاهيرنا أنفق على الخير والتعليم مثل ما فعلت اوبرا وينفري، وعشرات غيرها
من فنانين ورجال أعمال. وبالرغم من أن خطباء مساجدنا بارعون في وصف زهد
السلف الصالح والأئمة وكرمهم، فاننا نجد أنهم يعيشون عيشة ترف متناهية، كما
ظهر من مقابلات تلفزيونية أجريت مع بعضهم، عندما زارت الكاميرات بيوتهم،
وبينت بذخ معيشتهم!

آلام خالد*

يقول صديقي خالد: ذهبت الى أميركا قبل 40 عاما للدراسة، وفي المدرسة الداخلية حددوا فصولنا وسكننا وضرورة حضور قداس الأحد. أخبرني المشرف بأنني معفى من القداس لاختلاف المعتقد، فقلت له بأنني كتابي مؤمن، ولا شيء يمنع دخولي الأبرشية. اعجبهم موقفني المتسامح، وكنت حينها أعرف ما يكفي عن الدين، وأن اسلافي، عندما فتحوا الشام والأندلس، لم يهدموا كنيسة ولم يقتلوا قسيسا! بعدها بأشهر قليلة حلت أعياد الميلاد ورأس السنة، واحترت أين اذهب، فالعطلة ستمتد لأسابيع ثلاثة والسكن الداخلي مغلق، والوطن بعيد؟ ولم اعلم أن إدارة المدرسة رتبت لي قيام ثلاث أسر أميركية باستضافتي، وهكذا كان. كانت تجربة أكثر من جميلة. بعدها بشهرين حل شهر رمضان، فأخبرت الأستاذ المسؤول بأنني لن اشارك البقية في تناول وجبات الطعام، وأن ديني يفرض علي الصيام، وإنني سأكتفي بتناول شطيرة جينة في السحور، ومشاركتهم طعام الافطار. واعتقدت بأنني سأترك لحالي، ولكن الأستاذ أخذني للشيف، وشرح له وضعي، فقرر هذا، على الرغم من اعتراضه، أن يقوم بتحضير وجبات خاصة لي طوال الشهر، وقد قدرت له ذلك كثيرا، لعلمي بما سيعانيه من جهد غير عادي من أجلي، خاصة أن لا علاقة تربطني به. بعدها اصبح الجميع يتقبل وضعي ويزداد فضولهم لمعرفة ما سأقوم به بعد صيام شهر، فأخبرتهم بعاداتنا في العيد والتقاء الأهل في بيت العائلة الكبير وقيام الكبار بتوزيع الهدايا النقدية علينا، في خضم مشاعر فرح بتكملة صيام الشهر وتناول أول وجبة غداء بحضور الجميع. وفي اليوم الأخير من شهر رمضان، فاجأني بعض أصدقائي بإيقاظي من النوم في الرابعة فجرا، والطلب مني مرافقتهم لبيت المشرف، وهناك استغربت الأمر، خاصة ان البيت غارق في الظلام، وما ان فتحت الباب حتى فوجئت بالأنوار تضاء والجميع بالداخل يصيح بصوت واحد «عيد مبارك»! عقدت المفاجأة لساني ولا أدري ما تمتعت به من كلمات شكر وتقدير، فقد اختاروا وقتا مزعجا جدا بالنسبة لهم، وغاليا ومهما بالنسبة لي، وهو موعد العيد في الكويت نفسه، مع فارق الوقت! وهنا ايضا اذهلني اخلاصهم وتقديرهم لما يعنيه العيد بالنسبة لفرد مسلم وحيد، فشكرتهم على محبتهم، وكيف أنهم فضلوا جميعا تهنئتي على هناء النوم في فراش دافئ! وهنا قادني مشرف الدار للهاتف، وقال إن بإمكانني إجراء مكالمة خارجية والتحدث مع أهلي لعشرين دقيقة مجانا، وأنهم شاركوا جميعا في تغطية تكلفتها،

فنظرت اليهم بامتنان ولا أعتقد أنني رأيت وجه أحد منهم، فدموع الشكر كانت تغطي عيني، فقد كنت ساعتها أشعر بحنين جارف لسماع صوت والدي واخوتي في تلك المناسبة السعيدة، وكنت أعلم ما يتكلفه الأمر من جهد ومال لإجراء مكالمة صعبة مع الكويت!

تذكرت كل ذلك اليوم وأنا أطلع الصحف، وأتذكر عشرات المساجد التي بناها أهلي وأبناء وطني في العديد من الدول ومنها لبنان وبريطانيا، والتي لم يطالبنا أحد يوماً بهدمها، وشعرت بحزن شديد وأنا أقرأ مطالبة ذلك «النائب» بهدم كنائس المسيحيين في الكويت، و تمنيت أن أتواصل مع مدرسي تلك المدرسة وأصدقائي فيها، وأعتذر لهم عما فعله السفهاء منا بحقهم! التوقيع: خالد عبداللطيف الشايع.

* توفي الصديق خالد الشايع قبل سنوات وترك وراءه ذكريات جميلة لا تنسى

المتاجرة بالثأر

نشر السيد رشيد الخيون مقالاً في جريدة «الاتحاد»، ذكر فيه أن ليس هناك حدث دخل الوجدان «الشيوعي» مثل مقتل الحسين عام 61 هـ. في المقابل، ليس من حدث وظف، على مدى العصور، في السياسة والحزبية والتجارة بحجم توظيف هذه القضية، وان مع العاطفة النبيلة تجاه عاشوراء، الذي امتد إلى عشرة أيام، في فترات لاحقة، وصار شعاراً لغايات دول وسلاطين، لا لقتيل كربلاء. وهنا نسأل: كيف جعل ما يؤدي في عاشوراء، من كل عام، على أنه شعائر الله، وهذا ليس في القول الشائع الذائع على لسان الناس فحسب، وإنما يُثقف به في كتب وتعاليم، من هذا عنوان كتاب لآية الله محمد مهدي الآصفي «الشعائر والشعارات الحسينية» «النجف 2009»، الذي يُلازم فيه بين الشعيرة والشعار، ويرفع الأخير تأراً مفتوحاً؟ واستطرد الكاتب في القول: الآصفي سعى في كتابه المذكور إلى تكريس ثقافة الثأر، ولم يجعل لقتل الإمام الشهيد تاريخاً محدداً ولا مسؤولية رجال بعينهم، إنما أطلق الحدث إلى مدى الدهر كله، والأجيال المتعاقبة قاطبةً، وعليها أن تمثل دور القاتل والمقتول، ليس بما يسمى السبايا أو التشبيه في العاشر من محرم، إنما على الحقيقة لا المجاز، حتى ظهور المهدي المنتظر. فمن السنة 61 هـ، ومروراً بلحظة الغياب سنة 326 هـ، وحتى زمننا وما بعده يجب ألا تخلو الدنيا من تقابل الحسين وقاتله إلى أبد الآبدين! مع علمنا أن مؤلف الكتاب ليس بالمعمم الثانوي، إنما يعد من الجيل الثاني في حزب طلب إقامة نظام إسلامي، في ظلّه ينال المواطن ملء جفونه، والآصفي يقدم على أنه آية الله، بمعنى أنه بلغ درجة الاجتهاد، وأن له مقلدين، وهكذا، باسم الحسين، يخلد الثأر فاعلاً في الصدور ضاخاً الكراهية في الرؤوس ضد المختلف، من له رأي مخالف تجاه مذهب أو دين يصنف عدواً للحسين. كما يرى المشاركون في المواكب، وبدافع حماسة العاطفة الجمعية، أن كل من لا يلبس السواد ولا يلطم صدره ويفلق هامته أنه مطلوب بدم الحسين، وعلى مدى الأزمان والأحقاب، كم يصير للحسين أعداء في هذه الدنيا. وأضاف أن الآصفي قال في ديمومة الثأر: «إن هذا الصراع يمتد من جيل إلى جيل، ومن أرض إلى أرض، وما أصدق الكلمة المعروفة: كل أرض كربلاء وكل يوم عاشوراء» «ص 14». لا أدري متى يرى الآصفي الشروع بالعُمران، وهو رجل كان حزبياً وغيض الطرف عن فكرة الانتظار ليقيم دولة إسلامية، وعاش في ظل دولة كان يُجاهد لتحقيق مثلاً بالعراق، فهل انتهى فيها هذا الصراع الأبدي، وقرت

العدالة المثالية؟! وهل المنتظر أو الموعد مهمته الثأر؟! فما هذا التزييف للعقل، وتشويه لشخصية كبيرة، غير أنه دور يُنفذ باسمه، والمستفيد هو، المبشر بهذه الثقافة. فدعوا الناس ليكونه لأنهم يحبونه، لا يحملهم على الثأر مثلما تحملهم عليه باسمه هذه الكائنات الحزبية. وانهى الخيون مقالته بالقول: اتقوا الله في الحسين أولاً، وفي الشيعة ثانياً، مما تتقفون به من خلود عاطفة الثأر، واشغال العراقيين، والشيعة، عن البناء وفضح المفسدين. وأن مصلحة الحسين تكون بتفوق أتباعه علمياً، لا بتركهم مقاعد الدراسة طوال محرم وصفر وفي مناسبات ولادات ووفيات بقية الأئمة.

تغير الأفكار والمعتقد

أرسل الزميل العراقي «عبدالخالق حسين» ايميلاً تضمن مقالاً تنويرياً بعنوان «لماذا يغيّر المثقفون قناعاتهم؟». وذكر فيه أنه سبق أن تطرق لهذا الموضوع في مقال نشر قبل 7 سنوات رداً على مقال كتبه السيد نجم عبدالكريم، في صحيفة «ايلاف» الالكترونية، تهجم فيه على المثقفين والليبراليين، لدأبهم على تغيير مواقفهم! وقد استوقفني مقال الزميل حسين وجعلني أفكر في الكثير من مواقف القديمة ومقارنتها بالحالية، فوجدت، بالرغم من اتفاقي مع ما ذكره من أنه ليس عيباً على المثقف، ان كنت مثقفاً، تغيير مواقفه وآرائه، بأنني قلما تغيرت سياسياً ودينياً وفكرياً منذ نصف قرن تقريباً! فوفق ما تسعفني ذاكرتي فان أغلب آرائي في الحياة صمدت بشكل عام، وخصوصاً ما تعلق منها بالمرأة ومكانتها وحقوقها. اما سياسياً فلا شك أنها تبدلت وتغيرت مع الوقت، فقد شاركنا الكثيرين في «شبه عبادة» عبدالناصر. كما ساهمت بساطة الحياة السياسية التي كنا نعيشها في ستينات وسبعينات القرن الماضي في جعل آرائنا أكثر ثباتاً، فانتماؤنا الحزبية كانت هامشية، واقرب للترف الفكري، عكس ما كان الحال عليه في دول كالعراق وسوريا ومصر وحتى لبنان والأردن، وبالتالي لم يتقلب المثقفون بغالبيتهم أو حتى انصافهم من حزب لآخر أو من عقيدة سياسية لأخرى بشكل مكثف، ولم تعرف الكويت السجون السياسية أو سجناء الرأي الا نادراً! ولكن مع هذا يمكن القول إن التغيير طال الجانب الديني عند الكثيرين، فنسبة من تقلبوا من جانب الى آخر كبيرة حقاً، فقد رأينا كيف انقلب السكير والشرير الى داعية يضع على رأسه شرشف سرير، وكيف حدث العكس أيضاً، ولكن من غير شرشف ولا سرير! كما نجد أن التغيير طال افكار وآراء الكثيرين من قضايا كالثورة الايرانية ومن صدام حسين، ومؤخراً من السيد حسن نصر الله، الذي انقلبت آراء الناس فيه من حب، لبغض، لوله، لكراهية! وهنا نجد، كما ورد في رسالة الزميل حسين، أن لا بأس، الى حد ما، من قيام فرد بتغيير مفاهيمه او مواقفه متى ما ظهرت له حقائق جديدة لم يكن يعلم بها، ولكن يصبح الأمر انتهازياً متى ما كان التغيير من أجل تحقيق مصالح شخصية، وهذا ما رأيناه في مصر اخيراً عندما تحول ضابط الشرطة السابق الى داعية سلفي ومرشح لعضوية مجلس الشعب!

ولتأكيد أن التغيير يعني التطور وأن لا شيء ثابت في الكون استشهد الزميل بمقولات لمثقفين وفلاسفة كبار، يؤكدون فيها ضرورة تغيير المثقف لـ «جلدته»

متى ما تطلب الأمر ذلك، فالفيلسوف البريطاني برتراند رسل يقول: أنا لست مستعداً أن أموت في سبيل أفكارٍ لأنها قد تتغير. وعن الأديب فكتور هوغو: «انه لثناء باطل أن يقال عن رجل ان اعتقاده السياسي لم يتغير منذ أربعين سنة، فهذا يعني أن حياته كانت خالية من التجارب اليومية والتفكير والتعمق الفكري في الأحداث، انه كمثّل الثناء على الماء لركوده وعلى الشجرة لموتها». وفي قول لعلي الوردي، المفكر وعالم الاجتماع العراقي: «الأفكار كالأسلحة تتبدل بتبدل الأيام. والذي يريد أن يبقى على آرائه العتيقة هو كمن يريد أن يحارب الرشاش بسلاح عنترة بن شداد». وفي قول آخر له: «كلما ازداد الانسان غباوة ازداد يقيناً بأنه أفضل من غيره في كل شيء»! ألا يذكرنا القول الأخير بالبعض منا؟

أحلام أبرار

أرسلت القارئة «أبرار» رسالة أشعرتني قراءتها بحزن، حيث قالت فيها: يا أستاذي، أرسل لك رسالة سبق وأن بعثت ما يماثلها لأبي، ولا تسألني لماذا اشاركك فيها، فلا جواب لدي، وربما لأنك أبي الفكري، ولكني أرسلها مع شعور ورغبة قوية في أن يساهم إرسالها في تغيير واقعنا وحالنا، وأن يذهب إلى الأبد إحساسنا باليأس والخوف والفشل! أتمنى أن تقرأ رسالتي لعلك تستطيع فعل شيء، وأن تكتب وتبين ما نحس به نحن الشباب، فقد عجزنا وأصبحنا نشعر، وكأننا غرباء في وطن ليس لنا غيره.

كتبت لأبي قائلة: يا أبي، يا موطن أحلامي وآمالي، لا اعرف لماذا اكتب لك ما أريده في عيد ميلادي، بعد أن حققت لي كل طلباتي، ولكنك كنت دائماً السيد الحامي، انت أبي الغالي! أريد يا أبي الكويت ووطنا تعيش وتكبر فيه كل أحلامي وأحلام صغیرتي وقادم احفادي، ووطنا لا اشعر فيه بالخوف من أفكاری وعلى أفكاری. ووطنا تكبر فيه أمانی وتتحقق فيه آمالي، وتعيش فيه لیلی ابنتي اسعد أيامها وأيامي، ووطنا لا أحس فيه أنني صفویة مجوسیة ایرانیة أو شيء ثان، ووطنا لا أخاف فيه من أصحابي ولا خلاني، وأن أحبهم واستمر في حبهم من كل أعماقي. لا أريد يا أبي أن أعیش في زمن بني عثمان ولا خصومهم من عباس ومن قبلهم من أمیة سفیان، ولا فاطمي أو سلجوقي أو وهابي أو إخواني! أريد أن أعیش زمني وأسمع ألحاني واحب غيري واحترم جیراني وأساعدهم، لأي دين أو ملة أو مذهب انتموا وایة لغة تكلموا فهم اهلي واحبتي، وليسوا بكفرة أو زنادقة أو أي أمر أول أو ثان، أساعدهم لله في الله، لا أبغي أجرا ولا إحسانا، وأن أكون أفضل سفيرة لوطني وإسلامي، ولأعیش حیاتي متسامحة ومنسجمة مع ذاتي ووجداني، ومحبة للآخر بكل مروءة ومن دون إيثار ولا أحزان.

أبي العزيز أريد ووطنا جميلا في عيدي هذا، ووطنا يتسع لي ولغيري، فأنا لا انتمي لما يقولون ويدعون، أنا انتمي إلى تراب هذا الوطن، ففيه خلقت وبه عشت وعليه اموت، الكويت ووطنا الأول والآخر مهما قال وادعی وطالب الحاقدون، هذا الوطن الذي رفضت تركه في محنة غزوه، ليأتي اليوم أولئك الذين تركوه جريحا، ليتكالبوا عليك كتكالبهم على امهاتهم! هذا موطننا وهذه ارضنا وسنموت دونها، ولن نتركها لهم ليعیثوا فيها فسادا كما یشتھون، فلا وجود لك ولنا ولهم من غيرها. فاكتب لهم يا أستاذي، اكتب لمشايخنا وشيوخنا ولمن انتخبنا، ولعقلائنا، اكتب

لهم لا ليقفوا معنا بل مع الحق، مع الوطن، مع الكويت الحبيبة التي يبدو انهم
سيضيعونها بحقدهم وصلفهم وجهلهم، وهم الذين لم يشموا ويعرفوا إلا بالأمس
عبق رائحة ترابها الذي يسكن في قلب كل مواطن مخلص ومحب

أين تكمن المشكلة؟

تشكو الدول الإسلامية قاطبة، بدرجات متفاوتة، من تخلف عام، وحدهما ماليزيا وتركيا تمكنتا في نصف القرن الماضي فقط، من الفكاك من هذا التعميم وتحقيق تقدم بارز في أكثر من مجال، ولكل واحدة أسبابها، فماليزيا تدين بتقدمها للعنصر الصيني من مواطنيها، الذي كان لهم الفضل في الاهتمام في زراعة وتطوير أشجار المطاط، وتحويل ماليزيا لدولة صناعية، وتحقيق تقدم تجاري جعلها نموذجا يحتذى. كما ساهم تعدد أعراقها في نجاحها وانقاذها من الجمود والتطرف الديني. أما تركيا فنجاحها يكمن في غنى مواردها وحجم سكانها الكبير وقربها من أوروبا وبالطبع نظامها العلماني.

واستطرادا، نلاحظ أن كل الأقليات غير المسلمة في الدول الإسلامية تتمتع بقدر واضح من الثراء النسبي مع ارتفاع نسب المتعلمين بينهم وصغر حجم أسرهم، نتيجة ما يسمى بآلية الدفاع Defense mechanism.. ولكن لو نظرنا لأوضاع الأقليات المسلمة التي في الدول غير المسلمة، كمسلمي الصين وتايلند والفلبين وغيرها، لوجدنا أنهم يفتقدون لآلية الدفاع، وبالتالي تعاني جميع تلك الأقليات، دون استثناء تقريبا، من أعراض تخلف مجتمعات الدول الإسلامية نفسها.

مناسبة هذا الحديث تعود للنظرية الجديدة التي توصل إليها أخيراً Eric Chaney، أستاذ مساعد الاقتصاد في جامعة هارفارد، والتي أثارَت تعليقات عدة في الغرب، حيث ذكر أن الدول العربية، كما هو معروف، تعاني نقصا حادا في الديمقراطية، وتشكل أنظمتها الدكتاتورية ثلث حجم الأنظمة المستبدة في العالم، وأن هذا النقص في الديمقراطية امتد، بتأثير منها، لمناطق خارج حدودها، وشمل المناطق التي سبق أن حكمها الأمويون والعباسيون والفاطميون وغيرها من الدويلات الإسلامية، والتي سبق أن اجتاحتها جحافل جيوش المسلمين العرب، فقد أصبحت هذه، لأسباب عدة، أكثر رفضا للديموقراطية مقارنة بالمناطق الإسلامية التي لم تصلها تلك الجيوش! ويقول ان من أسباب ذلك برأيه هو مساهمة أو دور الدولة أو الحكومة الكبير في الناتج القومي لهذه الدول، مقارنة بتلك التي لم تصلها الجيوش، وافتقارها الشديد لمؤسسات المجتمع المدني، والاتحادات العمالية، وضعف قدرتها المادية، وأخيرا ذلك التحالف «التاريخي» بين «حكام» تلك الدول، الدكتاتورية في غالبيتها، وبين المؤسسة الدينية فيها، وهو ما أدى الى القضاء على عنصر المنافسة في المجتمع، وأكسب القوى المحافظة القدرة على معارضة أي

تغيير سياسي قد يتطور مع الوقت ويصبح في غير مصلحتها! وبالتالي فالدول التي وصلتها جيوش الفتح او الغزو أكثر رفضا للديموقراطية من غيرها .

وتصديقا لجانب من هذه النظرية، فقد توصل يوهان غوتنبرغ عام 1450 الى اختراع المطبعة، التي اعتبرها الاختراع الأخطر في تاريخ البشرية! ولكن السلطان العثماني با يزيد الثاني، لم يقبل بها في حينه، بموجب فتوى دينية، بحجة أنها قد تفتح الطريق لطباعة مصحف محرف، ولكن السلطان نفسه سمح لليهود باستخدامها للحفاظ على تراثهم الديني من الضياع! وأول مطبعة عرفها المسلمون كانت في مصر، ولكن بعد 370 عاما من اختراعها، وعليكم حساب التأثير السلبي لتلك الفتوى على كل العلوم والعقول.

أسرار اللغة

تطرقت في مقال قبل فترة إلى موضوع صعوبة تعلم اللغات، وكيف أن العربية، في نظر كثيرين، تعتبر الأصعب في العالم! وقد أرسل صديق متخصص في اللغات نصا تعلق بلغات العالم، تضمن سؤالا عما إذا كانت اللغة التي نتكلم بها تشكل الطريقة التي نفكر فيها، أو أنها تعبر فقط عما نفكر به ونود قوله؟ وهل لتركيبة اللغة التي نتكلم بها دور في تشكيل أفكارنا، بعلمنا أو بغير ذلك، وتشكل الأفكار التي نود التعبير عنها؟ فمثلا تبين أن طريقة تصريف الأفعال ووضع الكلمات وتكوين الجمل في الإنكليزية والإندونيسية والروسية والتركية تتباين كثيرا، فهل يعني ذلك أن المتحدثين بها يتذكرون تجاربهم بطريقة مختلفة، لأن لغاتهم تستخدم بطرق مختلفة؟ هذه الأسئلة وغيرها تلامس التباينات الجذرية في دراسة المخ، مع التركيز على المواضيع السياسية والقانونية والدينية، وحتى وقت قريب لم تعط هذه المسائل أهمية كبيرة، ففكرة أن لغتنا قد تشكل طريقة تفكيرنا كانت مسألة بعيدة لفترة طويلة، كما كانت صعبة الإثبات، ولكن التجارب الجديدة والجدية الأخيرة اثبتت، بما لا يدع مجالا للشك، أن للغة دوراً في تكييف نظرتنا للعالم، ولهذا يقال أن تعلم لغة أخرى يعني اكتساب روح جديدة، ولكن إيمان كثيرين بنظرية «نوم شومسكي» في الستينات التي قالت بوجود قواعد واحدة للغات العالم أخرجت الأبحاث في هذا المجال.

وكمثال على كيف تؤثر الفروقات في اللغة على التفكير والنظر للآخر هو أن المتحدث بالروسية مثلاً لديه مفردات أكثر لوصف درجات اللون الأزرق، من خفيف إلى غامق، وبالتالي لديه مقدرة أكبر على التمييز بين الدرجات المختلفة لهذا اللون من غيره. كما أن بعض القبائل المتخلفة تستخدم الاتجاهات كالشمال والجنوب والشرق والغرب بدلا من اليمين واليسار، وبالتالي لديها قدرة أكبر على تحديد مكان وجودها! فهم يصفون موقع النملة بأنها في الجنوب الشرقي من القدم المواجه للجنوب. كما أن قبائل «البيراها» تتحاشى استخدام الأرقام وتركز على الكميات، وبالتالي تشكو من ضعف في معرفة كمية أي مادة بدقة. كما تبين من الدراسة أن المتكلمين بالإسبانية واليابانية لم يستطيعوا بسهولة تذكر الفاعل وراء حادث ما، كما هي حال المتحدث بالإنكليزية مثلاً الذي يصير في لغته على ذكر الفاعل وراء أي حادث، فيقول إن جون اسقط اللوحة، ولكن الآخرين يكتفون بالقول بأن اللوحة سقطت! وتصبح بالتالي قدرتهم على تحديد الفاعل عند وقوع حادث

ما أكثر صعوبة، والشيء نفسه ينطبق على هؤلاء عند مثلهم كشهود إثبات، حيث يواجهون صعوبة أكثر قليلا من غيرهم في تحديد مسؤولية «الآخر» عن الحادث! ولكن يجب ألا ننسى هنا أننا بمجرد تحدثنا بلغات مختلفة لا يعني بالضرورة أننا نفكر بطريقة مختلفة، ولكن لو اعطينا مجموعة من الصور التي بينها أحداث مترابطة وطلبنا من عربي وإنكليزي ترتيبها لبدأ الأول بترتيبها من اليمين إلى اليسار، والآخر سيرتبها عكس ذلك وفق الطريقة التي يكتب بها كل طرف. وفي اللغة الصينية مثلا المستقبل هو في الأسفل والماضي في الأعلى والعكس عند المتحدثين بالعربية، فالمستقبل أمامهم والماضي خلفهم. ولكن من المؤكد أننا لو غيرنا من طريقة تحدث شخص ما، فإننا حتما سنغير من الطريقة التي يفكر فيها. كما أثبتت التجارب الحديثة أن اللغة التي نتكلم بها لا تقوم فقط بالتعبير عن افكارنا بكلمات، بل تقوم بتشكيل الأفكار نفسها التي نود التعبير عنها، وبمقدار اختلاف البشر بعضهم عن بعض لغويا نجد أن هناك اختلافا في طباعهم اعتمادا على اللغة التي يتحدثون بها، فما نحن عليه هو اساسا يعود إلى طبيعة اللغة التي نتحدث بها.

في المزارات والنظافة

حاول أدولف «هتلر»، عندما كانت ألمانيا في أوج قوتها العسكرية والاقتصادية، ولأسباب تتعلق بأوهام سيادة العرق الآري على غيره، حاول وضع ألمانيا فوق الجميع، كما يقول نشيدها الوطني! وبالتالي سعى للتخلص، شنقا وحرقا، من الأجnas، التي كان يصفها بالوضيعة، من الشعب الألماني! وقد ورد على لسان الكاتب الفلسطيني، ناصر الدين النشاشيبي، في أحد كتبه، أنه عندما زار ألمانيا بعد انتهاء الحرب بسنوات، مر على بعض من أثر ذلك الرجل الذي وضع العرب، في الدرك الرابع عشر بين شعوب العالم، ولا يأتي بعدهم غير اليهود والأفارقة السود! وبالرغم من أن ألمانيا وصلت لقمة تقدمها التقني والمالي والصناعي في جميع المجالات، وكان هذا يتيح لها تبوؤ مكانة عالية بين بقية أمم الأرض، إلا أن أحلام العظمة التافهة التي غزت مخيلة الزعيم النازي تسببت في توريط شعبه ووطنه في حروب عبثية طالت العالم أجمع. وقد كانت الآلة العسكرية الألمانية واجهزة الغستابو السرية وغيرها، هي الأكثر قوة وعنفا في التاريخ. وعندما قرر هتلر إفناء اليهود عن بكرة أبيهم أعد لهم محارق عدة «الهولوكست» ساق لها قسرا الملايين منهم، ولم توفر أو ترحم أجهزته أحدا إلا من كان بإمكانه تقديم خدمة علمية للنظام النازي! ولكن مع كل البطش والقتل الجماعي الذي مارسه هتلر، وقلة عدد اليهود النسبي في ألمانيا وأوروبا، إلا أن جهود إفنائهم فشلت في النهاية، وحدث ذلك في ظل غياب تام لأي منظمات دولية تعنى بحقوق الإنسان أو أي موثاق ومعاهدات تضمن حقوق الأقليات. وعليه يمكن الاستنتاج، بعد كل التطور الكبير في قضايا حقوق الإنسان، وحق كل شعب أو اقلية في العيش بالطريقة التي تراها مناسبة، أن من الصعب جدا، إن لم يكن من المستحيل، القضاء على أي جماعة أو إفناء أي فئة أو اقلية، إثنية، دينية أو مذهبية أو جنسية، بشكل تام، فالمجتمع الدولي لا يمكن أن يقف مكتوف الأيدي، إلى الأبد، ازاء مثل هذه الأحداث، وقد رأينا كيف تدخل الغرب لإفشال محاولات الصرب إفناء المسلمين في البوسنة وكوسوفو، ومحاولة قبائل الهوتو إفناء التوتسي والعكس، ولا ما قام به أتراك أواخر دولة بني عثمان من قتل وتكيد بأكثر من مليون أرمني، وما فعلته عصابات الكتائب في مخيمات صبرا وشاتيلا، وجرائم العصابات الصهيونية في القرى والمدن الفلسطينية، ومع هذا فشل جميع هؤلاء في القضاء التام على أي من مناوئتهم الذين خرجوا من محنهم وما ارتكب بحقهم من مجازر جماعية أقوى

مما كانوا عليه قبلها، فقد عاد اليهود مثلاً، واذاقوا الألمان طعم الهزيمة المر وأجبروهم على دفع تعويضات ضخمة لضحايا مجازرهم! نعود لقضايا المنطقة ونقول ان كل دعوات التكفير والمطالبات بمنع أو تحريم قيام اي مجموعة بإقامة ما تريد من شعائر، والتهديد بتكفيرها إن أصرت على أفعالها لن ينتج عنها غير دمار الطرف المطالب بالتدمير في نهاية الأمر، وما على المطالبين بمثل هذا اللغو غير قراءة أحداث التاريخ، ولكن المشكلة أن هؤلاء لا يقرأون اصلاً.

هنالك من يعد الشيعة مثلاً مشركين ويجب العمل على إفنائهم، وهناك من يعتقد أن الأقباط يجب أن يتركوا مصر ومسيحيي لبنان يجب أن يهاجروا منه، وآشوريي العراق وكلدانه يجب التخلص منهم، وهكذا، وهذا ليس أمراً بائساً فقط بل مضحكاً أيضاً، ولكنه ضحك كالبكاء! فكيف يمكن أن يفكر أي طرف في إفناء غيره، ولو كانوا يعدون بالملايين، لمجرد أنهم يتبركون بمقابر أئمتهم مثلاً؟ وتصبح المسألة أكثر استحالة عندما نعلم أنه لا توجد دولة عربية واحدة لا يوجد فيها مزار مقدس أو قبر يتبرك به أو رمز يطلب منه الشفاء والخير، فهذا ما نراه شائعاً في مصر وتونس والسودان وموريتانيا والسنغال والهند وباكستان وغيرها العشرات، فهل سيقوم هؤلاء المتطرفون المجانين بإفناء مسلمي كل هذه الدول، ليثبتوا أنهم الفرقة الناجية، وهم على حق، وغيرهم على ضلال؟

وبهذه المناسبة يقول صديق مغرم، منذ أكثر من نصف قرن، بزيارة «الأضرحة» والمدن المقدسة من اليابان مروراً بتايلند وإيران والعراق وحتى سيدنا البدوي في مصر، والأوزاعي في لبنان والسنوسي في ليبيا ومولاي عبد الله في المغرب، يقول أنه لاحظ أن غالبية أماكن العبادة في العالم عادة ما تكون نظيفة ومرتبة، وترحب بشكل عام بالسائح والزائر، وحتى الفضولي، وتوفر للجميع الخدمات المناسبة، بصرف النظر عما إذا كانوا زواراً عاديين أو متعبدين. ويقول إن الصورة تختلف تماماً في أماكن العبادة والقداسة في الدول الإسلامية بشكل عام، حيث نجد أن غالبية هذه الأماكن تفتقر إلى خدمات المواصلات السهلة والرخيصة وأماكن الاستراحة لكبار السن، وأن أوضاعها متهاكلة، والأسوأ أن أماكن قضاء الحاجة فيها هي الأقل نظافة في العالم والأكثر سوءاً، فلا خدمات عامة ولا مياه ولا نظافة، هذا إن وجدت أصلاً! كما أن هذه المناطق تفتقر بشكل عام إلى خدمات البنية التحتية بصورة مخجلة، فلا مياه جارية ولا مقاه ومطاعم نظيفة، وقال ان الأمور لم تتحسن كثيراً فيها منذ نصف قرن، عندما بدأ أول زيارته لمدن العراق. ويقول إنه لاحظ أمراً أسوأ وهو أن الوضع العام لهذه المدن في ترد مستمر

بالرغم من الزيادة الكبيرة في عدد زائري تلك المدن، وكأن كل ما دفع في هذه السياحة الدينية ذهب لجيوب «المشرفين عليها»، فلا فنادق نظيفة ولا مقاه ولا خدمات مواصلات يعتمد عليها ولا حمامات وهكذا، وهنا يتساءل عن سبب هذا الوضع المزري؟! وبالرغم من جهلي بما يتحدث عنه قلت له ان الأمر ربما يعود بصورة أساسية إلى تخلفنا العام وإلى عدم اهتمامنا بما يكفي بالسياحة الدينية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يكمن السبب في أن غالبية هذه الأماكن يتوارث الإشراف عليها، وتحصيل ما يتم التبرع به من أموال، أسر معروفة، وحلت مؤخرا أحزاب وعصابات قوية محل البعض منها، وليس من مصلحة هذه الجهات أو من أولوياتها الاهتمام بالمرافق العامة ولا بالخدمات الأرضية وما تحتها، خصوصا ان هذه المناطق كانت تاريخيا منسية من قبل الحكومات المركزية، واستمر الإهمال والنسيان «المفيد» إلى يومنا هذا. حتى عندما حاول البعض الاستفادة ماديا من النقص الشديد الذي تشكو منه هذه الأماكن في الخدمات والفنادق والمطاعم، لحقت بهم خسائر مادية بسبب عدم استقرار الأوضاع الأمنية في تلك الدول، وقد تتعدل الأمور معهم «إن» استقرت الأوضاع الأمنية فيها، ولكن هل هناك أمل في ذلك؟.

توقع غير المتوقع

تقدمت قبل 35 عاماً بطلب الحصول على إجازة قيادة مركبة في بريطانيا. سألت وقتها أكثر من صديق عما يجب عليّ الانتباه له أثناء الفحص، فلفت كل واحد نظري إلى نقطة مختلفة، ولكنهم أجمعوا على ضرورة تجنب رشوة الممتحن، أو حتى محاولة كسب رضاه من خلال تجاذب أطراف الحديث معه، فهؤلاء مشهورون باستقامتهم! ويا ويلي ويلاه على اللي عندنا؟ المهم، ذهبت في الموعد، وأخذني الضابط في سيارتي لشارع تقف مركبات على جانبيه، وطلب مني التوقف في منتصف الشارع، وأن أذكر الأشياء التي يجب عليّ الالتفات إليها، وأنا أقود سيارتي في وسطه! فذكرت الأطفال والحيوانات الأليفة، والسبب أن ارتفاع قاماتها أقل من الارتفاع العادي للسيارات، وخروجها فجأة بين السيارات قد يتسبب في وقوع حادث، وان عليّ توقع غير المتوقع! تذكرت تلك القصة وأنا أشاهد «يوتيوب» عن موضوع Awareness test أو «اختبار الوعي أو الانتباه»، والذي يبين أننا غالباً ما لا نشاهد أو ننتبه إلى أمور كثيرة في حياتنا إذا لم نكن نتوقع رؤيتها في إطار أو مكان محدد! وفي اختبار طريف يتعلق بتوقع غير المتوقع تظهر شخصيات عدة على مسرح جريمة، والضحية هو صاحب البيت، الملقى على الأرض، وضابط شرطة يحقق مع المتهمين، العاملين في بيت الضحية، وبتوجيه بضعة أسئلة دقيقة لهم يتوصل الضابط للجاني. ولكن عند إعادة شريط التحقيق بالسرعة البطيئة نلاحظ أن أشياء كثيرة قد تغيرت أثناء الاستجواب مثل ملابس الضحية ولون شعره ومكان اللوحة على الحائط، فأثناء انشغالنا بالاستماع إلى أسئلة الضابط المحقق، ونحن مبهورون ومتشوقون لمعرفة الجاني، لا نلاحظ عادة ما يحدث من تغيرات في إطار المسرح، أو التحقيق، فهذه أمور لم نتوقع أن تحصل، وبالتالي لم نلاحظها أو ننتبه إليها! وفي اختبار آخر لقوة الإدراك أو الوعي يظهر فريقاً كرة سلة، وتبدأ المباراة بينهما، ويطلب من المشاهد أن يعد عدد تمريرات الكرة بين لاعبي كل فريق منهما، وقد توصل البعض إلى رقم 13 تمريرة، والجواب صحيح. ولكن عندما تم عرض شريط المباراة بالسرعة البطيئة اكتشفنا أن رجلاً متكرراً في زي دب كبير يمر بين اللاعبين ويقف في وسطهم ويقوم بعدة حركات مضحكة، ولكننا لم ننتبه إليه! وحدث ذلك ليس فقط لأننا كنا نركز اهتمامنا على عدد التمريرات بين لاعبي الفريق، بل وأيضاً، وهذا هو المهم، لأننا لم نتوقع أن شخصاً ما، مرتدياً رأس دب ضخماً، سيمر بين اللاعبين ويقوم بحركات مضحكة! المغزى هنا أننا

يجب أن نكون واعين أثناء قيادة مركباتنا، وألا نسهو عما يدور حولنا ونحن نراقب شيئاً آخر، وأن نتوقع غير المتوقع، وهذا ما تدعو إليه إعلانات الداخلية! وأجزم هنا أن من وضعها، أو قرأها، وهذا يشملني، لم يعرف يوماً أساس الفكرة من وراء ذلك الإعلان، وإنما عادة لا نلاحظ ما لا نتوقع وجوده ضمن إطار محدد!.

المؤامرات المخجلة

انقلاب يوليو 1952 في مصر كان مؤامرة، وهكذا مع انقلاب تموز العراقي، وكذا الانقلاب على حميد الدين اليمني، والخميني على الشاه، فجميع هذه الانقلابات والثورات دبرتها المخابرات الغربية! وتكرر الأمر ذاته في تونس على بورقيبة وعلى بن علي بعدها، وفي مبارك مصر وقذافي ليبيا، مروراً بالكلام «التأمري» للسفيرة إبريل كلاسي، وكيف «خدعت» صدام واغرته بغزو الكويت! وحتى حرب 2003 على العراق مؤامرة، بحجة البحث عن أسلحة الدمار الشامل، وزادوا على ذلك بأن ما يجري من عقوبات اقتصادية وتهديد عسكري لإيران يصب في نهر المؤامرة نفسه، ولا ننسى طبعاً وصول الإخوان للحكم في مصر وتونس، وهكذا مئات المؤامرات تصاغ في وكالات وأجهزة المخابرات الغربية ضدنا يومياً طامعين في مياهانا ومعادنا وبترونا وارصدتنا النقدية، هذا غير رغبتهم في القضاء على عاداتنا وتخريب معتقداتنا والفتك بديننا! ولكن الغريب أن لا أحد من هؤلاء حاول أن يتساءل يوماً: لماذا نحن؟ لماذا لم يتآمروا في نصف القرن الماضي على ماليزيا، وهي مفرطة الغنى، أو تركيا، وهي ليست أقل إسلاماً وغنى من ماليزيا؟ ولماذا لا تتآمر الدول الغربية على النرويج والمكسيك، وبروناي، وبترونها وغناها يتجاوز اضعاف ثروات كل الدول العربية؟ ولماذا التركيز الشديد علينا نحن بخلاف هذا العالم، غير متناسين ما حصل ويحصل في أفريقيا وأميركا الجنوبية وغيرها؟ هل لأننا صيد سهل والجهل ينتشر بيننا؟ أم لأننا نشكل خطراً على الغرب؟ أعتقد أن كل ذلك إضافة للسبب الأهم وهو أنظمة حكمنا الدكتاتورية، وجهلنا في إدارة ثرواتنا بطريقة سليمة، وفساد سياسيينا، يجعل صيدا سهلاً! فبالرغم من رفضي لنظرية المؤامرة، إلا أنني أعتقد أيضاً أن من الغباء عدم قيام أية دولة، وخاصة العظمى منها، بالتخطيط لضمان مصالحها الحيوية. فالبترول مادة حيوية، والدولة التي لا تفكر ولا تخطط في كيفية استمرار تدفقه لمصانعها ومركباتها وطائراتها بسلاسة وشروط عادلة، دولة غبية! وبالتالي ليس بالإمكان ترك الأمر للصدف، بل يتطلب الأمر تخطيطاً محكماً. وعليه فإن ما يجذب «ذباب المؤامرات» لنا هو غسل جهلنا وتخلفنا وتمسكنا بدكتاتورياتنا، فالدكتاتورية هي السلطة المطلقة والسلطة المطلقة فاسدة ومفسدة، والفساد يؤدي إلى تآمرنا على الآخر وتآمر الآخر علينا، أما لأخذ نصيبه من الكعكة أو لضمان «حقوقه» في ما نملك. فمادة كالنفط ليست حقاً مطلقاً لمن ينتجها! وبالتالي لتجنب تآمر الآخرين علينا يجب أن نحتاط للأمر

بالتخطيط السليم، وبتوازن الإنتاج، وعدم المغالاة في الأسعار، أو حرمان دول منهم لأسباب سياسية، وهكذا. كما علينا أن نحترم انفسنا وشعوبنا وكراماتنا، وهذا لا يمكن أن يتحقق بغير التحول لديموقراطية يكون فيها القرار للأمة وليس لفرد. فحرب العراق على إيران واحتلالها للكويت، كمثالين حديثين، لم يكونا ليقعا لو كان العراق ديموقراطيا! ومبارك ما كان ليسقط لو كان حكمه شرعيا! والقذافي ما كان ليقتل كالفأر وتدمر بلاده «بمؤامرة دولية» لو كان مؤمنا بتداول السلطة ويعرف شيئا اسمه دستور! وقيام صدام بقتل عشرات الآلاف من شعبه بأسلحة محرمة ما كان ليقع لو كان القرار جماعيا، ولو كان العراق ديموقراطيا! وهكذا مع سوريا الأسد، التي كان من الممكن ان تكون أغنى واجمل الدول العربية وأكثرها حصانة من المؤامرة، لو كانت تتمتع بنظام ديموقراطي السلطة فيه للأمة وليس لفرد أو عائلة!

قصتي مع السيجار الكويتي

ناولني الصديق فؤاد زيدان سيجارا كوبيًا فاخرا فاعتذرت عن قبوله، فاستغرب ذلك لمعرفة بعشقي للسيجار، وسألني عن سبب الرفض فقلت له، وأنا أرفع صوتي ليسمعني، وسط كل صخب الموسيقى والغناء في مربع «اللودج» الفاخر، بأنني سأرد عليه في مقال يحكي علاقتي بالسيجار الكويتي، وقبلها بالسيجار الكويتي!

بدأت علاقتي بالسيجار في نهاية السبعينات، واستمرت حتى اليوم وأصبح التدخين عادة وليس إدماناً أو ولهاً، فالوله يؤدي أحياناً الى الابتذال، خاصة إن لم نستطع التحكم في ما نريد ونرغب، ويتحول الاستمتاع الى عشق كاذب وإدمان صادق، وبالتالي تفقد العادة، وإن كانت سيئة، رونقها. للوصول لذلك تطلب الأمر مني وضع طقوس بسيطة للتدخين. فلا تدخين إن لم تتوافر الظروف المناسبة، فعلى المدخن دائماً أخذ موافقة غيره، حتى لا ينزعج الآخرين برائحة السيجار. كما يجب أن لا يكون عادة يومية، ولا تلقائياً، ويكون دائماً في الوقت والمكان المناسبين، مع ضرورة توافر الصحة الطيبة، والمستلزمات الأخرى التي لا دخان وسيجار بغيرها. وحيث أنني سبق أن دخن سيجاراً عادياً في الليلة السابقة لعرض السيجار الفاخر علي فقد كان لزاماً علي رفض العرض، والأمر ذاته لا يقتصر على التدخين بل ينسحب على بقية أنواع «العشق» الأخرى التي يجب أن نحفظها من الاستخدام أو الاستهلاك المبتذل! وقد ذكرني سيجار فؤاد بأول تجاربي مع السيجار الكويتي، الذي كنا نصنعه بأيدينا الطاهرة، وكان ذلك قبل أكثر من نصف قرن، عندما كنا في سن المراهقة، وربما لا نزال، نجمع أعقاب السجائر، أو «السيارس»، بالمصري، والقطوف بالكويتي، من على جنبات أرصفة الشوارع، وكانت سجائر تلك الأيام من غير فلتر، ونقوم بتشريحها بعناية و«استخراج» التبغ منها وتجميعها في لفائف مصنوعة من مخلفات اكياس الإسمنت ولفها على شكل سيجار ضخمة وغير فخمة، ثم حفظها للمناسبات السعيدة، التي كانت غالباً ما تقع في اليوم نفسه عندما نذهب ليلاً لسطح مبنى سينما الحمراء، الذي كان وقتها قيد الإنشاء، بعد مغافلة الحراس، وهناك نضع شرشفاً على السطح الإسمنتي الملتهب من اثر شمس الظهيرة، ونخرج عدة الشغل من إبريق شاي ولفائف خبز مدهونة بالزبدة والسكر، وطبعا السيجار الكويتي غير الفاخر، والاستمتاع، من على ذلك الارتفاع، الذي كان يبدو يومها شاهقاً، بمشاهدة عرض مجاني للفيلم

الذي يعرض في سينما الفردوس الصيفية الملاصقة، والتي كانت بلا سقف وقتها، وغالبا ما يكون الفيلم هنديا، والاكتفاء بالاستماع لأغاني الفيلم لصعوبة قراءة الترجمة من تلك المسافة البعيدة! واثناء ذلك نتبادل انخاب الشاي وأخذ أنفاس عميقة من السيجار الكويتي، المخلوط ببودرة اسمنت بورتلند الأصلي، والعودة بعد انتهاء الفيلم للبيت ونحن في تمام الانتشاء بنكهة نيكوتين ناتج عن خليط من عشرات انواع السجائر المصنوعة من التبغ التركي والفرجيني والإنكليزي والعراقي، مضاف لكل ذلك كم محترم من الزفت والقطران، ومن ثم قضاء بقية الليل في سعال مستمر!

ماذا قالت موري؟

تقول السيدة اليابانية «تايكو»، زوجة صديقي الكويتي، إن الشعب الياباني الذي كان يوما من أكثر الشعوب انغلاقا على نفسه أصبح اليوم منفتحا على العالم، وحقق خلال الستين عاما الماضية تقدما صناعيا واقتصاديا فاق أي دولة أخرى، وأن اليابان تدين بتقدمها لمزايا شعبها، ووطنيتهم ومثابرتهم على العمل الجاد. وقد ظهرت فضائل الشعب الياباني واضحة للعيان في محنته الأخيرة، وسجلت عدسات تلفزيونات العالم جلدهم وتآزرهم الفريدين. وتستطرد موري في القول إن اليابانيين بشكل عام علمانيون، ولا يميلون في الغالب للارتباط بأي مؤسسة دينية، أو خلط الدين بالسياسة، ولا يعني لهم دين الشخص الآخر شيئا، لا في الزواج ولا في العمل، وبالتالي بإمكان أي فرد الاعتقاد بما يشاء من دون خوف من اقضاء أو توقع عقاب أو نفي في الأرض، فالحرية الدينية مطلقة وفريدة في تنوعها، وسبب ذلك يعود إلى أن الغالبية تقوم بخلط تعاليم أو معتقدات ديانة بأخرى. فقطقوس زواجهم قد تكون بوذية، وتكون طقوس الدفن أو العمل متأثرة بالكونفوشيوسية، ويحتفلوا بالأعياد المسيحية، وهكذا. وعلى الرغم من كل ما يوصفون به من «ضعف وازعهم الديني»، إلا أنهم يتمتعون بشكل عام بمجموعة خصال حميدة وعظيمة، كالأمانة والصدق، التي يندر وجودها مجتمعة في شعوب كثيرة. وقد ساهمت تقاليد اليابان ودستورها الحديث، الذي شارك الجنرال الاميركي ماك آرثر في صياغته، في تطور علمانية الدولة ورفض المعادة على أسس دينية. ومن خصال اليابانيين الحميدة الصدق والأمانة في العمل مع انفسهم ومع الغير، كما أنهم شديدي الهدوء في أحاديثهم وتحركاتهم، وتلاحظ ذلك في الأماكن المكتظة كالمطارات ومحطات القطار ودور السينما وغيرها، حيث بالكاد تسمع لغوهم، فهم يتحدثون بأصوات كالهمس، ولا تسمع صراخ دعائهم في المعابد، ولا ضجة الباعة في الأسواق. كما أنهم كثيرو الاحترام لبعضهم بعضا، ومن الصعب أن تجد من يتجاوزك في الدور حتى في أصعب المواقف. ولديهم جلد على العمل وقدرة على الاتقان، وجلدهم وجديتهم لم ينزعا الرحمة من قلوبهم، فهم رحماء بشكل عام، مع بعضهم بعضا، ومع الغير. وهم غالبا منظمون، وعلى استعداد تام للتضحية بالنفس في سبيل المجموع، وقد ظهرت حقيقة فضائلهم في محن عدة، وكل ذلك بسبب ما يؤمنون به أو «الضمير الحي»، الذي يتحمل المسؤولية! وفي شرح لما تعنيه المسؤولية لدى الياباني مقارنة بغيره، فقد قامت شركة اميركية

باجراء استقصاء رأي لمجموعة من سائقي المركبات في اميركا واليابان، ووجهت إليهم سؤالاً محدداً: انهار فجأة الطريق أمامك نتيجة زلزال، وأصبحت منعزلاً عن العالم، وكان هناك هاتف عمومي، وليس في جيبك غير قطعة نقد تكفي لاجراء مكالمة واحدة فبمن تتصل؟ 90 % من الاميركيين قالوا انهم سيتصلون بأسرهم للاطمئنان عليها، أما اليابانيون فقد قال 70 % منهم انهم سيتصلون برؤسائهم لأخذ التعليمات منهم بما عليهم القيام به!

تجربتي مع المفتش

مررت قبل عشرين عاما تقريبا بتجربة طريفة لا بأس من الحديث عنها، كمدخل لموضوع المقال. زار مكاتب شركة أمتلكها وأديرها أحد مفتشي البلدية، طالبا الكشف على صلاحية المواد الغذائية التي نتعامل بها، للاستهلاك البشري. والتأكد من طريقة تخزينها وظروف العمالة المشرفة عليها واستيفائهم لمتطلبات اللياقة الصحية وغيرها. وهنا عرضت مصاحبته في جولته، فقبل على مضض، فأخذته لكل المخازن بسيارتي وأطلعته على أماكن لم يكن يعتقد أن فيها مواد غذائية، وطلبت من العمال إحضار رزم وكراتين من تحت الصفوف، ليكشف عليها واحدة واحدة، كما طلبت منهم إبراز هوياتهم وشهاداتهم الصحية ومطابقتها بكشف العاملين، وأطلعته على ظروف العمل والتخزين، وسهلت مهمته لأقصى درجة بحيث خامره الشك في نواياي، فشكرني بتردد، وقال إنه عادة ما يقوم بالتفتيش منفردا، ومصاحبتني له حيرته قليلا، ولم يقل إنني شكك في نواياي! وهنا طلبت منه مصاحبتني لمكتبي فوافق، وهناك شكرته وقلت له: ليس في الأمر شيء مريب، فلست أكثر أمانة من غيري ولا أدعي شرفا، قد لا أستحقه، ولكن المسألة تتعلق بالمنطق، فقد صحبتك تشجيعا مني لك على أداء عملك، بعد أن أصبح «السوق» يعجّ بكل أفاق وغشاش أثيم، وأن المخلصين في أعمالهم في تضاؤل مستمر، الغلبة ستكون ربما للحرامي والغشاش في نهاية الأمر، ومن هنا كان ترحيبي بك وإصراري على مساعدتك في إنجاز مهمتك! ففتح فمه غير مدرك ما أرمي إليه بكلامي، فاستطردت قائلاً: إن صحتي وصحة أسرتي في يدك، وجميعنا نعتمد في صلاحية ما نأكل على مدى إخلاصك أنت وبقية زملائك من المفتشين في عملكم، ونظافة يديكم، ورفضكم لقبول أية رشى أو إغراءات، فأنا أبيع ربما 20 أو 30 صنفا من المواد الغذائية، ولكنني أستهلك أضعاف أضعافها من الأصناف الأخرى التي يستوردها ويخزنها ويبيعها غيري! فإن أنا نجحت في دفع رشوة له أو لغيره من المراقبين، ونجحت في تمرير مواد غذائية فاقدة الصلاحية، فإنني حتما سأجني بعضا من المال، ولكن ما هو الضمان من أن غيره من المفتشين لن يحدوا حذوه ويتقاضوا الرشى نفسها من تجار مواد غذائية آخرين ومن اصحاب مطاعم وفنادق ومخابز وغيرها، وبالتالي، فإن ربح بعض المال هنا، فسأخسر مالا وصحة أكثر هناك! وبالتالي من الضروري تشجيعه، لأنه الضمان الوحيد الذي أعرفه لحمايتي من قيام غيري ببيع مواد تالفة لي ولأسرتي. وأنه «عيني الغذائية» الساهرة! كما

أن قيامه بدوره بشكل جيد ضمان له شخصيا ولأسرته! فهو قد يقبل رشوة مني ويسعد بها، إن مرر ووافق على ترخيص بضائع تالفة لي، ولكن ما الذي يضمن له أنه لن يتناول، ربما في اليوم نفسه، المواد الغذائية والأطعمة الفاسدة نفسها التي قبل مبلغا سخيلا للموافقة عليها، وما يعنيه ذلك من خسارة مادية وصحية له ولأسرته؟ وبالتالي المسألة ليست أمانة بقدر ما هي منطق عملي! وليس مهما هنا ذكر رد فعل المفتش.

ما نود التطرق إليه من هذه المقدمة الطويلة يتعلق بالحملة الشرسة التي شنتها القبس منذ فترة على تجار ومستوردي المواد الغذائية، وربما لا تزال الحملة مستمرة، والتي صورت فيها البلد كأنه مليئة بالحرامية والأفاقين، وقد تكون هذه هي الحال، ولكن المؤلم أن الصالح عادة ما يذهب مع الطالح، وقد يأتي يوم يصبح الكل سواسية في الغش، ونخسر جميعا.

الطائي اليوناني

عندما عدت إلى غرفتي، في ذلك المنتجع اليوناني الجميل الواقع على بحر ايجه، تبين انني نسيت بعضا من أوراق النقد على الطاولة، وأن من تقوم بتنظيف الغرفة قد عثرت عليها ووضعتها على مكتبي. اتصلت بمدير الغرف وأبدت له تقديري لأمانة موظفته، وطلبت منه إرسالها لكي أكافئها، فرد بكلمات مجاملة وقال إن هذا واجب عليها، ومن طبيعة عملها، وهي بالتالي لم تفعل شيئا غير عادي لتكافأ. فقلت له إنني لو كنت مكانه لما ترددت في وضع اسمها وصورتها على لوحة «أفضل موظف»، أو موظفة الشهر، لكي تكون قدوة ونشعرها بالتقدير! فاجأني رده بقدر ما اثار اعجابي، حيث قال إن القيام بكيل المدح لها أو الإعجاب بعملها يعني أن القاعدة هي عدم أمانة بقية موظفي المنتجع، وكأن ما قامت به أمر غير عادي، وبالتالي استحققت عليه التقدير والثناء، وهذا لا يمثل الواقع. فالقاعدة أن أمانة الموظف أو الموظفة أمر مفروغ منه، ولا يحتاج الأمر لطبل وزمر، وهو جزء من شخصية كل فرد ونوعية تربيته! حدث هذا في بلد يعاني من أزمة اقتصادية خانقة، ومع عاملة متواضعة المكانة والأجر! وقد ذكرني كلام المدير بأخيना حاتم الطائي، فنحن، ومنذ أكثر من ألف عام، لم نتعب يوما من ترداد قصة كرمه وخلقه، إن في احاديثنا أو أدبياتنا، أو حتى في مناهجنا الدراسية، وضرب المثل بكرمه، نثرا وشعرا، وكأن ما فعله أمر مثير للعجب، ويعني إصرارنا الحديث عن كرمه وكأننا نعاني من عقدة نقص، وبالتالي بحاجة لسرد قصته لدرء التهمة عنا! كما يعني، وهذا هو المهم، ان ما قام به الطائي لم يكن امرا معروفا بين أقرانه! فلو كان المجتمع الذي وقع فيه الكرم مجتمعا كريما أو قريبا منه، لما بقيت قصته عالقة في الأذهان كل هذا الوقت، مع كل ملابساتها التي لا شيء يؤكد حقيقة وقوعها بتلك التفاصيل، بل يعني ان الكرم كان، وربما لا يزال، أمرا نادر الحدوث، وهذه حقيقة ألمسها كثيرا في حياتنا اليومية، فنحن، بشكل عام، لسنا بكرماء، وما نجده من كرم يكون غالبا مقرونا بجانب ديني، فمن يكون كريما يتوقع أن يكون لكرمه مردود في صورة ثواب وأجر، وهو بالتالي كرم مشروط، وليس كرما نابعا من نفس لا تبغى غاية أو رجاء غير خدمة المجتمع، اقول ذلك من واقع تجربتي الشخصية في جمع التبرعات للأغراض النبيلة والخيرة، حيث أعاني الكثير من رفض «أثرياء ومقتدرين» المساهمة حتى بالقليل من المال في مشاريع عدة، فقط لأنها غير مخصصة لبناء مسجد أو طباعة كتب دينية أو حفر آبار وتدريس دعاة! ولا انسى

قصتي مع رجل أعمال قصده للتبرع لمدرسة للمعاقين، حيث رفض طلبي فلم اتردد في أن أقول له إن رفضه نابع من منطلق ديني، وأنه يعتقد بأن ليس للمشروع أجر أو ثواب عند الله، فوافقتني على قلبي! وهذا عكس ما عايشته في سنوات معيشتي في الغرب، فالكرم هناك، وخاصة للأغراض الجميلة والنبيلة من مساعدة أطفال أو لبناء دار للعجزة أو للأوبرا، أو حتى أي مشروع ثقافي أو إنساني، أو مأوى للحيوانات الضالة أمر عادي ومنتشر كثيرا، وليس غريبا بالتالي ألا نجد بين جميع منظمات الإغاثة العاملة في مهام بالغة الإنسانية في الصومال وأفغانستان والسودان، غير الغربيين، وهي المناطق نفسها التي ساهم «إخوتهم واشقاؤهم في العقيدة واللغة» في تخريبها، وهذا التطوع هو أسمى درجات الكرم ونكران الذات.

شانتال الشوفال

اتصلت بي شانتال قبل ايام تدعوني للمشاركة في حوار على قناة «الوطن» فاعتذرت لها بلباقة عن عدم قبول الدعوة، لعدم ميلي للظهور بها. كما أن قبول دعوتها مع كل الذي سبق وان طلبوا استضافتي، فرفضت المشاركة في أي برامج حوارية تديره تلك القناة، من منطلق قناعاتي الخاصة. وقد تفهمت شانتال الأمر، ولكن ما لم تعرفه هو أنها اوحى لي بفكرة هذا المقال، حيث ذكرتني بحادثة طريفة حدثت لي قبل نصف قرن تقريبا. ففي منتصف ستينات القرن الماضي قام المصرف، الذي كنت أعمل فيه، بإرسالني لتلقي دورة تدريب في مصرف بريطاني في لندن، ولكي أحسن من لغتي الإنكليزية. وهناك التقيت بـ«شانتال»، واعتقدت حينها أنني التقيت بفتاة أحلامي، فقد كانت سويسرية فرنسية جميلة، متعددة الثقافات واللغات، ذات عيني خضراوتين وابتسامة ساحرة وشعر أشقر طويل وقامة ممشوقة، بحيث مثلت لي قمة الجمال البشري، واطن أنني اتصلت يومها بوالدتي وأخبرتها بتعليقي بـ«شانتال»! وكنت حينها قد أنهيت دراسة الفرنسية لعامين، في المدرسة الثانوية التجارية، وقبل التحاقني بالعمل في البنك، وهذه نقطة غاية في الأهمية!

أصبحت صديق شانتال المقرب، وكنا نجلس قرب بعض ونتناول الوجبات، بين المحاضرات، معا. ونساعد بعضنا البعض في ساعات التدريب والعمل المصرفي، وفي مدرسة اللغة. كما كنا نتناول طعام الغداء معا، وبعد أكثر من اسبوع من تعرفي على «شانتال» قررت دعوتها للعشاء، او Date، ولكن الأمر كان يتطلب شجاعة لم أكن أمتلكها، خصوصا انه تقرر نقلي إلى إدارة أخرى، مما يعني لقاءات اقل مع شانتال، وحيث أنني كنت مصرا على تعميق علاقتي بها، فبالتالي حزمت امري ودعوتها للعشاء! وهنا نظرت إلي وقالت انها تعتذر عن قبول دعوتي، لأنني سببت لها، على مدى أيام، حرجا، وعرضتها لسخرية زميل لها، لأنني كنت اصر على مناداتها طوال الوقت بـ«شوفال»، بدلا من «شانتال»، وشوفال بالفرنسية، التي يفترض أنني درستها لسنتين، تعني حصان!

قصة مدام دكاش

كان جمع من الأثرياء العرب يجلسون في بار نادي قمار في لندن، عندما تعالى صوت النادل معنفاً سيدة، تجلس على البار، على سلوكها، وهنا قام واحد من الجمع وسأل النادل عن المشكلة، وعندما عرفها، أنهى الموضوع طالبا من السيدة الانصراف، بعد أن أكرمها بطريقته، وعاد لرفاقه الذين استغربوا تصرفه، فلم يُعرف عنه الكرم ولا عمل الخير، أو الفضول، فقال لهم: والقصة هنا تروى على لسان سليم اللوزي، رئيس تحرير «الحوادث» اللبنانية، الذي يقال أن المخابرات السورية قتلتها لمعارضته دورها في بلاده، بعد أن عاد لوطنه للمشاركة في دفن والدته.

يقول اللوزي إن ذلك الثري العراقي أخبرهم بأن عبدالكريم قاسم أقام حفلا ساهرا بمناسبة مرور عام على نجاته من محاولة اغتياله على يد صدام حسين، ورفاقه من حزب البعث! وبسبب سوء علاقاته مع الكثير من الأنظمة العربية حينها، قام بدعوة مطربين من لبنان لإحياء الليلة، وكانت تلك السيدة من بين المدعوات لإحياء ذلك الحفل، وأن قاسم قام في لحظة نشوة، وخاصة عندما تقدمت المطربة بحيث أصبحت أمام «الزعيم الأوحده» وغنت له أغنية عن شببات صدغيه، فابتسم، وطلب من مساعديه الإعلان عن إصدار أوامر بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين، وأنه كان أحد هؤلاء، وأنه ترك العراق بعدها بساعات وعاش في بريطانيا، حيث كَوّن ثروته، وبالتالي فإن الفضل يعود لتلك السيدة التي دفعت أغنياتها «للزعيم الأوحده» لأن يصدر أوامره تلك!

أما المطربة فكانت «لور دكاش» التي ولدت عام 1917 في أسرة مارونية في منطقة حارة حريك، الجزء الأقرب لبيروت من الضاحية الجنوبية. وبسبب جمال صوتها شجّعها والدها على الغناء، وكانت لم تتجاوز التاسعة من العمر عندما سجلت أول أسطوانة. كما كانت تجيد التلحين والعزف على العود. وبدأت شهرتها عام 1939 عندما غنت «أمنت بالله»، التي وضعت أيضا ألحانها، ولكنها اضطرت لنسبتها لفريد غصن، الذي كان عضوا في نقابة الملحنين في مصر وباريس، الذي اقنعها بأنها بذلك تضمن حقوقها في الأغنية لأنه مسجل كملحن، وليس هي. وبعد نجاح أغنياتها استدعتها الإذاعة المصرية عام 1945 لتستقر هناك بعقد طويل، وتحصل بعدها على الجنسية المصرية، وتقوم بغناء وتلحين عشرات الأغاني للإذاعة، واشتهرت الكثيرات منها.

توفيت لور عام 2005 ودُفنت في مقبرة الموارنة في القاهرة، ولا أزال، وغيري الكثيرون، نستمتع بلحن أغنية «أمنت بالله»، وخاصة بصوت لور الجميل، بالرغم من مرور ثلاثة أرباع القرن عليها، والتي تقول كلماتها: «أمنت بالله، نور جمالك آية، آية من الله، أمنت بالله. نور جمالك نور عجيب، يذكي في القلب اللهب، يذرف الدمع الطيب كل من صابوا هواء، أمنت بالله، نور جمالك للسقيم لو رآه يصبح سليم، لو في جنات النعيم ما طلب نعمة سواه، نور جمالك في الكمال يحيي في النفس الآمال»!

أشكناني رافي شنكر

ديسمبر 2012

تعرفت على فن الموسيقى الهندي العالمي رافي شنكر Ravi Shankar لأول مرة عن طريق الصديقين علي ومحمد أشكناني، وكان ذلك قبل نصف قرن بالتمام، وبعدها تفرقت بنا السبل، بعد أن خطف التحفظ المذهبي الأول، وخطف بريق الحضارة الأميركية الثاني، ليهاجر لها ويبقى هناك. ولكني ما زلت مدينا لهما بتلك المعرفة، فقد كان فن هذا الرجل مصدر غذاء روحي لي طوال سنوات طويلة، وكنت اسعى لحضور حفلاته، وكانت الأولى في أواخر الستينات، عندما دعا السيد قتيبة الغانم الفنان شنكر وفرقة وقتها لتقديم عروضهما الرائعة في الكويت. كما حضرت حفلاته في أكثر من مدينة، واستمتعت دائماً بحضوره الأسر. وأذكر جيداً أنني عندما حصلت على أول راتب توجهت الى محل «جاشنمال» في مساء اليوم نفسه، واشترت مجموعة من الأسطوانات، وكانت بينها واحدة لهذا الفنان الكبير، وقمنا ثلاثتنا، في ساعة متأخرة جداً من مساء ذلك اليوم، بالذهاب الى شاطئ البحر، الذي كان يقع أمام السفارة الأميركية القديمة، ووضعنا ما لذ وطاب أمامنا وقمنا بتشغيل اسطوانة شنكر، وكان الجهاز يعمل بالبطارية، وبدأنا رحلة صمت طويلة استغرقت ساعات ونحن نعيد الاستماع لموسيقاه الرائعة، وهي تحلق بنا، المرة تلو الأخرى، نحو آفاق وأجواء ساحرة بعيدة، ولم نتوقف عن تأملاتنا الا بعد ان انتهت قوة بطاريات الجهاز، وتزامن ذلك، كما توقعنا ورغبنا، مع بزوغ الخيوط الأولى من أشعة شمس الصباح. وعندما هممنا بالمغادرة، تبين لنا أننا لم نكن وحدنا الذين كنا نستمتع بعزف رافي شنكر، بل كان هناك سائقا سيارتي أجرة جالسين خلفنا، وهما في وضعية جلوس تشبه وضعية التأمل! تبادلنا الابتسامات، دون كلمات، وتركنا. هكذا كانت موسيقى رافي شنكر وستبقى، قادرة على ارضاء كل ذوق، من الأكاديمي حتى سائق التاكسي، وهذه الصدفة ذكرتني بقصة رواها الصديق محمد السنعوسي، الذي عاد قبل ايام سالما مشافى من رحلة علاج، حيث قال ان الديوان الأميري قام باستدعائه، بعد تعيينه مديراً لأول محطة تلفزيون في الكويت، لمقابلة الأمير عبدالله السالم، وكان ذلك في أوائل الستينات، وربما في الفترة نفسها التي كنا نستمتع فيها لموسيقى رافي شنكر، وفي مكان غير بعيد عن قصر الشعب. ويقول السنعوسي ان الشيخ هناك بمنصبه الجديد، وقال له ان مهمته ليست سهلة، لأن عليه ارضاء كل أذواق الشعب الكويتي، من عبدالله السالم.. وحتى عواد سالم!

نكتب هذه المقالة وفاء لذكرى الفنان شنكر، الذي رحل عنا قبل ايام عن 92

عاماً.

الحق في الشك

لا تعرف مجتمعاتنا عادة أو فضيلة «الحق في الشك» the benefit of the doubt، فنحن نميل للحكم المسبق على الأمور من واقع ما أمامنا من معطيات، دون انتظار الدليل، فهكذا نشأت أجيال وأجيال على عدم الشك في القناعات والمسلّمات، والإيمان بما قيل لنا أو التسليم بما نعرف، دون الحاجة للبحث والتمحيص والسؤال، فهذه كلها أمور تتطلب بذل جهد لا طاقة للكثيرين به، وهنا لا أستثني نفسي، فلست بالواعظ ولا بالمثالي! و«الشك في المسلّمات» هو السري وراء الحضارة الغربية، والعامل الأهم! فنحن نلقي التحية على شخص نعرفه فلا يردّ علينا، فنستنتج أو نفترض أنه إما قليل ذوق أو أنه لا يود التعرف علينا، ولا نضع أي احتمالات أخرى تتطلب منا البحث فيها. وإن بعثنا برسالة إنترنت ولم يردنا جواب، فغالبا ما نفترض أن المرسل اليه تجاهل رسالتنا والشيء ذاته يسري على المكالمات الهاتفية، فعدم الرد نعتبره انعدام ذوق أو عدم الرغبة في التواصل أو التكبر! وقد تكون جميع هذه الأمور صحيحة، ولكن علينا أن نخطو خطوة إضافية قبل اتخاذ القرار بقطع العلاقة أو الوصول لقناعة أو تكوين رأي مسبق، وإعطاء هؤلاء الحق في الشك!.

بسبب سفري المتواصل، ولوجود من يود التحديث معي، من أصدقاء وقراء، فإنني غالبا ما أجد، عندما أعود للوطن، واحدا أو أكثر يلومني على تجاهلي مكالمته الهاتفية، أو رسالته، وحيث إنني عادة لا أتجاهل أية مكالمات، إلا لسبب قاهر وخارج عن إرادتي، فإن لوم هؤلاء يحز في نفسي، واتخيل أن هناك آخرين لديهم الانطباع ذاته عني، وحيث إنني لا أعرفهم، ولا أود أن أوصف بالمتعالي أو المتجاهل لرسائل ومكالمات الآخرين، فإنني أود أن أوضح أن عتب هؤلاء مقبول، ولكن يجب أن يعطوني الحق في الشك، فعدم الرد قد يكون لأسباب لو علموا بها لعذروني. فقد يتجاهل أحدنا مكالمات لفقد هاتفه، أو أن اسم المتصل لم يظهر على الشاشة، خاصة أن كان في الخارج. أو أن من اتصلت به يرقد في المستشفى، وفي الوقت نفسه أنت تصفه بقلّة الذوق! وبالتالي نستحق جميعا الحق في الشك، وأن نعطي الآخر الحق نفسه، ولا نقفز لاستنتاجات خاطئة، دون دليل ملموس.

من المهم أن أشير هنا مرة ثانية إلى أنني لا أقرأ عادة ما يكتبه القراء من تعليقات على مقالاتي على موقع القبس، وأفضل تسلمها عبر الإيميل الخاص، حيث المجال أكثر رحابة وحرية وسرعة ولا يخضع لرقابة أو مزاج محرر الصفحة على

الانترنت.

وأخيرا فإن عدم تلقي مرسل رسالة الإيميل رداً أو تجاوبا من المرسل إليه لا يعني أنه تجاهل الرسالة، فقد تكون الرسالة قد ذهبت لصندوق البريد غير المرغوب فيه junk أو Spam، وهنا أيضا يحتاج المرسل إليه الحق في الشك، وتجنب الحكم المسبق عليه وعلى غيره.. دون دليل

كويتي.. وأفتخر، على ماذا؟

تقول رسالة تويتر إن مكعبات الثلج التي تستهلك خلال عطلة نهاية الأسبوع تزيد بكثير عن الثلج الذي يتساقط على مدينة جنيف، ومع هذا لا نود أن نقر بالحقيقة ونكتفي بالافتخار بكوننا كويتيين! سياراتنا يغسلها كادح يأتي لبيوتنا في ساعات الفجر الأولى، أو تقوم خادمة هزيلة البنية بغسلها في الشتاء البارد، لنتبخر بها أمام غير الكويتيين! مصانعنا يديرها جيش من «الأجانب» ابتداء من حراس البوابات وحتى رجال الأمن، مروراً بالمهندسين ومشغلي المكائن وفنيي الصيانة وعمال النقل وسائقي الشاحنات والمحاسبين والمحصلين، ونكتفي ككويتيين بتوقيع معاملات الشؤون وتوظيف آخرين منا من العاطلين عن العمل، لكي نرضي متطلبات دعم العمالة، ثم نطلب منهم البقاء في بيوتهم، لكي يفتخروا بأنهم «نجحوا» في خداع الحكومة وقبض مبالغ الدعم، إضافة لما يدفعه أرباب الأعمال لهم، من دون جهد! وهكذا تعلم الجميع النصب وسرقة المال العام، ومع هذا ليس هناك ما يمنع أن نفتخر. ثم يذهب الفريق الأكثر فخراً لممثليهم في البرلمان ليطالبوهم بالسعي لدى «المعازيب» لإلغاء قروضهم المصرفية، فوضعهم كمقترضين لا يتناسب وكونهم كويتيين فخوريين! صحيح أنه «لو كان فينا خير» لما أصبحت التركيبة السكانية بكل هذا الخلل، إلا أن هذا يجب ألا يمنعنا من أن نكون فخوريين، وأن يقوم رئيس وزرائنا، للسنة السادسة بافتتاح قرية «كويتي وأفتخر»! نعم أنا كويتي وأفتخر بأن بلادي استطاعت أن تحضر اسمها بأحرف من نور في قائمة الدول العشر الأقل ترحيباً بالغير من «بالأينب»! ونفتخر لأننا الأكثر رعونة في القيادة من غيرنا، ونفتخر لأن رجال أمننا الأكثر تورطاً في «المخالفات»! ونفتخر لأن مخرجات تعليم مدارسنا هي الأدنى عالمياً، ونفتخر بكوننا أصحاب أعلى دخل وظيفي، ومع هذا ينتهي الشهر ونصف موظفي الدولة عليهم ديون! ولا أدري لم الذهاب للدوام أصلاً ووزير أساسي في الحكومة قال إن أعمال الدولة يمكن أن تنجز من قبل 60 ألفاً، وليس 200 ألف، كما هو الوضع حالياً، والذي يدعو للفخر حقاً؟ ونفتخر بأن عدداً كبيراً منا يكون دائماً في مقدمة المصلين في الوزارة، وأيضاً في مقدمة جيش المغادرين، بعد... الصلاة! نعم أنا كويتي وأفتخر، لأنني سعت جاهداً لأن تصبح نسبة الكويتيين 27% مقارنة بالغير، وحققت، أنا وابن خالي وابناء عمومتي، المال الوفير من المتاجرة بالبشر وبحقوقهم! نعم أنا كويتي وأفتخر، وبالتالي من حقي وحدي الحصول على خدمة

العلاج صباحا ومساء لغيري من الجنسيات، وافتخر لأنني كنت «عاقلا» بما يكفي لأن لا اضيع عشر سنوات من عمري «الغالي» في دراسة الطب، بل تركت غيري يدرس ويأتي ليطببني! كويتي وافتخر بعشقي لبيئتي وصحرائي التي أتغنى بها دائما، وعندما أتركها أترك خلفي بقايا من إطاراتي وأوتادي وأجزاء من خيمي وزبالتني وآثامي، ومع هذا انا كويتي وافتخر! أنا كويتي وهذا وطني ومن حقي أن ارمي علب المرطبات من نافذة سيارتي وبقية سندويشاتي، فالشوارع شوارع الكناسون من غير أهلي، وأنا أفتخر بنجاحي في سرقة دعم أعلاف ماشيتي وبذور مزروعاتي، وبيعها في السوق «الحمراء» علنا! وافتخر لأنني المتسبب الأكبر في حوادث القتل على الطرق، وفي ارتكاب مسلسل هروب المساجين، وفرار المطلوبين لخارج البلاد، من المنافذ الرسمية، وفخور بضخامة عدد المدمنين ومرضانا النفسيين، وسارقي أموال جمعياتنا التعاونية وأخواتها الخيرية! ولكن شكول وشخللي، غير أني كويتي وافتخر!

النزهة

ومضات السعادة في حياتنا قد تكون كثيرة ولكن قلة منها تبقى معنا سنة بعد أخرى، مهما تقدمنا في العمر، طالما لم نصب بالألزهائمر. ومن اللحظات الجميلة في حياتي حضوري أول عرض لأول فيلم سينمائي ملون وسكوب في تاريخ الكويت، وكان ذلك في سينما الفردوس، في بداية الستينات! ويعود فضل حضوري لشجاعة، أو تهور، صديقي أبو أحمد، الذي تبرع بثمن التذكريتين والدخول بين جموع المتجمهرين أمام شباك التذاكر، ليختفي قرابة نصف ساعة قبل أن يعود بعدها بالتذكريتين، ولكن من دون غترة ولا نعال ولا عقال، وبجيب دشداشة ممزق وشعر اشعث!

بدأ الانبهار مع اللحظات الأولى التي بدأ فيها العرض، وظهور أسماء الممثلين واسم الفيلم، الذي لن أنساه، ولكن نسيت قصته، كان «النزهة» أو picnic كما لا أزال، وبعد أكثر من نصف قرن، أتذكر ذلك الشعور بالزهو والراحة بالجلوس على كرسي وثير ومرتفع، مقارنة بكراسي السينما الشرقية القديمة. كما لا أزال أذكر اصوات الآهات من حولي كلما ظهرت بطلة الفيلم الفاتنة كيم نوفاك على الشاشة بشعرها الأحمر الخلاب وابتسامتها اللعوب. وهكذا قضينا ما يقارب الساعتين ونحن نتابع بنشوة مصحوبة بقلّة معرفة بأحداث الفيلم البسيطة، وكأننا نشاهد ملحمة تاريخية! وكان لا بد ان ينتهي الحلم عندما قرأنا كلمتي The End، والتي لا أعرف إلى اليوم لم تكتب، فإضاءة أنوار صالة العرض كافية لفهم أن العرض قد انتهى.. فسينتوا!

ويوم أمس أعادني الصديق هشام السلطان لعدة عقود إلى الوراء عندما أهداني «سي دي» فيلم «النزهة» فأعدت مشاهدته أكثر من مرة، وأنا في قمة الاستمتاع، واسترجعت كل الذكريات القديمة والجميلة، وحلاوة الحياة الهنية والبسيطة، وكيف كان العالم يعيش في امان اختفى مع زيادة الكراهية والعنف في حياتنا وفي مدننا، بعد أن خربت الذمم وانتشر الإجرام، واصبح الشر هو السيد والسائد، والخير هو الاستثناء!

ولدت كيم نوفاك، واسمها الحقيقي Marilyn Pauline Novak في فبراير 1933، اي أنها قد تجاوزت الآن الثمانين من عمرها المديد، ولا تزال صورتها في أذهان الملايين كما كانت في ذلك الفيلم وعشرات الأفلام الأخرى بعدها، كفيلم «الرجل ذو الذراع الذهبية»، وفيلم «منتصف الليل»، و«فيرتيجو»، و«قبلني ايها الغبي»، وغيرها من الأفلام الجميلة. وتعيش كيم الآن مع زوجها في مزرعة في ولاية أوريغون.

ابن الحسب وبنات النسب

كان من المعتاد، ولا يزال الأمر كذلك في مجتمعات عدة، إطلاق صفات الحسب والنسب على أبناء وبنات أسر معينة، اشتهرت بأصولها أو بكونها مؤثرة أو ذات نفوذ وجاه، أو أنهم أصلاء! وهذه التعابير والأوصاف أصبحت مع الزمن بالية ولا معنى لها، بالرغم من أنها كانت لفترة طويلة ذات أهمية قصوى وتوضع في الاعتبار عند المصاهرة أو المتاجرة، وحتى عند الرغبة في تكوين صداقات شخصية وبناء مصالح مشتركة، وفي اختيار الجار! وسبب ذلك أن أبناء الأسر، أو السراة، كانوا عادة ما يتميزون بأخلاق عالية، أفضل من غيرهم، نتيجة تمتعهم بمستويات تعليم أفضل من غيرهم، وهذا جعلهم أكثر تهذيباً في تصرفاتهم وتعاملاتهم وترفعهم عن صفات الأمور، أكثر من غيرهم. كما كان الكرم جزءاً من شخصياتهم، وجميع هذه كانت قلماً تتوافر في أبناء العامة، أو المزارعين والفقراء. كما كان أبناء الأسر الثرية أكثر مدعاة للثقة والاحترام، لأسباب معروفة، مقارنة بغيرهم. كما كان حظ بنت «الأصول» في الزواج أفضل من غيرها! ولكن مع التطور المدني الذي شمل كل المجتمعات تقريباً أصبحت هذه النظرة شيئاً من الماضي إن لم تكن أمراً بالياً، فقد تغيرت النظرة للشباب والفتاة تدريجياً بعد أن تقاربت المستويات الثقافية بين طبقات المجتمع مع انتشار التعليم، العالي غالباً، بحيث أصبح ابن العائلة الفقيرة لا يقل تهذيباً وفهماً وكرماً عن ابن العائلة الثرية، الذي ربما خربه الدلال، أو دفعته كثرة المال إلى عدم الاهتمام بدراسته أو تعليمه وتعليم أبنائه من بعده. كما أصبحت أمراض العصر الحديث من مسكرات ومخدرات غير قاصرة على مرتادي الحانات من أبناء الفقراء والطبقات الكادحة، كما كان الحال عليه سابقاً، بل أصبح أبناء الأسر الكبيرة معرضين كغيرهم، وربما أكثر لموبقات العصر، وأصبح لهم دور كذلك في الفضائح المالية والسرقات، خاصة بعد أن أصبح الحصول على متطلبات الرفاهية أكثر صعوبة عما كان عليه الأمر في السابق! كما أصبح أمراً أكثر من عادي أن نرى مهنين كباراً؛ كالأطباء والمهندسين والعلماء والمحاسبين من المتحدرين من أسر ذات خلفيات متواضعة، يقابل ذلك انحسار في أعدادهم من أبناء السراة، وسبب ذلك النمو والتطور الكبير الذي شهدته المجتمعات، مع الثورة الصناعية، وتوسّع قاعدة الطبقة الوسطى، وزيادة تأثيرها في الحياة العامة، وخاصة في السياسة، فغالبية من حكموا بريطانيا مثلاً في نصف القرن الماضي كانوا من المنتمين إلى الطبقة الوسطى، الأكثر تعليماً. كما أصبحت المهن العالية

المدرسة في يد هذه الطبقة، التي ربما كان ربها إنسانا كادحا، لكنه نجح في توفير أفضل التعليم لأبنائه من خلال عمله كعامل في منجم فحم أو مصنع سيارات، وكل ذلك أدى لاختفاء الفوارق الاجتماعية بين طبقات المجتمع، وخاصة العليا والمتوسطة، بعد زيادة ثقة أفراد الفئة الأخيرة بأنفسهم نتيجة زيادة نفوذهم الاقتصادي والثقافي والفني، وبالتالي أصبحت مصاهرة أبناء السراة، أو الأسر المعروفة بفتيات الطبقة الوسطى، أو العكس، أمرا أكثر من عادي، بعد أن كانت لقرون عدة أمرا نادرا!

الصحراء والتدوين

يعتبر المسلمون بشكل عام، والعرب منهم بشكل خاص، وأهل الجزيرة بشكل أخص، من غير المؤمنين بالتدوين، ويعتمدون على قضاء أمورهم شفاهة. وبالتالي لم يكن مستغرباً أن الفن الوحيد العالي القدر الذي برع فيه العرب هو الشعر، لأنه لم يكن يتطلب، لإبهار الآخرين بجماله، أي مواد وألوان أو أدوات، بل مجرد ملكة حفظ وبراعة إلقاء، ومن ثم الانطلاق من جماعة إلى أخرى ومن ديوان إلى إيوان وإلقائه أمام كل جمع ونيل الثناء والعطايا عليه! ولا شك في أن قصائد عظيمة كثيرة فقدت، لأن أحداً لم يهتم بتدوينها، وما وصلنا منها لا يذكر. ولا يعني ذلك أن التدوين معدوم كلياً، ولكن ما بين أيدينا من تراث يمتد إلى فترة تقارب الألفي عام، شيء لا يذكر! ولو نظرنا إلى أهم حدث في حياة أي شخص عادي، وهو الزواج، الذي تترتب عليه تبعات جمة، لوجدنا أنه كان يتم، حتى فترة قريبة، شفاهة، ولم يكن يتطلب إشهاره غير القيام بـ«زفة» بطبل وزمر! ولولا ما أصبح يتطلبه الارتباط بالآخر من تبعات، وما تمنحه الحكومات من مزايا، لما اهتم كثيرون بتدوين عقود زواجهم، فمن اختار العيش في الصحراء وتلحف السماء لم يكن له خيار كتابة عقد زواج، دع عنك الاحتفاظ به في خرجه.

ومن جانب آخر نرى أنه لو عاد أحفاد مهاجر مسلم إلى البرازيل إلى موطن سابق جدودهم للبحث عن جذورهم، فغالبا لن يجدوا شيئا، وعكس ذلك مع أحفاد المهاجر المسيحي مثلاً، حيث سيجدون كثيراً عنه وعن جدودهم، وبمن اقترنوا منذ مئات السنين، لأن الكنائس عادة ما تحتفظ بسجلات زواج وتعميد كل من دخلها، حتى في القرى الصغيرة والبعيدة!

كان لا بد من هذه المقدمة الطويلة قبل الدخول في موضوع المقال المتعلق بحصولي من الصديق الباحث يعقوب الإبراهيم على صورة العدد 10 من صحيفة الدستور البصرية، والتي كان عبد الله الزهير هو «صاحب امتيازها ومدير سياساتها»! والتي صدرت بتاريخ 12 مارس 1912، أي قبل أكثر من 100 عام، حيث ورد فيها أن ثمن الاشتراك فيها مجيديان في الممالك العثمانية، وعشرة فرنكات في البلاد الأجنبية، وللطلاب نصف القيمة! وقد ورد في باب الحوادث المحلية الخبر التالي: منذ ثلاثة أشهر وعلائم الأفراح بادية على ساحة حضرة المفخم والأمير المعظم جناب عز السلطنة سردار ارفع الشيخ خزعل خان أمير المحمرة وسردار عربستان، أيدينا بـ«ختان» حضرة شبلة المحترم الشيخ عبد الحميد. وإذا

ألقينا النظر إلى غرض مولانا الأمير من إطالة مدى الأفراح حال أن كل أوقاته فرح وسرور، نراه غرضا ساميا هو أن يعلم الجميع من قاص ودان، فيتمكن ذوو الحاجات من الفقراء والمساكين أن يؤموا ساحته ومنزله الرحب ليكون لهم مندوحة الدخول بلا استئذان فيأكلون هنيئًا مريئًا... وإذا أجلنا النظر من جهة أخرى نرى أن حضرة مولانا الأمير الكبير الشيخ مبارك باشا الصباح كان مصباح ذلك الفرح العظيم، مما يدل دلالة واضحة على دوام اتحاد وارتباط الأميرين في أفراحهما وكل شؤونهما، مما نتمنى أن يقتدي بهما أمراء العرب ورؤسائهم.

المسلم المظلوم

عاشت مناطق شاسعة من حوض المحيط الهندي في جنوب شرق آسيا في سلام ديني، ولم تعرف الحروب الدينية على مدى ثلاثة آلاف سنة، الى أن غزا المسلمون، بقيادة محمد بن القاسم، عامل الحجاج، بلاد السند عام 92 هجرية. ويعود سبب خلو المنطقة تاريخيا من الحروب الدينية الى تعدد آلهتها وتساوي غالبيتها في الأهمية، فلا جهة تشعر بأن آلهتها أفضل من غيرها، أو العكس، إضافة الى خلو عقائد الغالبية، والبوذيين منهم بالذات، من العنف، وبالتالي كان لافتا للنظر ما أصبحت تتعرض له أخيرا الأقليات المسلمة في تايلند وبورما وسريلانكا، وحتى الصين الشعبية وغيرها من اعتداءات شبه متكررة وتتسم بالعنف الشديد ضد مواطني تلك الدول من الأقلية المسلمة، والتي فقد من جرائها الكثير منهم أرواحهم وأموالهم وحقوقهم، ورفض التعامل معهم أو الشراء من متاجرهم! والغريب أن رهباناً بوذيين متطرفين، ممن اشتهروا بحبهم للسلام والمحبة، كانوا على رأس الكثير من عمليات الاعتداء على الأقليات المسلمة في بلادهم، وهم الذين لم يشكل وجودهم يوما تهديدا خطيرا على الغالبية، فلم حدث مثل هذا التحول؟

يقول المسيح في أحد اقواله: أحب اعداءك وصل لمن يضطهدك! وقد كان لكلمته تلك تأثير هائل على مواقف الكثير من القادة والجنود المشاركين في الحروب ممن ارتضوا المسيحية دينا، حيث حرم عليهم معتقدتهم الجديد ضرب الآخرين فكيف بسفك دمائهم؟ وهنا اصبح الوضع خطيرا، وكادت المسيحية أن تفقد زخمها، لتعارض مبادئ المسيح السلمية مع ما أصبح يتطلبه الدين الجديد من اراقة دماء الاعداء، وبالتالي تطلب الأمر تدخل بعض رجال الاكليروس آنذاك بدعم سياسي من الأباطرة والملوك، لتغيير مفهوم «أحب لأعدائك ما تحب لنفسك» وتحليل قتل الآخر بالحرب وبغير ذلك، طالما كان الهدف «عادلا»! وهكذا تطوع عشرات الآلاف للمشاركة في الحروب الصليبية على الشرق لاستعادة بيت المقدس من المسلمين «الكفار»! وبالتالي ما اصبحنا نراه اليوم من ميل عدد من الرهبان البوذيين للجوء للعنف ضد الأقلية المسلمة لا يختلف عن مواقف أوائل المسيحيين، الذين كان رافضو القتال منهم في مقدمة الجيوش الصليبية الغازية! فهؤلاء الرهبان شعروا أن وجودهم العقائدي يتعرض لخطر الافناء ان استمروا في اتباع الطرق السلمية واللاعنف مع الموجة الجديدة من التطرف الاسلامي،

وما أصبح يشكله تمددهم وتكاثرهم من خطر عليهم، وهكذا برروا لأنفسهم قتل الآخر، لأن الهدف عادل! وهنا يجب توجيه اللوم لمن اندس بين مسلمي جنوب شرق آسيا، وقبلهم وبعدهم بين مسلمي اميركا واوروبا، من المتطرفين الخليجين بالذات، الذين زينوا لهم رفض التبعية لحكم غيرهم، من عبدة الأوثان، وحثهم على المطالبة بـ«حقوقهم» المهدورة، وغير ذلك من مطالبات أفزعت الأكثرية، فوقفت ضدهم ودفعوا هم ونحن ثمنا باهظا لتطرف هؤلاء وغبائهم!

هل تعبت أم يئست؟

اكتب منذ عشرين عاما تقريبا، وخلال هذه الفترة ربما اسعدت البعض ولكني حتما أغضبت الأكثر، ولا أعرف حقيقة نتيجة تأثير ما كتبت على من قرأ مقالاتي، ولكني اكتشفت مؤخرا، وبالرغم من سعادتي بما أكتب، بأنني أقضي وقتا أكثر مما ينبغي في كتابة مقالي اليومي، ولا يعود ذلك لقلة الأفكار والمواضيع بل لصعوبة صياغة ما أود كتابته بطريقة سليمة بحيث يخرج جميلا، ولا يمنع من النشر، ولا تحذف منه فقرة هنا أو كلمة هناك، أو يودي بي وبرئيس التحرير للنيابة العامة. وقد سخر البعض، في أكثر من مناسبة، من استعانتني بما في فضاء الانترنت من معلومات وقصص، والكتابة عنها والتعليق عليها، ولا أدري ما الفرق بين من يقوم بهذا العمل ومن ينقل خبرا عن إذاعة أو قناة أو وكالة أنباء ويعلق عليه! علما بأن النقل من الإنترنت يتطلب في غالب الأحوال، إن لم يكن في جميعها، ترجمة النص من لغة أخرى والتأكد من دقة الخبر، بمقارنته بنصوص أو مراجع أخرى، وهذا عكس النقل من جهاز إعلامي أو مصدر حكومي، حيث يمكن وضع مسؤولية عدم صحة الخبر على المصدر أو الاتصال منه. ولكوني كاتباً غير محترف، ولا حتى بالضلع بأسرار اللغة، فلست إلا مصرفيا سابقا ورجل أعمال لاحقا، ولم تكن لي علاقة طوال نصف قرن لا بالأدب ولا بأصحابه، فمن الطبيعي أن تكون عملية الكتابة أكثر صعوبة بالنسبة لي مقارنة بغيري من زملاء أكاديميين ومحامين وشعراء وأدباء! ما أود قوله هنا ان الكتابة اليومية أخذت مني الكثير من دون أن تعطيني مقابلا ماديا، لم أسع له أصلا، وحتما كان العكس هو الصحيح، فقد خسرت الكثير نتيجة تمسكي بآرائي وإصراري على نقد هذه الجهة أو تلك وتحمل تبعات زعل الكثيرين مما أكتب، الأمر الذي أدى لتوقفهم عن التعامل مع مصالحي التجارية، وحتى قطع العلاقة الشخصية معي! وربما تكون محبة البعض، على قلتهم، لما أكتب، هي الجائزة الكبرى التي ربما سترافقني إلى القبر، إن استمرت عادة الكتابة معي إلى يومها، وهذا ما لست متيقنا منه! وكنت أعتقد أن هذه المحبة كافية لكي استمر في الكتابة، ولكن تبين أيضا أنني خسرت الكثير من القراءة الممتعة، وخسرت الوقت الذي كنت أخصصه لتكملة مؤلفات وضعت مسوداتها ولم تتح لي الفرصة منذ سنوات لإكمال نصوصها، أو المباشرة في الكتابة عن مواضيع كثيرة طالما شغلت بالي ولا تصلح للنشر حاليا، بعد أن استولت الكتابة اليومية علي بصورة شبه كلية، هذا غير تأخير تدوين مذكراتي وخواطري التي أتمنى أن أتمكن

يوما من حصرها قبل ان تتلاشى تفاصيلها من ذاكرتي، في خضم كل ما نعيشه من أحداث يومية متسارعة. وبالتالي من المهم ربما معرفة تأثير ما أكتب، فليس من المجدي الاستمرار في الكتابة إن لم يكن هناك من يقرأ ويسمع ويتجاوب!

أعود لأسباب ثلاثة

شكرا كبيرة لكل من اتصل، ومن تجشم عناء الكتابة ومطالبتي بالعودة للكتابة، ولهؤلاء أقول انني سأعود لأسباب ثلاثة: أولها مقال مبارك الدويله، الذي نشر في يوم نشر مقالتي الأخير نفسه، والذي برأ فيه المتخلفين من جماعة الأحزاب الأصولية من جريمة «تخلف» مستوى التعليم في الكويت! وبالتالي تطلب الأمر العودة والرد عليه وعلى غيره. والسبب الثاني العدد غير المتوقع من الرسائل التي طالبني «المهذبون» من اصحابها، والتي تضمنت كماً لا بأس به من الكراهية والبذاءة، أن «أمنح نفسي فرصة سكوت، وأمنح قرائي فترة راحة»، وان أتوقف عن «النباح» وأن أسكت صوت «سلمان رشدي» الفارسي بداخلي! وبالتالي سأعود للكتابة، ولن اخلي الساحة لهم ولجماعتهم، ولأضع حدا لفرحتهم، أو لشماتهم! والأهم من ذلك أنني سأعود للكتابة اليومية وبالوتيرة نفسها، بعد أن غمرني عدد لم أتوقعه من الأحبة، من اصدقاء ومعارف وممن لم اسمع بهم من قبل، بفيض محبتهم وإصرارهم على أن استمر. ومن هؤلاء اساتذة كبار وسياسيون ومحامون وشباب صغار وفتيات في عمر الورد وسيدات وقورات ومواطنون من مختلف الأعمار ومشارب الحياة، ومن مناطق عدة، من إنكلترا وعمان والعراق وأستراليا وأميركا والبحرين والإمارات، ومن السعودية، ولبنان ومن أميركا، ومناطق كثيرة أخرى، وهذا دليل على ما وصلته القبس من مكانة وانتشار. فقد أرسل محمد الرميحي يطلب مني الاستمرار في الكتابة، وهكذا فعل عبدالوهاب الهارون ونجيب الصالح ومصطفى بوحمد واسعد زنكوي وحسن قبازرد ومنصور حيات ومحمد القطان ويحيى ابوغيدة وبسام مسعود وباكينام خلف ووائل خلف ووديع خلف وعماد محمود وفيليب بيداويد وسامي البحيري وعلاء مهدي وعبدالخالق حسين ومتري متري ومحمد عبدالعزيز العلي وسعد بن طفله، وصباح الرئيس وحلمي صبري ونبيل فكري، ويعقوب الجوعان، الذي وصف القبس بشيخة الصحف، واحمد جبر، وغريلي غريلي، وشاكر ابل وعبدالمحسن مظفر وعبدالرحمن النجار وليلى الغانم وضرار الغانم، وتوفيق عوض واقبال الأحمد وسليمان الزيد وطارق عمر وإبراهيم نتو، وناصر الأحمد، وفؤاد دبوس، واميل حداد، وهاغوب امرازيان وأنطوان بشارة وحمد الثقفي وخولة الأيوب وسعاد الأنصاري ومحمد رمضان وشريفة الخميس وزبيدة أشكناني وسليمان السهلي وخالد حامد الأيوب وعماد غريافي وحنين الرميحي وحسام الشمالان وصافي المطوع وعبدالله عيسى الصالح والمعتز رضا

وعبدالله معرفي ولمي العثمان وباقر دشتي وخالد الفضلي وعلي الدخان وفايز الساعتي وعرفان آغائي وهناء الغملاس وميسون يحيى وعادل الصانع ومسلم المسلم وابتهال الخطيب ووليد صرخوه والهام الحلو ونوال بيدس وسعد حجاوي وحمد عمير وعمر خلف وناصر المسعد وفايز الساعاتي والبرت شماس وعهدي المرزوق ومي المرزوق وخليفة الخرافي وماجد صباغ ومريم المرجان وبارعة السقاف، و53 اسما جميلا آخر، حتى كتابة المقال، لا يتسع المجال لذكرهم، فمعذرة، ومن يمتلك الجرأة ليرفض طلب هؤلاء في الاستمرار في الكتابة، فليتفضل!.

وهم الفضيلة في مجتمعاتنا

هذا ليس رداً على مقال سبق أن كتبه الزميل فخري شهاب، وما أثاره من لغط في حينه، بقدر ما هو رد على انطباع عام يؤمن به كثيرون، مفاده أن المجتمعات الغربية عامة تتسم بالانحلال والتفسخ الأخلاقي، وأن الفضيلة والعفة والشرف هي من سمات مجتمعاتنا، وأن للعادات والتقاليد دوراً في الحفاظ عليها. يقول الزميل: إن «الأفكار» كجراثيم الدرن، سريعة الانتشار عبر الحدود، فظهورها اليوم في الغرب مقدمة لظهورها عما قريب بيننا! وهنا لا نتفق معه طبعاً في وصف «الأفكار» بالدرن، فقد نسي أو تناسى أن الغرب والإنسانية برمتها تدين بكل تقدمها لمجموعة أفكار فلسفية وعلمية، والإنسان بغير فكره هو حيوان أعجم. كما أن الفكر الغربي الحديث بالذات، هو الذي أطاح بمسلمات عتيقة وخاطئة، وأوصل البشرية لما هي عليه من تقدم ورقي حضاري وتقني! ويقول أيضاً إن دراسة رسمية «رسمية!» لـ «إن بي سي» N.B.C الأميركية كشفت أخيراً عن معالم واتجاهات في عالم الزواج لم تكن معروفة من قبل، فمن دراسة أجريت بين عام 2002 وعام 2010 تبين أن الشباب من الجنسين بدأوا منذ التسعينات يفضلون بشكل مطرد «التعايش» بعضهم مع بعض على الارتباط بالزواج! كما أن النسبة إلى ارتفاع، فمن 34 % في عام 1995، ارتفعت إلى 43% في 2002، ثم ارتفعت إلى 48 اليوم. وأضاف أن الدراسة بينت أن ربع النساء الأمريكيات، بين سن 15 عاماً و44 عاماً قد «تعايشت» مع رجل ما، وإن هذه النسبة ترتفع كلما ارتفعت أعمارهن. وتساءل الزميل إن كان هذا ما ينتظر المجتمع الإسلامي بعد حملات التحرر التي يسعى الليبراليون جاهدين لتطبيقها؟ وقال إنه ناقش هذه الفكرة مع بعض المفكرين في الكويت، فارتفعت أصوات من طرح السؤال محتجين! وقال إنه سألهم إن كانوا يرضون بالمصير ذاته لبناتهم ومجتمعاتهم؟ وسؤال زميلنا هنا يفتقد الجدية، خاصة في مجتمع محافظ، أو هكذا يريد الناس أن يظهروا! ولا أدري لماذا نربط مصير أي امرأة، خاصة إن كانت بالغة ومتعلمة بما يكفي، بموقف والدها أو أخيها منها مثلاً؟ ولماذا لا يكون لها كيانه وشخصيتها، وإلى متى يجب أن يستمر مجتمعنا الذكوري في تحكمه بالمرأة وبما تفعل؟ وهل يعتقد صاحبنا أن هناك أسرة، في أي مجتمع كان، حتى الغربي الذي يصفه بالتحلل، تريد لابنتها المعاشرة والحمل ومسؤولية تكون سبباً في تحطيم حياتها أو حياتهم للأبد؟ وبالمقياس نفسه هل هناك أب يرضى لابنه المراهق ممارسة ما شاء من حرية جنسية، فقط لأنه ذكر؟ ألا يمكن أن يترتب على

مثل هذه العلاقات مشاكل وأمراض ومسؤوليات مدنية؟ وبالتالي فغالبية الأسر الغربية التي عرفت أو قرأت عنها لن تختلف إجاباتها عن سؤال الزميل عن إجابة أي أب شرقي لو وجه إليه سؤال يتعلق بموقفه من تصرفات بناته وأبنائه! ولكن هل هذا هو مقياس تقدم ورقي وشرف أي مجتمع؟ وهل الشرف يقاس جنسيا فقط، أي بتعدد حالات «التعاش» من غير زواج؟ وكيف نسخر من نسب التعاش المرتفعة في المجتمع الأميركي في ظل غياب تام لأي أرقام عن مجتمعاتنا؟ وهل من الإنصاف الافتراض، جزافا، بأن مجتمعاتنا أكثر عفة من غيرها! ألم يكن من المفترض على الزميل مقارنة أرقام بأرقام؟ أم أن الشرف الرفيع يقطر من أهدابنا من دون أن نراه؟ يستطرد الزميل فخري شهاب بالقول إننا يجب أن نرفض مثل هذا المصير الذي تعرضت له النساء الأميركيات إن كنا نريد كويت المستقبل أن تكون عربية ومسلمة، أما إن كنا نريدها كويتا عصرية متحررة فهذا أمر آخر! وتحدي من جادلهم من «السخفاء»، وهو الذي سبق أن وصفهم بالمفكرين، أن يتكروا عليه بالكيفية التي يرون بها مستقبل حفيداتهم مثالا! وناشدهم باسم الديمقراطية أن يخبروه بأمر من يأبى أن يرى أخواته وبناته وحفيداته «بتعاشن»، وينجب أولادهن «معاشة»؟ هل سيُجبر المخالف هذا على احترام قانون «التعاش» العلماني الجديد، فيضطره إلى قبوله؟ وتبلغ السخرية ذروتها عندما يعترض السيد شهاب على ما تتعرض له «تقاليدنا وعاداتنا الموروثة» من هجوم من «العدو»! يعاونه في ذلك أشباه العقلاء منا! ثم يسخر من منجزات المرأة، والكويتية بالذات، لأنها ربما نجحت سياسيا، ولكنها فشلت في أن تعمل شيئا يسجل لها ويقترن باسمها، أو يرفع اسم الكويت عاليا بين الدول في الرياضة أو الفن! ولكن تعال يا زميلي الكريم وقل لي هل الفن والرياضة هي من «تقاليدنا وعاداتنا الموروثة» التي تطالب «نساءنا» بالبروز والتميز فيها؟ ثم ينهي مقاله بالقول بأن التحديات التي تتعرض لها المرأة الكويتية، كأغلب بنات جنسها العربيات، وريثة محيط متخلف حضاريا، فقيمها وآفاقها وطموحاتها ومثلها العليا مستمدة من تراث القرون الوسطى! ولكنه نسي أن ما استمد من القرون الوسطى وما قبلها هي التقاليد والعادات الموروثة، التي طالبنا في بداية مقاله بعدم التخلي عنها! ويبدو أن صديقنا الزميل قد نسي في خضم ثورته وغضبه المثل الإنكليزي الذي يقول إن من الاستحالة الاحتفاظ بالكيكة وتناولها في الوقت نفسه! فلا يمكن أن تحقق المرأة، والمسلمة بالذات، أي إنجاز حضاري، علمي أو فني أو رياضي أو أخلاقي إن استمر إصرارنا على التمسك بتقاليدنا وعاداتنا، علما بأن ليس هناك ما هو جامد في أي موروثة، فتقاليد جدتي غير تقاليدي غير تقاليد جدتها وهكذا! ولو أردنا للمرأة أن تتقدم

فيجب أن تتعلم، وأن تتعلم يعني أن تنهل من كل مورد عظيم، وهذا العلم لا يوجد من دون اختلاط وسفر، ولا يوجد من دون كرامة، والكرامة لا توجد بغير ثقة والثقة تعني اعطاء الابن والابنة ما يستحقانه من تربية وتعليم ونتركهما يتصرفان بما يريانه مناسباً وفي مصلحتهما، وبالتالي لا يمكن الإصرار على استمرار تحكم الرجل بالمرأة، لأنها صمام الفضيلة والشرف والعفة، ثم نتوقع منها في الوقت نفسه أن تبعد وترفع رأس اسرتها وأمتها عالياً!

إليكم جميعاً مع محبتي

أي جهد مميز يحتاج إلى كلمة.. شكراً
لا تحرمنا من قلمك ودورك ضمن مجموعة التنوير

هذا ليس سرداً تاريخياً لما حدث معي شخصياً في الأيام القليلة الماضية، بالرغم من تأثري به، بقدر ما هو توضيح لما يعنيه الكاتب، أي كاتب، في نفوس قرائه وعقولهم.

قررت قبل أيام التوقف عن الكتابة، ومراجعة النفس في قراري، متسائلاً، بيني وبين نفسي شفاهة، وسائلاً قرائي كتابة، عن جدوى بذل كل هذا الجهد وتمضية كل هذا الوقت في كتابة مقال إن لم يكن هناك من يقرأ وينفعل ويتجاوب ويضحك ويحزن، وإن بصمت، ويلعن ويشتم ويحتج، وإن بأعلى صوت؟ وجاء الجواب بأسرع مما توقعت وبأكثر مما طلبت، فقد غمرني قراء «القبس الجميلة» بفيض مشاعرهم عن طريق اتصالاتهم الهاتفية ورسائلهم النصية وعلى الإنترنت والواتس أب وتويتر. وجميعها تقريباً تضمنت كلمات أسرة جعلتني أشعر بالخلج لشكي في جدوى كتاباتي وجهلي بنوعية قرائي. كما انتابتي مشاعر مختلطة عصفت بي سعادة من جهة لأنني أقدمت على خطوة كان لا بد منها لتعطيني دفعة معنوية ربما كنت بحاجة إليها. كما أنها من جهة أخرى أشعرتني بأن قلة تواصلني مع محيطي وضعت غمامة على عيني، فتواصلني الاجتماعي مع من يقرأ القبس نادر، إما لبعد المسافات، الفعلية أو النفسية والفكرية بيني وبينهم، وتزايد وجودي بعيداً عن الوطن! وعندما سألني الصديق أبو عبداللطيف عما دفعني للجوء إلى القراء بحثاً عن إجابة لحيرتي، أو عن اثر ما أكتب في نفوسهم، قلت له إنني أشبه نفسي، منذ سنوات، بالبستنجي، أو الخولي أو الزارع، الذي يقوم صباح كل يوم، والكل من حوله نيام، بتقليم زهور حدائق الحي وتشذيب أغصان الزهور والورود أمام مداخل بيوت سكانه وعلى شرفات منازلهم، وتبديل تربة الأصص وزيادة سماد أحواض الزرع، وإزالة الأغصان الجافة وإبراز المتألقة منها، ورش أوراق الورد بالماء لتبدو وكأن الندى قد نزل عليها للتو، وليعيد الرونق الجميل لألوانها، ويعدل من قامات سيقانها لترتفع شامخة، وليحدثها للتذكر أن تبسّم لمن ينظر إليها. وأنه قام بذلك كل يوم تقريباً لعشرين سنة تقريباً ولم يأت جار، إلا ما ندر، ليقول له «سلمت يداك» أو لميطري على عمله ويمدح ذوقه ويربت على كتفه ويبسّم له راضياً أو قابلاً لعمله.

وبالتالي، كان لا بد لهذا البستاني أن يتوقف عن سقي الزهور والاهتمام بالورد، وليشارك بقية أهل الحي في وضع الساق على الساق وارتشاف القهوة أو الشاي مع صحف الصباح! ولكن ما أن لاحظ سكان الحي حالة حدائقهم حتى تعالت احتجاجاتهم الجميلة، وتدفقت كلماتهم الرائعة، عبر مكالمات ورسائل لا تنتهي، تطالب الزارع بالعودة للعناية بزهورهم وتشذيب ورد حدائقهم، وتنظيف ما علق بمزروعاتهم من أوراق وأفكار بالية! وهنا هز أبو عبد اللطيف رأسه موافقا ومدافعا بالقول إن مجتمعاتنا، بسبب ميلها لقضاء حاجاتها بالكتمان، هي مجتمعات بخيلة في الإطراء، ضنينة بالمدح، كريمة في النقد، سخية في إبراز العيوب، وكان حريا بي، وبعد ما بلغته من عمر وخبرة! أن أكون ملما بطبائع قومي واهلي، وأن أعرف أن كلمة «شكرا» لا تخرج منهم بسهولة، لجفاف نفوسنا التي تشبه بيئتنا الصحراوية. فمن منا فكر يوما أن يستيقظ ليقول كلمة «شكرا» السحرية للزوجة أو الزوج أو للخادم أو الطباخ الذي أعد فطوره؟ أو ليذهب خارج البيت، في ساعات الفجر الأولى، صيفا وشتاء، ليشكر من يقوم منذ سنوات بغسل سيارته؟ وما نسبة من قالوا شكرا لكناش الشارع على عمله؟ صحيح أن البعض يضع نصف دينار أو أكثر في يد ذلك المسكين، ولكنه يفعل ذلك كسبا للأجر وليس ليقول له: شكرا! فقد يكون هذا الكناش بحاجة إلى كلمة امتنان لما يقوم به بمثل حاجته إلى النصف دينار. وبالتالي، كان ربما لزاما عليّ التوقف عن الكتابة، أو تقليد وتشذيب حوض زهور الحي، للفت نظر محبي تلك الزهور والورد إلى أن من يرعاها ليس فقط بحاجة إلى كلمة طيبة، بل وأيضا لأنه يود أن يعرف أين تذهب كلماته، وهل هناك من يتجاوب وينفعل ويتفاعل ويضحك ويزعل، ويعبس مع ما يكتب، بمثل قدرته، ورغبته في معرفة إن كان هناك من يغضب ويرتفع ضغطه، وهو في مكتبه الهندسي، وإن كانت تصدر منه، وبينه وبين نفسه، همهمة احتجاج أو نية شتيمة أو لعنة، بهمس! كما أن علينا أن نعرف أن هناك من يؤدون أعمالا تفوق في قيمتها بكثير ما ندفعه من أجر للحصول عليها، ومن هؤلاء فراش المكتب وكناش الشارع وغسال السيارة وربما حتى صراف القبس! ومن أجل توضيح ما يعنيه الكاتب، أي كاتب لقرائه، وما تعنيه القبس كصحيفة ملتزمة، أود هنا مشاركة القراء في بعض ما وردني من رسائل على مدى خمسة أيام، وهي ليست بالضرورة افضل من غيرها، ولكنها ربما كانت، لسبب أو لآخر، مناسبة أكثر للنشر. ولخصوصية أسماء من أرسلها، فسأكتفي بذكر الاسم الأول، عدا الرسالة الأخيرة، وليعذرني من أرسلها.

كلمات عابرة للقارات

من استراليا كتب علاء يقول: إنني من متابعي مقالاتكم منذ سنوات. وعلى الرغم من ان أغلب المواضيع التي تتناولها محلية أو خليجية، ولكنها تتشابه مع المواضيع العراقية. من موقعي في القارة الأسترالية أعتبر مقالاتكم بمنزلة غذاء روحي يومي أكره أن أخسره.

أما مناوور، فكتب: أنا لا أعرفك الا عن طريق مقالاتك، وفعلا عشقت القبس أكثر بسببها. قهوة الصباح لا طعم لها بغيرك.

أما عبد الخالق، فقد طالب باستمرار، وقال: لا تقلل من أهمية ما تكتب، فلك تأثير على جمهرة واسعة من القراء. ويجب ألا نترك الساحة للرجعيين. وفيليب من سويسرا: خواطركم تصب في الصميم، واتمنى أن يكون لك الوقت الكافي للقيام بما تحب.

متري من بيروت قال: استطيع أن أؤكد لك بأنه ليس من المهم أن تلقى كتاباتك ادنا صاغية او عيناً تقرأ، بل أن تجد صداها في العقول!

واقبال كتبت: انت لم تتعب ولم تياس ولكنك مشتت، ربما تحتاج الى التركيز وأن ترتب اوراقك وتضع جدولاً زمنياً لمشاريعك المتعلقة بالكتابة، سواء مذكرات او خواطر، وألا تقطع الطريق بمن تعلق بك.

زبيدة كتبت: منذ سنوات وأنا لا أقرأ اي جريدة لأن قراءتها تسبب لي اكتئاباً وحزناً واخفاقاً! ولكني أقرأ مقالاتك اليومية على الإنترنت، وهي نافذتي على الداخل الكويتي الذي يزداد ضيقاً يوماً بعد يوم. لا تتقطع عن الكتابة، وان ارهقتك واتعبتك، فهي أكثر جدوى مما تعتقد، وهي تدخل الكثير من الأمل إلى نفوس اناس مثلي، واعتقد بأنهم كثيرون.

إلهام من جبل لبنان كتبت: منذ تدرّجت في تعلم استعمال الحاسوب، ثم حصلت على خدمة الإنترنت «السيئة والبطيئة في لبنان» ومقالك اليومي ثابت في موعده الصباحي، أنا لا أقرأ وحدي، بل هو جزء من «باقات» أرسلها كل صباح في كل الاتجاهات، أراك تغربل وتصفي وتقدم لنا الأطايب، تماماً كما أفعل أنا، وجهدك مشكور على كل حال، فالوقت لا يتسع لقراءة كل ما على الشبكة العنكبوتية. أرى أن في مقالاتك تلك «الجرعة» من الموضوعية التي أحب، فلا دعاية ولا تعصب دينياً ولا مديح مجانياً لأهل السلطة. وبصراحة، حتى عندما لا أتفق معك حول فكرة ما، يكفيني أن أعتبرها «جديرة بالمناقشة» وهذا جل ما نطلبه من اي محاور!

نقطة ضوء من القبس

كتبت «مي»: أتابع وبشكل يومي مقالاتك كونك كاتب المفضل من بين العديد من كتّاب المقالات اليومية. وأود من خلال هذا الرد أن أوصل إليك مدى أهمية ما أقرأه لك يوميا. بالنسبة لكتاباتك بخصوص التيار الديني المتشدد فقد أثريت معلوماتنا بشكل مباشر وواضح، وسلطت الضوء على تاريخ هذه الحركات وبيداتها والتنبيه من خطورتها، بالإضافة الى متابعتك الحثيثة لأنشطتهم والتعليق والتحذير منها، وقدمت لنا معلومات وفيرة عن مصادر ثرواتهم، والتزمت دائما بذكر مصادر معلوماتك، بالإضافة لما لديك من فكر وعلم نتيجة ما تقرأ من كتب ومما تعلمت، وكل ذلك أثلج صدورنا وعبر عن آرائنا، حيث أصبحت ونحن معك ندا لهم فيما يفعلون، فأرجوك لا تتوقف. أما بالنسبة لكتاباتك الخاصة بنقد الأوضاع الاجتماعية للمرأة العربية والدفاع عن حقوقها وحريتها، فأرجو منك أن تستمر، فهذه المقالات تقف في وجه أعداء حرية المرأة وتشعرهم بالخجل من تصرفاتهم. كما أستمتع بكتاباتك المتنوعة عن التاريخ أو المعلومات ونستفيد منها كثيرا عندما تذكر لنا عن اسم كتاب جديد تنصحنا بقراءته أو معلومة جديدة عن اختراع، وألاحظ طريقة طرحك الممتعة للمعلومة، مستندا إلى علم وفير، أو بتشبيهك لما يحدث بقصة فلسفية ممتعة وغريبة ثم تضيف تحليلك الشخصي.

أما الكابتن، فيقول عليك بالاستمرار في صراعك مع قوى التخلف، أنا معجب بعمودك.

ويقول جعفر: نتمنى ألا تتوقف، فقد تعلمنا أشياء مثيرة وجميلة منك، وأثرت بداخلنا مواضيع شيقة.

وكتبت فوزية: لم اصدق انك ستترك تواصلك مع قرائك، انها خطوة ربما أخذت الكثير من التفكير والتمحيص قبل الإقدام عليها، وما علينا سوى احترامها، ولكن لا بد ان نقول أيضاً ان الكتابة التي قدمتها لقرائك كانت ذات فائدة كبيرة لتنوع الأفكار والمعلومات التي يجهلها القراء، وكانت كتاباتك متنفسا لآخرين ممن يؤمنون بأفكارك المستتيرة التي تتم عن ثقافة إنسانية راقية ولكن لا يملكون ما تملكه من عقل منظم ولغة سلسلة وغزارة في التعبير وصبر على البحث والتبحر المستمر، فكنت المترجم لما يفكرون به وانقذتهم من حاله الـfrustration التي هم بها. لا يسعني، ومعني الكثير ممن اعرف، إلا أن اطالبك بالتراجع عن قرارك، وأتمنى ألا تنقطع عن الكتابة. هناك أقلام رشيقة وأخرى جريئة في الصحافة الكويتية، ولكنك تمتلك الاثنين معا وزيادة، فانت من القليلين الذين يحترمون العقل ويطالبون

بالتزود بالعلم حتى نصبح بمستوى الامم التي على الاقل تفهم ما يجري من حولها ولا يضحكون من جهلها وتأخرها! لا تحرم قراءك من نقطه الضوء المطلة عليهم من القبس، على الاقل مرتين في الاسبوع، لفترة الاستراحة.

وتقول هنادي: أحمد الكاتب، لقد اخترت أن أسبق اسمك بالصفة الوحيدة التي أعرفك بها فنحن لم نلتق، وأحمد بالنسبة لي هو الكاتب المجهول الذي يتحدث بلسان العقل في مجتمع فقد عقله وضميره! عندما أقرأ السموم التي يبثها ثعابين التطرف الديني أحزن ولا أجد عزائي إلا في مقالاتك التي تظل شوكة في خواصرهم وترياقاً يحمي المسموم من الموت بين انيابهم. أرجوك استمر، نحن وراءك جميعاً وننتظر اليوم الذي تنتظره أنت حتى ولو بعد حين.

ويوسف يتساءل: هل على كل من يحمل شمعة أن يطفئها كلما التقى بمن ييغض النور؟ الرجاء المثابرة!

وحسن أضاف: كتاباتك اليومية تضيء صحافة الكويت ويجب أن تستمر. وفارعة قالت: يا نصير الحرية والحق صاحب القلم المستتير، سأكون أكثر المتضررين فيما لو انقطعت عن الكتابة. لا تعتقد أبداً بأن مقالاتك تذهب سدى. المتأثرون كثر وما تفعله إنما هو دورك ضمن مجموعة التنوير وضمن من حملوا على عاتقهم التغيير نحو مجتمع إنساني منفتح يحتفي بالثقافات الأخرى ويساهم في بناء حضارة إنسانية في المنطقة، وان حاول غيره الهدم. لا تتركنا. «إحنا نموت عليك يا معود إذا انت تترك من يبقى في الساحة؟» انت تقوم بالتغيير صدقني، قلمك مؤثر جداً وأنا عن نفسي لم يعد لدي وقت لأقرأ لكل الكتاب، فأصبحت اكتفي بمقالك في القبس ومقال زميلة عزيزة في جريدة الجريدة.

عدنان يقول: لم اتوقع منك هذا الشعور بالإحباط واليأس. ولعلمك وليس مجاملة، فأنت تعتبر من أميز الكتاب في الصحف الكويتية، والموضوعات التي تطرحها قيمة وبعيدة كل البعد عن التحيز والطائفية والشخصانية، ان زوجتي وهي متدينة معجبة بما تطرحه من آراء ومقتطفات ومعلومات مفيدة. الصحافة الكويتية محتاجة وبشدة الى اراء نيرة ومخلصة ومحبة للوطن والمصلحة العامة، فهناك الكثير من الكتاب المرتزقة والمتطرفين والذين يتبعون الدينار وأهل النفوذ والمصالح الشخصية والحزبية والمأجورين. إن صاحب الرأي الحر والمخلص والشفاف لا بد ان يواجه بعض المشاكل والعراقيل ولكن احب انؤكد لك أن الكثيرين يحترمون ويقدرّون ما تطرحه.

وكتب وديع: لا تلق القلم يا احمد ولو تعبت، ولا ترم الرسالة التي حملت طويلا ولا يأخذك الوهم ولا التردد، مهما أخذت منك الكتابة اليومية، فلا يوازي ذرة من

الاحترام الذي كسبته، ومن المكانة التي كونتها في قلوبنا. إن كان لا بد من القدر، فاسقط انت والقلم معا.

نوال من دبي تقول: إن الشعور بالمسؤولية يجري في دمك، ولن تستسلم رغم السلبات التي نعيش فيها واعتقد بأنك نورت جيلاً وأجيالاً، ووضعت حدوداً لتجاوز الكثيرين لواجباتهم ومسؤولياتهم وقلمك وكلمتك، والقلة أمثالك أملنا وكنز مجتمعا.

مشاعل تكتب: أنا وأسرتي نقرأ لك منذ سنوات. الكتاب من أمثالك ينطبق عليهم قول السيد المسيح «صوت صارخ في البرية» نحن نسمعك بوضوح واهتمام، ونشد على يدك.

وكتب خالد من الصليبية قائلاً: قرأت مقالك، وأحب اكلمك من دون تكلف. أنت من الذين غيروا في طريقة تفكيري، ومقالاتك من اخف وامتع المقالات وخصوصاً المترجمة، لأننا، نحن معشر «الجهلة» باللغة الانكليزية؛ نعتبرك وأمثالك الواحة في الصحراء القاحلة. شيء كبير جداً اذا قدرت أن تؤثر، وخصوصاً بالطبقات السفلى اجتماعياً. مع تحيات متابع لمقالاتك من الصليبية، يمكن ما تعرفها؟!

وسمية كتبت: هل هذه مفاجأة؟ بعد أن تعودنا على قراءة الصفحة الأخيرة قبل الأولى تأتي وتساءلنا هذا السؤال؟ هل تريد منا ان نهجر القراءة؟ لا والله، القبس من دونك ما تسوى، رجاء لا تتركنا.

وصافي قال إن توقفي سيدفعه لقراءة مقالاتي القديمة. وعماد كتب: إنني من اشد المؤيدين لاستمرارك في الكتابة. فان تحليلك وفهمك لما تمر به الأمة يساعدنا على فهم ما يجري من حولنا. أصبحت سمة التخلف والتشرذم لصيقة بنا، فمع تقدم العالم نتراجع نحن إلى الجاهلية.

وتقول قارئة: منذ ما يقارب 15 سنة مضت، وقد كنت في حينها في بداية حياتي العملية، قرأت مقالتك عن قصة علبة البسكويت، والتي تحكي عن سيدة كانت تنتظر طائرتها فاشترت كتاباً وعلبة بسكويت لتمضية الوقت.. إلخ. ومنها تعلمت أنه لا يمكنك استرجاع الفرص بعد ضياعها ولا يمكن استرجاع الرصاصة بعد انطلاقها، فشكراً لك على ذلك الدرس، الذي لم أنسه منذ يومها.

وكتب يعقوب: مع كل ما ربطنا من زمالة ومودة وصداقة، فانه قد يكون اعجابي بما توصلت اليه من كفاءة بالكتابة زائد القدرة على إظهار افكارك متحيزاً، فأسلوبك فيه الكثير من الحرفة، أنا كأحد الكثيرين من أصدقائك فخور بكل ما حققته ككاتب رئيسي ومقروء في القبس.

محسن كتب: تألمت لما تضمنه مقالك من شعور باليأس والإحباط، وأرجو

أن أكون مخطئاً في فهمي لما كتبته. وأود أن أؤكد لك أنني من القراء الدائمين الحريصين على الاطلاع على ما تكتبه كل يوم، وفي كثير من الأحيان أستبق وصول الجريدة إليّ في الصباح، فألجأ إلى الإنترنت لأقرأ مقالك قبل أن أنام. وأعتقد أن هناك الكثير من القراء الذين لديهم حرص واهتمامي بنفسهما. بل إنني أقدر لإدارة جريدة القبس إفساح المجال لمقالاتك في موقع متميز من الجريدة في الصفحة الأخيرة، حيث كنا نقرأ للراحل محمد مساعد.

ومريم قالت: أقرأ مقالاتك وأحياناً أستشهد بها وتأثر بما تحتويه من أفكار جديدة علي، ربما لصغر سني، ولكن معرفتي بالقانون، من خلال مقالاتك زادتي ثقة بنفسي. مقالاتك فيها الكثير من الإيجابيات، وأنا أتفق معها، وقد اكتشفت أن والذي أيضاً معجب بها، رغم أنه يستدرك، واصفاً إياك بأنك «ليبرالي حييل».

عهدي كتب: من يكتب مقالاً فيه رأي حصيف وجيد فلا يهتم برأي الناس، العبرة بالرأي أو الفكرة التي تكتبها واغلب آرائك جيدة وتستحق المتابعة. أنا من قرائك الدائمين، وكثير ما تناقشنا في ما تكتبه مع مرتادي ديوانيتنا.

سعاد كتبت: هل داهمك اليأس؟ لست تراني لائمة! فما الذي يدعو لغير ذلك؟ ولكنك لا تملك هذا الحق! أحاول منذ زمن أن أنجو من عادتي في تعكير مزاجي مع قراءة الجريدة كل صباح، ولكني أفضل دائماً، لا لأنني شديدة الوله بتعذيب نفسي، ولكن لوجود أمل في داخلي بأنه حتماً ستقع عيناى على ما يسعدها، وبأن هذا الوطن يستحق أن نتمنى له الخير، والأمل يجعلنا ننتظر.

سليمان من لندن: إن توقفت عن الكتابة فسأتوقف عن القراءة، وتتحمل مسؤولية ما أعانيه من جهل في المستقبل. فمنذ تقاعدت وأنا امضي بضع ساعات في قراءة كتب لم أحلم بقراءتها. أنا في الواقع أبالغ، ولكن ليكن في علمك أن هناك العديد منا سيصيبهم نوع من الاكتئاب إذا كان أمثالك من كتّاب ستركون الكتابة فأفضل ما في الغربة هو قراءة مقالاتكم. وفي الختام، أم سعود «تقولك بطل هالسوالف وخلقك على الكتابة».

نستشهد دائماً بما تكتب

عادل يقول: نعمة اليأس في مقالاتك امس ما كان يجب ان تخرج منك. طبعاً انت تحمل راية وشعلة تنوير المجتمع، وتسبح عكس التيار، وتعلم ان تأثيرها بطيء اذا قيس بعمر الشعوب، ولكن يبقي لها تأثير. ففي الديوانية دايماً نستشهد بما كتبت لتأكيد فكرة معينة، وبين عائلتي الصغيرة لما اقول لاولادي ما سطرته بقلمك من معلومات فان عيونهم تتفتح للآخر ويرغبون في المزيد وهذا في حد ذاته تأثير واضح وايجابي.

وكتب عبدالله «بالإنكليزية» لا تتوقف عن الكتابة: أنا أعلم أنك تقضي الكثير من الوقت لتكتب شيئاً لا تستغرق قراءته إلا لحظات، وهذا ما يجعل أسلوبك في الكتابة مميزاً، ولا يتطلب من القارئ بذل عناء كبير لفهم ما تريد قوله. لديك حس فكاهي، فقد اضحكتني في مرات كثيرة وأنا أقرأ مقالاتك، فلا تتوقف.

وكتب من وصف نفسه بأنه تجاوز الستين: لم أكتب لصحافي أو لصحيفة أو حتى لمسؤول حكومي: غالباً ما كنت أقرأ لك وللشرفاء أمثالك، فأقول: جزاك الله خيراً أو أقرأ لآخرين، وهم كثر للأسف، ينطقون بما لا يفقهون، ويخوضون في أمور لا يدركون ما تجره من تبعات على هذا الوطن كلما أمسكوا بأقلامهم، وكتابتي لأول مرة من منطلق تقدير لشخصك الكريم ولقلمك، فلا تضع قلمك جانباً ولا تخفف فالتخفيف، مكروه في هذه الأمور.

شريفة تقول: على الرغم من أنني ابلغ 21 عاماً فقط، فإنني اجد في مقالاتك الكثير، وأنتظر ما تكتب يومياً بفارغ الصبر.. لا تتوقف.

محمود يقول: هناك دائماً مَنْ يثمن ويفهم ويتأثر بكتابتك في عامودك. براعة الكاتب في استحواذه على اهتمام القراء وأنت واحد منهم.

انا لا أقرأ يومياً سوى مقالاتك وحوالي عشر دقائق من القبس. اعتقد انك تنتمي الى آخر جيل كويتي مثقف ومستعد للعمل الجاد، لذلك يجب ألا تتوقف عن الكتابة للجيلال التي تبعثك.

عادل من لندن كتب: اقرأ كل كتاباتك وأحبها كثيراً، فأكثرها مرهم للجرح، أرجوك الاستمرار وأن تكثر منها. أما زوجته الدكتورة فكتبت: نحن نعيش في لندن ونستمع بقراءة مقالاتك، ودوما نرسلها إلى أصدقائنا، وكلهم يستلذون بها وبما فيها من معان فنرجوك أكمل المشوار واستمر في العطاء.

ميسون تقول: كنت وما زلت من المعجبين والمتابعين لمقالتك اليومية في جريدة القبس وكانت كجرعة الفيتامين المغذية، التي أحرص على تناولها مع فنجان القهوة في عملي صباحاً. وفي هذا الصباح تصفحت جريدة القبس وكلي شغف للوصول إلى الصفحة الأخيرة من أجل قراءة مقالتك، وكما كانت خيبتني ثقيلة حين لم أجدها، وتذكرت ما كتبته عن نيتك الاعتزال فشعرت بوقع الخيبة أكثر. بالطبع ليس لي الحق في أن أثنيك عن قرارك فيما لو اتخذته فعلاً، لكني أجد أن من حقلك معرفة أنني واحدة من متابعيك وقرائك الذين حتما سيفتقدون مقالتك القيمة بشكلها ومضمونها. سنفتقدك حقاً، أرجو أن تواصل الكتابة. وبعد أن اقتفيت أثرك وجدت موقعا باسم «كلام الناس» يحتوي على جميع مقالاتك، أسعدني أنني وجدت أرشيفا لها، ولكن مع ذلك أعتقد أن مقالاتك على الصفحة

الأخيرة في القبس لها وقع صباحي منعش.

محمد «الثالث» قال إنه لم يشارك في حملة ثني عن التوقف عن الكتابة، والسبب أنه كان على يقين بأنني غير قادر على ذلك، ليس ضعفاً أو عجزاً من جانبي، بل لأنه وبقيّة قرائي «لن يسمحوا بذلك!» خاصة بعد أن أصبحت جزءاً مهماً من برنامج القراءة اليومي لمن كتب لي ولمن لم يكتب من قراء القبس».

وقال: من يقرأ لأبي طارق يلاحظ بسهولة الجهد المبذول ودقة المتابعة وعمق الفكر وحتى حين لا يتفق البعض مع ما تكتب يشيدون بالجرأة والمثابرة في مناقشة قضايا قد يصنفونها من المحاذير أو المحرمات، وهذا لا شك جهد مشكور باتجاه تحرير الفكر من قيود المجاملة أو المهادنة المقيتة، التي أراها أحد أهم الأسباب لما نحن فيه. ولذلك اسمح لي أن أقول وأكرر «لن نسمح لك يا أحمد»!

وكتب نجيب: نجحت بجدارة في ملء الفراغ الذي خلفه أبو طلال، لذلك نرجو منك الاستمرار.

وأخيراً، نختم هذه المشاركات برسالة المهندس علي عبدالله: حين وقعت عيناى على عنوان مقالتك الأخيرة «هل تعبت أم يئست؟»، انطبعت في ذهني إشارتان: الأولى «هل تعبت أم يئست؟» والثانية، «هل تعبت أم يئست؟»! ولكن.. وبمجرد أن قرأت السطر الأول تحققت ان الأمر مرتبط بشخصك العزيز. وبعد قراءتي المتكررة للمقال ارتأيت أن أتريث قليلاً، ريثما يستقر غبار الصراع بين العقل والعاطفة. وبعد أن انتصر العقل على العاطفة مع بعض من عطف العقل تجاه العاطفة، برزت أمامي جمل وكأنها كتبت بمداد مميز عن باقي المفردات، مع التأكيد على أهمية كل كلمة لكونها النسيج المتكامل لمقالة، لا شك اختصرت عشرين سنة من «المعاناة والنشوة».

تقول «أسعدت البعض، ولكني حتما أغضبت الأكثر»، وأنا أقول يا أخي الفاضل، أليس هذا هو الوضع الطبيعي؟ «إن إرضاء الناس غاية لا تدرك»، خاصة ان هناك شرائح من المجتمع تبغض الحقيقة، لأنها، إما تتضارب مع مصالحها أو توجهاتها الدينية والفكرية.. هذا إذا كان لديها الفكر أصلاً! وهناك أيضاً من لا يتفقون معكم لأنهم لا يريدون تكبير صفو من حولهم. وهناك أسباب أخرى كثيرة، منها الجهل المطبق على العقول.

تقول «.. بل لصعوبة صياغة ما أود كتابته بطريقة سليمة، بحيث يخرج جميلاً، ولا يمنع من النشر، ولا تحذف منه فقرة هنا أو كلمة هناك.. الخ». أقول إن جهودك هذه لم تذهب قط سدى، فإنك تصيغ ما تكتب بلغة بليغة ومترابطة تتميز بالقوة

والجمال، وان استدعى الأمر بالقوة والصراحة وبشجاعة يفتقدها الكثيرون ممن ينعنون أنفسهم «بالكتاب» أو يُنعنون، كذلك لا فرق. إن الجهد والوقت والمعاناة التي تبذلونها هي من جودك وكرمك لإيصال «الرسالة» وإدخال السعادة الى قلوب القراء، وأنا منهم. لقد نذرت نفسك لذلك، وهذا قمة في العطاء النبيل. وتسترسل، الى حيث تقول، «ولكوني كاتباً غير محترف ولا حتى بالضليع بأسرار اللغة». هذا تواضع منك جم. قد لا تكون ضليعاً بأسرار اللغة، لأن ذلك تخصص عميق لا يناله إلا من كرّس حياته وتفرغ لدراسة أسرارها، ولكنك من دون شك، وان كنت تقول بتواضع إنك غير محترف -وهذا ليس إطرأ- فإنتم تكتبون باحتراف. وكم من «كتاب» يُعتبرون أكاديميين تزعجني لغتهم قبل فحوى ما يكتبون! منهم من لا يعرف ان «لم» تجزم! ومنهم من لا يعرف الفرق بين «التاء المربوطة والمفتوحة» وهؤلاء «كتاب» في الصحف اليومية.

وتقول «فمن الطبيعي أن تكون عملية الكتابة أكثر صعوبة بالنسبة إلي، مقارنة بغيري من زملاء أكاديميين ومحامين وشعراء وأدباء!»، أعتقد ان الصعوبة نتيجة حرصك على أن تكون كتاباتكم، وكما قلت، «سليمة بحيث يخرج الكلام جميلاً، ولا يمنع من النشر، ولا تحذف منه فقرة هنا أو كلمة هناك.. الخ»، ولا علاقة له بانك لست اكاديميا أو شاعرا أو أدبيا. وقد أثلجت صدري حين قلت: «وربما تكون محبة البعض، على قلتهم، لما أكتب، هي الجائزة الكبرى...». وأنا أقول: في المقابل، انت وسام على صدورنا لما تتمتع به من شفافية وشجاعة في طرح الكثير من الأمور التي يرتعد البعض من الاقتراب منها، خوفا على مصالحه أو إرضاء لمن يدور في فلحهم.

إن ما أوردته ليس إلا ما أشعر به بكل صدق، ولم أقصد التأثير في قراركم بشأن الاستمرار من عدمه. لا شك، كغيري ممن كتبوا اليك، أتمنى أن تستمر. ونحن بانتظار مؤلفاتك التي وضعت مسوداتها منذ سنوات. وفي الختام، أهديك قصيدة كتبها قبل بضعة اعوام، حين كنت بين مجموعة من المعارف والأصدقاء ضمن BOOK CLUB وكنا قد قرأنا «المعذبون في الأرض» للدكتور طه حسين، واجتمعنا لمناقشة الكتاب وكانت مساهمتي بهذه القصيدة:

من وحي «المعذبون في الأرض» للدكتور طه حسين:

«طه حُسَيْنُ»، لَقَدْ هَيَّجَتْ لِي طَرِبًا بَعْدَ الَّذِي كَانَ فِي الْأَسْفَارِ مضطربًا
فَفَاضَ فِي الْقَلْبِ نَبْعٌ، بَعْدَ مَا نَضَبَا شَرِبْتُ مِنْ نَبْعِكَ الْأَفْكَارَ وَالْأَدْبَا

كَمْ سَوَّدُوا صُحُفًا، ثُمَّ ادَّعَوْا أَدَبًا
تَقِيًّاوًا فَوْقَ صَفَحَاتِ الْكِتَابِ وَبَا
وَصِغَتْ لَفْظًا رَزِينِ اللَّحْنِ مُتَزِنًا
سِحْرُ الْبَيَانِ أَتَانَا مِنْ لَدُنْكَ سَنًا
رَسَمَتْهُ صُورًا، عَايَشَتْهُ حُلْمًا
وَصِغَتْهُ عَاصِفًا مِنْ تَمَّ فَوْقَ رَبِّي
حَتَّى سَمِعْتُ ضَجِيجَ الصَّمْتِ وَاعْجَبًا
«مُعَذِّبُونَ» بِدُنْيَانَا؟ فَلَيْسَ لَنَا
فَتْلِكَ قَدْ سُجِّلَتْ فِي لَوْحِ مَوْلِدِنَا

يَجِيلُ قَلْبِي سَقِيمًا مَلُؤُهُ الْكُرْبَا
وَيَحْلُمُونَ بِنَيْتِ الْكَرَمِ وَالْعِنْبَا
وَكُلُّ لَفْظٍ أَرَى فِي رَحْمِهِ كُتُبًا
كَأَنَّهُ بِمَدَادِ التَّبَرِّ قَدْ نَظَمَا
أَسْقَيْتَنِي مِنْ شَرَابِ اللَّفْظِ مَا عَذَبَا
أَجَلَسْتَنِي، وَفُؤَادِي نَبْضُهُ سُلْبَا
أَوْ خِلْتُ نَفْسِي أَرَى فِي صَخْبِهِ عَجَبَا
أَنْ نَعْلَمَ الْغَيْبَ أَوْ أَنْ نَفْقَهَ السَّبَبَا
فَمَا لَنَا أَنْ نُثِيرَ السَّخَطَ وَالْغَضَبَا

قصتي مع سليمان المطوع

أغسطس 2013

كنا 16 طالبا، بيننا خمسة من أبناء سفراء، والغالبية لديهم شعور أن بمقدورها ألا يذهبا للمدرسة أساسا، لعدم حاجتهما لتلقي التعليم العالي، بسبب احوالهم المادية الميسرة، ولكنهم يأتون كرما منهم. كان بين هؤلاء واحد احمل همه وأقلق عليه، إن غاب عن الدرس، لأنه الوحيد الذي تجعله علاماته يأتي بعدي في الترتيب، عندما تعلن نتائج الامتحانات. وبغيا به ساصبح أنا الأخير في الصف! «زياد الرحباني».

* * *

أعادتني جملة زياد الطريفة أعلاه لسنوات دراستي المتوسطة في مدرسة الصديق قبل نصف قرن! فقد كنت يومها تلميذا شقيا، ولم تكن علاماتي، بخلاف التعبير، وهو فرع من مادة اللغة العربية، مميزة بغير كونها أقرب للقاء منها لأي شيء آخر. ولا أدري حقيقة كيف نجحت، وكيف تأملت للانتقال الى الثانوية، ولكني نجحت وخلاص، وأتذكر جيدا أنني تأبطت ملفي الدراسي، المعنون بـ «سري»، واتجهت لثانوية الشويخ، التي كانت يومها قبلة «خريجي المتوسطة»، واتجهت مباشرة الى غرفة مدير الثانوية، وكان يومها المرحوم سليمان المطوع! سلمته الملف ففتح القيد عنه وقرأه وتأمله وقلب صفحاته، وخلته سيطلب مني العودة في اليوم التالي للانتظام في الدراسة، ولكنه تنهد قليلا ونظر لي وقال لي بالحرف: يا ابني أنت لا تصلح للدراسة عندنا، فعلا مات السلوك عندك منخفضة! لماذا لا تذهب الى جهة أخرى؟ لم أنبس بحرف، وأخذت الملف «السري» منه واتجهت نحو باب الخروج، وكان ذلك آخر عهدي بثانوية الشويخ، حيث لم تطأها قدمي بعدها لأكثر من ثلاثين عاما!

وما ان سمعت بأن مدرسة ثانوية تجارية ستفتح ابوابها قريبا في المبنى السابق لمدرسة المثني، في شارع فهد السالم، حتى التحقت بها من فوري، وقبل طلبي من دون نقاش لأن المدرسة الحديثة كانت تبحث عن الطلبة بأي شكل! درست هناك حتى الصف الثالث الثانوي، ولكن نفسي لم تكن على ما يرام، فطموحي في القيام بشيء ما دفعني للتوقف عن الدراسة، التي لم تكن جدية أصلا، والبحث عن وظيفة ما صباحا وإكمال الدراسة مساء! وما ان بدأت العطلة الصيفية حتى بدأت بالبحث عن عمل، ولا أدري كيف قادتنني قدمي الى بنك الخليج، حيث قبل طلبي للعمل في وظيفة متواضعة جدا، ولم يكن تصنيفي بأفضل إلا من الفراش!

تحملت ذلك، وكلي ثقة بأنني سأثبت لهم مقدرتي، ولكن المفاجأة السيئة كانت بعد انتهاء العطلة الصيفية، حيث تبين أن مدرسة كيفان المسائية لا تعترف بشهادة النهائي للصف الثالث الثانوي التجاري واشترطت علي أن أبدأ دراستي الثانوية من البداية وخسارة السنوات الدراسية الثلاث! احترت فيما عليّ عمله، هل أعود للمدرسة التجارية وأكمل السنة الرابعة وأدخل الجامعة بعدها، أم أبقى في عملي وانسى «التعليم وسنينه»، أم أبدأ الدراسة الثانوية من الصفر؟!

روح التحدي بداخلي تغلبت على كل شيء، وقررت ان اصنع من نفسي شيئاً، وأن اثبت لوالدي أنني جدير بثقته! وهكذا قمت باختصار 24 سنة من عمري في 8 سنوات، حيث اكملت دراستي الثانوية ليلاً ومن بعدها الجامعية، بمساعدة كبيرة من البنك، وبدأت أول مشاريعي التجارية مع اول سنة دراسية مسائية، ولم أتوقف عن العمل المصرفي يوماً واحداً، وبالتالي عملت لثماني سنوات في البنك ودرست لثماني سنوات، ونميت أعمالتي التجارية لثمان ثالثة، وكلها في وقت واحد، وأعتقد انني حققت نجاحاً لم يحققه الكثيرون ممن اختاروا الطرق التقليدية في حياتهم! أعود وأقول انه كان للأستاذ المرحوم أبوحسام، والذي كان لرفضه الالتحاق بمدرسته، الفضل الأكبر، وإن بطريقة غير مباشرة، في كل ما حققته تالياً من نجاح في حياتي.

الإخوان والكوكلوكس كلان

عندما ننظر لشعار الإخوان المسلمين، بسيفيه المشهرين وكلمة «وأعدوا» المأخوذة من آية قرآنية تدعو لمحاربة «أعداء الله» بكل وسيلة، ومنها السيف، نعلم تماما أن كل ما يدعيه هؤلاء من سلمية حركتهم أمر مشكوك فيه، ويتناقض و صلب عقيدتهم. ومن هذا المنطلق من الخطر إشراكهم مباشرة، أو حتى إشراك من يميل لأفكارهم، في مهمة صياغة دستور مصر الجديد. وما ينطبق على الإخوان ينطبق على غيرهم من الغربان، الذين قد يكونون أقل تنظيما وعددا، ولكنهم حتما أكثر تخلفا! يقول الزميل المصري كمال غبريال بما معناه أننا إن أردنا دستورا ينقلنا من التخلف إلى حضارة العصر، فربما علينا أن نوكل كتابته لأمة أخرى تعيش الحاضر وقيمته، فصيافة دستور بواسطة القوى والتيارات السياسية الحالية، وفي غياب رؤى مستقبلية واضحة وحداثية بحق، يجعل الصياغة تحصيليا حاصلا، ولن ينتج إلا دستور عاجز عن نقل مصر حضارياً، وإلى واقع عالمي عجزت طوال عقود وربما قرون عن الانتماء له، بل وناصبته العداء، باعتبار الحضارة المعاصرة تهدد بسلب هويتنا، ولا تتناسب مع خصوصيتنا، تلك التي نراها فريدة، مما يستدعي الحرص عليها، بأكثر من حرصنا على حاضرنا وعلى مستقبل أولادنا وأحفادنا. ويقول ان من الضروري تنحية أي تأثير لرجال الدين، بكل تياراتهم، على عملية صياغة الدستور لكي لا يجهض أهم ما تحقق في 30 يونيو، وهو السعي نحو تأسيس دولة علمانية، فما قد يعجز هؤلاء المتعصبون عن تحقيقه بخناجرهم ومتفجراتهم، يمكن أن يحققوه بتواجدهم ضمن لجنة الصياغة، حتى لو كان فردا واحدا. فبدون «الفرز» و«التطهير» يتحول الوطن لساحة من النفايات تسعى فيها العقارب والثعابين. ألم تطارد إيطاليا المافيا، وتطارد أميركا كوكلوكس كلان، كما يطارد العالم كله الآن تنظيم «القاعدة»، فلماذا يحرم على الشعب المصري وحده تطهير صفوفه بدعاوى ظاهرها الرحمة وباطنها سموم قاتلة؟ ويقول الزميل ان العالم الغربي أضر بقضية الحداثة في مصر أبلغ الضرر، فرغم أياديه البيضاء على الإنسانية بعامه، وعلى الدول المتخلفة كمصر، فإن شيوع أيديولوجية العروبة والإسلام السياسي، بما جلبا من نظرية المؤامرة، شاع تصور شيطنة الغرب، وكان أمل المستيرين في المنطقة مجيء فجر الحقيقة، لتتجه بالشعوب نحو قبلة الحضارة الغربية الإنسانية، مخلفة وراءها مستنقعات التخلف، أما وقد اختارت إدارات العالم الغربي تقمص دور الشيطان في مواجهة الشعب المصري، فلا

حيلة لنا نحن دعاة الحداثة إلا أن نرفع راية الاستسلام، مؤقتاً على الأقل، وأن نحارب الإرهاب وحدنا متحدين إرادة السادة القابعيين في سائر العواصم الغربية. وبمشاركة فصائل الإسلام السياسي في العملية السياسية، نتجه للوضع السابق نفسه، وهو وضع «اللاحسم»، لتبقى مصر تتأرجح مكانها دونما قدرة على التقدم للأمام، أو التقهقر لغياب عصور التخلف. ومشاركة المتخلفين مرفوضة حتى لو تعهدوا بالالتزام الديموقراطية والمواطنة، فهذا قول غير معقول، وهم لن يتخلوا عن أفكارهم الجهادية ابداً! ومن يقل غير ذلك فهو يخدع نفسه قبل أن يحاول خداع أو تضليل غيره. فالخلاف يتعلق بوظيفة الدولة، فالقوى المدنية ترى أنه عليها تنظيم العلاقات بين المواطنين، أما الدولة الدينية فترى أن الدولة عليها الاهتمام بكل شيء من آداب دخول المرحاض إلى اشتراطات دخول الجنة! تلك هي المشكلة وليس مجرد الخلاف حول الديموقراطية وتبادل السلطة وما شابه.

قصتي مع السفير الهندي

يغادرنا بعد أيام سعادة ساتيش مهتا، سفير الهند العظيمة، بعد انتهاء مهمته، الذي نتمنى على حكومته أن تعين مكانه من في مستواه المهني والخلقي، فقد كان السفير مهتا أفضل سفير هندي عرفته الكويت منذ سنوات طويلة، فإليه يعود الفضل في تجذير علاقة الكويت بالهند وتجميلها، من خلال الكثير من الأعمال الرائعة التي قام بها. وبهذه المناسبة لا أجد بأسا من إعادة صياغة مقال كتبته قبل سنوات عن حادثة طريفة تعرضت لها، عندما دعيت، وما يقارب الثلاثين دبلوماسيا، لحفل عشاء أقامه الصديق محمد ميرشنت، عندما وجدت نفسي في زاوية مع سفير الهند، الذي بادرنى بالسؤال عن نشاطاتي التجاري، ربما لأنه وجدني المواطن الوحيد في ذلك الجمع، وغير الدبلوماسي أيضا، بخلاف المضيف! قلت له بأنني كنت دائما اتوق للقاء من يشغل منصبه الرفيع لسؤاله عن السبب في هذا الاختلاف الكبير بين شعبي الهند وباكستان، بالرغم من أنهما عاشا في وطن واحد لآلاف السنين؟ وقبل أن استمع لإجابته، بادرت قائلا بأنه يسعدني كذلك أن أبين له بأن علاقتي بالهنود تعود لأكثر من نصف قرن عندما أحضر لي والدي مدرسا هنديا لتعليمي الإنكليزية، ولكني لم استفد منه كثيرا بسبب انشغالي بمباراة الكرة التي كانت تقام، في وقت الدرس نفسه في الساحة المقابلة لبيتنا. ولكني تعلمت الإنكليزية أكثر من الموظف الهندي الذي كان يعمل لدى والدي في حينها. وعندما بلغت الثامنة عشرة تقريبا، قررت ترك الدراسة والعمل في أحد المصارف، وهناك وجدت نفسي وسط عشرات الموظفين الهنود، وانني، يا سعادة السفير، والكلام لا يزال لي، تعلمت الكثير منهم، وتحسنت لغتي الإنكليزية نتيجة مخالطتي المستمرة لهم، كما نتج عن ذلك زيادة مهاراتي الوظيفية، وبالتالي تدرجت في عملي بشكل سريع بفضلهم. وبالرغم من أنني أصبحت خلال سنوات قليلة رئيسا لرؤساء من كانوا يوما رؤسائي، إلا أنني، والحق يقال يا سعادة السفير، لم أجد من أحد منهم بغضا أو حسدا. كما قمت يا سيدي قبل 25 سنة بتأسيس شركة مع ثلاثة هنود ينتمون لديانات متعددة، ونجحت الشركة بفضل إخلاصهم، ولم يحدث أن أحدا من موظفي أو عمال الشركة خان الأمانة أو بدر منهم ما يسيء، طوال هذه السنوات. وسردت للسفير تفاصيل كثيرة وختمت كلامي قائلا: وهكذا ترى أن علاقتي بالهنود تمتد لأكثر من نصف قرن، كنت خلالها دائم الثقة بهم وبقدراتهم، وهذا ما لم أكن أشعر به مع أبناء عموماتهم من الباكستانيين! وذكرت له تجاربي

المريرة مع بعض هؤلاء، وسوء سمعتهم، بشكل عام، وكيف ان مخالفاتهم، التي حل اليوم البنغال محلهم في ارتكابها، كانت دائما مصدر إزعاج لسلطات الأمن. كما أن جرائمهم المالية على مستوى العالم كانت أكثر من معروفة، وخاصة حادثة إفلاس بنك bcci، التي تسببت إدارته الباكستانية في خسارة أوظيفي لأكثر من 10 مليارات دولار، غير خسائر أطراف أخرى كثيرة. وسألته عن السبب في هذا الاختلاف الشاسع بين «أخلاق» الشعبين بشكل عام؟ وقبل ان يجيب رن جرس الباب وأعلن المضيف عن وصول سفير الهند! فنظرت لمحدثي وسألته عمن يكون، فقال ببرود تام بأنه سفير باكستان!

عتق رقبة

لم تُحرّم أي من المذاهب الإسلامية، أو «علمائها» الرّقَّ علانية، فقد امتلك المسلمون طوال تاريخهم - من مجاهدين أو أثرياء - بشراً بصورة عبد أو أمة، ومن أي جنس أو لون كان! وقد كان شراء البشر وبيعهم، أمراً مقبولاً به طوال التاريخ الإسلامي، واستمر العمل بهذا النظام اللانساني في منطقتنا حتى وقت قريب، ولا يزال مستمراً في دول عدة، وقد كان لبريطانيا «العظمى»، وليس غيرها، قصب السبق في محاربة الرق عالمياً، ولولا جهودها المبكرة لكان الرق لا يزال سائداً في أجزاء كثيرة من عالمنا. وأتذكر جيداً، عندما كنت أعمل في أحد المصارف في ستينات القرن الماضي، أن بعض زملائي في البنك، من غير الكويتيين، كانوا يأتون إلي، وأمارات الدهشة بادية عليهم، بشيكات صادرة لمصلحة: فلان «تابع» فلان الفلاني! وكانوا يتساءلون عن معنى «تابع»! ويبدون استغرابهم لوجود بشر أرقاء! وبالتالي، كان الرق معمولاً به في الجزيرة العربية حتى فترة متأخرة من الستينات. وقد نشرت القارئة رباب خاجة، على موقعها، وثيقة نادرة تعلقت بعقد بيع جارية مقابل بضعة ريات سعودية، مما يعني أن الأمر كان يتم علانية، وطبقاً لأعراف وقواعد ثابتة. وعلى الرغم من أن الشريعة الإسلامية دعت إلى عتق العبيد في حالات معينة، فإن الوضع بمجمله كان مأساوياً، حيث كان العبيد يُعاملون بقسوة شديدة، وربما كان ذلك وراء قيامهم بثورة الزنج عام 869، التي قمعها العباسيون بعد 14 عاماً.

وعلى الرغم مما يعتقده البعض من أن الرق يرتبط مباشرة بلون البشرة، فإنه ومن منطلق الشريعة، لم يكن مبنياً على عرق أو لون، فقد كانت غالبية الجوّاري - مثلاً - من البيض. وكانت تجارة الرقيق عند العرب نشيطة، خاصة في مناطق شمال أفريقيا وشرقها، ولكن هذا النشاط تضاءل مع نهاية القرن الـ 19 مع اشتداد ضغوط بريطانيا، وتالياً فرنسا، ولكن لا تزال هناك دول تمارس فيها العبودية، في الوقت الحاضر، مثل تشاد والنيجر ومالي والسودان، وموريتانيا، كما ورد في تقرير صادر عن الأمم المتحدة أن كثيرين مارسوا تجارة الرقيق خلال حروب البوسنة وكوسوفو وأفغانستان وهايتي وكولومبيا، وبروندي. والسبب وراء استمرار الوضع أن نسبة كبيرة من المستفيدين منه، كانوا إما تجاراً وأما سياسيين، وبعضهم برروا الأمر بموقف الشريعة المتساهل منه.

نبوءة الأستاذ جاد والمتنبى

هذا المقال يتعلق بما نسبت، في مقال سابق، من أبيات شعر للمتنبى، واكتشف الكثير من القراء خطأ ما ذكرت، وكتبوا واتصلوا، كتابيا وهاتفيا، يلفتون نظري الى ما ارتكبت من «خطيئة». وقد أعادني الموضوع لواقعة طريفة حدثت قبل أكثر من نصف قرن، عندما كنت في المرحلة المتوسطة. كان مدرس العربية، الأستاذ جاد، دائم التجهم، وقد حذرني مرارا من أنني سأسقط في مادته إن بقيت مصرا على عدم حفظ بيت شعر واحد من المقرر، وأن الاكتفاء بعلاماتي الممتازة في الإملاء والإنشاء ليس كافيا. ومن منطلق محبته لي، لأنني كنت أحرر مجلة الحائط، وأساعده في عمله في المكتبة، فقد غششني وأخبرني بأن امتحان اليوم التالي في الشعر سيكون في قصيدة للشاعر امرئ القيس، التي يقول فيها واصفا فرسه: مكر مفر مقبل مدبر معا.. إلخ! سهرت الليل، وحفظت أبياتها القليلة، وفي صباح اليوم التالي وقفت لألقي القصيدة، ولكن صياح الطلبة ارتفع مطالبين المدرس بإعفائي من الإلقاء، لأنني لا أحفظ الشعر! كبرت في رأسي، وجلست مدعيا عدم الحفظ، لكي لا «أفشل» زملائي! وهنا نظر لي الأستاذ جاد بأسف، وقال: الله يخرب بيتك! أنت حتاكلها في يوم على دماغك من الشعر! وبعد 50 عاما تحققت نبوءة الأستاذ جاد، و«خربتها» بجدارة في مقال «المتنبى.. الحب والفخر»، الذي كان يجب أن يكون عنوانه «أجمل أشعار العرب»، وبدلا من ذلك نسبت الأبيات جميعها لأبي الطيب. وبالرغم من تبرع اصدقاء وقراء للفت نظري الى نسبة هذا البيت أو غيره لهذا الشاعر أو لغيره، فإن الأستاذ محمد المنيع كان الوحيد الذي بذل جهدا في البحث عن قائل كل بيته ورد في المقال، وكانت الحصيلة، على ذمته، كالتالي: أغرك مني ان حبك قاتلي، هي من معلقة لامرئ القيس. وما عجبني موت المحبين في الهوى، لعروة بن حزام. ولو كان قلبي معي ما اخترت غيركم، لعنترة بن شداد. فيا ليت هذا الحب يعشق مرة، لقيس بن الملوح. واني لأهوى النوم في غير حينه، لقيس لبنى. ونقل فؤادك حيث شئت من الهوى. لأبي تمام. واذا ما رأيت عيني جمالك مقبلا، للشاب الظريف. وأحبك حبين حب الهوى، لرابعة العدوية. وقفني ودعينا قبل وشك التفرق، لصفى الدين الحلي. وضممتك حتى قلت ناري قد انطفئت، لقيس بن الملوح. فقلت كما شئت وشاء لها الهوى، لأبي فراس الحمداني. وان حكمت جارت عليّ بحكمها، لأحمد بن محمد بن عبدربه. وقتل الورد نفسه حسدا منك، لبشارة الخوري. وأخيرا: اعتيادي على غيابك صعب، وقد تسربت في

مسامات جلدي، البيتان لنزار قباني.
الأمر الطريف الآخر أن الخطأ في ذلك المقال كلفني ساعة في كتابة هذا
المقال، وساعة تقريبا للرد على عشرات رسائل الإنترنت. كما أن المكالمات
الهاتفية، كلفتني في النهاية، وأنا خارج الكويت، أكثر من 25 ديناراً!

لا تكن خاضعاً

بالرغم من أن العبودية، بمعناها الديني، قد اختفت من حياتنا، فإنها تمارس بطريقة أو بأخرى في الدول الفقيرة أو التي طحنتها أو ما زالت تطحنها حروب عرقية! ولكننا كأفراد نمارس جميعاً نوعاً أو آخر من العبودية مع أنفسنا، وذلك عندما ندخل الرتابة الصارمة على حياتنا، أو ندمن على فعل أمور سيئة أو حتى جيدة. فالإدمان على التدخين، أو تعاطي المخدرات، هو نوع من الخضوع لطبع أو عادة وهي عبودية، كالشراهة في الأكل. وهناك، أيضاً، عادات نصف سيئة كالجلوس ساعات أمام التلفزيون، أو قضاء ما يماثل ذلك في اللعب على الإنترنت، ومشاهدة التلفاز من البرامج. وبالتالي، من الحصافة التخلص من العبودية لأي عادة كانت.

ولكن ماذا عن العادات الجيدة؟ هنا الأمر يختلف في درجة العبودية، فالإدمان على عادة جيدة قد تكون له مضاره، أو جوانبه السيئة. فالتعود على الخلود إلى النوم في ساعة مبكرة، هو بسوء التعود على السهر نفسه، فكلاهما نوع من العبودية التي يجب أن نتدرب على التخلص منها! فقد تضطربنا ظروف الحياة إلى أن نسهر، ولكن عبوديتنا للنوم المبكر تمنعنا من ذلك، أو العكس! وهناك من لا يستطيع النوم دون سماع صوت راديو أو تلفزيون! وآخرون لا يستطيعون النوم إلا في غرف هادئة! ولكن ما الذي سيفعلونه لو تغيرت الظروف؟ هنا سيعانون كثيراً قبل التعود على الوضع الجديد. كما أن هناك عبيداً للقهوة، من الذين ليس بإمكانهم التحدث مع أحد أو القيام بشيء صباحاً قبل تناول رشفة منها، وغالباً مع سيجارة.

وقد درّبت نفسي، على مدى السنوات القليلة الماضية، على التخلص، ما استطعت، من عبوديتي لأي عادة سيئة كانت أو جيدة. فقد اعتدت مثلاً منذ صباي على القراءة قبل النوم. وكانت فكرة الذهاب في «رحلة» إلى الصحراء، بالرغم من جاذبيتها، تقلقني كثيراً، لأن معناها أنني سأحرم من النوم السهل بسبب صعوبة القراءة في خيمة غير مجهزة لمطالعة كتاب. وقد بقيت هذه العبودية معي طويلاً إلى أن وجدت نفسي يوماً في غرفة فندق في لندن، وفي يوم أحد، والوقت متأخر، وتبين لي أنني نسيت أن أحضر معي كتاباً، كما هي العادة، ولم أجد شيئاً يساعدني على الخلود إلى النوم غير استعراض أسماء سكان لندن من خلال دليل الهاتف بصفحاته الألف!

ما ينطبق على الاعتياد على القراءة قبل النوم ينطبق على عادة النوم في غرف

معتمدة، أو مضاعة، هادئة أو صاخبة. وعليه من الأفضل أن نكسر أو نغير روتين حياتنا، بقيام المدمن على قهوة الصباح، مع قراءة هذا المقال، بتخصيص يومين أسبوعياً مثلاً دون قهوة ولا مقال لنا، أو لغيرنا. وهكذا مع عادة الخروج من البيت في ساعة أو دقيقة محددة، أو ضرورة ممارسة الرياضة كل يوم، أو تحديد وقت لا يتغير لتناول وجبات الطعام، وغير ذلك، فهذه كلها تجعلنا عبيداً لعادات، بصرف النظر عن طبيعتها، ومن الأفضل الاحتفاظ بالجيد منها، ولكن بعدم الإذعان لها، لتصبح الحياة أكثر تنوعاً، وأقل رتابة ومللاً!

السيدة هيل والاجتهاد

سكنت في ستينات القرن الماضي في لندن عند السيد والسيدة هيل، وكنت أدفع لهما مقابل المبيت ووجبتي الإفطار والعشاء. وبالرغم من أن المسز هيل كانت وقتها قد تجاوزت الثمانين من العمر، فإنها كانت تتمتع بصحة جيدة، ولم يكن طبخها سيئاً، كإنكليزية نموذجية «وهي ترجمة غير دقيقة لكلمة» Typical ! وفي يوم عطلة، انتهزت خروج السيدة هيل لشراء حاجيات البيت، وقررت مفاجأتها بتنظيف صالة المعيشة وممرات الشقة! كما قمت بالتخلص من القمامة، ورمي ما تركته من موز أسود على رف المدفأة! عادت المسز هيل بعد ساعة، ونظرت إلى نظافة البيت وانفجرت أساريرها عن ابتسامة مقتضية، ولكن ما إن وقع نظرها على رف المدفأة ولم تر الموز، حتى اختفت ابتسامتها، فنظرت لي متسائلة، فقلت لها إنه كان أسود وعفنًا ويكثر عليه الذباب الصغير، فرميته في كيس الزباله! فاستنكرت عملي، وقالت بصوت كالزئير، ما كان يجب عليك أن تفعل ذلك، فأنا لم أطلب منك أن تنظف بيتي في غيابي! لقد انتظرت لأسبوعين لكي ينضج ذلك الموز «اللعين»، ليكون بإمكانني الاستمتاع بتناوله من دون «طقم أسناني»!

حينها تذكرت المثل القائل: «ما كل مجتهد، مصيب»!

أكتب بانتظام، ومنذ فترة طويلة، مقالاً يومياً. وكوني ضعيفاً نسبياً في اللغة العربية، خصوصاً في ما يتعلق بقواعد الإملاء والنحو، فإن الكتابة بالنسبة لي ليست بالنزهة أو العمل الذي يمر بلا عناء، فقد كنت طوال حياتي إما مصرفياً، وإما رجل أعمال، ولم تكن لي يوماً علاقة بالأدب أو الصحافة. وبالتالي، ليس غريباً أن تبدر مني أخطاء، والعكس أقرب إلى الصحة! فليس كل مجتهد مصيباً، وبالرغم من عدم ضيقي بما يردني من نقد وعتاب، وحتى سباب، لخطأ ارتكبته في مقال هنا أو هفوة بدرت مني في مقال هناك، فإن القلة ربما لا تريد أن تعترف بأن الطريقة الوحيدة لعدم الوقوع في أي خطأ هو في عدم القيام بأي شيء، وهذا ما لا ننوي، حالياً على الأقل، الإقدام عليه، وبالتالي ستستمر هفواتنا وتتواصل أخطاؤنا، ولا نريد، ممن لديهم الوقت و«المقاقة» من القراء، غير لفت نظرنا إلى أخطائنا وهفواتنا، خصوصاً أننا نشعر بأن ما نقوم به من كتابة يومية لا علاقة له بصياغة أدبية بقدر ما هو قول رأي يمثل وجهة نظر شخصية، أو فكرة تدور في بال كاتبها، أو خاطرة تستحق أن تروى، وقد يكون في ما نكتب الكثير من الدقة أو العكس، فمن الاستحالة، بالنسبة لي على الأقل، أن أكتب 300 مقال سنوياً، وتكون جميعها خالية

من السقطات والهفوات، أو «ما تخرش المية»، كما يقول المثل المصري! ونكرر، «ما كل مجتهد مصيب»، خصوصاً أن أغلبية من يكتبون لي منتقدين نادراً ما تخلو ردودهم من سقطات وهفوات لغوية وتاريخية عجيبة، ولكن غالباً ما يمنعني أدبي من الرد عليهم!

جرائم الكهنة والخمس

انتقدت لجنة حقوق الطفل التابعة للأمم المتحدة، للمرة الأولى في تاريخ المنظمة الدولية، الفاتيكان، الصرح الكاثوليكي الأكبر، والذي يتأثر به أكثر من مليار مسيحي، لدوره المخجل في حماية الكهنة والتغطية على جرائم اعتداءاتهم الجنسية على الأطفال، العاملين معهم أو الموجودين في كنفسهم، وكيف أن هذه الحماية جعلت من قضية الاعتداءات أمرا روتينيا، وزادت من اتساع نطاقها لتشمل دول العالم أجمع، وليصبح ضحاياها بعشرات الآلاف. كما طالبت اللجنة البابا فرانسيس شخصيا بالتدخل وتخليص الكنيسة من رجال الدين المتورطين بمثل هذه الجرائم، أو الذين حامت الشكوك حولهم. كما انتقدت اللجنة رفض الفاتيكان الإفصاح عن أسماء الكهنة المدانين، أو حتى الكشف عن خططها المستقبلية المتعلقة بالقضاء على مثل هذه الجرائم، أو حتى الحد منها. ويحدث ذلك بعد اتساع نطاق المتورطين في مثل هذه الجرائم، وقدمها التاريخي، وكأنها إرث لا يمكن التخلص منه!

ما يهمنا تأكيد هنا أن أي سلطة دينية كانت أو مدنية مطلقة لا يمكنها مقاومة إغراءات الانحراف، فهذا من طبائع الأمور. فكل سلطة مطلقة هي فاسدة ومفسدة حكما، متى ما غابت الرقابة عنها. كما تبين هذه الحادثة، غير المسبوقة، والتي أجبرت المنظمة الدولية لتوجيه النقد لصرح ديني هو الأكبر في العالم، ان كل سابق اتهاماتنا لها بعدم الحيادية لم تكن دقيقة دائما، وخاصة ما تعلق منها بانتهاكات الكثير من دولنا، إن لم يكن كلها، لحقوق الإنسان فيها. كما بين انتقاد المنظمة للفاتيكان أن المؤسسة الدينية ناد مغلق على أصحابه، وثوب السرية، النابع من القدسية، الذي تسعى جاهدة للتستر وراءه، يجب ألا يمنع أي جهة من توجيه النقد لها ومراقبة أنشطتها ومتابعتها، فهي لا تمثل إلا نفسها، وليسوا وكلاء الله على الأرض!

نعم هناك خراب أخلاقي كبير في العديد من المؤسسات الدينية غير الإسلامية، ولكن مجال النقد الكبير المتاح سيعدل في نهاية الأمر من أوضاعها، أو على الأقل يقلل ما بها من فساد إداري وأخلاقي ومالي، ولكن هل تسمح المؤسسات المماثلة لدينا بمثل هذا النقد؟ وهل ثمة من يقبل الإقرار بفساد المؤسسات الدينية لدينا، وانحراف القائمين عليها، أو السؤال عن موازنة الأزهر مثلا، أو التساؤل عن مصير ما يجمع باسم «الخمس»، والذي ربما لا يعرف غالبية من يجمع باسمهم، إلى أي جيب ينتهي؟

كرتون خوخ.. مع «مشمش»

لفت البض نظري لخطأ ورد في مقال سابق، عندما قمت بالخلط بين ثمرة الخلال، أو البلح باللهجة الكويتية، وبين الكنار، وهي ثمرة صحراوية شهيرة. هذا الخلط بين التسميين ذكرني بقصة طريفة أخرى، سبق أن تطرقت إليها في هذه الزاوية، قبل سنوات، ولا ضرر من إعادة الكتابة عنها لمدلولاتها العديدة، اجتماعيا وسياسية وأخلاقيا، وطرافتها، التي تبين كيف كانت، ولا تزال تدار، الأمور في أوطاننا، وهي قصة حقيقية روتها لي الصديقة «روينا إسحاق»، التي كانت تعمل مساعدة تنفيذية لصديق كان يعمل في بنك الخليج، وكان ذلك في الثمانينات، وهي تعيش الآن منعمة في وطنها الغربي الجديد.

تقول رويانا - نقلاً عن قريب لها كان يعمل سائق أجرة، وكان معروفاً بمهارته وإخلاصه في عمله - إن أحد محافظي العراق، في عهد صدام وبقيّة اللّثام، اتصل بمحافظ آخر، لأمر مان وقبل إنهاء المكالمة قال الأول للثاني بأنه سيرسل له كرتون خوخ مع مشمش. وصل السائق إلى بيت المحافظ، الثاني، وكان الوقت عصر يوم خميس. فتح له المحافظ الباب بنفسه، وسأله عما يريد فسلمه هذا كرتونا يحتوي على الخوخ، فسأله إن كان هناك شيء آخر، فنفى السائق ذلك. وهنا طلب منه الانتظار، ودخل بيته واتصل بالمخفر، وما هي إلا لحظات حتى حضرت سيارة شرطة واقتادت السائق الأشوري إلى الاعتقال دون كلمة من أي طرف.

بعدها بعشرة أيام تقريباً اتصل المحافظ الأول بالثاني لأمر ما، وسأله، في سياق الحديث، إن كان استمتع بالخوخ، فشكره الثاني عليه، ولكنه أردف قائلاً إن الهدية وصلت ناقصة، حيث سرق السائق «البواق» كرتون المشمش، ولم يسلمه إلا الخوخ! وهنا انفجر المحافظ الأول ضاحكاً، وقال إن «سوء فهم» قد حصل، وإنه لم يرسل إليه مشمشاً، بل كان يقصد أنه سيرسل له كرتون موز مع السائق الأشوري مشمش، وكان اسمه الغريب مصدر شهرة!

كان من الممكن أن يبقى مشمش المسكين في سجنه حتى اليوم، دون أن يعرف لا هو ولا أحد غيره سبب سجنه، لولا المكالمة الثانية التي كانت نتيجتها إطلاق سراحه.

ذكرتني هذه الطرفة بأخرى تتعلق بزوجة دكتاتور عراقي - وما أكثرهم، سمعت بمدرس لغة إنكليزية مميز، فطلبت من زوجها أن يفصله من عمله، ويلحقه بالقصر الرئاسي ليقوم بالتفرغ لتدريس أبنائها اللغة الإنكليزية! وهنا اتصل الدكتاتور

بسكرتيره وقال له بلهجة آمرة: «ابحثوا عن مدرس اللغة الإنكليزية فلان، وافصلوه من عمله، وأحضروه لي!

بعدها بأيام ذكرت الزوجة الدكاتور بأن المدرس لم يصل، فقام هذا بالاتصال، غاضباً، بسكرتيره وصاح به: وين هذا المدرس؟ فرد السكرتير قائلاً، بكل ثقة: لا تدير بالك يا سيدي، لقد وجدناه، واعترف تحت التعذيب أنه جاسوس لإيران، فتم إعدامه!

الاحتفاظ بالكيكة وتناولها

يقول المثل الإنكليزي You cant have the cake and eat it! أي، ليس بالامكان الاحتفاظ بالكيكة وتناولها، في الوقت نفسه!

هناك دول متحضرة، وأخرى غير ذلك. وداخل هذه الشعوب توجد مجتمعات لا تنتمي في حضرتها أو تخلفها للسواد الأعظم، ومن هؤلاء مثلاً أقلية «الأبوريجينز»، أو مواطنو أستراليا وغيرها، الذين يرفضون كل أشكال الحياة العصرية، بتطرفها وتحضرها، وبقيت على سابق أسلوب حياتها. وبالتالي ليس هناك عقائد دينية متحضرة وأخرى غير ذلك، فليس هناك حضارة إسلامية وأخرى يهودية أو بوذية أو هندوسية، بل هي عقائد، متعددة المصدر، وجدت من أجل وضع نظام حياة معين لمجموعة من البشر، وبالتالي لا علاقة للدين ببناء الحجر أو تطوير الثقافة أو زيادة الإبداع وتشجيع الاكتشاف وتطوير الاختراع. ولكن مع هذا يطيب للبعض الادعاء بالقول ان هناك حضارة إسلامية، وهذا حلم أو تمن تدحضه الوقائع، والأفضل القول انه «كانت» هناك حضارة في «دار إسلامية»، كما كان المفكر الكويتي الراحل أحمد البغدادي يميل للقول. والدليل أنه في أوج وصول الإسلام لمنجزاته الفكرية والعلمية، كان الدين نفسه منتشرًا في مناطق شاسعة، ولا يزال، ولكن علامات الحضارة، أو منجزاتها لم تظهر إلا في مناطق محددة، كبغداد العباسيين، وإلى حد ما أندلس الأمويين، ولأسباب وظروف معينة، ولم تشمل المكان الذي كان أساساً حاضنة الإسلام، كدين وعقيدة.

ويقول المفكر المصري سيد محمود القمني: إذا كان المقصود بالحضارة الإسلامية كوكبة العلماء الذين ظهروا في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فإنه لم يكن بينهم عرب غير الكندي، وكان فيلسوفاً متواضع القدر. ولم يكن ظهور تلك الكوكبة بسبب الدين أو علاقة إقامته لحضارة، وإلا كان من الضروري أن يظهروا مع ظهوره، وفي مكان ظهوره، لا أن يظهروا في زمن بعينه، ثم يختفوا باختفائه! فما أنتج تلك الكوكبة من العلماء هي ظروف ذلك الزمن بالتحديد، وهي التي أنتجتهم، وليس العقيدة ولا العرق ولا تقاليد العرب. فقد كان الزمن زمن انفتاح حضاري على حضارات العالم القديم بالترجمة والنسخ والإضافة. زمن ذهبي لإمبراطورية قوية لا تخشى على نفسها من الأجنبي، فتحت بلاطها للمستشرقين فجعلوه مكاناً «حراً» للعلم بصنوفه، والشعر والموسيقى والأدب، وهذه البيئة المنفتحة هي التي أنتجت، ولكن كل ذلك انتهى وذهب علماء ذلك الزمن، دون رجعة، عندما اغلقت

أبواب الحرية، وبقي الدين قبلها واثاءها وبعدها، رغم كل عيوب الانفتاح والفجور. ويبدو أن البعض في دولنا يحاول الاحتفاظ بالكيكة وتناولها في الوقت نفسه، وهذا لا يمكن أن ينجح. أما الذين لا يحاولون اصلا القيام بأي شيء، وهم الأغلبية، فمآلهم الفناء. إضافة إلى ذلك فإن جزءا كبيرا من المسلمين يعتبروا العصر العباسي، بكل منجزاته، عصرا كافرا، ويعتبروا جميع علمائه كفرة، والدليل أن غالبية كبار علماء دار الإسلام قتلوا وعذبوا بطرق شنيعة جدا.

«مولر» ودارون، والإنسان القرد

يعتبر العالم الإنكليزي «شارلز دارون»، أحد أهم الشخصيات في التاريخ البشري، وأحدث كتابه «أصل الأنواع» ثورة في عالم الأحياء، وهزة عقائدية عميقة في الكنيسة. وكانت أكبر التحديات التي واجهت نظرية بعدها بسنوات طويلة ما توصل اليه العلم في اواخر القرن الماضي عن دور الحمض النووي في الوراثة genetics حيث أصبح بالإمكان إخضاع النظرية المثيرة للجدل لاختبار حاسم يثبت صحتها أو فسادها.

فمن المعروف أن كل خلايا الكائنات الحية تحتوي على كروموسومات، وهذه عبارة عن قطع كثيفة من الحمض النووي DNA، وهي الوعاء الذي يحتوي على صفات الكائن الحي. فخلال عملية التكاثر البشري وغير البشري، تتضاعف كروموسومات كل واحد من الوالدين، لدى الجنين، وتختلط أجزاؤها وتتكون كروموسومات جديدة لدى الجنين. ومن أكثر المواضيع حساسية في نظرية أصل الأنواع ذلك الشق المتعلق بموضوع السلف المشترك بين القرد والإنسان، خاصة بعد أن أثبت العلم اختلافا بين عدد كروموسومات القرد العليا، كالشمبانزي والغوريلا، التي لديها 24 زوجا والإنسان الذي لديه 23 زوجا فقط. ولو كان الإنسان والقرد من أصل مشترك، كما يقول معارضو نظريات دارون بتهكم، لكان من المفترض ان تتساوى أعداد كروموسومات الطرفين.

وفي شهادة شهيرة أدلى بها العالم مولر Muller أمام إحدى المحاكم التي شكلت للبت في هذا الموضوع الجدلي، وإيجاد تفسير علمي للتناقض في عدد الكروموسومات لدى الإنسان والقرد، قال ان العلماء اكتشفوا من واقع ماضي الإنسان التطوري المدفون في الكروموسومات التي يحملها كل البشر بأن في طرفي كل كروموسوم علامات وراثية خاصة، أو قطعا من الحمض النووي تسمى تيلوميرز Telomeres، وفي الوسط نجد علامات وراثية أخرى تسمى قسيما مركزيا Centromeres، ولو أن طفرات حدثت أثناء التطور البشري وتسببت في انصهار كروموسومين مع بعضهما فإننا يجب أن نجد أدلة في تلك العلامات الوراثة بحيث أن التيلوميرز لا توجد فقط في أطراف الكروموسوم بل وفي الوسط ايضا، وأن نجد في الوسط أيضا قسيمين مركزيين بدلا من واحد. وبعد التجربة العلمية، التي حبس مؤيدو نظرية دارون أنفاسهم خلالها، تبين أن الكروموسوم رقم 2 يحمل جميع علامات انصهار الكروموسومين، التي تنبأ بها العلماء، بفضل فكرة السلف

المشترك، وكلها موجودة في الكروموسوم 2. وهكذا قام علم الوراثة الحديث، وعلوم البيولوجيا الدقيقة، بتأييد نظرية دارون في التطور، وفي أعظم وأدق التفاصيل. كما تبين أنه كلما اقتربت الملاحظة من تفاصيل الجينوم البشري أكثر كانت الأدلة أقوى.

خليفة القنوع

امتلئك خليفة وأدار باقتدار شركة ناجحة مع شريك عربي، وبعد استقرار أعمال الشركة ورسوخ اقدامها، شعر بأن الوقت قد حان ليرتاح على طريقته، وهنا سافر إلى اميركا، واختار ولاية جميلة، اشترى فيها فندقا متوسط الحجم، يقع على منظر خليج خلّاب، وشغل لنفسه الطابق الأخير منه، مستفيدا من خدمات الفندق في التنظيف والطعام وكي الملابس وغيرها.

كان خليفة يحن بين الوقت والآخر لوطنه واهله، فيعود لهم لفترة قصيرة، ولكن مع الوقت أصبح اقل شوقا لهم وأكثر تعلقا بأصدقاء طفولته الذين يأنس بهم، والذين لم تدفعه ظروف الغربية لنسيانهم وتعويضهم بأصدقاء أميركيين أو غيرهم، ولهذا كان يقوم بين الفترة والأخرى بدعوة البعض منهم، حيث يقيم، وغالبا ما كان يتكفل بتغطية كامل مصاريف حلهم وترحالهم. وفي أحد ايام الصيف الحارة والمغبرة في الكويت، تلقى جمع من اصدقائه دعوة جماعية للانضمام له في منتجعه، فلبوا الدعوة من دون تردد، وغادروا الكويت في طائرة واحدة، وما ان استقروا في سكنه الوثير حتى بادره أحدهم بالقول: يا خليفة، لقد أطلقت المكوث في أميركا كثيرا، الا تنوي العودة لوطنك واهلك؟ فرد قائلا بأنه سعيد حيث هو، بعيدا عن اخبار الوطن و«المغثة»، وهو يشعر أنه أدى واجبه، وليس لأحد فضل عليه، وصحبه وأهله دائمو الزيارة له! فقال هذا: ولكن ماذا عن «حلالك»؟ اي أموالك وشركاتك، فقال ان كل شيء بخير ويعمل جيدا، وهنا بادره صديقه بمفاجأة لم يتوقعها، حيث قال له ان شريكه، الوافد العربي، يسرقه، وأن الكثيرين في الكويت يعلمون بأمره، فحياة البذخ التي يعيشها لا يمكن تفسيرها. وهنا نظر خليفة لصديقه، دون أن تتحرك عضلة في وجهه، وسأله بهدوء: هل أنت متأكد من ذلك؟ فرد صديقه بأنه متأكد وان ابنه، الذي يعمل مفتشا في جهة حكومية، أخبره بذلك! فأعاد السؤال عليه، إن كان على ثقة بأن اتهامه صحيح، فرد هذا بهزات قوية من رأسه، تكهرب الجو وسكت الجميع مبهورين من قيام أحدهم باتهام شريك مضيفهم بالسرقة، وكيف انه غافل بما يجري وراءه، هذا غير ما يعنيه ذلك من عدم اكتراث وقلة حرص على ماله. وهنا رفع خليفة سماعة الهاتف، وهو يقول بصوت حازم: سأريكم ما أنا فاعل به. أدار القرص على رقم شريكه في الكويت، وبعد لحظات جاء صوته على الطرف الآخر مُرحبا، وبعد السؤال وكلمات المجاملة، قال المضيف لشريكه: يا «أبو فلان» حوّل لحسابي في بنك أوف اميركا 250 الف دولار

اليوم، شكرا مع السلامة!

وهنا بهت الجميع من الطريقة التي أنهى بها خليفة المكالمة دون عتاب أو اتهام، أو حتى تلميح! فنظر لهم قائلًا، وهم فاغرو الأفواه، انا هنا اعيش في مكان كالجنة وحولي كل ما احب واشتهي وارغب، والطقس جميل والرفقة رائعة والكدر معدوم، وشريكي يعمل ويعاني ويكد في درجة حرارة تقارب الستين والغبار من حوله والكدر بداخله، فمن الذي يسرق الآخر، هل هو الذي يسرق مالي، على افتراض أن الاتهام صحيح، أم انا الذي أسرق صحته وعافيته ووقته، لكي يمول راحتي ومتعتي؟

رجل الألفية

في أول رحلة تجارية للقطرية، من الكويت إلى الدوحة، قدّمت لي المضييفة الفلبينية صينية عليها عدد من كاسات العصير، فاعتذرت عن قبولها بحجة أنها تتعارض وديانتي، فتراجعت المضييفة مرتبكة وخجلة، دونن أن تتطرق بكلمة! ويبدو أنها حكّت لزميلتها الإنكليزية الموقف الغريب الذي تعرّضت له، فقامت هذه وأخذت الصينية منها، وتقدّمت نحوي عارضة عليّ أنواع العصير، فرفضت رأسي واعتذرت لها بكل لطف، قائلًا إن ما تقدّمه يتعارض وعقيدتي الدينية، وهنا أصيبت المضييفة بالقدر نفسه من الدهشة، وتراجعت متلعثمة!

لم تنتهِ القصة هنا، ولكن تكملتها لم تنشر في حينه، وها نحن ننشرها هنا. عادت المضييفة الإنكليزية واجتمعت بزميلتها، وشاركهم الحديث رئيسهم، ورأيتهم يقرأون من ورقة بيضاء، فاستتجت أنهم ربما يطلعون على اسمي الكامل، ليعرفوا ديانتي، كوني المسافر الوحيد في المقاعد الأمامية، وربما فوجئوا بأنه اسم كويتي، فزاد هذا من حيرتهم. وما أن بدأت الطائرة بالتحرك للانطلاق، حتى تقدمت لي المضييفة الإنكليزية ثانية، وقالت لي، وهي حقا مرتبكة، عما غذا كان بإمكانها سؤالي عن ديني، فقلت لها أنني مسلم بالولادة، فتنهدت وقالت، ولكنا يا سيدي لم نقدم لك غير العصائر، وهذه مشروبات حلال، وليست ضد دين! فقلت لها إنها ضد عقيدتي، فأنا مسافر من الكويت، حيث الجفاف يشمل كل شيء، وما أنا بحاجة له هو كأس من الشراب، وليس هذه المشروبات الخفيفة السخيفة. فانفجرت ضاحكة، والدموع تملئ مآقيها.

بعدها بأسابيع كنت في رحلة داخلية في الهند، وكان معي صديق، فرويت له ما جرى معي على «القطرية»، وقلت له إنني سأجرب الأمر ذاته مع المضييفة الهندية، وراهنته بأنها ستصرف بطريقة طبيعية، ولن تدهش لردّي أو تتحرك عضلة استغراب في وجهها، وهذا ما حدث بالفعل، فلم تستكرّ قولّي بأن تناول العصير يخالف عقيدتي، والسبب أن عقائد وديانات شعوب جنوب شرق آسيا عموماً والهند بالذات، تحرم الغريب من الأمور والطريف من التصرفات، وبالتالي لم يكن هناك ما يدهش أو يثير استنكار المضييفة الهندية في إجابتي، فغالبية سكان الهند وتايلند واليابان وغيرها يؤمنون بمئات أو بالآلاف الآلهة، فلا إله يتميز عن غيره، أو على الأقل يستحق الموت في سبيله، بل هو مصدر سعادة وراحة نفسية، وخاصة في الخطوب والملمات!

حكاية صغيرة: اعتدنا، وفي المجتمعات النفطية، والمتخمة بالأموال، التي لا يعرف أصحابها كيفية التصرف بها أو إنفاقها في المفيد من المشاريع، اعتدنا على اعتبار أنفسنا «كرماء»، والحقيقة ليست كذلك بصورة دقيقة، فالغالبية تنفق على المشاريع والأعمال الخيرية بغية اكتساب الأجر والثواب الأخروي، والأمر ليس كذلك في المجتمعات الأخرى، فلا أعتقد أن بيل غيتس أو وارن بافيت مثلاً، واللذين وهبا مليارات الدولارات للأعمال الخيرية والأبحاث الطبية يسعيان للحصول على أجر.

وورد في الأنباء مؤخراً أن مواطناً هندياً يدعى كالاياناسوندرا Mr.Kalayanarasundaram يعمل بوظيفة بسيطة في مكتبة منذ 30 عاماً، كان يتبرع بكامل راتبه، طوال فترة عمله، للمحتاجين. وكان يعيش على ما كان يكسبه من العمل مساءً كخادم في فندق صغير. وعند تقاعده قام بتوزيع نهاية خدمته على الفقراء. واعتبرته الحكومة الأميركية شخصاً فريداً من نوعه، وتقديراً لمواقفه قامت بمنحه لقب «رجل الألفية»، ومبلغاً كبيراً من المال، والذي لم يتردد في توزيع كل روبية منه على المعوزين! وقام ممثل هندي شهير «بتبنيه»، كوالد له، حيث إن كالاياناسودرام لم يسبق له أن تزوج، ولم يكن بالتالي لديه أبناء!

فهل لدينا مثل كرمه؟

النفير الأول

لعالم الفيزياء الأميركي الشهير ستيفن واينبرغ Steven Weinberg الحائز جائزة نوبل «1979» مقولة شهيرة يقول فيها: بعقيدة دينية أو غيرها، هناك في أي مجتمع بشر طيبون يقومون بأعمال طيبة، وبشر أشرار يقومون بأعمال شريرة، ولكن فقط باسم الدين يقوم البشر الطيبون بأعمال شريرة!

الكويتيون، بشكل عام، شعب طيب، أو على الأقل هكذا كانوا لأجيال عدة. وبالتالي يتوقع المرأ منهم أن يتصرفوا غالبا بشكل طيب! ولكن الكثيرين فقدوا، مع زمن الصحوة، بوصلة الطيبة، وتحولوا، بسبب الصراع الديني في المنطقة، لمشاريع عصبية صغيرة، بعد أن نخرت الطائفية في عقولهم، واصبحوا غير قادرين على تمييز الصالح من العاطل، وأصبح الذي يدغدغ غرائزهم الطائفية الظاهرة والمدفونة هو الذي يحظى بأصواتهم ويستحق أن يمثلهم في المجالس والقضايا العامة، حتى لو كان شخصا وصوليا فاسدا!

هنا نجد أن هؤلاء البشر والمواطنين الطيبين يقومون بأفعال شريرة حقا باختيارهم للسيئين ليكونوا ممثلين عن الأمة ومشرعي قوانين البلاد، بحجة أن اختيار هؤلاء، مع كل سوء سيرتهم، مبرر دينيا، وهكذا رأينا كيف نجح المتخفون برداء الدين والطائفية، ومن أي جماعة كانت، بسهولة في كل انتخابات تقريبا، وهذه من مخاطر التعصب الديني، الذي عادة ما يقابله تعصب ديني مضاد، اشد واقسى من الفريق الآخر، ليرد عليهم الفريق الأول بتعصب أشد مرارة.

لا شك أن هناك ما دفع هؤلاء «المواطنين الطيبين» لأن يفقدوا عقولهم، ويرتكبوا أخطاء مميتة باختيارهم لمن لا يستحق الثقة ليكون ناطقا باسمهم، فهناك الكثير من القواعد الإدارية الشفهية، والمواد الدراسية التي تفرق بين مواطن وآخر، وتعامل بعضهم بدرجة أدنى. فعندما تذكر بعض كتب المرحلة الثانوية مثلا ان من يزورون المقابر هم كفرة، فهذا تحريض على فئة محددة ودعوة لقتل افرادها، ولست شخصا منها.

وبالتالي مطلوب من المشرع نزع فتيل الطائفية من خلال إصدار قوانين تجرم التفرقة العنصرية والطائفية بين المواطنين، كتابة وقولا وتصرفا، لكي نقطع الطريق على الأفاقين المتاجرين بالطائفية من الفوز بأصوات من يعتقدون أنهم مغبونون وليسوا أهلا للثقة، وان انتماءهم لهذا الوطن مشكوك فيه.

المؤامرة على النرويج

تقع النرويج أو Norge ضمن الدول الاسكندنافية، ولم تتضرر كثيرا نتيجة الحرب العالمية الثانية، إضافة لموقعها النائي نسبيا، بل وشهد اقتصادها رواجاً بعد الحرب بفضل أسطول شحنها الضخم. وبالرغم من فقر النرويج النسبي فإن وضعها تغير في السبعينات مع اكتشاف كميات كبيرة من النفط والغاز الطبيعي فيها، وتعد اليوم ثالث أغنى بلد في العالم من حيث القيمة النقدية، وثاني أكبر مصدر للثروة السمكية، بعد الصين ويتمتع مواطنوها بنموذج رعاية وتأمين صحي عالمي ونظام تعليم متقدم، وجهاز حكومي يخلو من الفساد.

وضع النرويج يطرح السؤال عن سبب عدم طمع البلدان الاستعمارية الكبيرة بها، فهي غنية وجميلة وصغيرة، وبها ثروات طبيعية هائلة، فمساحتها تبلغ 400 ألف كيلومتر تقريبا، وعدد سكانها بالكاد يتجاوز خمسة ملايين؟ فلم تركتها الدول الاستعمارية لحالها واتجهت لدول الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا وأفريقيا لتحتلها، والنرويج أقرب منها بكثير؟ ولماذا لم تتأمر عليها الإمبرياليات العالمية، وتسلبها ثرواتها وتبيعها أسلح «خردة»، كما نجحت معنا، وبقيت النرويج دولة مستقلة؟

أسباب ذلك لا تعود فقط لقوة شكيمة مواطنيها، وتمتعهم بنظام ديمقراطي وحرية تعبير وتقل وحرية اعتناق أي عقيدة يشاؤون، بل لأنها أيضا احترمت نفسها، وقضت على البطالة فيها واحترمت مواطنيها، وهذه جميعها دفعت بقية دول العالم لاحترام سيادتها واستقلالها. كما أنها، بالرغم من صغر عدد سكانها فإنها كانت دائما تمتلك جيشا قويا واحتياطيا عسكريا مميزا، ولم تعاد في تاريخها الحديث أي دولة.

ما نود قوله هنا، هو كما قال الشاعر المتنبّي «!» «من يهن يسهل الهوان عليه»، فمن دولنا دول كثيرة قبلت بالهوان وقبلت بالمذلة وقبلت بالتبعية، وبالتالي لم يكن صعبا استعمارها واستغلال ثرواتها، وعليه فإن اتجاه الاستعمار لدولنا، وليس لدول كالنرويج، لم يكن فقط بسبب سوء نوايا الدول الاستعمارية، وطمعها في ثروات الدول الأضعف، بل والأهم من ذلك بسبب تفرق رأي دولنا، وتطاحننا في حروب دينية وقبلية وطائفية، بدأت بـ «داحس» ووصلت لـ «داعش»، وبينها فترة لم تتوقف فيها تلك الحروب الأهلية إلا مع قدوم الاستعمار، لتعود وتشتعل مع مغادرته، ولا يبدو أنها ستنتهي في القريب العاجل!

وفي مبادرة تدل على مدى احترام النرويج لعقول مواطنيها، ومن منطلق الشفافية المطلقة، قامت، من خلال موقع <http://t.co/Jc8W5UUQPy> الإلكتروني بوضع عداد يبين، بالثانية، رصيد صندوق أجيالها القادمة، والذي أخذت فكرته من الكويت ومن تجربتها الرائدة مع صندوق الأجيال. ولكن النرويج سرعان ما سبقتنا في الاستفادة من الفكرة، حيث أصبحت تمتلك أكبر احتياطي نقدي في العالم. علما أن إجمالي احتياطيات الصندوق كان في بداية السنة خمسة تريليونات و346 مليار كرونا، وأصبح لحظة كتابة المقال خمسة تريليونات و558 مليار. نعم قلدتنا النرويج، ولكنها تفوقت علينا، ونحن لا نزال نحاول تعلم كيف نعطي أولوية المرور في الدوار للقادم من اليسار!

خطيئة محمد إقبال!

يقول عالم الأحياء «رتشارد داوكنز» إن من أكثر الأمور إثارة للاهتمام ليس وجود خالق، بل وجود كل هذا العدد من المؤمنين. فهناك أكثر من 10000 دين، وأتباع كل منها يعتقدون بأنهم على حق، ويبدو أن كره هؤلاء بعضهم بعضاً هو جزء من الإيمان. وقبل 500 عام تقريباً قام مارتن لوتر، وهو من أكبر المصلحين الكنسيين، بوصف اليهود بأنهم «عائلة من الأفاعي». وطوال قرون كنّ المسيحيون عداءً شديداً لليهود، وأدت تلك الكراهية في نهاية الأمر لمذابح الهولوكوست. وفي 1947 لقي أكثر من مليون شخص حتفهم، وغالبيتهم، ذبحاً، عندما قسمت الهند لدولة للهندوس، وأخرى للمسلمين.

شاع اسم «إقبال» في باكستان، ليس لدور صاحبه محمد إقبال كمفكر وشاعر، بل غالباً لدوره في تحقيق انفصال بلاده عن الهند. ولد إقبال في سيالكوت بولاية البنجاب عام 1877، وانحدر من أسرة كانت تدين بالهندوسية، ولكن أجداده اعتنقوا الإسلام في عهد السلطان زين العابدين عام 1473. بفضل وضع أسرته المميز تمكن إقبال من تعلم الفارسية والعربية في صغره، إلى جانب اللغة الأوردية، والأوردية هي اللغة الهندية نفسها، ولكنها تكتب بالأحرف العربية والفارسية، بينما الهندية تكتب بالأحرف السنسكريتية. وبينما نجد الأوردية متأثرة بالعربية وألفاظ القرآن الكريم، نجد الهندية متأثرة أكثر بالإنكليزية.

ارسل إقبال إلى أوروبا للدراسة، وحصل على الدكتوراه من جامعة ميونخ، ولكن شغفه بالأدب، واهتمامه بأحداث بلاده السياسية في ذروة الصراع الهندوسي المسلم، أبعداه عن مجال دراسته، حيث أصبح من كبار المنادين بانفصال مسلمي الهند في دولة مستقلة، وهو الذي اقترح لها اسم باكستان، أي الأرض الطاهرة «!!». لم يطل العمر بإقبال، حيث توفي عن 60 عاماً في 1938 بعد أن اشتهر شاعراً وملهماً لفكرة الانفصال. وعلى الرغم من أنه يوصف بالمفكر، فإن اللقب كبير عليه، فقد كان سياسياً، ومحامياً ضليعاً، ولكن تأييده لفكرة تقسيم الهند لدولتين، التي أصبحت ثلاثاً بعدها، لم تتسم بالحصافة، فقد تبين تالياً أن الانفصال تسبب في قتل الملايين وتشريد الأكثر، ولا تزال شبه القارة الهندية تشكو من ذلك القرار الأهوج والعنصري، برأيي.

غنت أم كلثوم من شعر إقبال «حديث الروح»، وهي جزء من قصيدة «شكوى وجواب شكوى»، التي نشرت في ديوان صلصلة الجرس، ونقلها للعربية من

الأوردية، الشاعر الصاوي شعلان، علما أن غالبية اشعار إقبال، إن لم تكن كلها، كتبت بالفارسية، إلا قصيدتي شكوى «1909» وقصيدة جواب شكوى «1913»، والتي كتبت بالأوردية، التي يعتبرها بعض الباحثين بين روائع الأدب العالمي، وسبق أن أثارت لغطا كبيرا بين مواطني الشاعر في حينه.

يقول في بعض أبياتها:

حديث الروح للأرواح يسري

وتدركه القلوب بلا عناء

هتفت به فطار بلا جناح

وشق أنينه صدر الفضاء

ومعدنه ترابي ولكن

جرت في لفظه لغة السماء

لقد فاضت دموع العشق مني

حديثاً كان علوي النداء

فحلّق في رُبى الأفلاك حتى

أهاج العالم الأعلى بكائي.

اليوم اليوم.. وليس غداً

لن أندم على أي شخص دخل حياتي، ورحل. فالمخلص اسعدني والسيئ منحني التجربة والاسوأ كان درسا لي، أما الأفضل «فقد أسعدني» ولن يتركني! «المهاتما غاندي»

* * *

دعانا صديق، انا وزوجتي، لتناول الغداء مع أسرته واخوته في الشاليه الذي اختاره ليكون بيته الدائم، بعيدا عن ضوضاء المدينة. أعجبنى اختياره لأفضل مكان في الشاليه ليكون غرفة نومه وصالة جلوسه ومعيشته الشخصية، وترك الجانب الخلفى من الشاليه، الأقل فخامة، لضيوفه. ولم يستني ذلك، بل اثبت على اختياره، فنحن غالبا ما نختار أفضل أجزاء البيت للضيوف ونحصر أنفسنا في زوايا ضيقة من البيت لا تتميز لا بمنظر ولا بأثاث جميل، وذلك لرغبتنا في التأثير على ضيوفنا وإبهارهم وإكرامهم بما يليق، وهذا جيد ولكن يجب ألا ننسى، في خضم كل ذلك، أنفسنا، فهم طارئون ونحن الأصل، فالبيت لمالكه وليس لضيوفه، وبالتالي من الغباء مثلا شراء أفضل أطقم تقديم الطعام وحفظها في الخزانة حين قدوم ضيف لكي تستخدم لساعة مثلا وليعود الطقم الجميل ليحتل مكانه على رف الخزائن بانتظار ضيف آخر، قد لا يأتي ابدا، ونغادر الحياة والطقم على وضعه، او «حطة ايدك»!

وبالقدر نفسه من السذاجة، فإن الكثيرين يختارون أفضل المفروشات وأغلاها ثمنا ليضعوها في صالة الاستقبال الرئيسية، ولا تستخدم إلا عندما يزور البيت ضيف ما، وغالبا ما تبقى هذه المفروشات مغطاة، خوفا من أن تتلف. ونقوم في الوقت نفسه باختيار مفروشات عادية لغرف المعيشة بحجة أنها لاستعمالنا الشخصي. وهكذا نرى أننا نشترى أشياء كثيرة ونحتفظ بها ليوم أو مناسبة جميلة ونغادر هذه الدنيا والمناسبة.. لم يحن أوانها. وعليه يجب أن نعرف جيدا، أن كل يوم في حياتنا هو جميل وخاص ومميز، ويستحق أن نعيشه بكل ما لدينا من طاقة وعنفوان، وأن نستخدم افضل ما لدينا، فلا ضيف في هذه الدنيا أفضل منا، فالمخدة الأفضل هي مخدتنا، وأجمل شيشب وأدفا لحاف لنا قبل غيرنا، ولا يعني ذلك أن نكون أنانيين بل عمليين، فاللحاف الجميل الذي لا نود استخدامه إلا عندما يأتينا ضيف «جميل»، قد لا يأتي أوانه ابدا، من الأفضل أن نعطيه لمن يحتاجه، فالعطاء سعادة لا توصف. فلو نظر كل منا لخزانة ملابسه، وخاصة السيدات،

لوجدنا أننا نحفظ مثلاً بينطلونات من مقاسات متعددة، ونرفض التخلص منها أو إعطائها لمن يستحقها بحجة أن يوماً ما سينقص وزننا وسنتمكن من ارتدائها. ولو كنا نعرف متى ستنتهي حياتنا هل كنا سنبقى أفضل الأشياء لأفضل الأيام أم سنحرص على استخدامها قبل فوات الأوان؟ ولو كنا نعرف تاريخ نهاية حياتنا هل كنا سنغادرها بعداواتنا نفسها، أم كنا سننهيها فوراً؟ وبالتالي لماذا لا نستمتع بكل دقيقة من حياتنا اليوم، ولا نؤجل السعادة للمستقبل، ولو كان غداً، فاليوم أو اللحظة هذه فقط هي المضمونة، أما بعدها.. فلا أمان!

الملك حسين، ملك الأردن الراحل، كان ابن ملك وحفيد ملك ويتقن عدة مهارات، وصديقاً لملوك ورؤساء دول، وكان يمون على خزائن عدة دول خليجية، وكانت له في واشنطن، والغرب عامة، معزة ونفوذ. كما كان يعرف كل طبيب بارع، ولكن عندما مرض، وهو في مقتبل الستينات من العمر، لم تنفعه ثروته ولا صداقاته ولا معارفه ولا علاقاته، فهل نتعظ؟

لا تبكي يا أمي

عزيزتي شوليج، علمت اليوم أنه قد جاء دوري لمواجهة القصاص. لقد وصلت للصفحة الأخيرة من كتاب حياتي، ولكني لم أحظ بفرصة تقبيل يدك ويد أبي. لقد سمح العالم لي أن أعيش 19 عاماً، ثم جاءت تلك الليلة المشؤومة، التي ربما كان يجب أن أقتل فيها ويلقى جسدي في ركن قصي. وكانت الشرطة ستعرض جثتي عليك للتعرف إليها، وكنت ستعلمين بأنه تم اغتصابي وقتلي، وإن القاتل لن يستدل عليه، لأن لا حول لنا ولا قوة. ومن ثم كنت ستقضين حياتك في معاناة وعار مما ارتكبت.

لقد علمتني يا أمي، يا أعزّ أم، أن أحداً يأتي إلى هذا العالم لاكتساب الخبرات. وتعلمت منك أن علينا أحياناً القتال. وإن علينا أن نثابر، لكي نخلق قيمة لنا، حتى لو كان ذلك يعني الموت. وعلمتني أنه عندما أذهب إلى المدرسة ينبغي أن أكون متعالية على النزاعات والشكاوى. وعندما تم تقديمي للمحاكمة، بدوت وكأنني قاتلة بدم بارد ومجرمة بلا رحمة لأنني لم أذرف الدموع ولم أتسوّل العطف، حتى أنني لم أبك، فقد كنت واثقة من حقي ومن القانون. ولكن واجهتني تهمة عدم المبالاة، وكنت ساذجة بتوقعي العدالة من القضاة!

أمي، لا تبكي على ما ستسمعيه، ففي اليوم الأول الذي قامت الشرطة بإيذائي بسبب أظافري فهمت أن الجمال ليس أمراً مرغوباً فيه هنا، لا جمال المنظر ولا جمال الأفكار ولا الرغبات ولا العيون، ولا حتى الكتابة، وبالتالي غيرت من أفكاري، وأنت لست مسؤولة عن ذلك. كلماتي لا تنتهي، وسأعطي هذه الرسالة لشخص ما لتوصيلها لك، إن أعدمتم في غيابك. كما تركت لك الكثير بخط يدي للذكرى. وهنا أريد أن أطلب منك قبل موتي، وعليك أن تقومي به من اجلي بكل ما تملكين من قوة، فهو الشيء الوحيد الذي أريده منك ومن هذا العالم. أريد يا أمي الطيبة ألا تدعي أعضائي تدفن تحت التراب، ولا أن تتحول عيوني الجميلة وقلبي الشاب إلى غبار، وأن تتوسلي، بعد شنقي، لكي يتم أخذ قلبي وكليتي وبقية أعضائي والتبرع بها لمن يحتاجها، كهدية. ولا أريد أن يعرف المتلقي اسمي، أو أن يشتري لي باقة ورد، أو حتى يقوم بالدعاء لي. أنا أقول لك من أعماق قلبي إنني لا أريد أن يكون لي قبر لتأتي إليه وتحزني وتعاني. أنا لا أريدك أن تقومي بارتداء الملابس السوداء حدادا علي، بل أن تبذلي قصارى جهدك لنسيان أيامي الصعبة، وأن تمنحيني للريح لتأخذني بعيداً.

العالم لم يحبنا يا أمي، وأنا الآن استسلم لذلك واحتضن الموت، لأنني في محكمة الله سوف أقوم باتهام المفتشين وقضاة المحكمة الذين آذوني في يقظتي ومنامي. في العالم الآخر، إنه أنا وأنت من سيوجه التهم لهؤلاء، وسنتظر لنرى ما يريده الله.. أنا أحبك يا أمي».

كان هذا نص رسالة «ريحانة جباري»، مصممة الديكور الشابة، التي قامت بقتل رجل مخابرات إيراني في شقيقته عندما رافقته لوضع تصميم لها. كانت في الـ19 من عمرها، وقضت في السجن سبع سنوات، قبل أن تعدم شنقا في الأسبوع الماضي، وهي في الـ26 من عمرها، بعد أن رفض النظام جميع توصلات رؤساء الدول وعشرات الجهات الدولية المطالبة بوقف تنفيذ الحكم فيها. ثم نأتي بعدها ونتساءل، بهبل، عن مصدر كل هذا العنف الذي يلف كل مجتمعاتنا!

أنا كيرلس

أكتب لكم من عالمي الخاص. ولدت مصريا وأحببت وطني على الرغم من كل علله ومشاكله، ولم افكر يوما بهجره. أحببت وطني منذ يوم عمادتي في كنيسة القرية. أحببت مصر كما هي منذ أن تخلل بخور الكنيسة وصوت المؤذن الآتي من خارجها شرايني، وأنا طفل صغير. أحببت احترام كاردينال كنيستنا، وتسابق الشمامسة للاحتفاء به، كما أحببت منظر تجمع رجال الأزهر في مساجد القاهرة، التي انتقلت اليها مع أسرتي. أحببت دقات أجراس الكنائس في الكريسماس بنفس قدر حبي لصوت دفوف الموالد ورمضان. أحببت النيل بعظمته ووقاره، كما أحببت الترع في قريتي التي كانت مياهها تبللنا وتبل كل ما كان يتعلق من رقابنا من صلبان وأهلة. أحببت مصر، ورفضت كل دعوات امي لأن التحق بمصنع أبي الكبير، واخترت أن تكون العسكرية طريق حياتي، لكي أدافع عن تراب وطني المقدس. وفي يوم لا أعرف لونه وقعنا في كمين، وأنهت طليقة واحدة حياتي إلى الأبد، ولقي عدد من رفاقي مصيري نفسه، ولم أكن حينها قد تجاوزت الخامسة والعشرين من عمري.. القصير؟

خفف من حزني على موتي ذلك الشعور بالفخر والاعتزاز الذي ملأني وأنا أراقب، من فتحات نعشي، رئيس جمهورية بلادي وقائد جيشي وجمع مدني وعسكري غفير جاءوا لتوديعي، ونظرت، والعزة تملأني، لوجوه رفاقي، والزهو يملأني، فلم أجد ما يماثلها على وجوههم، بل وجدت دموعا في عين هذا وحزنا على وجه ذلك، وثالث يشيح بوجهه عني، ربما خجلا من أن تلتقي أعيننا، والرابع نظر لي بحيرة وبصمت ولم ينطق بشيء، أما الخامس فقد أومأ لي برأسه، طالبا مني النظر للجهة الأخرى، وهالني ما رأيته! مجموعة من اصحاب الذقون الطويلة والجلابيب القصيرة تحمل لافتة مدون عليها: «لا شهادة لمن مات على ارض المعركة على غير الإسلام». قشعريرة قوية سرت في جسدي، وتساءلت ما هذا؟ وفي الجهة المقابلة وجدت جمعا آخر من خريجي الأزهر يحملون لافتة تقول: كل من مات دفاعا عن وطنه فهو شهيد، ولو لم يكن مسلما. ولوحة ثالثة يحملها من يشبهون الإخوان بسحناتهم وزبائبهم على جباههم الخشنة، كتب عليها: «المشرك مصيره النار، بعد موته»، وأعرف ما يعنيه ذلك، فقد كان زملائي في المدرسة ينادونني، تحببا، بالمشرك. وفجأة ارتفع صوت شجار قوي بين مجموعتين، الأولى للمشاركة في توديعنا، والأخرى لتعطيل تلك المشاركة، وخرجت السيوف والخناجر

من أغمادها، وبدأ القتال بين من يقول «شهيد»! وتلك التي تصيح قائلة: «مش شهيد»! وسالت دماء الفريقين وطارت أطراف البعض، وتقطعت رقاب البعض الآخر!

كل هذا هزني من الأعماق، فما الذي يجري لهؤلاء؟ ولم هذا التقاتل؟ سأواري التراب بعد لحظات وهؤلاء الأغبياء المتعصبون مختلفون على هويتي، أنا «كيرلس فاضل حبيب»! كم أنا حزين لما حدث لوطني ولأبناء وطني!

أيامي في المطارات

اكتشفت أن جواز سفري، الذي صدر قبل 3 سنوات، يحمل أكثر من 300 ختم خروج ودخول، هذا غير الدول التي لا تضع أختام خروج! أكتب ذلك لدعم ادعائي بمعرفة الكثير من مطارات العالم، وبالتالي لم أفاجأ لقيام جهة دولية تعنى بالسفر، بتصنيف مطار «بنازير بوتو» في العاصمة الباكستانية، كأسوأ مطار في العالم، يليه مطار الملك عبدالعزيز في جدة. وتم التصنيف بناء على عدة أمور حيوية، كحالة قاعات المسافرين، وطريقة التعامل معهم، ووضع الحمامات، وغير ذلك. ويجمع المطارات العشرة الأسوأ في العالم ضخامتها، كمطار نيويورك وفرانكفورت، أو أنها تقع في دول متخلفة. وبالتالي أعتقد شخصياً أن مطار الكويت كان من المفترض أن يكون بينها، ولكن يبدو أن الجهة المصنفة لم تضعنا في اعتبارها! علماً بأن مطارنا كان يجب أن يكون الأفضل، فلا ينقصنا شيء، فالخبرات موجودة والإمكانات متوفرة، والأموال غب الطلب، ولكن الإرادة غائبة والحزم نائم والمحاسبة في إجازة، وبالتالي سادت الفوضى وعم التسبب كل أنشطة الدولة، ومن ضمنها المطار.

والحقيقة أن القائمين على المطار لا يلامون بقدر ما تلام الحكومة على هذا التسبب والخراب السائد في كل مرفق، من دون استثناء! ففي رحلتي الأخيرة من الكويت لفرانكفورت، تبين أن الطائرة التي ستقلنا ستتأخر عن موعدنا سبع ساعات، وبجهد تمكنا من الحصول على مقاعد على طائرة أخرى تقلع بعدها بساعة. المبكي أن الإعلان عن إقلاع الطائرة المتأخرة استمر، واستمرت معه مطالبة المسافرين عليها، وهم غير موجودين أصلاً، بالتوجه إلى بوابة المغادرة، وتكرر «النداء الأخير» خمس مرات، ولا أدري لِمَ يسمى بالأخير! وعندما سألنا مدير محطة عن ذلك، قال إنه شيء يتكرر حدوثه، لخلل في التواصل، وأن هناك «مصائب» أكبر!

ولاحظنا في الرحلة نفسها، ونحن نخضع للفتيش قبل صعود الطائرة، أن الأشياء الممنوع حملها تصدر من المسافرين وتوضع في صندوق بلاستيكي مكسور من كل جوانبه وبعيد عن أعين الأمن، وبالتالي يمكن لمن صودر منه شيء أخذه من صندوق المواد المصادرة المفتوح، دون أن ينتبه أحداً! وقد أعلمت وكيل الداخلية بذلك، ووعد بعمل اللازم! وهذا يبين أن مسؤول أمن المطار فاشل في عمله، فأمن المطار وصل الحضيض، فإضافة إلى التسبب في إدارة أجهزة الأشعة

والانشغال بالهاتف النقال، فهناك تسيب آخر يتعلق بفتح البوابات المؤدية الى مبنى المطار عند وصول الركاب القادمين، وحدث معي لأكثر من 3 مرات أن وصلت طائرتنا ووجدنا البوابة الزجاجية مغلقة!.. قد يمر وقت طويل قبل أن ترسو مناقصة المطار الجديد على جهة ما، وينتهى بناؤه، الذي يشبه أحد تصاميم «فيكتوريا سيكرتس». أثناء ذلك سنعاني لسنوات عدة من سوء خدمات المطار الحالي، الذي يتطلب قراراً حكومياً فعّالاً لتحسين وضعه المهترئ، وبغير ذلك ستسوء الخدمة فيه أكثر!

وقد اكتشفت خلال سفري المتكرر أن بعض مطارات العالم تُخضع القادمين من مطارات محددة، ومنها الكويت، للتفتيش، حتى لو كانوا في طريقهم الى دول أخرى «ترانزيت»، ولا يخضع لذلك القادمون من مطارات دول تحترم نفسها، وبالسؤال تبين علمهم بسوء الإجراءات الأمنية في مطار الكويت! فهل يرضى وزير ووكيل الداخلية المحترمان بهذه السمعة السيئة لوطنهما؟! وإن كان الجواب بـ «لا»، فما هما فاعلان؟!

ليس غريباً القول ان مطار دبي هو الأفضل في العالم، إن من ناحية التصميم، المرافق، التسهيلات، أو الإجراءات الأمنية.. وغير ذلك. كما تتبع فيه أنظمة أمنية سهلة لا تتبع في أي مطار آخر في العالم. ويمكن القول - أيضاً - ان مطار الكويت هو الأسوأ في المنطقة، مقارنة بغيره، وحتى من تلك التي بُنيت بأموال كويتية. وعلى الرغم من اعتراض الكثيرين على وضع مطارنا وإدارته، ورد الإدارة على منتقديها بوضع المسؤولية على عاتق قانون المناقصات الذي يلزمها باستخدام الأرخص، خدمة أو مادة، فإن هناك لبساً في هذا الموضوع!

فما ذكرته إدارة المطار ذكره آخرون أيضاً في معرض انتقادهم لسوء مصنعية الكثير من المشاريع والخدمات، واضعين المسؤولية على أسلوب الترسية المتبع، وهو أقل الأسعار. ولكننا نشعر بأن الأمر لا يتعلق بهذه الجزئية بقدر تعلقه بفساد معظم الذمم السائد! فالقانون يشترط غالباً الترسية على أقل الأسعار على افتراض أن المناقصين متساوون في الأهلية والقوة المالية، وأنهم قاموا بدراسة شروط ومواصفات المناقصة، والمطلوب تنفيذه، وأن أسعارهم ستتفاوت، تبعاً لخبراتهم، وبالتالي من المنطقي ترسية المناقصة على الأكثر دراية وخبرة بالمشروع المطلوب تنفيذه أو المواد أو الخدمة المطلوب توريدها، من خلال اختيار السعر الأقل. ولكن المشكلة تبدأ غالباً بعد الترسية، وليس للسعر دخل هنا.

فلو كانت الدولة جادة وتحاسب المسيء والفاقد، لكان الخراب في إنجاز المشاريع أو توريد السلع والخدمات في حده الأدنى. فمن واقع معرفتي التي تمتد

لأربعين سنة في هذا المجال، فإن مواصفات المواد والخدمات والمشاريع التي تتطلبها الدولة هي الفضلى عالمياً. ما يحدث غالباً أن قلة فقط ممن يفوزون بمناقصة ما يتقيّدون بالمواصفات. وهنا يلعب خراب الذمم دوره، إن كان مراقباً للمشروع أو أميناً للمخزن! «فالحش والدس، ودهان السير هو السائد»! إذاً، المشكلة أخلاقية، ولا علاقة لموضوع أقل الأسعار بسوء الإنجاز. فحتى لو رست المناقصة على أعلى سعر، فإن بعض الموردين أو المقاولين سيقدمون مادة أرخص، بشراء ذمة المراقب أو أمين المخزن! الحل موجود، ولكن القرار مغيب!

قطار الحياة

التقيت به في مطار، فوجدت الحزن بادياً عليه. جلسنا بانتظار رحلتينا. لم أتطفل عليه وتركته لحاله، فالحديث سيجرنا إلى سبب حزنه. بعد نكتة وأخرى انفرجت أساريره، وقال إنه يشكرني لأنني أنسيته، ولو للحظات، أنه مريض بمرض مميت، وأنه اكتشف، في لحظة صدق مع النفس، أنه لم يستمتع بحياته كما يجب بالرغم من ثرائه وصغر سنه النسبي. فقلت له إننا جميعاً نصبح في لحظة من حياتنا حكماء في الحياة، غالباً بعد فوات الأوان، وعندما نكون أقرب إلى الموت منا للحياة! ولكنه أسعد من غيره، فلديه المال الذي يسهل له العلاج، وأن السرطان علاجه أصبح سهلاً، وأنها مرحلة وستمر بالرغم من صعوبتها، كما مر الملايين من أمثاله بها. وقلت له إن الحياة رحلة في قطار دائم الحركة والتوقف، يترجل شخص ويصعد غيره، ويتغير مساره أحياناً وينعطف ويذهب بعيداً. وكأي وسيلة نقل يتعرض الإنسان والحياة والقطار إلى حادث أو عارض ما. فنحن نركبه يوم نولد ويدفع الوالدان ثمن تذكرتنا، ويترجل منه من تعبوا في تربيئتنا بعد بلوغ محطتهم النهائية ليركب غيرهم من مواليد جدد، وهكذا. وبالتالي، فإن القطار يتوقف ولكن للحظة فقط، ولكنه دائماً يعود إلى السير، وما علينا نحن ركابه غير الاستمتاع برفقة من هم معنا فيه من أبناء وأحفاد وأهل وأحبة وأصدقاء، فلا أحد سيترك القطار قبل غيره، وليست هناك رحلة أخرى مماثلة، ومن الضروري أن نخلق علاقة طيبة مع من معنا، وننسى أحقادنا ونسامح من أساء إلينا، فلا أحد يعرف متى ستنتهي تلك العلاقة، وكل علاقة.

وفي السياق نفسه، سأل أحدهم حكيماً عما يعنيه الحب، وما تعنيه الحياة، فقال له: اذهب إلى حديقة زهور عباد الشمس واقطف أطول زهرة فيها وعد بها، شريطة ألا تطرق الطريق نفسه مرة أخرى. ذهب الرجل وعاد بعد فترة خالي اليدين! فسأله الحكيم عما جرى فقال إنه رأى زهرة طويلة، ولكنه تركها لزهرة أطول وأطول، واستمر في سيره يبحث عن الأطول حتى انتهى الحال إلى منطقة ليس بها غير زهور قصيرة، وبما أنه ليس بإمكانه العودة، وقطف زهرة طويلة، فبالتالي خرج من الحديقة وليس بيده شيء. فقال له الحكيم هذا هو الحب! عد الآن إلى الحديقة ثانية واقطف أجمل زهرة فيها، ومتى ما فعلت ذلك لا تستطيع قطف غيرها. عاد الرجل بعد لحظات وهو يحمل زهرة، فسأله الحكيم هل هي الأجمل؟ فرد هذا: لا، ولكنني تعلمت الدرس وقطف أول زهرة جميلة رأيته، ولم أعبأ بالبحث عن أجمل منها. فقال الحكيم: هذا هو الزواج.

مؤسسة الزواج

مرت قبل ايام الذكرى الأربعون لزواجي وشريكة حياتي، كنت خلال تلك الفترة وما أزال سعيدا، ولا اعتقد ان امرأة كانت ستسعدني اكثر منها، مع الاعتذار لسوسو وسعاد ونوال ومنى وأمل وجورجيت وسارة وووو، ولكن هذه السعادة والرضا لا تعنيان أن مؤسسة الزواج محصنة من الانتقاد والسخرية، بل هي في الحقيقة هدف كبير للكوميديين والكتّاب وواضعي سيناريوهات الأفلام والمسرحيات والمسلسلات التلفزيونية. فليست هناك علاقة بشرية أكثر تعقيداً وجلباً للسعادة والاضطراب في الوقت نفسه كالزواج. فكما أن الزواج مصدر إلهام وسعادة وإبداع ونجاح، فهو كذلك مصدر حزن وبكاء وخلافات ومحاكم وإحباط وكآبة. وكان الكاتب الروسي الكبير ليو تولستوي يقول انه ينصح كل الرجال، وفي جميع الأحوال، بالزواج، فإن نجح فسيكون سعيدا، وإن فشل فسيصبح فيلسوفا!

ويقول الكوميدي الأميركي جيرى ساينفلد Jerry Seinfeld ان الفرق بين البقاء أعزب أو متزوجا هو نوع من أنواع الحكومة أو الحكم. فالأعزب هو كالدكتاتور، يتحكم منفردا في كل شيء، فهو يصدر الأوامر لنفسه بالبقاء مستيقظا أمام التلفزيون أو النوم على الكنب، او الاستيقاظ ساعة يشاء، دون أن يكون لأحد الحق في نقض قراراته. أما عندما يتزوج فإنه يصبح جزءا من منظومة اتخاذ قرارات كبيرة. كما يصبح من الضروري عقد مجموعة من الاجتماعات وتشكيل لجان قبل اتخاذ أي قرار، هذا إن نجح الزواج! ولما يؤلم في قضايا الطلاق ان الرجل يتم «خلعه أو عزله» من منصبه كرئيس، من دون ان يكون رئيسا أصلا.

وتقول طرفة عن الزواج ان رجلا اصطحب أعز اصداقائه لبيته لتناول طعام العشاء معه. وما ان دخل البيت، وأغلق الباب خلفه وصاح بأعلى صوته ليخبر زوجته بوصوله وصديقه للعشاء، حتى سمع اللعنات تصدر من غرفة النوم، ولتخرج منها قائلة: هذه مزحة ثقيلة، فشعري يحتاج إلى الغسل والتنشيف، كما أنني لم أبدأ حتى بوضع المكياج، والمطبخ في حاجة للتنظيف، ووضع غرفة الجلوس يرثى له، وما أزال ارتدي البيجامة، وبالتالي لن أكثرث، وأنا في هذه الحالة المزرية، لتحضير العشاء لك ولصديقك هذه الليلة، فلماذا، بحق السماء، احضرته معك؟ فرد الزوج ببرود قائلاً: لا تكثرثي يا عزيزتي، فالحقيقة انه يفكر في الزواج فوعدت أن أريه عرضا حيا لما يعنيه ذلك!

ما هو الصحيح في الصحيح؟

كتبت قبل سنوات مقالا عما ورد في مقدمة «صحيح البخاري» من أن مؤلفه، الإمام البخاري، قال بأنه قضى 16 عاما في جمع 600 ألف حديث، وبعد البحث في صحتها خرج بما يقارب 6000 حديث صحيح! وذكرت في المقال بأنني قمت بإجراء عملية حسابية قسمت فيها إجمالي دقائق السنوات الـ 16 التي قضاها في الجمع والبحث، وقسمتها على عدد الأحاديث الصحيحة، مخصوما من ذلك ما قضاه البخاري من وقت في ترحاله ونومه وقضاء بقية حاجاته اليومية، ووصلت لنتيجة أن كل حديث صحيح، يحكم ويتحكم في الكثير من تصرفاتنا منذ أكثر من ألف عام وحتى اليوم، قد استغرق منه خمس دقائق فقط ليجزم بصحته أو بعدمه، علما بأنه قام بعمله بعد أكثر من 300 سنة من وفاة النبي.

كان ملفتا في حينها كم الهجوم الذي تعرضت له، والذي كان في غالبه لا عقلانيا ولا منصفا، وتركز على عدم حقي، أنا بالذات، في التطرق لمثل هذا الموضوع، وكأن هذا كتابنا فلا نتطرق له، وهذا كتابكم ولن نتطرق له، أو كأننا نعيش في عالمين مختلفين، ولا نتأثر ببعضنا البعض في كل دقيقة من حياتنا. ولا أذكر حينها أن أحدا وقف معي غير الزميل في «الوطن»، النائب الحالي، «نبيل الفضل»!

وقد سبق نشر ذلك المقال، وبعده بالطبع، صدور العديد من المؤلفات التي انتقدت الكثير مما ورد في صحيح البخاري، والمطالبة بتحكيم العقل في الكثير مما ورد فيه من أحاديث، ومن هؤلاء الزميل السعودي «فهد الأحمد» الذي كتب مقالين في جريدة الرياض، في 20 نوفمبر، التي تصدر في الرياض. كما انظم لركب منتقدي البخاري عدد كبير من رجال الأزهر، ومنهم إمام المسجد والخطيب «محمد عبدالله نصر»، الذي انتقد البخاري واصفا إياه بأنه بشر وغير معصوم وكلامه ليس من السماء، وأنه اجتهد ومن يجتهد فقد يخطئ وقد يصيب، وبالتالي من الإنصاف عدم تقديسه أو تقديس ما ورد من كلام على لسانه، مع عدم بخسه حقه فيما اجتهد فيه.

الموضوع شائك ويستحق الحديث عنه، فما ورد في الصحاح أثر على الكثيرين ولا يزال، والأمر ذاته ينطبق على كتاب «الكافي» الذي هو بمنزلة صحيح البخاري لدى الشيعة، حيث ان صدرت طبعات متعددة الأحجام منه، مما يعني أن أشياء قد أضيفت له، أو حذفت منه، على مدى السنين.

رويترو والكوت

أسس البريطاني «بول رويترو» وكالة الأنباء التي تحمل اسمه عام 1851، وأصبحت مصدرا إخباريا لعدة صحف إنجليزية، وذات سمعة طيبة، وبقيت لسنوات المصدر الوحيد للأخبار في العالم، وكانت أول من نقل خبر اغتيال «إبراهيم لنكولن». واليوم يتواجد عدة آلاف من مراسلي الوكالة في كل بقعة في العالم تقريبا، وفقدت الكثيرين منهم في ساحات المعارك. وقد قامت هذه الوكالة العريقة مؤخرا بنشر تقرير عن الكويت ذكرت فيه أن الكويت تتمتع بقوة شبابية عالية التعليم «!» وتتمتع بعلاقات قوية بجيرانها وموقع استراتيجي مميز. وتساءلت الوكالة عن سبب عدم تحلي الكويت بدناميكية خلافة، كدبي، أو حتى الدوحة، ولديها كل هذه المميزات المادية والبشرية والجغرافية والعلاقات الدولية، ولماذا هي ضعيفة في جذب الاستثمارات الأجنبية التي يمكن أن تكون عونها في حفظ استقلالها وتطوير بنيتها التحتية المتأكلة، والتغلب على جمود الأوضاع في بلد كان يوما مثالا يحتذى لبقية المنطقة. وقالت الوكالة أن هذا الرفض للأوضاع الحالية نجده بقوة بين الفئات الأكثر تعليما، وبالذات ممن تلقوا تعليمهم في الخارج، والذين يزداد تدمرهم من البيروقراطية والخطوط الحمراء. وتذكر رويترو أن آلاف المواطنين شاركوا في تظاهرات في عامي 2011 و2012، مطالبين بإصلاحات سياسية وهيكلية، إلا أن تلك المطالبات سرعان ما تبخرت، أو فقدت زخمها مع ظهور النتائج السلبية لها، واستيلاء القوى الدينية على الحكم فيها، وهذا أثار مخاوف الكثيرين من تبعات أي تغيير في الكويت. وساعدت زيادات الرواتب الهائلة وتوفر الوظائف في تقليص التذمر من الأوضاع. وقالت مواطنة كويتية أن الكويت كانت خلال أحداث الربيع العربي محظوظة بما لديها من وفرة مالية، فهذا وفر للحكومة مخرجا من الوضع، وأن الكويت تقع بين السعودية والعراق، وأكثر من نصف مواطنيها البالغ عددهم مليون و200 ألف هم دون سن الـ25، ولكن السلطة تتحجج بقيود البرلمان على قدراتها، وأنها لا تستطيع إنجاز الكثير بسبب ذلك. كما ذكر أحد المراقبين أن من مشاكل الكويت عدم جدية الحكومة فهي تصرح ولكن غالبا لا تلتزم. كما أن صدمة غزو صدام «الحقير» جعلت الحذر في التحرك سمة شبه سائدة لدى القيادات العليا. وذكرت الوكالة أن برلمان الكويت هو الأقدم في المنطقة والأكثر قوة وتأثيرا، مقارنة ببرلمانات الدول الخمس الأخرى في مجلس التعاون «أي برلمانات؟». ويحق لأعضائه مساءلة الوزراء واستجوابهم، ولكن مع تعدد المجالس

البرلمانية وتبدل الحكومات، خلال السنوات العشر الماضية، فإن هذا حول الوضع العام للجمود. كما أن استفراد أفراد الأسرة الحاكمة بأهم المناصب الحكومية كان له تأثيره غير الإيجابي، والصراع الخفي بينهم تسبب في انحدار الوضع أكثر. وقالت الوكالة على لسان أحد الأكاديميين بأن هناك شعورا بأن النظام السياسي الحالي غير قابل لأن يكون منتجا وفعالا، وأن الأمر يتطلب وجود نظام أكثر تمثيلا لفئات الشعب، وأكثر مساواة، مع ضرورة ضخ دماء جديدة في المستويات العليا، والتي بإمكانها التعامل مع مختلف القضايا بطريقة فعالة، وهذا ما يتطلبه كم المشاكل التي تراكمت، بدون حل، على مدى العقدين الماضيين. وأن غياب الرؤية لدى الدولة، بخلاف دبي، هو من أكثر المعوقات، فلا أحد يعرف على وجه التحديد ما المطلوب عمله، وإلى أين الكويت يجب أن تتجه.

بحث العاجز عن دليل

ولد «نيل آرمسترونغ» لأسرة بروتستانتية محافظة في أوهايو في 5 أغسطس 1930، ويعتبر أول من وطأت قدماه على سطح القمر، وكان ذلك عام 1969، وأصبح بعدها بعامين أستاذ هندسة الفضاء في جامعة سنسيناتي. تزوج آرمسترونج وأنجب ولدين، وكان يعيش في عزلة بمزرعته، وكان يعرف عنه رفضه الحديث عن نفسه أو إنجازاته، كما رفض دعوات الترشح للانتخابات الأمريكية. ووصف آرمسترونج رحلته بأنها «خطوة عملاقة للبشرية»، بعد أن قام وزميله «بز ألدرن» بالهبوط على سطح القمر وقضيا ساعتين ونصف هناك. توفى آرمسترونج عن 82 عاما، بعد عملية جراحية في الشريان التاجي، أغسطس 2012. وقد عاش حياته مسيحيا ومات مسيحيا، وأكاد أجزم أنه مات دن أن تتاح له فرصة سماع الأذان، أو على الأقل تملك القدرة عن التفريق بين الأذان أو أي كلام عربي آخر! وبالتالي من الغرابة أن يبقى إدعاء بعض المتخلفين على أنه سمع صوت الأذان على سطح القمر ساريا لأكثر من أربعين عاما، والأغرب من ذلك أن يتطلب الأمر قيام كاتب أو أكثر بنفي سماعه الأذان أو تحوله للإسلام، وقيام وسائل نشر معروفة بنشر ذلك النفي، وهذا يشبه قول أحدهم بأن فيلا استطاع الطيران فوق مدينة نيروبي، وتصديق الناس للرواية لتأتي جهة ما وتتفي الخبر بعد أربعين عاما وتقوم صحف ووكالات أنباء بتأكيد خبر طيران الفيل أولا ثم نفي الخبر ذاته، ليس لعدم صحته، بل لاستحالة وقوعه أصلا، وأمور مثل هذه لا يمكن أن تحدث إلا لدى شعوب تشكو من عوارض مرضية خطيرة. والغريب ادعاء صحفي سعودي أنه قام بتوجيه حزمة أسئلة لآرمسترونج، بعد الاتصال به في أمريكا، ومنها سؤال عن حقيقة ما أشيع عن سماعه للأذان فوق القمر. وقال أنه رفض الإجابة على الأسئلة، ونفى خبر الأذان أو تحوله للإسلام جملة وتفصيلا، ولو كلف هذا الصحفي نفسه و«شغل» مخه، لعلم بأن خبرا كهذا ما كان من الممكن أن يبقى سرا كل هذه السنوات! كما نفي الصحفي نفسه كون مدينة مكة تشكل مركز الكون، أو أن إشعاع ليزر ينطلق من الكعبة نحو السماء، معتبرا أن العاجزين عن الإنجاز يطلقون هذه المزاعم التي تضر بسمعة الدين وترتد على المسلمين حين يتم نقضها لاحقا!

ونعتقد هنا أن الغرابة لا تكمن في اعتقاد البعض أن مدينة مكة هي مركز الكون، أو أن آرمسترونج سمع الأذان فوق سطح القمر، وهي أمور لا علاقة لها لا بالعلم ولا بالمنطق، بل الغرابة استمرار جهات عدة في تصديقها، وهذا دليل على درجة اليأس التي بلغها هؤلاء بحيث أصبحوا يبحثون ولو على قشة تؤيد مواقفهم!

نقد طال سباتنا

يعيش على كوكبنا أكثر من 7 مليار من البشر، وجزء كبير منه لم يسمع بالإسلام وأقل منهم بكثير سمع بالشيعة، ومن سمع فهو غالبا لا يعرف من هم كبار اعمدته، وبالتالي أقتصر الأمر ربما على بضعة مئات من الملايين، وهذا لا يقلل حتما من عظمة شخصيات المذهب ومكانتهم في نفوس جميع المسلمين، وليس فقط أتباعهم. المشكلة تكمن فيما يعتقد البعض من أن «استشهاد» الإمام وضع أسس أعظم ثورة في التاريخ، تشمل العالم أجمع، وأنها رسخت مبادئ الحرية والعدالة إلى الأبد، وهذا هو ما يقال ويردد بكثرة، منذ عقود طويلة، على المنابر الحسينية! ولا أدري كيف يجوز قول هذا الكلام وبعد أكثر من 1400 على المعركة التي قتل فيها الإمام الشهيد، والعالم في غالبية، على مدى تلك الفترة لم يسمع لا بالشيعة ولا بالثورة ولا حتى عرف الحرية والعدالة، قبل أن يأتي الغرب والثورة الفرنسية بالذات، ويضعوا مبادئها التي عرفها العالم أجمع من خلال مناهج مدارس وداستيره وأشعاره وكتابات. وبالتالي فإن هذه المبالغة في وصف الأمر لا تصب إلا لصالح فئات لا زالت، ابا عن جد، تستفيد من إقامة هذه الشعائر والاستماتة في الدفاع عنها لتعلق مصالحها الشخصية والسياسية بها، والدليل على ذلك ما نشب من صراع دموي في الساعات الأولى التي تبعت سقوط صدام ونظامه، بين جماعة الصدر من جهة وبين من كانوا سدنة على المراقدة لسنوات طويلة، والذين كانوا يسيطرون على موارده النقدية الضخمة، وبينهم رجال دين كبار، وهذا يعني أن المسألة مادية وسياسية ولا علاقة لها بالحق والباطل ولا بشهادة الحسين ولا بمظلومية الشيعة! وبالتالي يسعى من يدعون الدفاع عن الحسين لكتم اصوات كل من يحاول كشف الاغبيهم واستغلالهم لمشاعر العامة في تكوين الثروات وتحقيق النفوذ الطائفي والسياسي، فمن صالح هؤلاء بقاء العامة على «عميهم» وجهلهم بالحقيقة. وقد لاقى كل من حاول التعرض لهذه الممارسات الصد والنبد، واحيانا القتل، وخاصة أولئك الذين حاولوا رفع مستوى الاحتفاء بشخصية كالحسين وبسيرته، وعدم قصر الأمر على مظاهر الحزن من تطبير وضرب بالسلاسل التي ثبت، بعد ممارسات طالت قرونا، أنها لم تجعل من الشيعة أفضل من غيرهم في أي مجال كان، بل بقوا مثلهم مثل غيرهم في مجتمعاتهم، بكل نقاط الضعف أو القوة، إن وجدت! وبالتالي لا داعي هناك لكل هذا الغلو، وخاصة في العراق الذي يشكو من كل مشكلة يمكن تخيلها على وجه الأرض! وهنا يقول الكاتب العراقي «رشيد

الخيون» في مقال له بعنوان: مع إيقاف التدهور في الوعي، صحيفة الاتحاد، ديسمبر 2012، بأنه إذا كانت ثورة الحسين من أجل الحرية، فلا أظن أنه جعلها مشروطة! وقال أنه يحب الحسين لأنه منحه حريته، حتى في مناقشة تجربته، ولكن المستفيدين من محنته جعلوا منه سدا بينه وبين الحرية!، ومع اعترافهم بأنه أبو الأحرار حولوه إلى «أيقونة» وليس إلى ذلك المجدد الذي يرغب في مجارة العصور. وقال أن التظاهر بالحزن على الحسين مكن البعض من إقامة دول لم ترفع السواد راية إلا حزناً على الحسين، حاربت بهما حتى تمكنت، ومنها الدولة العباسية والفاطمية وآخرها «الصفوية» (1501-1723). وقال أنها تجارة مربحة، لكن خطورتها تكمن في تحولها لوسيلة استغلال اجتماعي. فمؤسسات السلطة العراقية تلهج بثورة الحسين لكنها لم تعمل شيئاً مما تدعيه، وكأنها تريد القول للقاصدين كربلاء لكم لطم الصدور ولنا السلطان، ومن يموت وهو في طريقه إلى المستشفى بسبب غلق الطرقات يعد شهيداً! وإذا قيل أن الحسين أبو الأحرار، فقطعاً هو مع إيقاف التدهور المريع في الوعي الجماعي.

مسلسل خيانة الإخوان

عندما كان الأديب الإيرلندي «برنارد شو» يراقص امرأة جميلة قال لها بأنه على استعداد لأن يعطيها مبلغا كبيرا إن قبلت أن تضاعفه. هزت المرأة رأسها بالموافقة. وبعد ساعة من المسامرة قال لها الكاتب الكبير بأنه يود ان يعترف لها بأنه لا يكسب الكثير من الأدب، وبالتالي فإن كل ما بحوزته لا يتعدى مبلغا صغيرا! فنظرت هذه له بغضب وقالت: وهل تظنني عاهرة؟ فرد «شو» قائلًا: لا أعتقد أننا مختلفون على ذلك، إننا مختلفون على المبلغ فقط.

ليس هناك خلاف، حتى لدى أكثر الإخوان تشدداً، أن التنظيم العالمي للإخوان المسلمين قام في العام 1990، بقيادة مرشده «مأمون الهضيبي» بحملة شرسة، مستخدماً آلية «السمع والطاعة»، ضد قيام الولايات المتحدة وحلفائها بعملية تحرير الكويت! وحصل حينها على موافقة وتأييد كافة فصائل وتنظيمات الإخوان في جميع الدول العربية، بما فيها الكويت، لفكرة قيام قوات إسلامية بعملية التحرير! وبالتالي فإن الخلاف لم يكن يوماً فيما إذا كان تنظيم الإخوان العالمي، بكافة فصائله، قد خان الكويت وتكرر لقضيتهما ولكل ما قدمته له من دعم ومال، بل الخلاف كان دائماً على من تكلم ومن خرص ومن وقع ومن امتنع ومن غاب ومن حضر. وخير شاهد على خيانة التنظيم العالمي للكويت تبرؤ «بعض» أعضاء فرعهم في الكويت منه بعد التحرير مباشرة. وبالتالي من المثير للاستهجان، بعد كل هذه الأدلة الدامغة، إصرار بعض فلول «إخوان الكويت» على الوقوف إلى جانب إخوان مصر وتونس والأردن وليبيا وتأييد مواقفهم الحالية، وهم الذين سبق وأن كانوا، بنفس قياداتهم تقريبا، ضد الكويت وعملية تحريرها من الاحتلال الشرس!

إن التعذر ببراءة بعض إخوان الكويت من تهمة «الخيانة» التي وردت في كافة مقابلات المرحوم «سعود الصباح»، والقول أنهم لو كانوا كذلك لما قامت السلطة بعد التحرير بتقريبهم، أمر مثير للضحك! فالسلطة، بشهادة الشيخ سعود نفسه، أو أعضاء مؤثرين فيها، هي التي مكنت الإخوان أصلاً من الوصول لما وصلوا إليه، تنظيماً ومالاً وشركات وشبكات وتمدداً وفروعاً، وهي التي حمتهم، ولا تزال تحميهم، وهي التي فرضت منهم من شارك في وفد الصداقة الذي زار واشنطن وليطلب، بكل سخافة، وبحضور وفد الكويت الشعبي بشخصياته المعروفة، من

مساعد وزير الخارجية الأمريكية، وقف تدخل أمريكا عسكريا في عملية تحرير الكويت! وأسماء الوفد الشعبي موثقة، ولم ينكر أحد منهم يوما ما نسبته الشيخ سعود لذلك «الإخوانجي» من سوء تصرف وقول، خالف بها مواقف القيادة وبقية أعضاء الوفد!

مصطفى في الكنيسة

أخبرني صديقي اللبناني البريطاني «مصطفى ج.» أنه عندما كان في الخامسة عشرة أصبح يلاحظ، في الحي الجديد الذي انتقلت إليه أسرته، أن بعض جيرانه يبدون في كامل زينتهم في أيام الأحد، ويلتقون في مجموعات صغيرة في زوايا طرقات الحي، يحيون، مع أطفالهم، بعضهم البعض، ثم يتجهون، زرافات ووحدانا، للمبنى الكبير، والمهيّب، الذي يتوسط الحي، وعرف بعدها أنه الكنيسة، وأن جيرانه مسيحيون. وفي أحد الأيام، ومن باب الفضول، ارتدى أفضل ملابسه، وقرر الانضمام لهم ودخول الكنيسة.

وهناك فوجئ أولاً أن الأسر بكاملها تقريبا متواجدة، تجلس الأم بجانب ابنائها وزوجها، والجميع في كامل أناقتهم بخلاف ما كان يراه في مسجد حيه القديم، حيث كانت الملابس «أي كلام» وكان الحضور للرجال فقط. كما لاحظ أن الحضور يجلس على أرائك خشبية، عكس ما كان يراه في المسجد. كما لم يجد على مدخل الكنيسة المنظر البائس لأحذية الحضور ونعالهم، بل كان الجميع في الكنيسة يرتدي حذاءه، وكان ذلك يمثل اختلافا واضحا لكل ما كان يراه في مسجد حيهم القديم، الذي سبق وأن ارتاده مع جدة بضع مرات. كما لاحظ أن الصمت يسود الجميع تقريبا، وكان صوت الخوري يتسرب لأذنيه بهدوء، دون مايكرفونات ولا ضجيج.

فضوله، وهو يتطلع في كل اتجاه، ليملئ عينيه بالصور والأيقونات والصلبان والقناديل الملونة المعلقة في كل مكان، والسقف العالي وزجاج الشبايك بألوانها الجميلة، استرعت انتباه شاب في العشرينيات كان يجلس خلفه. وعند انتهاء الخوري من عضته، ربت الشاب بيده على كتفيه والقي السلام عليه. يقول مصطفى أنه جفل من الحركة، وخاف أن ينكشف أمره كونه شخص لا ينتمي لرعية الكنيسة ولا لدين اصحابها، وتضاربت دقات قلبه عندما القى عليه السلام، ماذا يدا مرحبة، وهو يسأله عن اسمه، فتسارعت دقات قلب مصطفى أكثر، وجلا، وتردد في قول الحقيقة، خوفا من العقاب الذي سيناله، ولكن ذكر اسمه، وتحمل النتيجة التي سوف لن تكون أقل من ضربة كف ثقيلة على «قفاه». ولكن ابتسامة عريضة ارتسمت على وجه الشاب ورحب به ثانية، وقال له بأن بإمكانه الحضور كل أحد، متى شاء ذلك. ويقول مصطفى أنه شعر براحة واطمئنان لا يوصفان، وخرج مع الحضور بعدها، وهو يتساءل، بينه وبين نفسه، عن السبب الذي جعله يعتقد بأن

سيعاقب بشدة لارتياذه مكان عبادته غيره، وبقي لسنوات طويلة يبحث عن الجواب! وهنا قلت له بأن عليه الاستماع لواقعة حدثت في الكويت قبل بضع سنوات، وتطرقت لها الصحافة في حينها، وسبق أن كتبت عنها، وتتعلق بمواطن من البحرين، زار الكويت بدعوة من صديق. وبعد الإنتهاء من تناول الغداء في منزل الصديق، قام سائق المضيف بإيصاله للفندق. وفي الطريق، وهو يزال في نفس الحي السكني، طلب من السائق إيقاف السيارة أمام احد المساجد ليؤدي الصلاة فيه. وهناك انتبه الحضور من طريقة قيامه بالصلاة أنه من «غير مذهبهم» فطلب منه أحد المتواجدين في المسجد، وقف أداء صلاته، والخروج من المسجد، فأصر الضيف البحريني على تكملة صلاته، وأنه يؤديها في بيت الله، فغضب الآخر منه، وتوجه له ودفعه عن مكانه، فاشتبك الرجلان، وتطور من التلاسن للتشابك بالأيدي، لينتهي الأمر بإصابة الضيف البحريني بغصابات بليغة، واستدعاء الشرطة، الذين قاموا بنقل «الضيف»، وهو على حالته المزرية، للمطار، ليستقل اول طائرة متجهة لوطنه!

أبولوجايز

في الشهر الأول من عملي في البنك، وكان ذلك في الستينات، حضر شخص عراقي، يحمل جواز سفر بريطاني، وشيكا ليس باسمه، طالبا صرفه، فقلت له بأن التعليمات تمنع ذلك، ومطلوب حضور صاحب الشيك، لأننا لا نعرف صحة توقيعه من الخلف. باءت محاولاته في إقناعي بالفشل، فغضب، وطلب مقابلة المدير العام، فأشرت بيدي للذهاب للطوابق العليا.

ما هي إلا دقائق حتى عاد بصحبة المدير العام، وكان شخصا اسكتلنديا معروفا بعصبيته، ونزقه، وأنه يتناول بضعة كوؤس من الجن قبل مباشرة عمله في الصباح! اتجه المدير العام لرئيس القسم مباشرة، حيث قام هذا باستدعائي لسؤالي عن سبب رفضي صرف الشيك، فقلت له بإنجليزية تدفع للبكاء: Name passport no same name cheque, no money

أي ما معناه أنه عندما لا يتطابق اسم حامل الجواز مع اسم المستفيد المدون في الشيك فإنه لا يصرف!

وهنا أسمعني المدير العام ما اعتقدت أنه محاضرة في كيفية التعامل مع عملاء البنك، ولكني لم أفهم شيئا حينها مما قاله. وفي النهاية أشار بيده طالبا مني شيئا لم أعرفه، فقلت No وعدت، غير آبه، للجلوس في مكاني على الحاجر، وأحسست ان الجو قد تكهر، ولكني لم اعرف السبب، ولم أكرث كثيرا.

تم صرف الشيك للرجل، وغادر البنك، وهدأت النفوس، ولكن شيئا ما تغير جذريا، وخاصة في موقف بقية زملائي مني. حيث كنت موظفا بسيطا، ولم يتم تثبيت تعيني، وكنت اشكو من ضعف لغتي الإنجليزية في مجال عمل لا يستخدم غيرها. وكنت، بخلاف بقية موظفي القسم، ابقى في البنك لساعتين أو أكثر من إنتهاء الدوام، لكي انهي ما هو مطلوب مني القيام به! وكان التغير الإيجابي الأول الذي حدث في ذلك اليوم هو عدد العروض التي أصبحت تتهاى على عارضة مساعدتي في إنهاء ما هو مطلوب مني، وهكذا أصبحت أغادر البنك معهم. كما أصبح «عبدالرحمن»، مسئول الكانتين، الذي كان يرفض تقديم المرطبات والشاي لنا على حاجر العملاء، يقوم شخصيا بمخالفة القوانين ويحضر لي الفنجان بنفسه من الطابق الثاني، حيث الكانتين، وغير ذلك من التصرفات التي رحبت بها دون ان اكلف نفسي السؤال عن سبب حدوثها الفجائي، بعد تلك الحادثة.

بعدها بأيام حل شهر رمضان، واصبح تناول أي شي محضورا، ولكن الكانتين

بقي مفتوحا، لأن غالبية موظفي البنك كانوا من غير المسلمين، وحيث أنني لم اكن يوما من الصائمين فقد قمت بالذهاب للكانتين، في استراحتين في اليوم الأول من رمضان. وهناك التقيت بزميلي غسان واستغربت وجوده هناك فسألته إن كان من الفاطرين مثلي فصدرت منه ضحكة مجلجلة وقال لي إنه مسيحي! وهذا ما لم أتوقعه، فليس ضمن اسمه الرباعي أي من الأسماء المسيحية التي كنت أعرفها حينها، كإلياس أو جورج أو حنا! ويبدو ان سؤالي الشخصي له شجعه لسؤال عمن يقف خلفي في البنك من اعضاء مجلس الإدارة، حيث كنت الموظف الكويتي الوحيد في اقسام البنك حينها! فاستغربت من سؤاله، وقلت بأن لا أحد يسندني، حتى والدي لا يعرف اين اعمل بعد ان تركت عملي معه وتوقفت عن الدراسة الصباحية، فقال أنني لا بد أن اكون مسنودا لكي أتحدى المدير العام! فابديت استغرابي مما قال، وقلت له بأنني لم اتحداه، ولا اعرف ما الذي يقصده، فقال غسان بأن المدير العام طلب مني To apologize، وأنني رفضت، وهذا ما رفع من مكانتك في أعيننا واصبحنا نساعدك في أداء عملك، كونك شخصا قويا ومسنودا. وهنا اتضح لي سبب كل ذلك الدلال الذي اصبحت القاه من الجميع، والذي اختفى تماما بعد ان سمعوا وعرفوا أن رفضي تنفيذ طلب المدير بالاعتذار للعميل لم ينطلق من قوة بل لأنني لم أكن أعرف معنى كلمة Apologize